ادوارد سعيد

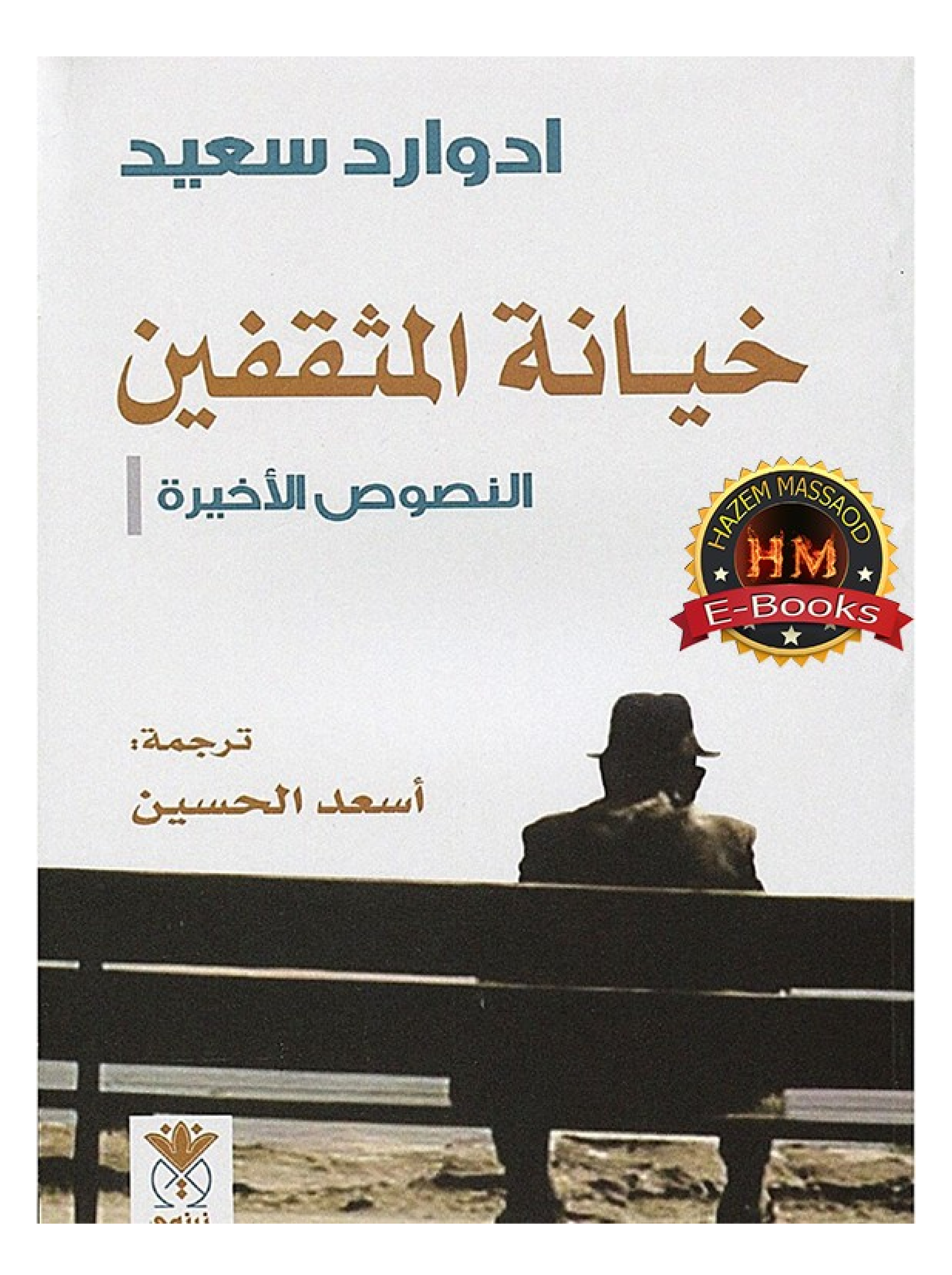
خيانة المثقفين

النصوص الأخيرة



ترجمة:

أسعد الحسين



ادوارد سعيد
خيانة المثقفين
النصوص الأخيرة
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
ترجمة:
أسعد الحسين

خيانة المثقفين

سفير الضمير الإنساني
النصوص الأخيرة
ادوارد سعيد
ت: أسعد الحسين
Edward Saaid
The treason of the intellectuals
(selected articles)
Asaad Mohammad AL-Hussein

فهرس الكتاب:

ادوارد سعيد –السيرة والأعمال

ولد إدوارد سعيد في القدس 1 نوفمبر 1935 لعائلة مسيحية. سافر مع والديه إلى مصر، وأكمل تعليمه في فيكتوريا كوليج هناك. أرسله والده إلى الولايات المتحدة ليتابع دراسته فحصل على درجة البكالوريوس من جامعة برنستون، والماجستير والدكتوراه من جامعة هارفارد عام؟ عمل ادوارد أستاذا في جامعة كولومبيا في نيويورك المدينة التي قضى فيها جل حياته. تزوج سعيد من السيدة الفلسطينية مريم ولهما ولدان وديع ونجلا. تحدث سعيد العربية والإنجليزية والفرنسية بطلاقة، وألم بالإسبانية والألمانية والإيطالية واللاتينية. كان لسعيد أعداء كثر بسبب مواقفه السياسية؛ لكنه حظي أيضاً بعدد من الأصدقاء المخلصين ومن أقربهم الموسيقار الإسرائيلي دانييل بارينبويم الذي أسس معه أوركسترا الديوان الغربي الشرقي، وإبراهيم أبو لغد والمؤرخ الكبير إقبال أحمد ونعوم تشومسكي.توفي إدوارد سعيد في نيويورك 23 تشرين أول 2003 بعد كفاح طويل ضد مرض عضال.

كتب سعيد عشرين كتاباً وترجمت كتبه إلى ثلاثين لغة عالمية أهمها:

جوزيف كونراد -البدايات: القصد والمنهج- الاستشراق-تغطية الاسلام -

متتاليات موسيقية - الثقافة والامبريالية -السيف والقلم- سياسة التجريد (الطرد)

صورة المثقف-غزة أريحا: سلام أمريكي-أوسلو : سلام بلا أرض -تعقيبات على الاستشراق-السلام وسخطه -خارج المكان-تأملات في المنفى ومقالات أخرى

نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها 2000

شارك في كتب

صورة الشعب الفلسطيني(مع إبراهيم وجانيت أبو لغد ومحمد حلاج وإيليا زريق)

بعد السماء الأخيرة : حياة الفلسطينيين مع جين مور

القومية والكولنيالية والأدب (مع تيري ايغلتون وفريدريك جيمسون)

أعمال العدوان:ضبط الدول المارقة (مع نعوم تشومسكي ورمزي كلارك)

نظائر ومتناقضات: اكتشافات في الموسيقى والمجتمع مع دانييل بارينبويم

كتب عدد كبير من المقالات التي نشرتها أهم الصحف والدوريات العالمية مثل الأهرام والحياة والغادريان وذا نيشن وكاونتر بنش واللوموند وغيرها.

ألقى كثير من المحاضرات في أشهر جامعات العالم.

مقدمة

ا- الاستشراق

إن كلمة استشراق مشتقة من كلمة (شرق) وعلى هذا يكون الاستشراق علم الشرق، ويعرف قاموس أكسفورد المستشرق بأنه (من تبحر في لغات الشرق وآدابه) وقدم إدوارد سعيد تعريفات عدة للاستشراق: نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق .... أسلوب في التفكير مبني على تميز متعلق بوجوب تبادل المعرفة بين الشرق وبين الغرب ..... وهو ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلباً باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات، وليس تكديساً لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق ... وإنما هو توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية ولغوية. ويضيف سعيد في موضع آخر بأنه المجال المعرفي أو العلم الذي نتعرف بوساطته إلى الشرق بصورة منظمّة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق... انه كل ما يصدر عن الغربيين من إنتاج فكري وإعلامي حول قضايا الإسلام والمسلمين وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، ويمكننا أن نُلحق بالاستشراق ما يكتبه تلامذة المستشرقين من العرب ممن ينظرون للتراث من منظور غربي. وتزعم تلك الدراسات بتفوق الغرب العنصري والثقافي على الشرق الإسلامي. لهذا نرى أن للاستشراق دلالة أكاديمية إذ تطلق كلمة مستشرق على كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه ويسمى فعله استشراقا وهو أسلوب من الفكر القائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق الروحي والغرب العقلي كما هو أسلوب سياسي وإداري غربي للسيطرة على الشرق.

يعود تاريخ الاستشراق الفعلي إلى القرن السابع عشر بعد أن بنت أوروبا نهضتها الصناعية والعلمية وأصبح فيها العديد من الجامعات ومراكز البحوث التي أنفقت بسخاء ولا تزال على بحوث تهتم بالشرق برغم الاختلاف حول بداية الاستشراق الذي يرجعه البعض إلى الحروب الصليبية أو إلى عهد العرب بالأندلس. اتبع المستشرقون كل الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافهم من خلال التعليم الجامعي، وإنشاء المؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف والمؤتمرات والندوات ولقاءات الحوار والمجلات ونشر المقالات وجمع المخطوطات العربية، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب ودس السموم الفكرية فيها بصورة خفية ومتدرجة، وإنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية، إضافة إلى أقسام دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية (أوروبا وأمريكا) والجامعات والمعاهد الأوروبية والأمريكية في البلاد العربية الإسلامية. وتسهم هذه الجامعات في تكوين عقلية الطالب وفهمه وإدراكه.

وفي عام 1973م عقد مؤتمر المستشرقين الدولي بباريس ليكون آخر مؤتمر دولي يحمل هذه التسمية، فقد ألغي مصطلح (استشراق) لما حمل من دلالات سلبية كثيرة على مدى فترة تاريخية طويلة وصار التجمع يحمل اسم (الجمعية الدولية للدراسات الآسيوية والشمال إفريقية) وأصبحت مؤتمراته تحمل اسم (مؤتمرات العلوم الإنسانية الخاصة بمناطق العالم الإسلامي)

لقد اهتم الاستشراق منذ بدايته بنشر الكتب التي تتناول الإسلام من جميع جوانبه، كما تناولت الأحوال الاجتماعية في العالم الإسلامي في مختلف العصور. فنشر المستشرق دنكان بلاك ماكدونالد كتاباً بعنوان تطور العقيدة الإسلامية، وألف كولسون في التشريع الإسلامي، وصدر لهم مؤلفات كثيرة في مجال التاريخ الإسلامي حتى عد بعضهم كتاب كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية من المراجع الأساسية في دراسة التاريخ الإسلامي. وهناك على سبيل المثال لا الحصر كتاب برنارد لويس تاريخ العرب. وقد تميزت كتابات المستشرقين في العصور الوسطى أو بدايات الاستشراق بالتعصب والحقد الشديد والكراهية الموجهة ضد الإسلام، ولكن ظهرت في القرن العشرين كتابات عن الإسلام زعمت بأنها تجاوزت التعصب والحقد القديم منها ما كتبه توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام، وكتب مونتجمري وات عن الرسول صلى الله عليه وسلم: محمد في مكة و محمد في المدينة و محمد رجل الدولة والسياسة وغيرها من الكتب، وأشهر من ينشر هذه الكتب الجامعات الغربية مثل جامعة أكسفورد التي نشرت موسوعة للعالم الإسلامي الحديث تتألف من أربعة مجلدات أهم موضوعاتها : الإرهاب والتطرف، وحقوق الإنسان ، ومكانة المرأة في العالم الإسلامي، وفي الإسلام؛ وتزعم الموسوعة بالتخصص والدقة والموثوقية.

أهداف الاستشراق: لا نبتعد عن الصواب لو قلنا بأن الأهداف الأولية للاستشراق استعمارية وتبشيرية واستكشافية منذ بدايتها. أما في الآونة الأخيرة فقد أصبح يطلق على المستشرقين لقب خبراء شؤون الشرق الأوسط الذين يقومون بتقديم الخدمات المباشرة لصناع القرار في الحلف الإسرائيلي الأمريكي وتزويدهم بالمادة البحثية المناسبة. تتمحور توجهات المستشرقين المعاصرين تجاه إسرائيل في التركيز على أهميتها للغرب وللولايات المتحدة كقاعدة متقدمة، وتقديم كل وسائل الدعم لتفوقها في المنطقة وإظهارها (واحة الديمقراطية) النظام الذي تلتزم أمريكا أخلاقيا بدعمه، تبنّي المواقف والسياسات الإسرائيلية وتبريرها، تشجيع المعتقدات الصهيونية التوراتية الغيبية تجاه العرب وفلسطين والترويج (للمعجزة اليهودية) في بناء الدولة وجيشها الذي لا يقهر وغير ذلك من الترهات.

من المناسب جدا الحديث عما كتبه حسين مروة في مؤلفه الكبير النزعات المادية في الفلسفة العربية-الإسلامية عن الاستشراق إذ تناول الموضوع بالتزامن مع إدوارد سعيد لكن بمنهجية مختلفة، فقد تبنى حسين مروة المنهج الماركسي وكشف طبيعة الاستشراق الغربي كرديف إيديولوجي للاستعمار وقسمه إلى ثلاثة أنواع: الأول تيار عنصري يمجد تفوق العرق الآري-الغربي على غيره وخصه بالعقل وتنازل للشرق بالقلب والروح، ومن ممثلي هذا التيار المستشرق النازي هنريش بكر وتلميذه في العالم العربي عبد الرحمن بدوي. يقر التيار الثاني بمركزية الفلسفة في الغرب وكان غطاء إيديولوجياً للامبريالية الغربية وسيطرتها على الشرق. ودعا هيغل وهو من أهم فلاسفة هذا التيار إلى حذف الفكر الشرقي من تاريخ الفلسفة. اقتصر اهتمام الاتجاه الثالث في الاستشراق على الجوانب المظلمة والغيبية مثل التصوف والدروشة. لكن مروة يتحدث عن بروز الاستشراق الماركسي الذي تبنى الأممية بدلاً من العنصرية، ومركزية العالم بدلاً من المركزية الأوروبية والتمسك بالعقلاني ضد الروحاني.

تزايدت الحملات العدائية الموجهة ضد العرب في الإعلام الأوروبي والأمريكي في الربع الأخير من القرن العشرين بسبب أن المنطقة أهم مصدر عالمي للطاقة، ولكون المنطقة بؤرة متأججة تهدد السلم العالمي بسبب الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وأهدافه التوسعية الدائمة. ولتبرير التدخل

الغربي في شؤون المنطقة الداخلية بدأ الاستشراق الغربي بإعادة كافة صوره ونماذجه التي رسمها للعرب والمسلمين والتي تتجلى دونية وجهلاً وتعصباً وتخلفاً ورفضاً للآخر وإرهاباً، ما دفع إدوارد سعيد إلى التصدي لتلك الحملات المغرضة المسعورة (لقد كان ما ينشر في الإعلام الأمريكي عن الشرق الأوسط بعد عام 1973 هو الذي دفعني إلى فكرة كتاب الاستشراق كما جاءت الحرب الأهلية اللبنانية عام 1974 لتزيد تصميمي على ذلك.)

لقد أدرك سعيد وجود بعض المفكرين الغربيين الذين نظروا للشرق نظرة منصفة، وكان يستشهد دوماً بما كتبه غوته، و قال سعيد بأن (الغرب ليس أحادياً أو متماثلاً على الرغم من وجود نوع من التجانس الأوروبي الثقافي. لقد درستُ علاقة الاستشراق بالسلطة، وركزت على الاستشراق الانكليزي والفرنسي والأمريكي لعلاقاتها بالمنطقة.) ورأى بأن المشكلة تكمن في جهل المستشرقين الذين يكتبون عن العرب والإسلام دون أي تواصل مباشر مع الواقع الحقيقي، ومن دون أي معرفة باللغة العربية مثل الصحفية جوديث ميللر التي تكتب عن الإسلام منذ أكثر من عشرين سنة في نيويورك تايمز، وارنست غلنر الذي يعد نفسه حجة في هذا الموضوع.

ويلخص ادوارد سعيد هدفه ومنهجيته في بحوثه الاستشراقية باستخدام النقد الإنساني وتوفير فضاء أرحب للحوار البناء والتحليل الموضوعي والتفكير العميق بدلاً من الأحكام الاعتباطية المسبقة وعدم الاعتراف بالآخر والنظرات الفوقية والعرقية الفاشلة (فكرتي في الاستشراق هي استخدام النقد الإنساني لتمهيد السبيل إلى مجالات جدية من الصراع وتقديم تسلسل أطول من التفكير والتحليل نستبدل به تلك النوبات القصيرة من الغضب الجدلي المانع للفكر الذي يحبسنا داخله. لقد سميت ما أحاول القيام به (الأنسنة)، كلمة استمر في استخدامها بعناد رغم الاستعباد المحتقر للمصطلح من قبل ناقدي ما بعد الحداثة؟ أقصد بالأنسنة قبل كل شيء كل المحاولات لكسر القيود الفكرية المطروقة عند بليك لكي نستطيع استخدام عقولنا تاريخيا ومنطقيا بغرض الفهم التأملي. إضافة إلى ذلك، تتعزز الأنسنة بشعورها التشاركي مع مفسرين آخرين وجمعيات أخرى وفترات: بكلام أوجز وبناء على ذلك لا يوجد ما يسمى بالإنساني المنعزل. حجتي أن التاريخ يصنعه رجال ونساء ويمكن تغييره وكتابته ثانية، لذلك فإن شرق(نا)، أصبح (لنا) نملكه ونديره. وأنا أكن كل الاحترام لقوى الشعوب ومواهبها تلك المنطقة لاستمرارها في نضالها من أجل رؤيتها لهويتها وما تريد أن تكون. لقد شُنت هجمات عدوانية كبيرة جدا ومتعمدة ضد المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة بسبب تخلفها ونقص الديمقراطية فيها وإلغاء حقوق النساء لكننا نسينا ببساطة أن مثل تلك الأفكار كالحداثة والتنوير والديمقراطية هي أفكار ليست بسيطة.)

ويشير إدوارد سعيد إلى القضايا التي يجب أن يبحث فيها الاستشرق ضمن سياق تاريخي وواقع اقتصادي واجتماعي، مثل قضايا النضال ضد الظلم والتمييز العنصري والاحتلال والدفاع عن المساواة والمشاركة والاعتراف المتبادل وتطبيق نفس المعايير الأخلاقية على الذات والآخر. لم يعد العالم جزراً متباعدة بل مكاناً واحداً يؤثر ويتأثر بكل ما يحدث فيه فيقول (هذا يعني أن كل ميدان مرتبط بغيره ولا يوجد شيء في عالمنا استمر في عزلته ونقائه بعيداً عن التأثير الخارجي. يجب أن نتكلم عن قضايا الظلم والعذاب ضمن سياق قائم في التاريخ والثقافة وفي واقع اقتصادي-اجتماعي. دورنا أن نوسع حقل النقاش. لقد أمضيت فترة طويلة من حياتي خلال ال35 سنة الماضية مدافعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، لكنني حاولت دائما أن أفعل ذلك مع الانتباه الكامل لحقيقة الشعب اليهودي وما عانى من اضطهاد وإبادة جماعية. الشيء الأسمى هو ذلك الصراع من

أجل المساواة في فلسطين/إسرائيل الذي يجب أن يوجه إلى هدف إنساني، أي: التعايش وليس إلى مزيد من الاضطهاد والإنكار. ليس صدفة (1)، حين أشرت بأن الاستشراق ومعاداة السامية الحديثة لهما جذور مشتركة. لذلك هناك ضرورة أساسية بأن يوفر المثقفون المستقلون نماذج بديلة دائماً عن تلك النماذج المبسطة والضيقة المبنية على العداء المتبادل، والتي سادت زمناً طويلاً في الشرق الأوسط وغيره.)

كما فضح سعيد النهج العدواني للمحافظين الجدد الذي دمغ الإسلام بالإرهاب واعتبره العدو البديل عن الشيوعية وتبرير التدخلات الأمريكية وحروبها الصليبية الجديدة وإعادة تشكيل خريطة المنطقة بما يلائم استثمارات بوش ورامسفيلد ورايس وابتداع فكرة الحرب الاستباقية والأعداء المحتملين والكامنين. لقد حل هذا الفكر الهمجي بدلا من التأمل والحوار والبرهان العقلي المبني على فكر علماني (عند التكلم كأمريكي وعربي يجب أن اسأل القارئ بأن لا يستخف بالنظرة المبسطة للعالم التي رسمتها حفنة من نخب البنتاغون المدنية سياسةً للولايات المتحدة في العالمين العربي والإسلامي، نظرة فيها إرهاب وحرب استباقية وتبديل أنظمة حكم - مدعومة بأكبر ميزانية عسكرية في التاريخ- هذه الأفكار الرئيسية التي تتداولها على الدوام وسائط الإعلام التي نصبت نفسها منتجة لما يسمى بالخبراء الذين يبررون الخط العام للحكومة. إن التأمل والحوار والجدال والبرهان العقلي والمبدأ الأخلاقي المبني على فكر دنيوي(علماني) الذي يجب أن تجعله الكائنات الإنسانية تاريخاً لها حلت محله الأفكار النظرية المجردة التي تمجد الفرادة الأمريكية أو الغربية وتشوه كل ما يتعلق بالسياق وتنظر إلى التيارات الأخرى باحتقار.

---

(1) لم تأت إشارتي إلى أن للاستشراق ومعاداة السامية الحديثة جذوراً مشاركة مصادفة.

2-الإسلام

تصدى إدوارد سعيد لكل الهجمات التي استهدفت الإسلام والعرب إذ لا يمكن الفصل بين الحضارة الإسلامية والعربية لهذا فإن كل محاولات التشكيك والتشويه التي تعرض لها الإسلام تطال العرب بطبيعة العلاقة المتبادلة بينهما ويعود تاريخ العداء منذ نشأة الإسلام وصدامه مع الإمبراطورية البيزنطية إلى الأندلس ثم الحروب الصليبية وما تعرض له العرب والمسلمون من الاستعمار الغربي في العصور الحديثة ولا تزال الحملات مستمرة بشكلها المباشر كما في العراق، أو غير المباشر في معظم البلدان الإسلامية. لقد احتاج الاستعمار إلى إيديولوجية تبريرية فأطلق عقيرة زمرته المأجورة من المفكرين لصبغ الإسلام بالتعصب والدونية والجهل والظلام وحاجته الماسة لمن يقوده إلى التقدم والنور والديمقراطية. تسترت الحملات الاستعمارية بذرائع متنوعة جلها دينية منذ الحملات الصليبية إلى التكليف الإلهي للرئيس الورع بوش باحتلال العراق وقتل الملايين من الشعب العراقي جراء الحصار الظالم أولاً والقصف الهمجي لاحقاً. انبرت مؤيدة لهذا الصراع الطويل والدائم فيالق من المفكرين الذين افتقروا إلى أدنى درجات الضمير والمسؤولية؛ فصاغوا النظريات والأفكار التي تناسب الغزو والاحتلال ويجمع بين هذه النظريات التركيز على دونية الآخر غير الغربي وتخلفه والأخذ بيد المتخلف إلى التقدم أو الديمقراطية أو الحضارة. لقد قسم ديربليو التاريخ إلى مقدس يمثله المسيحيون واليهود ومدنس يمثله المسلمون وبهذا ينتمي المسيحيون واليهود إلى جغرافية متقدمة والمسلمون إلى جغرافية متخلفة. أما غرونبام فقد أنكر في أعماله الكثيرة عن الإسلام انتماء الإسلام إلى أي ثقافة فهو برأيه عاجز ومغلق وغير قابل للتطور وتوصل ماكس فيبر في كتابه الإسلام والرأسمالية إلى أن الإسلام لا يحتوي على أي أخلاق تتفق أو تتلاءم مع الروح الرأسمالية، أما المجتمع المسلم فهو مستبد ولا عقلاني. ورأى برنارد لويس في كتابه عودة الإسلام، أن الإسلام لا يتطور حاله كحال المسلمين، فهم خائفون ويجب أن يوضعوا دائماً تحت الرقابة.

يفسر إدوارد سعيد هذه الظاهرة العدوانية المستفحلة والدائمة فيقول: (تطور الشعور بالإسلام كتهديد للآخر- بتصوير المسلمين متعصبين وعنيفين وشبقين وغير عقلانيين- في أثناء الفترة الاستعمارية فيما سميته بالاستشراق. إنه دراسة الآخر ويتعلق كثيراً بالتحكم والسيطرة الأوروبية والغربية عموماً في العالم الإسلامي واستمر ذلك الشعور لأنه مؤسس على جذور دينية راسخة بعمق، إذ ينظر إلى الإسلام كمنافس للمسيحية. لو نظرنا إلى مناهج أغلب الجامعات والمدارس في هذه البلدان، فيما يتعلق بصدامنا الطويل مع العالم الإسلامي، ستجد هناك القليل جداً مما يمكن اعتباره تثقيفياً وتنويرياً حقاً عن الإسلام. لو نظرت إلى وسائل الإعلام المنشورة، سترى أن النموذج النمطي الذي بدأ مع رودولف فالنتينو في الشيخ قد ظل حقاً وتطور إلى وغد عابر للقوميات في التلفزيون والسينما والثقافة عموماً. من السهل إطلاق التعميمات عن الإسلام. كل ما عليك فعله أن تقرأ أي عدد من ذا نيو ريببلك لترى أن الشر المتطرف هو ذلك المترافق مع الإسلام والعرب لأن ثقافتهم فاسدة وهلم جرا. هناك تعميمات بغيضة تطلق في الولايات المتحدة ضد أي جماعة دينية أو أثنية.)

تزايدت تلك الهجمات والحملات بعد انتهاء الحرب الباردة والخلاص من (الخطر الأحمر) بسقوط منظومة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية وتفكك الاتحاد السوفييتي السابق وأصبحت الامبريالية الأمريكية- الأوروبية بحاجة إلى عدو جديد كغطاء لحروبها ونهبها لثروات الشعوب فاستحضر

مفكروها الممسوسون (الخطر الأخضر) و(الاسلامفوبيا) و(الإرهاب) وكان المميز في هذا المجال المأفون صمويل هنتغنتون بكتابه سيء الذكر (صدام الحضارات) الذي رأى فيه بأن الصراعات السابقة حدثت داخل الحضارة الأوروبية نفسها، لكن صراعات القرن القادم (الواحد العشرين) ستكون بين الحضارات، وقسم العالم إلى حضارات رئيسة ثمانية ورشح الحضارة الإسلامية للصدام مع الحضارة الغربية وحدثت حوادث 11 أيلول الهوليودية لتسوغ الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق ولرسم خارطة للشرق الأوسط الجديد التي لم تكتمل بسبب ما واجهه الاحتلال من مقاومة.

يقول هنتغنتون في كتابه المذكور:(ترى فرضيتي أن المصدر الأساسي للصراع في العالم الجديد لن يكون إيديولوجياً أو اقتصادياً في المقام الأول، وسيكون مصدر الانقسامات الكبيرة بين الجنس البشري و الصراع المهيمن ثقافيا. ستبقى الدول-الأمم العوامل الأقوى في الشؤون الدولية، لكن الصراع الرئيسي للسياسة الدولية سينشب بين أمم وجماعات من حضارات مختلفة؛ كما سيطغى صدام الحضارات على السياسة الكونية. ستكون خطوط التصدع بين الحضارات خطوط المعركة في المستقبل).

دُعّمت هذه النظريات بعلم الاستشراق والاجتماع والانثربولوجيا والعلوم السياسية والثقافية والحضارية ورأت أن السبيل الوحيد إلى التطور يمر من خلال المنهجية الغربية وماديتها، وأعادت التأكيد على سلبية الشرق وعدم قدرته على الإبداع والتغيير، والإسلام في رأيها دين أصولي والمسلمين مجموعة من الغوغاء والرعاع والمتخلفين الرجعيين الذين يعشقون الحروب ويميلون إلى الدموية وإلغاء الآخر.

فضح سعيد في كتابه تغطية الإسلام النظرة الغربية للإسلام والتنميط الغربي السردي للمسلمين باعتماد النصوص الجاهزة التي تجذرت في عقول العديد من المفكرين والمستشرقين ورجال وسائل الإعلام الغربية ليفضح القراءة الغربية ، ويسلط الضوء على قضايا في غاية الأهمية تواجه مستقبل العرب والمسلمين في هذا الزمن. هذه الظاهرة أطلق عليها سعيد اسم النمطية السردية الهادفة إلى هزيمة الآخر معنوياً ونفسياً واغتيال شخصيته الأخلاقية. لقد ارتبط الإسلام بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التي ترفض تقبل الديمقراطية والليبرالية والانفتاح ولهذا هي غير مرشحة لأن تكون مركزاً للإنجازات الثقافية والحضارية العظيمة. إن الإسلام في العقلية الغربية غير قابل للتطور أو التغيير، لأن روح الإسلام لا يمكن أن تلتقي مع روح وأخلاقيات النظام الرأسمالي القائم على المنافسة والتعددية والعقلانية، أما المجتمع الإسلامي فهو مجتمع مغلق مستبد غير عقلاني، تذوب فيه النوازع الفردية ويكون الصوت النهائي المسموع فيه للقيم المجتمعية المتخلفة التي تعلي من شأن الطاعة والقبيلة والعشيرة. حتى أن برنارد لويس، المستشرق المعروف ذهب إلى حد القول إن الإسلام لا يتطور وإن المسلمين خائفون من أي عملية تغيير أو تطور لأن المسلمين مثلهم مثل الشعوب الشرقية الأخرى التي وقعت تحت سيطرة الاستعمار، عاجزون عن قول الحقيقة و مواجهة الواقع، فهم مدمنون على الخرافات والأساطير والتاريخ الكاذب.

لم تتغير الصور التي ترسمها وسائط الإعلام للعربي منذ قرون، بل إنها تكرر مقولاتها، فمثلاً تجد ديفيد برايس الذي لا يعرف اللغة العربية ولا الحضارة العربية ولديه الوقاحة لاتهام الحضارة العربية بالعيب والعنف في كتابه الدائرة المغلقة أما برنارد لويس الذي تظاهر بالحيادية وبعده عن التسييس بينما هو في الحقيقة أداة مسخرة لصالح الحملات الصليبية الجديدة المناهضة للإسلام والعرب فقد رأى بأن العالم الإسلامي لم يهتم بحيازة المعرفة.

ثم هناك جيل من المستشرقين المؤدلجين مثل دانييل بايبس في كتابه على درب الله : الإسلام والسلطة السياسية، كتاب بعيد عن المعرفة ومكرس لخدمة مصالح الولايات المتحدة، فالإسلام عند بايبس (حكاية متقلبة و حركة سياسية تتدخل في شؤون الغرب وتقلقه وتحرّض على العصيان والتعصب في كل أنحاء العالم.) ويتجلى في تلك الكتب أهم موضوعات الاستشراق فالمسلمون (عاجزون عن تمثيل أنفسهم لذا يتوجب تمثيلهم من قبل آخرين يعرفون عن الإسلام أكثر مما يعرف الإسلام عن نفسه).

ظهرت في أواخر القرن العشرين مصطلحات جديدة مثل (الإرهاب) و(الخطر الأخضر) و(الإسلاموفبيا) ورُوِّجت في التيار الفكري السائد حتى أصبح الإسلام العدو الرئيسي للولايات المتحدة والغرب، وفي ظل غياب الفكر البديل سيطر هذا الوهم على عقول كثير من الغربيين. فنرى الأصوات التي تطالب بطرد المسلمين من الغرب والتحذير بأنهم يشكلون قنابل ديموغرافية هدفها تحويل المجتمعات الغربية إلى مجتمعات إسلامية. تارة يمنعون المآذن وأخرى يمنعون النقاب أو الحجاب ناهيك عن الغيتوات التي حشروا المسلمين فيها والتمييز الذي يعانونه في كل المجالات. لقد نسي الغرب بأنه سرق ونهب خيرات بلدان هذه الجماعات المهاجرة ويجب عليه تعويض القليل منها باحترام هذه الجماعات ومعاملتها بصورة إنسانية لائقة.

ويرى إدوارد سعيد بأن الولايات المتحدة هي البلاد الأكثر تديناً في العالم وتخترق إشارات الرب ورموزه الحياة الوطنية من العملة إلى الأبنية: بالرب نثق، بلاد الرب، بارك الله أميركا. كما أن قاعدة سلطة الرئيس بوش التي يصل تعدادها إلى ستين مليون هي من المتشددين المسيحيين الذين يعتقدون مثله بأنهم رأوا المسيح وأنهم يقومون بعمل الرب في أرض الرب. لقد استفحلت في الغرب الفكرة الخاطئة لنظرية فوكوياما عن نهاية التاريخ أو نظرية صامويل هنتينغتون عن صدام الحضارات، كلاهما زعماً خاطئاً بأن التاريخ الثقافي له حدود واضحة أو بدايات وأواسط ونهايات، في حين يمثل المجال الثقافي-السياسي مكان صراع حول الهوية وتحديد الذات.

3- القضية الفلسطينية

شكلت القضية الفلسطينية محوراً مركزياً في حياة سعيد وأعماله. لقد غادر القدس منذ عام 1947 ثم حدثت نكبة ال48 وأصبح لاجئا مع ملايين الفلسطينيين الآخرين الذين طردوا من بيوتهم وجردوا من أملاكهم وحين عاد إلى القدس في أوائل تسعينيات القرن العشرين وجد بيت عائلته في حي الطالبية في القدس تحتله زمرة من المستوطنين. لقد شعر منذ البداية رغم صغره بوجود مشكلة كبيرة تهدد حياة أسرته ووطنه دون أن يدرك ماهيتها جيداً.

كانت حرب الأيام الستة في ال67 نقطة تحول بالنسبة لادوارد سعيد وكل المغتربين الفلسطينيين، فقد أدت إلى بحث مضن عن الهوية وحدد انتماءه القومي وأدرك ضرورة النضال في سبيل قضية شعبه العادلة، ضد عدو عنصري محتل لم يعرف التاريخ مثله شبيها في الإجرام والوحشية. برز ادوارد سعيد في تلك الحقبة كناشط مميز بين زملائه من المثقفين، فأنشأ معهم رابطة لخريجي الجامعات الأميركية المنحدرين من أصل عربي لنشر الوعي الأميركي العام وتعميقه حول القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة. تمكنت الرابطة من تحقيق انجازات ملموسة في مختلف الأوساط الأميركية وبين أبناء الجالية العربية على امتداد عقدين، ما بين أواخر الستينات وأواسط الثمانينات، وكان إدوارد من ألمع الذين ترأسوا الرابطة وأبرع الناطقين بلسانها وذلك لما تمتع به من كاريزما وشفافية وقدرة على طرح قضاياه بأسلوب المتفهم للعقل الغربي وتركيبة المجتمع الأميركي.

آمن إدوارد سعيد بالدولة الديمقراطية الفلسطينية الواحدة التي يعيش فيها المسلم والمسيحي واليهودي على قدم المساواة كحل لقضية فلسطين ووضع حداً للصراع العربي- الإسرائيلي واقتنع بأن الحل لا يأتي إلا من خلال النضال السلمي وطاولة المفاوضات وتعبئة الرأي العام العالمي لمناصرة الحق العربي والتعاون مع ناشطي السلام الإسرائيليين، ونبذ العمليات التفجيرية الانتحارية لأنها تستغل في تشويه طبيعة النضال الفلسطيني العادل وتصبغه بصبغة إرهابية.

وقال عنه محمد حسنين هيكل في رثائه في صحيفة الأهرام ويكلي (كمحاضر كان مدافعاً فعالاً عن حقوق أمته وشعبه، ونجح من خلال ما كتبه في اختراق ضمير كل من خاطبهم. كان يملك قوة تعبيرية هائلة، وقادراً على استحضار فكرته بعبارات ساحرة واضحة ويصدر صوته شعاعا منيرا له قوة التنبيه. لقد تعرض ادوارد سعيد لحملة آثمة ارتكبتها الجماعات المؤيدة لإسرائيل التي أقلقها تأثيره، وسببت ردود أفعال متنوعة برهنت مدى فضله. لكن هذه الحملات لم توقفه لأنه كان يسعى وراء السلام في صميم قلبه. لقد سعى إلى سلام عادل دائم.)

حاول حل القضية الفلسطينية سلمياً، وجلب معه خطة حل عرضها على ياسر عرفات في بيروت عام 1978، ثم عاد مرة أخرى عام 1979 ، لكن الأخير لم يكترث بها. عارض إدوارد سعيد عرفات الذي فرط بحقوق الفلسطينيين في أوسلو وقال عن الاتفاقية بأنها (استسلام وليست سلام وستحول غزة إلى اكبر سجن في العالم أما الضفة فهي باتوستانات محاصرة تعتمد في بقاءها على إسرائيل التي تسيطر على هوائها ومائها وحدودها.)

ويقول إدوارد سعيد (الرؤية هنا ليست دولة مؤقتة مصطنعة على 40 % من الأرض، مع التخلي عن اللاجئين واحتفاظ إسرائيل بالقدس، وإنما أرض ذات سيادة يحررها من الاحتلال العسكري تحرك جماهيري يشمل العرب واليهود حيثما أمكن ذلك.)

شكل مع بعض الشخصيات الوطنية المبادرة الوطنية والمجلس الوطني الفلسطيني بهدف قيادة الكفاح الفلسطيني، والتمسك بالثوابت الوطنية المتمثلة في استعادة الأراضي الفلسطينية وحقوق عودة اللاجئين الفلسطينيين، ودعا المجلس إلى انتخابات حقيقية في كوادر منظمة التحرير الفلسطينية التي سيطر عليها عرفات وزمرته. كما كان سعيد يطمح إلى أنسنة النضال الفلسطيني لكسب التعاطف والتأييد العالميين ورأى في تجربة حزب المجلس الوطني في جنوب أفريقيا العنصرية نموذجا. حيث استطاع الأفارقة السود بالتعاون مع البيض إسقاط نظام الابارتايد واستبداله بنظام ديمقراطي.

لكن من وراء ذلك ينبثق تيار قومي دنوي (علماني) جديد ببطء. من المبكر أن نسميه حزبا أو كتلة، لكنه الآن مجموعة واضحة لها وضع مستقل وشعبي حقيقي. من بينهم الدكتور حيدر عبد الشافي والدكتور مصطفى البرغوثي (دون الخلط مع قريبه البعيد الناشط في حركة فتح مروان البرغوثي) مع إبراهيم دقاق والبروفيسور زياد أبو عامر ومحمود العكر وأحمد حرب وعلي الجرباوي وفؤاد مغربي وعضو المجلس التشريعي راوية الشوا وكمال شيرافي والكتّاب حسن خضر ومحمود درويش ورجا شحاذه وريما ترازي وغسان الخطيب وناصر عروري وإيليا زريق وأنا. في أواسط كانون الأول، أصدرنا بياناً جماعياً غطته بشكل جيد وسائل الإعلام العربية والأوروبية (لكنه مر دون ذكر في الولايات المتحدة وإسرائيل) داعياً إلى الوحدة الفلسطينية والمقاومة وإنهاء غير مشروط للاحتلال الإسرائيلي. نعتقد أن التفاوض تحسين للاحتلال وإطالة لبقائه. لا يأتي السلام إلا بعد انتهاء الاحتلال. إن أكثر أقسام البيان جرأة تركز على الحاجة إلى تحسين الوضع الفلسطيني الداخلي، وأوله تعزيز الديمقراطية وتصحيح عملية صناعة القرار (التي يسيطر عليها عرفات وجماعته)، وتأكيد الحاجة إلى استرداد سيادة القانون، واستقلال القضاء، ومنع أي استغلال آخر للأموال العامة، وتقوية أدوار المؤسسات العامة لكي تعطي كل مواطن الثقة في تلك المؤسسات التي خصصت بوضوح للخدمة العامة. وآخر هذه المطالب وأهمها هو الدعوة إلى انتخابات برلمانية جديدة.

تعرض سعيد لكافة أشكال التخويف التي تنوعت من التهديد اللفظي إلى محاولات الاغتيال الفعلية، لكنه لم يكترث وظل صوتاً شجاعاً يهدر بالحق في كل المحافل الدولية. كما طالبت المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة وعلى رأسها الايباك بفصله من الجامعة ولقب ب(بروفيسور الإرهاب) لكنه لم ينثن أو تلن له عزيمة.

تميز نضاله باعترافه بحق الآخر في الوجود، الآخر الذي كان ضحية للنازية، لكنه رفض أن يكون ذلك مبرراً لاضطهاد شعبه. فمن حق يهود فلسطين أن يعيشوا مع العرب الفلسطينيين، ولكن ليس من العدل أن يأتي يهود المجر أو إثيوبيا ويطردوا أهالي القدس وحيفا وعكا من بيوتهم أو يبيدوهم في مجازر جماعية ليعيشوا محلهم.

فضح سعيد كل الأساطير الصهيونية التي حاولت طمس التاريخ الحقيقي وادعت بأن فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض. وعرى التحالف الإسرائيلي- الصهيوني من جهة، والأمريكي-

الأوروبي من جهة ثانية الهادف إلى إبقاء الاحتلال، وتمكين إسرائيل كقاعدة متقدمة للأطماع الغربية. لقد عول سعيد كثيرا على أهمية الرأي العام الغربي عامة، والأمريكي خاصة لكون أمريكا القوة العظمى الوحيدة في العالم وما تمثله من تأثير على القضية الفلسطينية والعربية، وطالب بفتح كليات للدراسات الأمريكية في الجامعات العربية ليعرف العرب تعقيدات المجتمع والحكم في أمريكا، ومخاطبتها بلغة تفهمها، وإزالة الوهم الذي رسخته الدعاية الصهيونية في الوعي الأمريكي.

خاطب إدوارد الإنسان في إنسانيته وليس في هويته، ورأى بأن حقوق الإنسان واحدة للبيض وللسود، وأهمها الحق في العيش، وفي حرية التعبير، وحق تقرير المصير، وناوأ العنصرية والتمييز والاستبداد، ودعا إلى المساواة والديمقراطية والإنسانية. وتساءل عن سبب عدم استحواذ النضال الفلسطيني على اهتمام العالم وأفكاره ولماذا لا يظهر كصراع أخلاقي عظيم كما قال مانديلا عن تجربة جنوب إفريقيا، وينال الدعم العالمي، وأكد بأن مجرد الكلام عن السلام عموماً لا يكفي. يجب (أن نقدم أسسا مادية له، ناتجة عن رؤية أخلاقية، بعيدة عن [البراغماتية] أو [الذرائعيةً]. إن أردنا أن نعيش- هذا هو واجبنا الأساسي-يجب أن لا نستحوذ على خيال شعبنا فحسب بل خيال مضطهدينا أيضاً، ويجب أن نتمسك بالقيم الإنسانية الديمقراطية.)

4- قراءة في خارج المكان:

أراد إدوارد سعيد أن يدون مرحلة من سيرته الذاتية، ليس بهدف سرد حوادث شخصية وتسجيل لمحات من حياته فحسب، وإنما لتسجيل فترة تاريخية مهمة من تاريخ المنطقة والعالم (أثارتْ فيّ ظاهرة ما بعد الحرب لأول مرة شعوراً بالتمايز الشديد من حيث التراتب الاجتماعيّ. وكان التبدّل الكبير هو حلول الأميركيين المنتصرين محلَّ البريطانيين ، مؤسساتٍ وأفراداً ، وقد أَخْلَت الإمبراطوريةُ القديمة المكانَ للإمبراطورية الجديدة.) مرت بها فلسطين بأخطر لحظاتها، إذ انتهى الانتداب البريطاني وبدأ الاحتلال الاستيطاني الصهيوني نشاطه المكشوف والفعلي على الأرض بدعم بريطاني مسبق فكما نعرف أن البريطانيين هم من تبرع بفلسطين وطناً قومياً لليهود لإبعادهم عن أوروبا حيث شكل اليهود مشاكل في كل المجتمعات التي آوتهم، وعاشوا في غيتوات مغلقة وغالوا في معتقدات أسطورية مزيفة يتوهمون فيها بأنهم (شعب الله المختار) لتنتهي تلك الفترة من الصراع باحتلال حوالي نصف الأراضي الفلسطينية، وطرد السكان الأصليين الفلسطينيين، وحرب عام 1948 التي انهزمت فيها الجيوش العربية. يقول إدوارد سعيد عن هدفه المباشر من وراء الكتاب (هذا الكتاب هو سجل لعالم مفقود أو منسيّ. منذ سنوات عدة، تلقيُّت تشخيصاً طبِّيا بدا مُبرَماً ، فشعرتّ بأهمية أن أخلّف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربيّ ، حيث ولدتُ وأمضيتّ سنواتي التكوينية ، كما في الولايات المتحدة حيث ارتدتُ المدرسة والكلية والجامعة. العديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا لم تعد موجودة ، على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى أستبطنها ، وبأدق تفاصيلها غالباً بل بتشخيصاتها المروّعة(.

يؤكد إدوارد سعيد على أصوله المقدسية والفلسطينية لأن كثيراً من الصهاينة وأبواقهم المأجورة حاولوا التشكيك بذلك ومن أشهرهم ذلك المحامي اليهودي الذي ادعى بأنه أمضى سنوات في البحث الدقيق والمجهد الذي شمل أربع قارات ليقدم تلك الوقائع المزيفة (. لهذه الغاية بالذات، ظهرت مقالة في شهرية يهودية محافظة جداً، على شكل تعليق يهاجم حياتي وتاريخي كفلسطيني زاعماً أنني لست فلسطينياً ولم أعش في فلسطين ولا طردت عائلتي من فلسطين عام 1948. يجب أن نتذكر أن هذا الهجوم علي هو الثالث من نوعه في عشرين سنة، كانت الأولى مقالة نقدية طويلة جداً في عام 1981 لكتابي القضية الفلسطينية، والثاني مقالة متهورة في عام 1988 أو 1989 بعنوان (أستاذ الإرهاب)، والثالث هو هذه المقالة التي كتبها شخص يدعى جيستوس وينر، إسرائيلي يدعي بأنه يعمل لمركز أبحاث غامض للجناح اليميني في القدس. حجة وينر مدعمة بتظاهره أنه أمضى ثلاث سنوات في دراسته لحياتي، وتحدث إلى ثمانين شاهداً ووجد تضارباً في ما أسماه ب(قصتي)، والتي لفقها بالشكل الذي أراده.)

لقد ولد سعيد في مدينة القدس في 1 تشرين الأول عام 1935، وعاش طفولته بين القدس والقاهرة وبيروت، ثم امضى حياته بعد إنهاء الدراسة الثانوية في نيويورك في الولايات المتحدة، فرغب بدافع الحنين إلى الماضي ان يربط ذلك الماضي بالحاضر (غير أنّ الدافع الرئيسيّ لكتابة هذه المذكرات هو طبعاً حاجتي إلى أن أجسّر المسافة، في الزمان والمكان، بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس.)

اقتلِع سعيد من مكانه الأصلي وطرد منه وجرد من كل أملاكه ومنع من العودة إليه حاله حال كل المهجرين الفلسطينيين، ولم يستطع أن يرى بيته ومدينته المسلوبة إلا بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة كمواطن أمريكي وليس كصاحب حق عربي (ذلك أنه مع حلول ربيع 1948 كانت عائلتي الموسعة كلها قد أجليَتْ عن المكان وعاشت في المنفى منذ ذلك الحين . على أني في عام 1992 تمكنتُ، للمرة الأولى منذ مغادرتنا عام 1947، من زيارة المنزل الذي تملكه عائلتي في القدس الغربية والمنزل الذي نشأتْ فيه أمي في الناصرة ومنزل خالي في صفد وغيرها من المنازل . وإذا هي في زيارتي الثانية ، يسكنها جميعَها ساكنون جدد تذرّعوا بأسباب عاطفية كابحة جداً ومبهمة جداً لعرقلة دخولي إليها مرةً ثانية ، بل لمنعي عملياً من الدخول ، ولو من أجل إلقاء نظرة خاطفة).

حاولت الصهيونية من خلال أداتها الفكرية أن تنفي انتماء سعيد المكاني لكونه رمزا فلسطينيا وبدحض قصته يصبح كل الحق التاريخي الفلسطيني في المكان مجرد ادعاءات باطلة (كل هذا من شخص يدعي بأني شوهت الماضي لأتظاهر بأنني ضحية. لا يستطيع أن يفهم ولن يقدر أن يفهم من كتاباتي أنني رحلت لأدافع عن كارثة اللاجئين لأنني لم أعان مثلهم، لذلك شعرت بأنني ملزم بأن أريح آلام شعبي الأقل حظا مني. حاول وينر كأي بوق دعائي قبله، أن يصور حقيقة طرد الفلسطينيين بأنها قصة إيديولوجية.)

لقد أدرك سعيد بأنه كان خارج المكان دائماً، وقليلاً ما كان في مكانه المناسب. بدأت الإشكالية مع اسمه المتناقض فالشطر الأول من اسمه إدرواد وهم اسم أجنبي والشطر الثاني سعيد وهو اسمه عربي ولم يتصالح سعيد مع ذاته وعانى طويلاً بسبب هذا التناقض، فهو يعيش في بيئة عربية عانت من الاستعمار البريطاني الكثير، ولا يثير ذكره سوى الكره والعداء (احتجت إلى قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على (إدوارد) وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنكليزي الأخرق الذي وُضِع كالنير على عاتق (سعيد (اسم العائلة العربيّ القحّ .)

أما الإشكالية الثانية فقد كانت حول التناقض بين لغته الأم (العربية) ولغته المكتسبة منذ مهده (الانكليزية) التي تعلم وعلم بها. يقول سعيد: (اندغم عندي تحمُّل مشقّات مثل هذا الاسم مع ورطةٍ لم تكن أقل إقلاقاً ، تتعلّق باللغة . فأنا لم أعرف أبداً أية لغةٍ لهجتُ بها أولاً : أهي العربية أم الإنكليزية ، ولا أيًّا منهما هي يقيناً لغتي الأولى.) لكن سعيد الناضج اختار العربية لغة والفلسطينية هوية وعاد إلى لبنان بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره ليتعلم لغته الأم على يد الأستاذ أنيس فريحة.

أما إشكاليته الثالثة فكانت مع الجغرافية، فهناك أماكن أربع حفرت نفسها في ذاكرة سعيد وشكلت تفكيره وهويته وثقافته (كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى ، خصوصاً جغرافية الارتحال، من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء ، ناهيك عن السفر ذاته. فكل واحد من الأمكنة التي عشتُ فيها - القدس والقاهرة ولبنان والولايات المتحدة - يَمْلك شبكة كثيفة ومركبة من العناصر الجاذبة ، شكلتْ جزءاً عضوياً من عملية نموي واكتسابي هويتي وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين.)

يكتب سعيد على أن أباه ولد في القدس عام 1895 باسم وديع إبراهيم ودرس في مدرسة سان جورج وبرع في الرياضة، وفي عام 1911 هاجر إلى الولايات المتحدة وعمل مع الجيش الأمريكي واكتسب المواطنة الأمريكية، لكنه عاد إلى فلسطين بعد عشر سنوات ليصبح رجل أعمال ناجحاً ثم انتقل إلى القاهرة في بداية الثلاثينات فأسس شركة في القاهرة (الراية) (..ولد أبي في القدس عام

1895 وبدل اسمه إلى وليام وعاش وتعلم فيها... سمعت أبي يتحدث عنا بصفتنا من "الخليفاوية" وقيل لي أن هذا هو أصل حمولتنا. ... وقد اكتسب أبي المواطنية الأميركية لأنه عاش في الولايات المتحدة الأميركية وخدم في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى.)

تزوج أبوه وديع أمه هيلدا عام 1932، وكانت فلسطينية من الناصرة عام 1914 والدها قس في الناصرة وأمها لبنانية. تعلمت أمه في مدرسة جونيور كوايدج في بيروت وكانت تصغر والده كثيراً (وُلدتْ في الناصرة ثم أُرسِلتْ إلى مدرسة داخلية ومنها إلى الجونيور كوليج في بيروت، أي أنها فلسطينية لكن أمها منيرة لبنانية. تمتعت أمه بذوق موسيقي مرهف وحس أدبي عال أورثتهما لابنها إدوارد وخلقت له نوع من التوازن مع طغيان وانضباط والده وإصراره على انجاز أي مهمة موكلة به، وقد ساعد هذا التمازج في تكوين سعيد (أبي كان مزيجاً طاغياً من القوة والسلطان ومن الانضباط العقلاني والعواطف المكتومة . وقد أدركت لاحقاً أن هذه جميعاً قد طبعت حياتي ببعض الآثار الإيجابية ،ولكنها لم تعفني من الكوابح والمعوِّقات ... المؤكد أنّ أمّي كانت الرفيق الأقرب إليّ والأكثرَ حميميةً خلال ربع قرن من حياتي . وأشعر أني مطبوعٌ بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيّر حياتي : من قلقٍ يشل إرادتها إزاء تعدد احتمالات التصرف ، إلى أرق مزمن، معظمه فرضتْه على نفسها فرضاً، وعدمِ استقرارِ عميقِ الجذور يضارعه مخزون لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية، واهتمام عميقَ بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب والشكل وربما أيضاً من ميل متضخم إلى الحياة الاجتماعية بتياراتها وملذاتها وما تَحمله من طاقة على السعادة والحزن ونزوع لا يرتوي - ومتعدد الأساليب إلى حد لا يصدق - إلى تنمية الوحدة بما هي شكل من أشكال الحريةً والعذاب في آن معاً).

لقد حمل سعيد المكان في داخله ولم يغفل عنه ولو لحظة، فهو يتذكر بيت عائلته في حي الطالبية في القدس ويتذكر ساحته التي كان يعلب فيها وأسماء كل جيرانه ويتفصد قلبه حين عرف بأن اليهود القادمين من كل أصقاع العالم من بولونيا شمالاً إلى أثيوبيا جنوباً ومن روسيا شرقاً إلى أمريكا غرباً استولوا على الأرض والبيوت بعد أن طردوا منها أصحابها الأصليين (يقع منزلنا العائلي في الطالبية ، وهو حي من القدس الغربية قليل السكان ، بناه وسَكَن فيه حصرا فلسطينيون مسيحيون من أمثالنا . والمنزل كنايةٌ عن فيللا حجرية مهيبة من طبقتين ، كثيرة الغرف ، تحيط بها حديقةٌ جميلةٌ نَلْعب فيها أنا وابنا عمي الأصغران وشقيقاتي . ويصعب الحديث عن جيرة فعلية ، مع أننا كنا نَعرف جميع ساكني الحي الذي لم تكن معالمه قد تبلورت بعد . أمام المنزلِ بورة مستطيلة خالية ، كنت أَلعب فيها أو أركب دراجتي . ولم يكن لنا جيران مباشرو ، مع أنك تَلْقى على مسافة خمسمئة ذراعٍ تقريباً صفاً من الفيللات المشابهة يسكنها أصدقاء أبناء عمي . اليوم، أضحت البورة حديقة عامةً ، والمنطقةُ المجاورة للبيت حياً فخما يسكنه أغنياء اليهود(.

المرة الأولى التي اصطدم بها سعيد بالكولونيالية كانت في أيامه الأولى بالمدرسة البريطانية حين عاقبه المدير وضربه بالسوط، تلك المدرسة التي لم يكن فيها أي عربي لا من طاقمها التدريسي ولا من طلابها لذلك لم تربطه أي علاقة صداقة مع زملائه. (وقد منحتني " إعدادية الجزيرة " اختباري الأول لنظام محكَم أنشأه البريطانيون كمهمة كولونيالية . كان الجو جو طاعة عمياء يؤطرها إذعان بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء . ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم ، ولكنّها زودتني بأول اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الإنكليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلامذة . ولم تكن لي علاقات متصلة بأولاد الإنكليز خارج المدرسة ، ذلك أن حبل سرة سرًّيا كان

يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق علي . فأدركت تمام الإدراك كيف أن أسماءهم صحيحة تماماً، وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كلياً عن ملابسي ولكنتي ومعاشراتي .)

أما صدامه الثاني مع الكولونيالية فقد كان في الحي الذي يسكنه (الزمالك) في القاهرة. فقد كان بقعة أجنبية وسط محيط عربي لا تسمح بوجود العرب وتترفع عنهم (تعرضتُ لمواجهة كولونيالية أشد حدة وسفورا . ففي طريق العودة إلى البيت عند الغسق عبر أحد الحقول المترامية الأطراف لنادي الجزيرة ، اعترضني إنكليزي يرتدي بذلةً بنيةً ، ويعتمر خوذةً قماشية ، وتتدلى حقيبةٌ صغيرة سوداء من مقود دراجته ..... لكنه قاطعني بلا رحمة : لا تجاوب ، يا ولد . غادِرِ المكان فحسب، وغادره بسرعة . ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان ، وأنت عربي!).

لقد أكد إدوارد سعيد حقه بالمكان الذي طرد بالقوة منه وتجلى تمسكه بهذا الحق في دفاعه المستميت الذي أعطاه عقوداً من حياته ولم يمل من خوض شتى أنواع المعارك في سبيله ولم ينته صراعه حتى بعد أن تمكن منه السرطان الخبيث إذ لا يزال صدى كلمات كتبه ومحاضراته ولقاءاته ومقالاته يدوي في كل المحافل الدولية والمؤسسات الثقافية؛ توثق الحق الفلسطيني وتفند الافتراءات الإسرائيلية عن الأرض الخالية والصحراء التي جاءها اليهود وعمروها وأن الفلسطينيين ليسوا إلا مجموعة من البدو الإرهابيين الذين يروعون المدنيين اليهود المسالمين (.ولا يزال يصعب علي أن أتقبل حقيقةَ أن أحياء المدينة تلك ، حيث ولدت وعشت وشعرت بأني بين أهلي ، قد احتلها مهاجرون بولونيون وألمان وأميركيون غزوا المدينة وحولوها رمزا أوحد لسِيادتهم ، حيث لا مكان للحياة الفلسطينية التي انحسرت إلى المدينة الشرقية التي أكاد لا أعرفها. فلقد أضحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل ، وطرد منها سكانها السابقون نهائيا في أواسط العام 1948 .)

(خارج المكان) كتاب سيرة ذاتية نال الإعجاب والجوائز، كتب بأسلوب مميز اختلط فيه الألم والحزن بالحنين والطموح. فالكتاب يحمل العديد من الخصائص الأدبية. يستعيد فيه سعيد جزءاً من ماضٍ عام، سياسي واجتماعي عبر الكتابة عن ماض شخصي، كما جاء الكتاب سرداً لارتحالات عدة، واحتفالا بماض لن يستعاد. سعيد شرع في كتابة سيرته فور اكتشافه إصابته بسرطان الدم، وقد لعبت ذاكرته ـــ كما يقول ـــ دوراً حاسماً في تمكينه من مقاومة المرض من خلال استرجاع العديد من الأشخاص والأمكنة التي لم تعد موجودة. فكان الكتاب سجلاً لعالم مفقود ، عالم لم يعد كما كان، تحولت فيه فلسطين إلى إسرائيل وانقلب لبنان رأساً على عقب بعد عشرين عاماً من الحروب الأهلية، ولم تعد مصر كما كانت قبل ثورة يوليو 52.

كتب سعيد عن السنوات الأولى التي قضاها في العالم العربي، حيث ولد وأمضى سنواته الأولى بغنائية شديدة، وبدرجات متفاوتة من الصراحة، ما جعل النص عملاً إبداعياً. كما كشف سعيد أيضاً في مقدمته للسيرة عن رغبته الدائمة في تجريب أشكال مختلفة من الكتابة... ولكن (كتاباتي الأخرى وتدريسي، أبعدتني كثيرا عن العوالم والتجارب المختلفة التي ينطوي عليها هذا الكتاب، فالأكيد أن الذاكرة تشتغل بطريقة أفضل وبحرية أكبر عندما لا تفرض عليها الأساليب أو النشاطات المعدة أصلاً لتشغيلها).

5- حول مفهوم المثقف:

اختلفت الآراء والتصورات النظرية حول مفهوم المثقف، ولعل ذلك يرجع إلى الاختلاف في تعريفات المثقف من لغة إلى أخرى، ولتداخل هذا المفهوم مع مفاهيم أخرى. في اللغات الأوروبية المعاصرة، ولاسيما الإنجليزية، استخدمت كلمات مرادفة للمثقف كالمتعلم

فماكس فيبر يعتقد أن المثقف يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة، تؤهله للنفاذ إلى المجتمع، والتأثير فيه بفضل المنجزات القيمية الكبرى، أما إدوارد شيلز، فيعرف المثقف على أنه الشخص المتعلم الذي يمتلك طموحاً سياسياً للوصول إلى مراكز صنع القرار السياسي، أو من خلال دوره المحوري الحاسم في توجيه المجتمع عن طريق التأثير على القرارات السياسية الهامة التي تؤثر في المجتمع ككل. ميزة هذا المثقف قدرته العالية على استخدام رموز ودلالات ومفاهيم لغوية عالية متصلة مباشرة بالإنسان والكون والفرد والمجتمع. (إبراهيم: 1984) ويذهب هشام شرابي إلى الاعتقاد أن المثقف هو الشخص الملتزم والواعي اجتماعياً بحيث يكون بمقدوره رؤية المجتمع والوقوف على مشاكله وخصائصه وملامحه، وما يتبع ذلك من دور اجتماعي فاعل من المفروض أن يقوم به لتصحيح مسارات مجتمعية خاطئة. (أما برهان غليون فيقول إن المثقف هو من ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع بحيث تتميز عن غيرها بتفكيرها العالي والناقد، وتدخل في عملية الصراع الاجتماعي والسياسي، وفي النهاية يكون تأثيرها واضحاً، إما من خلال مشاركات قوية لصنع السياسة والقرار السياسي، أو من خلال أعمال فكرية كبيرة تؤثر في الناس والمجتمع فكرياًوثقافياً ومعنوياً).

يرسم فيصل الدراج في رثاء لصديقه هادي العلوي، صورة وردية للمثقف الذي لا يساوم ولا يقبل أنصاف الحلول عندما تتعلق القضية المتداولة والمطروحة للبحث أو النقاش بالحرية والكرامة الوطنية. فالمثقف بناء على هذا التصور (شامخ شموخ الجبال، لما يحمله بين جوانحه من أفكار كبرى وقيم عظيمة لا تتغير مع تغير المواسم ولا تتأثر بالاجتهادات الموسمية. يندفع المثقف، المسلح بعلمه وشفافيته وعقلانيته، للدفاع عن الأمة والوطن خاصةً في أوقات المحن والضياع والانكسار المعنوي والحضاري، ويجعل من الاستقلال الوطني والمحافظة على أصالة الثقافة الوطنية قضيته الأولى في ظل زمن تسوده العولمة).

أما هادي العلوي فيرى بأن (دور المثقف العربي مهم وضروري في ظل سيطرة السلطة التسلطية/ السلطوية على الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي في البلدان العربية، فالدولة العربية ذات الطابع الوطني والشعبوي تقوم على منطلقات تعزيز الفساد السياسي والإداري والمالي، وتحاول دائماً إغراء المثقف للانضمام إلى أجهزتها وأحزابها وقنوات سيطرتها السرية. هذا الابتزاز المنظم للمثقفين والأنتلجنسيا يجب أن يقابل بتمرد وعدم خضوع المثقف لمثل هذه الابتزازات أو الإغراءات لأن "المستفيد ليس الدولة ولا الجماهير بل رؤوس الدولة وأزلامها الذين يمنون على الشعب أنهم حرّروه وأطعموه وأوصلوه إلى مصاف الدول الوطنية المستقلة).

البديل الوحيد- زدنت 8 اذار 2001

زرت جنوب إفريقيا لأول مرة في أيار عام 1991 : فترة شتوية ماطرة وكئيبة، حين كان ساسة التمييز العنصري في الحكم، رغم أن المجلس الوطني الإفريقي ونلسون مانديلا قد تحررا. بعد عشرة سنوات عدت، هذه المرة في الصيف، إلى بلاد ديمقراطية دحرت فيها سياسة التمييز العنصري والمجلس الإفريقي الوطني في السلطة والمجتمع المدني النشيط المتنازع مشغول في محاولة إكمال مهمة تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية لهذه البلاد التي لا تزال مقسمة اقتصاديا ومضطربة. لكن النضال التحرري الذي أنهى الابارتايد ودشن الحكومة الأولى المنتخبة ديمقراطيا في 27 نيسان عام 1994، يبقى احد أعظم الانجازات البشرية في التاريخ المدون. فعلى الرغم من مشاكل الحاضر، فإن جنوب إفريقيا مكان ملهم للزيارة والتأمل، بالنسبة للعرب جزئيا، وعلينا أن نتعلم منه النضال والأصالة والمثابرة.

جئت في المرة الأولى كمشارك في مؤتمر عن القيم في التعليم، نظمته وزارة التعليم. قادر عصمال، وزير التعليم، صديق قديم وشخص مثير للإعجاب، قابلته منذ سنوات عدة حين كان في المنفى في ايرلندا. سأقول الكثير عنه في المقالة التالية. بوصفه عضواً في الوزارة، وناشطاً قديماً في المؤتمر الوطني الإفريقي ومحاماً ناجحاً وأكاديمياً، قادراً على إقناع نيلسون مانديلا (البالغ من العمر 83 عام الآن، وفي وضع صحي هش، واعتزل الحياة العامة رسمياً) بأن يوجه خطابا في الأمسية الأولى للمؤتمر. ما قاله مانديلا كان له أثر عميق في نفسي بما لمانديلا من منزلة كبيرة وجاذبية موثرة بعمق، فبالإضافة إلى كلماته المصاغة جيداً فإنه محام بارع بالغ الفصاحة وساحر البيان على الدوام وفي كل مناسبة، على الرغم من الكثرة الكثيرة من الخطابات والشعائر.

هذه المرة لفتت انتباهي عبارتان عن الماضي في خطاب رائع عن التعليم، خطاب جذب اهتماماً راسخاً للحالة الحالية الكئيبة للغالبية السكانية في البلاد،(تعاني ظروفاً يائسة من الحرمان المادي والاجتماعي). لهذا ذكّر الحضور (نضالنا لم ينته) حتى لو-كانت هذه هي العبارة الأولى-الحملة ضد الابارتايد (كانت واحدة من الصراعات الأخلاقية العظيمة)التي (أسرت تفكير العالم واهتمامه.) كانت العبارة الثانية وصفه للحملة المضادة للابارتايد ليست ببساطة حركة لإنهاء التمييز العرقي بل كوسيلة (لنا كلنا لنؤكد إنسانيتنا المشتركة.) يقصد بـ (كلنا) كل أعراق جنوب إفريقيا، بما فيهم البيض المؤيدين للابارتايد، ينظر إلينا كمشاركين في صراع هدفه النهائي التعايش والتسامح وتحقيق القيم الإنسانية.

لقد أثرت العبارة الأولى في نفسي عميقاً: لماذا لم يستحوذ النضال الفلسطيني على اهتمام العالم وأفكاره بعد، ولماذا لا يظهر كصراع أخلاقي عظيم كما قال مانديلا عن تجربة جنوب إفريقيا، وينال الدعم العالمي.... من المذاهب والأحزاب السياسية فعليا؟

صحيح أننا نلنا كثيراً من الدعم العام، وأن صراعنا أخلاقي حقاً بنسب بطولية. إن الصراع بين الصهيونية والشعب الفلسطيني أكثر تعقيدا من المعركة ضد الابارتيايد باعتراف الجميع، ففي الحالتين شعب دفع والآخر لا يزال يدفع ثمناً باهظاً جداً من الطرد والتطهير العرقي والاحتلال العسكري والظلم الاجتماعي الشامل. اليهود شعب ذو تاريخ مأساوي من الاضطهاد والإبادة

الجماعية. بتعلقهم بإيمانهم القديم بأرض فلسطين، (عودتهم) إلى أرض الميعاد بتعهد من الامبريالية البريطانية، أدرك كثير من العالم (خصوصاً الغرب المسيحي المسؤول عن أسوأ جرائم معاداة السامية) بأنه تعويض مبرر وبطولي لما عانوه. لكن، منذ سنين كثيرة، قلة قليلة اهتمت بغزو القوات اليهودية لفلسطين، أو للشعب العربي الموجود هناك مسبقاً الذي تحمل كلفته الباهظة بتدمير مجتمعهم، وطرد الغالبية ونظام القوانين البشعة- عملياً ابارتايد- التي لا تزال تمارس تمييزها ضدهم داخل إسرائيل وفي الأراضي المحتلة. كان الفلسطينيون الضحايا الصامتة لظلم فادح توارى عن الأنظار بسرعة بواسطة أغنية كورالية انتصاريه عن إسرائيل المذهلة.

بعد إعادة انبثاق حركة التحرر الفلسطينية الأصيلة في أواخر ستينيات القرن العشرين، تبنت شعوب المستمرات السابقة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية قضية النضال الفلسطيني، لكن على الغالب، كان التوازن الاستراتيجي لصالح إسرائيل بفارق واسع؛ لقد دعمتها الولايات المتحدة دون تحفظ (خمسة بلايين دولار أمريكي سنويا) وفي الغرب، كان أغلب وسائل الإعلام والطبقة المثقفة الليبرالية وأغلب الحكومات إلى جانب إسرائيل. لأسباب معروفة جيداً تدخل هنا، كان الوسط الرسمي العربي إما معادياً على نحو صريح أو فاتر في أغلب دعمه الكلامي والمالي.

لكن بسبب الأهداف الإستراتيجية المتبدلة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي لم يتم التعبير عنها بشكل بليغ، وتحجبها الأعمال الإرهابية العقيمة، وبسبب تفوق الخطاب الثقافي في الغرب الذي كان إما غير معروف لصناع السياسة الفلسطينيين والمثقفين، أو أسيء فهمه، لم نقدر البتة أن ندعي بالأساس الأخلاقي السامي بصورة فعالة. تناشد المعلومات الإسرائيلية الآخر دائماً (وتستغل) المحرقة، بالإضافة إلى الأعمال النضالية (الإرهابية) الفلسطينية غير المدروسة وغير الملائمة سياسياً، والتي كانت تحيد رسالتنا وتحجبها. ولم نركز أبدا كشعب على الصراع الثقافي في الغرب (الذي ركز عليه المؤتمر الوطني الإفريقي وكان المفتاح لتقويض الابارتايد)

ونحن ببساطة لم نركز الانتباه على طريقة إنسانية متماسكة، وعلى السلب والتمييز وما كانت توجهه ضدنا إسرائيل. اغلب مشاهدي التلفزيون اليوم ليس لديهم أي فكرة عن سياسات أو الإتلاف والتعذيب والحرمان المنظم ضد الفلسطينيين لمجرد أنهم ليسوا يهوداً. مثلما كتب مراسل إفريقي أسود في إحدى الصحف المحلية هنا أثناء زيارته لغزة، إن الابارتايد لم تكن شريرة وغير إنسانية كالصهيونية أبداً: تطهير عرقي وإذلال يومي وعقاب جماعي على صعيد واسع واستيلاء على الأراضي، الخ. الخ.

لكن حتى لو أن هذه الحقائق أصبحت معروفة بشكل أفضل كسلاح في المعركة بين الصهيونية والفلسطينيين، فلن تكون كافية. والذي لم نركز الضوء عليه كان الحقيقة، ولكي تحيِّد الاقصائية الصهيونية كان يجب أن نقدم حلاً للصراع الذي جاء في العبارة الثانية لمانديلا، وسنؤكد إنسانيتنا المشتركة كيهود وعرب. أغلبنا لا يستطيع أن يقبل بفكرة أن يهود إسرائيل جاؤوا هنا ليبقوا، ولن يرحلوا مثلما لن يرحل الفلسطينيون. هذا المفهوم صعب أن يقبله الفلسطينيون لأنهم لازالوا يفقدون أراضيهم ويتعرضون للاضطهاد اليومي. لكن باقتراحنا غير المسؤول والطائش في ما قلناه وأننا سنرحلهم بالقوة (مثل الصليبيين). لم نركز كفاية على إنهاء الاحتلال العسكري كواجب أخلاقي أو على توفير شكل لسلامتهم وحق تقرير المصير الذي لا يلغينا. هذا، وليس الأمل المستحيل بدولة الذي سيعطيه لنا رئيس أمريكي متقلب، كان يجب أن يكون أساس حملة شاملة في كل مكان. شعبان

في أرض واحدة. أو، المساواة للجميع. أو شخص واحد صوت واحد، أو إنسانية مشتركة مؤكدة في دولة ثنائية القومية.

أنا أعرف أننا ضحايا غزو رهيب، واحتلال عسكري آثم. واللوبي الصهيوني يكذب على نحو منسق لكي يحولنا إما إلى لا شعب أو إلى إرهابيين، ولكن ما هو البديل الحقيقي لما اقترحته؟ حملة عسكرية؟ حلم. مفاوضات أخرى على شاكلة أوسلو؟ من الواضح لا. مزيد من خسائر الأرواح في صفوف شبابنا البواسل الذين لا يوفر لهم القادة أي مساعدة أو توجيه؟ شيء مثير للشفقة، لكن لا. الاعتماد على الدول العربية التي نكثت حتى بوعودها بتقديم مساعدات عاجلة الآن؟ تعالوا كونوا جديين.

اليهود الإسرائيليون والعرب الفلسطينيون عالقون في رؤيا سارتر للجحيم، والذي هو (الشعب الآخر). ليس هناك أي مفر. الفصل لا ينجح في أرض صغيرة جدا كهذه أكثر مما نجحت الابارتايد. القوة الإسرائيلية العسكرية والاقتصادية تعزلهم من ضرورة مواجهة الحقيقة. هذا هو معنى انتخابات شارون، مجرم حرب قديم يستحضر من سديم الزمن ليقوم بماذا: أن يضع العرب في مكانهم؟ مستحيل! لذلك آن الأوان لنقدم الحل الذي لا تستطيع عليه القوة ولا جنون الاضطهاد. لا يكفي مجرد الكلام عن السلام بشكل عام. يجب أن نقدم أسسا مادية له. ولا تأتي تلك إلا من رؤية أخلاقية، وليس من (البراغماتية) أو (العملية). إن أردنا أن نعيش-هذا هو واجبنا الأساسي-يجب أن لا نستحوذ على تفكير شعبنا فقط بل وتفكير مضطهدينا أيضا. ويجب أن نتجمل بقيمنا الإنسانية الديمقراطية.

هل القيادة الفلسطينية الحالية تصغي؟ هل تستطيع أن تقترح أفضل من هذا، بتوجهها اللانهائي إلى عملية السلام التي أدت إلى الرعب الحالي؟

أعيدوا لنا ديمقراطيتنا- زدنت 20نيسان 2003

في خطاب في مجلس الشيوخ في 19آذار، اليوم الأول من الحرب ضد العراق، سأل السناتور روبرت بيرد من فرجينيا الغربية: ماذا يحدث لتلك البلاد؟ متى أصبحنا أمة تتجاهل أصدقاءها وتوبخهم ؟ متى كنا نقرر تعريض النظام الدولي للخطر بتبني طريقة نظرية غير عملية في استخدام قوتنا العسكرية المرعبة؟ كيف نستطيع هجر الدبلوماسية في الوقت الذي تنادي فيه الفوضى التي في العالم بالدبلوماسية؟

لم يتكلف أحد عناء الرد. لكن حين تتحرك الآلة الحربية الأمريكية حاليا في العراق بشكل متواصل وفي اتجاهات أخرى، تؤكد هذه الأسئلة فشل الديمقراطية إن لم يكن فسادها.

دعنا ندقق ما فعلته سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط منذ أن وصل جورج دبليو بوش للسلطة. حتى قبل أعمال 11 أيلول الوحشية، أعطى فريق بوش الحرية لحكومة اريبل شارون في استعمار الضفة الغربية وغزة، وقتل وسجن الناس فيهما حين تريد، وهدم منازلهم ومصادرة أراضيهم وسجنهم بحظر التجول والحواجز العسكرية. بعد 11 أيلول حرك عربته (لمحاربة الإرهاب) وكثف سلبه الأحادي الجانب ضد السكان المدنيين العزل تحت الاحتلال برغم قرارات مجلس الأمن الدولي التي تأمر إسرائيل بالانسحاب والكف عن جرائمها الحربية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان.

أطلق بوش غزوه لأفغانستان في تشرين الأول 2001 وافتتحه بقصف كثيف من ارتفاع عال (تكتيك حربي ضد الإرهاب، يشبه الإرهاب العادي في نتائجه وبنيته) في كانون الأول نصب نظام حكم ليس له أي سلطة خارج كابول. لم تكن هناك أي إشارة أمريكية لإعادة البناء، وكما يبدو فقد عادت البلاد إلى حالتها السابقة من الانحطاط والتدهور.

منذ صيف 2002 وإدارة بوش تواصل حملة دعائية ضد الحكومة الاستبدادية في العراق بالتعاون مع المملكة المتحدة، وحاولت دون أن تنجح على إرغام مجلس الأمن على الطاعة والموافقة على بدء الحرب. منذ تشرين الثاني الماضي اختفى الخلاف في وسائل الإعلام السائدة وغصت بعدد مفرط من الجنرالات السابقين كما أضيف إليهم عدد من خبراء الإرهاب الجدد الذين جلبوهم من خزانات الفكر اليمينية في واشنطن.

يصنف هؤلاء الأكاديميون كل من ينتقد معاديا للأمريكيين ويسجل على المواقع الالكترونية عدواً مَنْ لم ينضو في الرتل. اغرق البريد الالكتروني الشخصيات العامة الناقدة القليلة، وهددت حياتهم وسفهت أفكارهم من قبل معلقي وسائط الإعلام الذين أصبحوا حراس الحرب الأمريكية.

ظهر سيل من الهراء يوازي ليس بين حكم صدام حسين الاستبدادي وبين الشر فقط، وإنما كل جريمة معروفة. كان بعضه صحيحاً وحقيقياً، ولكنه أهمل دور الولايات المتحدة وأوروبا في رعاية صعود صدام والحفاظ على سلطته. ففي الحقيقة، زار الرديء جدا دونالد رامسفيبلد صدام في بداية الثمانينيات وأكد له استحسان الولايات المتحدة لحربه المدمرة ضد إيران. أمده التعاون الأمريكي بالمواد النووية والكيماوية والبيولوجية لأسلحة الدمار الشامل المزعومة ثم تم مسح ذلك التعاون

بصفاقة من السجل العام. وجرى التعتيم المتعمد على كل ذلك من قبل الحكومة ووسائل الإعلام في تصنيع قضية لتدمير العراق. إما بدون إثبات أو بمعلومات خادعة اتهم صدام بإخفاء أسلحة تدمير شامل اعتبرت تهديدا مباشرا على الولايات المتحدة. النتائج المرعبة لتدخل الولايات المتحدة وبريطانية في العراق بدأت تتكشف بعد التدمير المتعمد للبنية التحتية الحديثة للبلاد ونهب واحدة من أثرى الحضارات في العالم، والمحاولة لجذب غرباء متعددي الألوان زائد شركات كبرى لإعادة بناء البلاد والاستيلاء على نفطها ومصيرها الحديث. كما اقترح أن أحمد الجلبي مثلاً سيوقع معاهدة سلام مع إسرائيل، وهذه ليست فكرة عراقية ومنحت بيتشل عقداً ضخماً.

هذا فشل تام للديمقراطية تقريباً- ديمقراطيتنا، وليست ديمقراطية العراق:من المفترض أن 70% من الأمريكيين يؤيد هذا، ولكن لا شيء محسوب ومصنع أكثر من استطلاع يسأل فيه 465 أمريكي إن كانوا (يؤيدون رئيسنا وقواته في زمن الحرب.) قال السناتور بيرد : (يوجد إحساس كلي بالاندفاع والمجازفة والأسئلة الكثيرة التي لم تتم الإجابة عليها ... حجاب كثيف غطى مجلس الشيوخ. لقد انحرفنا عن واجبنا المقدس في مناقشة الموضوع الرئيسي الذي يشغل كل الأمريكيين، بينما العشرات من أولادنا وبناتنا يؤدون خدمتهم العسكرية في العراق بإخلاص.)

أنا مقتنع بأنها حرب مدبرة وغير ضرورية. المؤسسات الرجعية في أمريكا التي فرخت ولفويتز وبيرل وابرامز وفيث توفر جواً أخلاقياً وفكرياً غير صحي. الوثائق الرسمية السياسية يتم تداولها دون مراجعة حقيقية دقيقة، وتتبناها حكومة تطلب تبريراً لسياستها غير المشروعة. مبدأ الحرب الاستباقية العسكرية لم يتم الاقتراع عليها شعبياً ولا عن طريق ممثليهم أبدا. كيف يمكن للمواطنين أن يقفوا ضد المداهنات المقدمة للحكومة من شركات مثل هوليبرتون وبوينغ؟ إن من يرسم المسار الاستراتيجي لأغنى مؤسسة عسكرية في التاريخ تغدق عليها الهبات هي مجموعات ضغط بناء على أساس إيديولوجي (مثل القادة المسيحيين المتعصبين) ومؤسسات خاصة و لوبيات مثل الايباك واللجنة العامة للشؤون الأميركية-الإسرائيلية. يبدو لي من الإجرام أن تتعرض كلمات مهمة مثل الديمقراطية والحرية للخطف وتستخدم قناعا للسلب والاستيلاء على الأراضي والانتقام. أصبح البرنامج العربي للولايات المتحدة الأمريكية مثل شبيهه الإسرائيلي ويرفده ضرورة تحطيم سورية والعراق لأنهما تمثلان تهديداً لإسرائيل.

وبالإضافة إلى ذلك: ماذا يعني تحرير ودمقرطة بلاد لم يطلب هذا، ثم تفشل في الحفاظ على القانون والنظام بعد أن تحتلها عسكريا؟ يا لها من صورة كاريكاتورية للتخطيط الاستراتيجي حين تزعم أن السكان الأصليين سيرحبون بحضورك بعد أن قصفتهم وحاصرتهم ثلاثة عشر عاماً.

حالة عقلية منافية للطبيعة عن الإحسان الأمريكي رشحت عبر أدق مستويات وسائل الإعلام. في الكتابة عن أرملة من بغداد في السبعين من عمرها، جعلت من بيتها مركزاً ثقافياً دمرته غارات الولايات المتحدة، لا تستطيع ضبط نفسها الآن بسبب الغيظ، ومراسل نيويورك تايمز ديكستر فيلكينز، يعاقبها ضمنياً على (حياتها المريحة في ظل حكم صدام حسين ويستنكر مرائياً خطبتها المقرعة ضد الأمريكيين وهي خريجة من جامعة لندن.)

إضافة إلى خداع الأسلحة التي لم تكن موجودة، والستالينغرادات التي لم تحدث والدفاع المدفعي الذي لم يحدث أبداً. لن اندهش إن اختفى صدام فجأة لأن الصفقة عقدت في موسكو لتركه يرحل وعائلته وأمواله مقابل البلاد. لقد سارت الحرب لغير مصلحة الأمريكيين في الجنوب ولم يستطع

بوش أن يجازف بنفس الطريقة في بغداد. في 6 نيسان قصفت قافلة مغادرة العراق؛ وظهرت كوندي رايس في روسيا في 7 نيسان وسقطت بغداد في 9 نيسان.

رغم ذلك لقد خدع الأمريكيون. ولقد عانى العراقيون على نحو لا يطاق وبدا بوش كراعي بقر. لقد انتهكت المبادئ الدستورية في المسائل ذات الأهمية القصوى وانطلى الكذب على الناخبين. نحن من يجب أن نستعيد ديمقراطيتنا.

اسعد محمد الحسين

مناظير امبريالية - زدنت 24 تموز 2003

لم تتحد الإمبراطوريات العظيمة الحديثة معا بالسلطة العسكرية فقط ، بل بما ينشط تلك السلطة ويضعها قيد الاستخدام ويفرضها في ممارسات يومية من السيطرة والإقناع والنفوذ. حكمت بريطانية أراضي الهند الشاسعة بآلاف قليلة من الموظفين المستعمرين وآلاف أكثر منهم من الجنود، كثير منهم من الهنود. وفعلت فرنسا الأمر نفسه في شمال إفريقيا وهولندا في اندونيسيا والبرتغال وبلجيكيا في أفريقيا. العامل الرئيسي هو المنظور الامبريالي، والطريقة في النظر إلى واقع أجنبي بعيد بإخضاعه لنظرة المرء وبناء تاريخه من وجهة نظر هذا المرء والنظر إلى شعبه كتابعين لا يقررون قدرهم بأنفسهم وإنما ما يراه القائمون بالأعمال البعيدين بأنه الأفضل لذلك الشعب. من مثل هذه النظرات المتعمدة تتطور الأفكار الفعلية وتشمل النظرية التي ترى بأن الامبريالية شيء حميد وضروري. في واحد من أهم التعليقات المميزة التي كتبت عن الإطار الأساسي الذي يربط الإمبراطوريات معاً للروائي الانكلوبولوني جوزيف كونراد الذي كتب (فتح الأرض، والذي يعني انتزاعها من هؤلاء الذين يختلفون عنا في لون بشرتهم وملامح وجوههم أو أنوفهم أعرض قليلاً من أنوفنا، ليس شيئا جيدا حين تتفحصه كثيراً. لا يبرره سوى الفكرة فقط. الفكرة التي خلفه وليس تظاهر عاطفي بل فكرة واعتقاد إيثاري بالفكرة-شيء تستطيع نصبه وطاعته وتقديم قربان له.)

لقد نجح ذلك لفترة طالما ظل كثير من القادة الكلونياليين يعتقدون خطأ بأن التعاون مع السلطة الامبريالية كان الطريق الوحيد. لكن بما أن الدياليكتيك بين المنظور الامبريالي والمنظور المحلي عدائي وغير دائم، يصبح الصراع بين الحاكم والمحكوم في مرحلة متأخرة منه غير قابل للاحتواء وينفجر إلى حرب كولونيالية شاملة كما حدث في الجزائر والهند.

نحن لا نزال بعيدين عن تلك اللحظة فيما يتعلق بالحكم الأمريكي للعرب والعالم الإسلامي. لقد كان هناك اهتمام أمريكي استراتيجي منذ الحرب العالمية الثانية على الأقل في حماية طرق إمدادات مفتوحة وسهلة للنفط (والسيطرة على تلك الموارد ايضاً) أولاً، وضمان قوة السيطرة الإقليمية الإسرائيلية على كل جيرانها فرادى ومجتمعين مهما كلف الأمر ثانياً.

كل إمبراطورية بما فيها أميركا، تخبر نفسها والعالم بشكل متكرر أنها ليست كباقي الإمبراطوريات، وأن لها مهمة غير النهب والسيطرة وإنما تثقيف وتحرير شعوب الأماكن التي تحتلها بشكل مباشر أو غير مباشر. لكن هذه الأفكار لا تشاركهم فيها الشعوب التي تعيش هناك كما أن أفكارها هي النقيض المباشر في كثير من الحالات. لكن هذا لم يمنع جهاز الاستخبارات الأمريكية والسياسة وصناعة القرار بشأن العالم العربي- الإسلامي من فرض آرائهم ليس على العرب والمسلمين فحسب، وإنما على الأمريكيين أيضا الذين يعانون من نقص في مصادر معلوماتهم عن العرب والإسلام بشكل مأساوي يرثى له.

لقد تضررت الدبلوماسية الأمريكية بشكل دائم من هجمات منظمة شنها اللوبي الإسرائيلي على ما سماهم بالمستعربين. ليس هناك أكثر من حفنة من الذين يعرفون اللغة العربية من بين 150,000 جندي أميركي في العراق اليوم. لقد عبر ديفيد اغناتيوس عن هذه النقطة في قطعة ممتازة في 14

تموز بعنوان (واشنطن تدفع ثمن عوزها للمستعربين) التي اقتبس فيها قول فوكوياما أن المشكلة (إن المستعربين لا يتبنون قضية العرب فقط وإنما الميل العربي لخداع الذات.)

أصبحت أجيال كثيرة من الأمريكيين تنظر إلى العالم العربي كمكان خطر، يفرخ فيه الإرهاب والتعصب الديني وتغرس فيه معاداة الأمركة المجانية بشكل مؤذ في الصغار من قبل رجال دين متعمدين معادين للديمقراطية والسامية بصورة خبيثة. الجهل يترجم إلى معرفة في مثل هذه القضايا. ما هو غير ملحوظ دائما هو حين يظهر زعيم (نحن نحبه) مثل شاه إيران أو أنور السادات يفترض الأمريكيون بأنه مبشر شجاع يعمل أشياء (لصالحنا) أو (بطريقتنا)، ليس لأنه فهم لعبة السلطة الامبريالية، في البقاء حياً بمسايرة السلطة الغالبة، وإنما لأنه اندفع بالمبادئ التي نتشارك فيها. بعد ربع قرن تقريباً من اغتياله (أنور السادات) ليس من المبالغة القول، أصبح رجلاً منسياً ومكروهاً لأن أغلب المصريين يعتبرونه خدم أميركا أولا وليس مصر. ونفس الشيء صحيح بخصوص الشاه. تشويه النظرات الامبريالية أنتج تشويهات أكثر في مجتمع الشرق الأوسط أطالت العذاب وحرضت أشكالاً متطرفة من المقاومة وتأكيد الذات السياسي.

هذا صحيح بالنسبة للفلسطينيين بشكل خاص، والذين يُعدون الآن أنهم أصلحوا أنفسهم بقبولهم محمود عباس(أبو مازن) كقائد لهم أكثر من عرفات. لكن هذه مسألة تفسير امبريالي وليس حقيقة فعلية. إسرائيل والولايات المتحدة تعتبران عرفات عقبة في طريق تسوية مفروضة على الفلسطينيين التي ستلغي كل مطالبهم السابقة وسيمثل ذلك نصر إسرائيل النهائي على ما سماه بعض الإسرائيليون (خطيئتهم الأصلية)، بأنهم لم يدمروا المجتمع الفلسطيني عام 1948 وتخلصوا من أمة الفلسطينيين الذين ظلوا بلا دولة أو تحت الاحتلال حتى اليوم. لا ضير بأن عرفات الذي نقدته في وسائل الإعلام العربية والغربية لسنوات كثيرة لا يزال يعتبر زعيماً عالمياً لأنه انتخب في عام 1996 ولأنه نال شرعية لم يدانيه فيها أي فلسطيني آخر وبالأخص أبو مازن ذلك البيروقراطي والتابع قديم لعرفات الذي ليس له أي تأييد شعبي إطلاقاً.

فضلاً عن ذلك، هناك الآن معارضة فلسطينية مستقلة ملتحمة (المبادرة الوطنية المستقلة) ضد عرفات وضد الاسلاميين أيضاً، لكنها لم تحظ بأي اهتمام لأن الأمريكيين والإسرائيليين يرغبون في محاوِر مطاوع لا يسبب لهم أي مشاكل. لكن السؤال إن نجح هذا التدبير فسيؤجل ذلك إلى يوم آخر. هذه بصيرة قاصرة، وفي الحقيقة عمى وغطرسة في النظرة الامبريالية. تكرر الأمر ذاته في العراق والسعودية ومصر وكل البلدان الأخرى. المشكلة في هذه النظرات أنها عاجزة وإيديولوجية؛ إنها لا توفر للأمريكيين الأفكار عن العرب والمسلمين وإنما الطريقة التي يحبون أن يكون عليها العرب والمسلمون. من المضحك أن دولة عظيمة وبثراء فاحش كالولايات المتحدة تحدث مثل هذا النوع من سوء الإدارة والإعداد السيئ والعجز الذي لا يصدق في احتلالها للعراق الذي يحدث الآن على أسس فكرية، وكيف يمكن لبيروقراطي متواضع الذكاء مثل ولفويتز أن يدير سياسات بهذا العجز الهائل تجفل العقل وبنفس الوقت يقنع الناس بأنه يعرف ما يفعل.

يكمن خلف هذا المنظور الامبريالي الغريب رأي استشراقي موغل في القدم لا يسمح للعرب أن يمارسوا حقهم في تقرير المصير كأمة. وينظر إليهم كأناس مختلفين غير قادرين على فهم المنطق وقول الحقيقة وفي جوهرهم فوضويون ومجرمون. ومنذ غزو نابليون لمصر عام 1798 كان هناك حضور امبريالي لم ينقطع مبني على هذه الأسس الفكرية في كل العالم العربي وسببت بؤساً لا يوصف- وبعض الفوائد- للغالبية الساحقة من الشعب. لقد اعتدنا كثيرا على مداهنات مستشاري

الولايات المتحدة من أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمي اللذان صبا حقدهما الأسود على العرب في كل وسيلة ممكنة لدرجة أننا نعتقد أحيانا بأن ما نفعله هو عين الصواب لأنه هذا هو حال العرب. كما صدف أيضا أن تكون هذه عقيدة إسرائيلية يشترك فيها المحافظون الجدد الذين في قلب إدارة بوش مما يصب زيتاً على النار. لهذا أمامنا سنوات كثيرة جداً من الفوضى والبؤس في منطقة من العالم مشكلتها الرئيسية نفوذ الولايات المتحدة. لكن بأي تكلفة؟ ولأي غاية؟

نقطة متدنية من العجز- زدنت 5 تشرين أول 2002.

كان يهود أوروبا في أدنى مستويات بقائهم الجماعي قبل ستين عاماً. ساقهم الجنود النازيون كالقطعان في قطارات وشحنوهم من كل أرجاء أوروبا إلى معسكرات الموت حيث تتم إبادتهم بأفران الغاز بشكل منظم. ابدوا بعض المقاومة في بولندا، لكن في اغلب الأماكن فقدوا وضعهم المدني الشرعي ثم أبعدوا عن وظائفهم ثم صنفوا بعد ذلك كأعداء رسميين يجب تدميرهم ثم دمروهم.لقد كانوا الأكثر عجزا بين الناس، فقد عوملوا كأعداء محتملين ماكرين من قبل قادة وجيوش قوتها أكبر بكثير؛ وفي الواقع حتى الفكرة التي ترى بأن اليهود يمثلون خطرا على بلدان مثل ألمانيا وفرنسا وايطاليا هي فكرة منافية للعقل والطبيعة لكنها كانت مقبولة لأن أغلب أوروبا أدارت ظهرها لهم خلال ذبحهم مع بعض الاستثناءات القليلة. ومن إحدى سخريات التاريخ أن الكلمة التي كانت تصفهم دائماً في اللغة الرسمية الفاشية الشائنة هي كلمة (إرهابيين)، وهي نفس الكلمة التي وصف بها الجزائريون والفييتناميون لاحقا من قبل أعدائهم.

كل مصيبة إنسانية تكون مختلفة، لذلك ليس هناك فائدة من محاولة البحث عن تكافؤ بين واحدة وأخرى. لكن إحدى الحقائق الكلية الصحيحة حول الهولوكوست ليس فقط بكونها يجب أن لا تحدث مرة أخرى لليهود وإنما بكونها عقاب جماعي مأساوي وحشي يجب أن لا يحدث لأي شعب آخر أبدا. لكن إن لم يكن هناك فائدة من البحث عن التكافؤ، فهناك قيمة برؤية التناظر والتشابه الخفي، حتى مع الحفاظ على الشعور بالتناسب. بعيدا عن هذا التاريخ الفعلي من الأخطاء وسوء الحكم، لقد جعلت الدولة اليهودية ياسر عرفات يشعر مثل يهودي مطارد. ليس من الخطأ القول بأن السخرية الأكبر في حصاره من قبل الجيش الإسرائيلي في مجمعه المدمر في رام الله، بأن محنته خطط لها ونفذها قائد مضطرب عقلياً يدعي أنه يمثل الشعب اليهودي. لا أريد أن أدفع بالتناظر بعيداً جداً، لكن من الصحيح القول إن الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي عاجزون كما كان اليهود في أربعينيات القرن العشرين. الجيش الإسرائيلي والقوة الجوية والبحرية المدعومة بقوة من الولايات المتحدة، ينزلون الدمار بالسكان المدنيين العزل تماماً في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين. منذ منتصف القرن الماضي والفلسطينيين شعب مطرود، ملايين منهم لاجئون وأغلب البقية تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي منذ أكثر من 35 عاماً تحت رحمة المستوطنين المسلحين الذين يسرقون أراضيهم بشكل مخطط وجيش يقتل الفلسطينيين بالآلاف كما سجن الآلاف الآخرين وفَقَدَ آلاف غيرهم سبل العيش، وحولوا إلى لاجئين للمرة الثانية والثالثة، وكلهم بلا حقوق مدنية أو إنسانية.

ويظل شارون يتشدق بحجته أن إسرائيل تناضل للبقاء ضد الإرهاب الفلسطيني. هل هناك ما هو أغرب من هذا الادعاء حتى عندما يرسل هذا القاتل المخبول طائرات اف سيكستين وطائراته المروحية الهجومية ومئات الدبابات ضد شعب أعزل بدون أي دفاع على الإطلاق ويقول أنهم إرهابيون، ووصف قائدهم المسجون بشكل مذل في عمارة مهدمة يحيط بها الدمار الإسرائيلي من كل جوانبها برئيس الإرهابيين في كل العصور. لدى عرفات الشجاعة والتحدي للمقاومة، ومعه شعبه. كل فلسطيني يشعر بالإذلال المتعمد المحيق به والوحشية التي تخلو من أي غرض سياسي أو عسكري سوى العقاب فقط. أي حق تملكه إسرائيل للقيام بهذا؟

تدوين الرمزية مخيف حقا، ويزيد ذلك الخوف العلم بأن شارون ومؤيديه الذين لم يقولوا شيئا عن جيشه المجرم، يقصدون ما توضحه هذه الرمزية بقوة. اليهود الإسرائيليون هم الأقوياء. الفلسطينيون طرائدهم الحقيرة. لحسن حظ شارون أنّ لديه شيمون بيريز وهو أشد جبان ومنافق في عالم السياسة اليوم، الذي يتنقل في كل الأماكن ويقول أن إسرائيل تفهم الصعوبات التي يعانيها الشعب الفلسطيني، و(نحن) راغبون في جعل النهايات اقل مشقة. وبعد ذلك لم يكتف بعدم التحسين، بل زاد في حظر التجول والتدمير والقتل المكثف. وكان الموقف الإسرائيلي طبعاً هو طلب مساعدة دولية كبيرة التي كما قال عنها تيرجي- رود لارسن بشكل صحيح، هي في الوقع تملق المتبرعين العالميين للتصديق على الاحتلال الإسرائيلي. يجب أن يشعر شارون ليس بأنه قادر على فعل أي شيء و النجاة منه تماما فحسب، بل أن يدبر حملة غرضها إعطاء إسرائيل دور الضحية أيضاً.

زادت المعرضة الشعبية في كل أنحاء العالم، فبدأ الرد الصهيوني المضاد المنظم في الشكوى من ارتفاع العداء للسامية. قبل يومين فقط اصدر رئيس جامعة هارفارد لورانس سومرز بيانا معناه أن قيادة أساتذة الجامعة حملة لسحب الأسهم-محاولة لدفع الجامعة إلى سحب أسهمها من الشركات الأمريكية التي تبيع معدات عسكرية لاسرائيل- هو عداء للسامية. الرئيس اليهودي لأقدم وأغنى جامعة في البلاد يتهم بمعاداة السامية! انتقاد السياسة الإسرائيلية يساوي الآن بشكل روتيني معاداة السامية التي أدت إلى الهولوكوست، مع أنه لا توجد معاداة للسامية تذكر في الولايات المتحدة. مجموعة من الأكاديميين الأمريكيين والإسرائيليين ينظمون حملة مكارثية ضد الأساتذة الذين يتكلمون عن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان؛ الهدف الرئيسي للحملة هو الطلب من الطلاب والهيئة التدريسية أن يبلغوا ضد زملائهم الفلسطينيين، بتخويف حق حرية التعبير وبتر الحرية الأكاديمية بشكل خطير.

السخرية الأكبر هو أن الاحتجاج ضد الوحشية الإسرائيلية-آخرها العزل المذل لياسر عرفات في رام الله- حدث على مستوى جماهيري. تحدى الفلسطينيون حظر التجول في غزة وعدد من المدن في الضفة الغربية بالآلاف وخرجوا إلى الشوارع دعما لقائدهم المحاصر. أما الحكام العرب فكانوا صامتين أو عاجزين أو الاثنين معاً. وظل كل واحد منهم، بمن فيهم عرفات، يصرح برغبته في السلام مع إسرائيل منذ سنوات كما عقدت دولتان عربيتان رائدتان معاهدات معها. لكن رغم كل ذلك يرد عليهم شارون بركل مؤخراتهم. وكرر قوله بأن العرب لا يفهمون سوى القوة، وبما أننا نملك القوة الآن فسنعاملهم كما يستحقون (وكما اعتدنا).

يوري افنيري محق: لقد قتل عرفات ومعه ستموت آمال الفلسطينيين، حسب ما يرى شارون. هذا تدريب صحيح لإبادة عنصرية كاملة ليظهر المدى البعيد من الوحشية السادية الذي تستطيع السلطة الإسرائيلية التمادي فيه دون أن يوقفها أو يخيفها أحد. قال شارون اليوم عشية حرب العراق، القادمة حتما، بأنه سينتقم بالرد على العراق، وبهذا سبب بلا شك لبوش ورامسفيلد كوابيسا يستحقانها. كانت آخر محاولة لشارون في تغيير أنظمة الحكم تلك التي نفذها في لبنان عام 1982. وضع بشير الجميل في الرئاسة، ثم اخبره الجميل أن لبنان لن يكون تابعاً إسرائيليا، بعد ذلك اغتيل جميل، ثم حدثت مجازر صبرا وشاتيلا، ثم بعد ذلك انسحب الإسرائيليون بمرارة من لبنان بعد عشرين سنة دامية وشائنة من الاحتلال.

ما هي النتيجة التي يستخلصها المرء من كل هذا؟ لقد كانت السياسة الإسرائيلية كارثة على كل المنطقة. كلما زادت قوتها، زاد الدمار الذي تزرعه حولها، بالإضافة إلى المصائب التي ارتكبتها

ضد الشعب الفلسطيني، وأصبحت مكروهة أكثر. إنها قوة تستخدم لأغراض شريرة، وليست للدفاع عن النفس أبدا. الحلم الصهيوني بدولة يهودية بكونه حالة عادية وصل كغيره إلى بصيرة قائد الشعب الفلسطيني الأصلي المعلقة حياته بخيط، بينما تستمر الدبابات والبلدوزرات الإسرائيلية في تدمير كل شيء حوله. هل هذا هدف صهيوني مات من اجله مئات الآلاف؟ أليس من الواضح منطق الاستياء والعنف الفعال في كل هذا، وما هي القوة التي ستخرج من العجز الذي ليس بوسعه الآن سوى المشاهدة بعينه الذي سيتطور لاحقاً؟ شارون فخور بتحديه لكل العالم، ليس لأن العالم معاد للسامية بل لأن ما فعله باسم الشعب اليهودي شيء لا يطاق. أَلَمْ يحن الوقت كي ينادي الذين يشعرون بأن أعماله المرعبة لا تمثلهم بوقف سلوكه؟

تشويه السمعة أسلوب صهيوني –الأهرام ويكلي29 آب 1999

بسبب اقتراب المرحلة النهائية من المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين، من الجدير تسجيل هنا الأبعاد التي سيذهب إليها الجناح اليميني الصهيوني في تعزيز ادعاءاته في كل فلسطين ضد هؤلاء السكان الفلسطينيين الأصليين الذين طردوا كأمة كاملة في عام 1948. لهذه الغاية بالذات.

من المدهش أنه استحوذ على تمويل لمشروعه، رغم انه لم يذكر ببراعة السبب أو مقدار المال أو الممول أو لمن المشروع. الفضل لصحيفة الديلي تلغراف البريطانية المحافظة المؤيدة للصهيونية، أثارت مقالته اهتمام الصحافة العالمية، التي كانت تطالب برد وتعليق. انه جزء من القدر الفلسطيني الذي يحتاج فيه المرء دائما إلى إثبات وجوده وتاريخه.

في بادىء الأمر تكمن المشكلة الوحيدة في الضوضاء الراهنة التي أثارها بحث وينر، الذي استمر ثلاث سنوات، في أنه لم يتصل بي أبداً بأي طريقة ولم يتكلم معي، مهمة غريبة لرجل يتظاهر بأنه باحث وصحفي لكنه لم يستخدم أسلوب الباحث ولا أسلوب الصحفي. وحقيقة أخرى حول أسلوبه وهي أنه لم يراجع مذكراتي بدقة في كتابي " خارج المكان" الذي أكملته في أيلول 1998 ليظهر في الشهر التالي.(ستظهر منه مقتطفات قريباً في نيويورك ريفيو بوكس، وفي الابزورفير وهاربر وغرانتا). لقد دونت فيه وقائع حياتي المبكرة التي أمضيتها بين القدس والقاهرة ولبنان، وأوضحت أنني تفاديت أسوأ أضرار النكبة لكوني فرد من الطبقة ذات الامتيازات. لم ازعم أنني أصبحت لاجئا، لكن عائلتي الممتدة كلها من أعمامي وأخوالي وعماتي وخالاتي وأجدادي وجداتي كانوا كذلك في الحقيقة. في ربيع 1948، لم يبق لي أي قريب في فلسطين لقد طهَّرتهم عرقياً القوات الصهيونية. لم يذكر وينر ذلك في تعليقه وسمح لنفسه بالادعاء المحتال بأن مذكراتي (بدأت في عام 1994 وانتهت في عام 1999).

ما زاد الأمر سوء وقوض الدقة الأكاديمية لعرض وينر المتحمس الأخطاء الكثيرة بحق الواقع. لقد وصف بولص سعيد بأنه شقيق والدي بينما هو ابن عم والدي. وكانت نبيهة زوجة بولص، أخت والدي. وينر لا يعرف ذلك. ولم يدرك أن القوتشان أو الطابو نادراً ما يكون كاملاً وأن بيت العائلة في المفهوم العربي هو بيت للعائلة ويعني أن عائلاتنا كانت واحدة في الملكية. كان بولص سعيد ووديع سعيد أولاد عم وشركاء وأصدقاء حميمين معاً ويملكان الشركة الفلسطينية للتعليم، بفرعيها في القدس وحيفا. ضاع كل ذلك بالإضافة إلى بيت العائلة في الاحتلال الإسرائيلي عام 1948 .
يقول وينر أننا لم نحاول المطالبة بتعويضات، وبذلك يخفي حقيقتين: أن أبي في الواقع لم يحاول أن يقاضي الحكومة الإسرائيلية من أجل تعويضاته وثانياً' أنه في عام 1950 أقرت إسرائيل قانون الملكية الغائب وحولت كل الملكية الفلسطينية إلى ملكية إسرائيلية بشكل غير قانوني طبعاً. لذلك لا عجب إن لم تثمر محاولاتنا. يقول أنني لم أكن طالباً في مدرسة القديس جورج. هذه كذبة مفضوحة. هو لا يعترف أن سجلات المدرسة انتهت في عام 1946 وكنت أنا هناك في عام 1947 أو أن أبي وابن عمه قد كانا في هذه المدرسة في عام 1906. لو كان باحثاً محترماً لسعى إلى أحد زملائي في الدراسة، هيغ بوياجيان (الذي يعيش الآن في الولايات المتحدة وبالمصادفة زارني منذ أسبوع) وأستاذي في مادة الرياضيات ميشيل مرموره، أستاذ جامعي متقاعد في جامعة تورنتو للتأكد. يقول وينر أن أمي لبنانية، بينما هي في الحقيقة نصف لبنانية؛ كان والدها فلسطيني. لديها جواز سفر

فلسطينيي وفي عام 1948 أصبحت لاجئة. بيت الطالبية بني لعائلتي في عام 1932 وبناه صعب سماحه. وهنا أخطأ وينر أيضاً. الفروع التجارية في مصر التي للعائلة لم تؤمم لكنها بيعت لحكومة عبد الناصر؛ ولم تحرقها الجماهير الثائرة وإنما الأخوان المسلمين، وهكذا.

كل هذا من شخص يدعي بأني شوهت الماضي لأتظاهر بأنني ضحية. لا يستطيع أن يفهم ولن يقدر أن يفهم من كتاباتي أنني رحلت لأدافع عن كارثة اللاجئين لأنني لم أعان مثلهم لذلك شعرت بأنني ملزم بأن أريح آلام شعبي الأقل حظا مني. حاول وينر كأي بوق دعائي قبله، أن يصور حقيقة طرد الفلسطينيين بأنها قصة إيديولوجية: وهذا موضوع ثابت ودائم لل(معلومات) الصهيونية منذ ثلاثينات القرن العشرين. لم تقدم أي مصادر فعلية واستخدمت تلميحات فقط.

لم يُسَمَ الأشخاص بأسمائهم الذين زعم التحدث معهم في (القارات الأربع) أو الوثائق التي رجع إليها، ما هي بالضبط وماذا قالت ومتى. ابن عمي روبرت مثلاً، اخبرني حين رفض أولاً أن يتحدث إلى وينر هدده الاخير. ولأنه غير معروف نسبياً، حاول وينر أن يصنع لنفسه اسماً بمهاجمة سمعة شخص مشهور. لقد تصديت لمثل هذه الهجمات الموجهة ضدي سابقاً وبنجاح، محاولة وينر مفيدة كأسلوب لتشويه المطالب الفلسطينية في العودة والتعويض، وهي القضية المركزية في الطور النهائي من عملية السلام. كما يغطي جدل وينر اللاهوتي عنصرية قانون العودة الإسرائيلي الذي يسمح لليهودي في أمكان من العالم بالهجرة إلى إسرائيل دون أن يسمح بذلك للفلسطينيين حتى الذين ولدوا فيها. إن كان شخصاً مشهوراً مثل إدوارد سعيد كاذباً، يتابع في جداله، فكيف يمكن تصديق هؤلاء الفلاحين الذين يقولون بأنهم طردوا من أراضيهم؟ حجة الليكود (حجة وينر) أن الأرض تعود إلى شعب إسرائيل بما أن الرب أعطاها لهم. لذلك المطالبون الآخرون بحقوقهم مراوغون ومدعون، زائفون كلهم.

لحسن الحظ أن بعض أفراد عائلتي لا يزالون أحياء وبصحة جيدة. ابني عمي الأكبر، الشخص الأخير الذي رحل من بيتنا في طيبه، هو في الثمانين من عمره الآن ويعيش في تورنتو. لماذا لم يتصلوا به؟ جين ابن عمتي الأكبر كان يتفاوض مع مارتن بوبر وأخذه إلى القضاء حين رفض مغادرة البيت بعد أن انتهى عقد إيجاره وعادت عائلتي من القاهرة بعد سنة من إطلاق سراحه. ماذا عن جيراننا وأقربائنا وأصدقاءنا وأعضاء تجمع الكنيسة؟ لم يتصل بأي منهم. لا يزال عدد من أولاد القس الذي عمدني أحياء أيضاً: كان بإمكانه الاتصال بهم. كلا: إن ما يريده التعليق ليس الحقيقة بل الكذبة الصهيونية الكبرى. السخرية أنه منذ أسابيع قليلة خصصت صحيفة أمريكية صفحتها الأولى لمراجعة التاريخ الإسرائيلي في الكتب المدرسية، الفضل في ذلك يعود لجهود المؤرخين الإسرائيليين الجدد وللفلسطينيين طبعاً، وهذا بداية للإعتراف بأحداث عام 1948 كما حدثت فعلياً، بالتطهير العرقي وتدمير القرى والمذابح الخ، التي ظلت مرفوضة وغير معترف بها وقتاً طويلاً. ليس من المدهش كثيراً أن تثبت الصحيفة الأمريكية الإسرائيلية والصحيفة الأمريكية الصهيونية بأنهما أكثر إسرائيلية من الإسرائيليين أنفسهم، وأقل صدقاً وأقل رغبة للتعامل مع الحقائق، وتميلان أكثر إلى الدعاية والتكتيك المشوهان اللذان لا يمكن لهما أن يفهما التاريخ أو كيف أن منظورهما المنحرف لا ينتج سوى الإفتراء والكذب.

لقد أيدت دائماً إعتراف كل من الشعبين الفلسطيني واليهودي بمعاناة الأخر الماضية. لا يمكنهما التعايش في سلام في المستقبل إلا بهذه الطريقة. وينر مهتم أكثر في استغلال الماضي-إما الماضي

الفردي أو الجماعي-ليمنع الفهم والمصالحة. من المحزن أنه لم يستخدم الوقت الطويل والغل الذي استهلكه لأغراض ايجابية.

أزمة اليهود الأميركيين – زدنت 17 ايار2002

خَرَجَتْ منذ بضعة أسابيع مسيرة صاخبة مناصرة لإسرائيل في الوقت الذي كان يجري فيه حصار جنين. كان كل الخطباء من الشخصيات العامة البارزة، أعضاء في مجلس الشيوخ وقادة المنظمات اليهودية ومشاهير غيرهم، الذين أبدوا التضامن الثابت مع كل ما كانت تفعله إسرائيل. مثلت الإدارة بولفويتز، الشخصية الثانية في وزارة الدفاع، من صقور اليمين المتطرف الذين تكلموا عن إنهاء دول مثل العراق منذ أيلول الماضي. وعرف عنه أيضاً كمناصر عنيد لإسرائيل، في خطابه كغيره من الكثيرين الذين سبقوه- مَجَدَ إسرائيل وعبر عن دعمه الكامل وغير المشروط لها- لكنه أشار على نحو غير متوقع وبصورة عابرة إلى (معاناة الفلسطينيين). أطلقت بوجهه بسبب تلك العبارة صيحات الإزدراء العالية والطويلة لذلك لم يقدر أن يواصل خطابه وترك المنصة بنوع من المهانة.

مغزى هذا الحادث أن دعم اليهود الأمريكيين لإسرائيل اليوم لا يتحمل أي وجود فعلي للشعب الفلسطيني إلا في سياق الإرهاب والعنف والشر والتعصب. إضافة إلى هذا فهم يرفضون سماع أي شيء عن وجود طرف آخر سوى رأي الإسرائيليين المتعصبين المعادين للعرب الذين هم طبعاً على خط الصراع الأمامي في فلسطين. لنحكم بالمظاهرة المضادة للحرب المكونة من 60,000 شخص في تل أبيب والعدد المتزايد من العسكريين الاحتياط الذين يرفضون الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة والاحتجاج القوي للمثقفين والجماعات وبعض استطلاعات الرأي التي تظهر أن الغالبية من الإسرائيليين يرغبون في الإنسحاب مقابل السلام مع الفلسطينيين، هناك حراك سياسي بين اليهود الإسرائيليين على الأقل عكس ما هو الحال في الولايات المتحدة.

كتبت منذ أسبوعين المجلة الأسبوعية، نيويورك التي يبلغ توزيعها المليون نسخة، ملفاً بعنوان(أزمة يهود أمريكا) كان الموضوع (في نيويورك كما في إسرائيل هي قضية البقاء). لا أريد أن ألخص النقاط الأساسية في هذا الادعاء الغريب إلا لأقول أنه أضفى على صورة مسحة الألم (ما هو أثمن شيء في حياتك، دولة إسرائيل)، حسب أحد أبرز ما أقتبس عن النيويوركيين في المجلة، يجعلك تعتقد أن وجود هذه الأقلية الأغنى والأقوى في الولايات المتحدة كان مهدداً. وأقتبس عن شخص ذهب بعيداً ليوحي بأن اليهود الأمريكيين على حافة الهولوكوست الثانية. بالتأكيد، كما قالت إحدى المقالات، أغلب اليهود الأمريكيين يؤيدون ما تفعله إسرائيل في الضفة الغربية بحماسة؛ قال احد اليهود الأمريكيين، للمثال، بأن إبنه الآن في الجيش الإسرائيلي وأنه (مسلح وخطير وقتل عدد كثير من الفلسطينيين بقد ما استطاع)

يلعب إثم الثراء في أمريكا دوراً في هذا النوع من التفكير الواهم، لكن أكثره نتيجة العزلة الذاتية الغير عادية والفنتازيا والأسطورة التي تأتي من التعليم ومن نوع فريد من القومية الطائشة. منذ اندلاع الإنتفاضة قبل سنتين تقريباً، تشن وسائل الإعلام الأمريكية والمنظمات اليهودية الرئيسية كل أنواع الهجمات ضد التعليم الإسلامي في العالم العربي وباكستان وحتى في الولايات المتحدة واتهمت السلطات الإسلامية بالإضافة للسلطة الفلسطينية (العرفاتية) بتعليم الصغار كره أمريكا وإسرائيل وفضائل التفجير الإنتحاري والمديح اللامحدود للجهاد. لكن ما قيل عن نتائج ما يتعلمه اليهود الأمريكيون حول الصراع في فلسطين قليل: إن فلسطين أعطاها الرب لليهود، وهي أرض

خالية، حررت من بريطانيا، وأن السكان الأصليين هربوا لأن قادتهم طلبوا منهم ذلك، وأن الفلسطينيين لم يتواجدوا إلا مؤخراً كإرهابيين وأن كل العرب معادين للسامية ويريدون ذبح اليهود.

لا مكان في هذا التحريض لحقيقة وجود الشعب الفلسطيني، ولا يوجد أي ربط أيضاً بين عداء الفلسطينيين وحقدهم على إسرائيل وبين ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين منذ عام 1948. كما لو أن تاريخ كامل من الطرد وتدمير المجتمع والأعوام الخمس والثلاثين من إحتلال الضفة الغربية وغزة وعدم ذكر المجازر والقصف والتفجيرات ومصادرة الأراضي والقتل والحصار والذل، وسنوات من العقاب الجماعي والإغتيالات المستمرة منذ عقود ليست شيئاً، بما أن إسرائيل ضحية للغضب الفلسطيني والعداء وعداء السامية غير المبرر. لم يخطر ببال أغلب الأمريكيين الداعمين لإسرائيل أن يروا إسرائيل الصانع الفعلي لأفعال محددة باسم الشعب اليهودي والدولة اليهودية، وأن يربطوا بالنتيجة تلك الأعمال بمشاعر الفلسطينيين بالغضب والإنتقام.

المشكلة في الصميم هي أن الفلسطينيين ككائنات بشرية غير موجودين، أقصد ككائنات بشرية لها تاريخ وتقاليد ومجتمع وآلام وطموحات مثل كل الشعوب الأخرى. ولهذا فإن موقف كل اليهود الأمريكيين المؤيدين لإسرائيل، شيء يستحق البحث. إنه يعود إلى الإدراك بوجود شعب أصلي في فلسطين- كل قادة الصهاينة يعرفون ذلك وتحدثوا عنه- لكن الحقيقة التي تعيق الإستعمار لا يعترف بها أبداً. ولهذا الممارسة الصهيونية الجماعية هي إنكار الحقيقة وبالأخص في الولايات المتحدة حيث الحقائق ليست متوفرة كثيراً لتقديم أدلة فعلية، يتم ترويج حقيقة مضادة زائفة بالكذب. منذ عصور وأطفال المدارس يُلَقَنون بأنه لم يكن هناك فلسطينيين حين وصل الصهاينة الأوائل ولذلك هؤلاء الناس المتنوعون الذين يرمون الحجارة ويقاتلون الإحتلال مجرد مجموعة من الإرهابيين الذين يستحقون القتل. بإختصار، لا يستحق الفلسطينيون شيئاً كخبر أو حقيقة جمعية، لذلك يجب أن يتحولوا ويتلاشوا في صور سلبية أساساً. هذا بالتأكيد كله نتيجة تعليم مشوه، تم تلقينه لملايين الصغار الذي كبروا دون أي إدراك أطلاقاً بأن الشعب الفلسطيني قد تم تجريده من الإنسانية تماماً لخدمة غاية سياسية-إيديولوجية، المحافظة على الدعم الكبير لإسرائيل.

ما هو مدهش هو أن فكرة التعايش بين الشعوب لا تلعب أي دور في هذا التشويه. في الوقت الذي يريد اليهود الأمريكيين فيه أن يعترف بهم كيهود وأمريكيين في أمريكا، يرفضون الموافقة على وضع شرعي مماثل كعرب وفلسطينيين لشعب آخر تقمعه وتضطهده إسرائيل منذ البداية.

لو عاش إمرؤٌ في الولايات المتحدة لسنوات سيدرك عمق المشكلة التي تتجاوز السياسة العادية. لقد أنتج القمع الفكري للفلسطينيين الذي حدث بسبب التعليم الصهيوني شعوراً مشوهاً للحقيقة بشكل خطير غير قابل للانعكاس ويرى بأن كل ما تفعله إسرائيل تفعله كضحية: بناء على المقالات المتنوعة التي ذكرتها آنفاً. اليهود الأمريكيون في أزمة بالتعدي يشعرون بنفس الشيء الذي يشعره غالبية الجناح اليميني لليهود الإسرائيليين، إنهم في خطر وبقاءهم على المحك. هذا ليس له علاقة بالحقيقة بشكل واضح بل بنوع من الحالة الهستيرية التي تتجاهل التاريخ والوقائع بنرجسية غير عاقلة. تلاه دفاع عما قاله ولفويتز في خطابه لم يشر فيه إلى الفلسطينيين الذين لمح إليهم ولفوينز ودافع عن سياسة الرئيس بوش في الشرق الأوسط.

فاقم هذا التجريد من الإنسانية بهذا المقياس الكبير وأصبح أسوأ، مجبر على قول هذا، التفجيرات الإنتحارية التي شوهت وحطت من قدر النضال الفلسطيني. لقد أكدت كل حركات التحرر بأن

نضالها من أجل الحياة وليس الموت. لماذا نكون الإستثناء؟ كلما أسرعنا في تعليم أعدائنا الصهاينة وبينا أن مقاومتنا توفر التعايش والسلام، كلما قل احتمال قدرتهم على قتلنا مهما أرادوا ذلك، ولن يشيروا إلينا سوى كإرهابيين. أنا لا أقول أن شارون ونتنياهو يمكن تغييرهما. أنا أقول هناك جمهور فلسطيني بالإضافة للجمهور الإسرائيلي والأميركي بحاجة لأن يذكروا بأن الحل ليس بإستراتيجية وتكتيك قوة الأسلحة والدبابات والقنابل البشرية والبلدوزرات التي لا تخلق سوى المزيد من الوهم والتشويه في كلا الجانبين.

تاريخ جديد، أفكار قديمة –الأهرام ويكلي 21 أيار 1998

عقدت المجلتان الشهرية لا موند ديبلوماتيك والفصلية ريفيو ديتويد بالسيتينيان التي ينشرها في باريس معهد الدراسات الفلسطينية، مؤتمراً الأسبوع الماضي حضرته مشاركاً. بالرغم من الإعلان بأنها المرة الأولى التي تبادل فيها ما يسمى بالمؤرخين الإسرائيليين (الجدد) ونظراءهم الفلسطينيين الأفكار علناً، لكنها كانت المرة الثالثة أو الرابعة فعلياً؛ لكن ما جعل لقاء باريس جديداً هو بالتأكيد التبادل المطول بينهما الذي حدث لأول مرة.

من الجانب الفلسطيني كان أيلي سامبار ونور مصالح وأنا ومن الجانب الإسرائيلي بيني موريس وايلان بابي واتمار رابينوفيتش (الذي لم يكن مؤرخاً جديداً وإنما مستشار سابق لحزب العمل، وسفير إسرائيل في الأمم المتحدة، وأستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب وخبير في الشؤون السورية، لكن أفكاره متبدلة) وأخيراً زيف ستيرنهيل، مؤرخ إسرائيلي من الجناح اليميني للحركات الشعبية في أوروبا، أستاذ في الجامعة العبرية ومؤلف لعدد من الكتب الهامة حول أساطير المجتمع الإسرائيلي (أهمها- بأنها دولة ليبرالية وإشتراكية وديمقراطية- التي دحضها تماماً بتحليل مفصل ومميز عن طبيعتها غير الليبرالية والفاشية الظاهرة والمعادية للإشتراكية بشكل عميق كما ثبت ذلك من خلال حزب العمل والهيستدروت بشكل خاص.)

بسبب عدم الإعلان الجيد، كان حضور المؤتمر قليل إجمالاً لكن بسبب نوعية المادة المقدمة والجلسات الطويلة التي استمرت عدة ساعات، كان تمريناً ثميناً رغم تفاوت بعض المساهمات في المستوى. كان أحد انطباعاتي القوية بينما كان المشاركون الإسرائيليون – الذين كانوا من غير شك من نفس القناعات السياسية- يتكلمون دائماً عن الحاجة إلى عدم التحيز والابتعاد النقدي والهدوء التأملي كأشياء مهمة للدراسة التاريخية، كان الجانب الفلسطيني أكثر إلحاحاً وأقسى وعاطفي أيضاً في إصراره على الحاجة إلى تاريخ جديد. السبب طبعاً أن إسرائيل وبالتالي الإسرائيليين هم الطرف المسيطر في الصراع: هم يسيطرون على كل الأراضي ويملكون كل القوة العسكرية ولذلك يستطيعون أخذ وقتهم الكافي ولديهم وسائل الترف للجلوس وترك الجدال يكشف عن نفسه بهدوء. فقط ايلان بابي الاشتراكي المعلن والمؤرخ المعادي للصهيونية في جامعة حيفا اعتنق وجهة النظر الفلسطينية وبرأيي قدم أروع المداخلات الإسرائيلية المهاجمة للمعتقدات الدينية والمؤسسات التقليدية. أما بالنسبة للآخرين فقد رأوا بدرجات متفاوتة أن الصهيونية ضرورة لليهود. لقد فوجئت مثلاً عندما اعترف ستيرنهيل في الجلسة الختامية أن ظلماً خطيراً ارتكب ضد الفلسطينيين وأن الصهيونية في جوهرها حركة للغزو، ثم استمر قائلاً بأنه كان غزواً ضرورياً.

أحد أهم الأشياء اللافتة للنظر حول الإسرائيليين، مرة أخرى باستثناء بابي، هو التناقض العميق، المحاذي للشيزوفرينيا الذي يميز عملهم. بينما موريس مثلاً، كتب منذ عشر سنوات أهم عمل إسرائيلي عن نشأة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. بإستخدامه لأرشيف الهاغانا والصهيونية، برهن بدون أدنى شك على وجود تهجير جماعي قسري للفلسطينيين نتيجة سياسة محددة تبناها ووافق عليها بن غورويون. أظهر عمل موريس المملوء بالتفاصيل غير المهمة أن القادة العسكريين أمروا بطرد الفلسطينيين من منطقة إثر أخرى وحرق قراهم والاستيلاء الممنهج على ممتلكاتهم وبيوتهم. والأغرب من ذلك، يبدو موريس في نهاية كتابه معارضاً لاستخلاص نتائج دليله الحتمية. بدلاً من

القول صراحة أن الفلسطينيين طردوا. قال أنهم طردوا جزئيا بواسطة القوات الصهيونية وجزئياً رحلوا نتيجة للحرب. وكأنه لا يزال صهيونياً في إعتقاده بالنسخة الإيديولوجية- من أن الفلسطينيين رحلوا دون طرد إسرائيلي- أكثر من قبوله بدليله بشكل كامل، الذي يرى أن السياسة الصهيونية أمرت بالتهجير الجماعي للفلسطينيين. وبالمثل يعترف ستيرنهيل في كتابه أن الصهاينة لم يعتبروا العرب مشكلة أبداً لأنهم لو فعلوا ذلك فأنهم سيعترفون صراحة أن الخطة الصهيونية لتأسيس دولة يهودية لا يمكن أن تتحقق دون التخلص من الفلسطينيين. لكنه لا زال مصراً في المؤتمر بأن طرد الفلسطينيين كان ضرورياً رغم أنه خطأ أخلاقي.

رغم هذا التنافر، كان الأمر مثيراً حين ضغط بابي أو الفلسطينيون بشكل أقوى تردد كل من موريس وستيرنهيل. اعتبرت أن آراءهم المتبدلة علامة على تبدل أعمق يحدث داخل إسرائيل. لكن النقطة هنا أن التبدل الهام في الخطوط الرئيسة للإيديولوجية الصهيونية لا يمكن أن يحدث فعلياً ضمن هيمنة السياسة الرسمية، العمل أو الليكود، وإنما خارج ذلك السياق الخاص، أي، وسط المثقفين الأكثر حرية ليفكروا ويتأملوا الحقائق المقلقة لإسرائيل الحالية. مشكلة المحاولات الأخرى للمثقفين من الجانبين للتأثير على سياسات نتنياهو مثلاً، كما في حالة جماعة كوبنهاغن أنها اقتربت جداً من الحكومات ذات النظرة الضيقة والقصيرة للأشياء .

لو أظهرت السنوات منذ 1993 أي شيء فسيكون افتقار وجهة النظر الصهيونية الرسمية في الصراع ضد الفلسطينيين للجدوى والأهمية الليبرالية والإستنارة (وهذا صحيح بالنسبة للجناح اليساري مثل ميريتس أو الوسط مثل شيمون بيريز) المعدة لتعيش في الشيزوفرينيا التي أشرت لها أنفاً. نعم نحن نريد السلام، لكن لا، لم يكن هناك أي خطأ فيما فعلناه في عام 1948. بقدر الإهتمام بالسلام الحقيقي هذا التناقض الأساسي لا يمكن تبريره والدفاع عنه، نظراً لأنه يقبل أيضاً فكرة أن الفلسطينيين الذين في أرضهم دونيين لليهود. إضافة إلى ذلك، أنه يقبل بالتناقض الأساسي بين الصهيونية والديمقراطية (كيف يمكن أن تكون هناك دولة يهودية ديمقراطية ويعيش فيها مليون مواطن غير يهودي غير متساويين في الحقوق وتملك الأرض والعمل مع اليهود؟). الفضيلة الكبرى للمؤرخين الجدد أن أعمالهم على الأقل تدفع بالتناقضات التي في داخل الصهيونية إلى حدودها القصوى التي لولا ذلك لن يراها أغلب الإسرائيليين ولا حتى الكثير من العرب.

وصحيح بالتأكيد أن الأهمية السياسية اليوم للمؤرخين الإسرائيليين الجد أنهم أكدوا ما قالته الأجيال الفلسطينية من مؤرخين وغيرهم حول ما حدث لنا كشعب على يد إسرائيل. وطبعاً هم فعلوا هكذا كإسرائيليين يتكلمون إلى حد ما بضمير شعبهم ومجتمعهم. لكنني هنا أتحدث بنقد الذات وأشعر كعرب عموماً وكفلسطينيين خصوصاً، بأننا يجب أن نكتشف تاريخنا وأساطيرنا وأفكارنا البطريركية عن الأمة، الشيء الذي من الواضح أننا لم نفعله بعد لأسباب واضحة. أثناء الحلقة الدراسية في باريس، الفلسطينيون بما فيهم أنا كنا نتحدث بشعور كبير بالإلحاح والاستعجال حول الحاضر بما أن النكبة الفلسطينية تستمر في هذا الحاضر. يستمر الطرد والتنكر للحقوق الذي أخذ أشكالاً جديدة من القسوة. ومع ذلك، كمثقفين ومؤرخين علينا واجب للنظر إلى كل التاريخ، تاريخ قياداتنا ومؤسساتنا بعين نقدية جديدة. هل هناك شيء ما عن تلك التي ربما تستطيع أن تفسر الصعوبات كشعب يجد نفسه فيها الآن؟ ماذا عن الصراع بين العائلات الكبيرة أو الحمولات، وحقيقة أن قادتنا لم ينتخبوا ديمقراطياً كما هي العادة، والحقيقة الكارثية الأخرى، إننا نعيد إنتاج الفساد والوسطية في كل جيل؟ هذه قضايا هامة وحاسمة ولا يمكن أن تظل بلا أجوبة أو مؤجلة إلى

وقت غير محدد تحت قناع الدفاع القومي والوحدة القومية. ربما كانت هناك بداية يقظة في النقد الذاتي في كتاب يزيد صايغ الجديد عن تاريخ الصراع الفلسطيني المسلح، لكننا نحتاج إلى عدد أكثر من الأعمال السياسية والنقدية المشابهة، أعمال تدرك كل التعقيدات والتناقضات في تاريخنا دون أن نخجل منها.

لا أعرف للآن إن كانت أعمال موريس وبابي أو سترينهيل قد ترجمت للغة العربية أم لا. يجب أن يعالج هذا الغياب فوراً. مهمة جداً، كما أعتقد، الحاجة بأن يتفاعل مثقفون عرب مباشرة مع هؤلاء المؤرخين بدعوتهم إلى نقاشات وحوارات في الجامعات العربية والمراكز الثقافية والمنتديات العامة. كما أعتقد بالمثل أيضاً أن من واجبنا كفلسطينيين وكمثقفين عرب أيضاً أن نجذب أكاديميين إسرائيليين وحضور مثقف لإلقاء المحاضرات في المراكز الإسرائيلية علناً وبشجاعة وصلابة. ما الذي فعلته لنا كل سنوات رفضنا لإسرائيل؟ لاشيء إطلاقاً، ما عدا أنها أضعفتنا وأضعفت بصيرتنا لخصمنا. السياسات منذ عام 1948 وصلت إلى نهايتها، ودفنت في فشل عملية أوسلو لمحاولة الفصل بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين. كجزء من السياسات الجديدة التي أتكلم عنها في هذه المقالات، فرصة ممتازة تقدم نفسها في تفاعل مستمر مع المؤرخين الإسرائيليين الجدد، الذين رغم أنهم أقلية صغيرة لكنهم يمثلون ظاهرة بالغة الأهمية. هذا العمل مثلاً، له تأثير كبير على 22 جزء من مسلسل، تيكيوما، الذي عرض على التلفزيون الإسرائيلي كتاريخ دولة امتد إلى احتفالاتها بعيدها الخمسين. هم مطلوبون جداً في المدارس الإسرائيلية كمحاضرين وجذبت أعمالهم إنتباه المؤرخين الآخرين في أوروبا والولايات المتحدة. من غير السوي، وهذا لا يعني التراجع بأن العالم العربي هو المكان الوحيد الذي لم يسمعوا فيه جيداً وبشكل كامل، لكن يجب علينا أن نتخلص من تحاملنا العرقي ومواقف النعامات وأن نبذل الجهود لتغيير الوضع. لقد حان الوقت.

خيارات واعدة في فلسطين - زدنت 15كانون الثاني 2002

بعد خمسة عشر شهر، ليس للانتفاضة الفلسطينية ما تفاخر لنفسها به سياسياً سوى القليل، رغم الثبات اللافت للنظر، للشعب المحتل والمطرود من أرضه وتسليحه الضعيف وقيادته الهزيلة التي تحدت تدمير آلة الحرب الإسرائيلية العديمة الرحمة. في الولايات المتحدة، رددت الحكومة، مع حفنة قليلة من الاستثناءات، ووسائل الإعلام أصداء بعضها البعض بتناغم العنف الفلسطيني والإرهاب، دون أدنى إنتباه إطلاقاً إلى الاحتلال العسكري القائم منذ خمس وثلاثين عام، الأطول في التاريخ الحديث. نتيجة للإدانات الأمريكية الرسمية لسلطة ياسر عرفات منذ 11 أيلول كملاذ وحتى رعاية للإرهاب زادت دعمها لطلب حكومة شارون المنافي للعقل بأن إسرائيل ضحية الاعتداءات الفلسطينية في العقود الأربعة من الحرب التي شنتها إسرائيل ضد المدنيين والملكيات والمؤسسات دون رحمة أو تمييز. النتيجة اليوم أن الفلسطينيين محبوسين في 220 جيتو يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي ودبابات الميركافا ومروحيات الأباتشي التي تزودهم بها الولايات المتحدة وطائرات الاف سيكستين التي تحصد الناس الآن والبيوت وكروم الزيتون والحقول بشكل يومي؛ وتعطلت الحياة تماماً في الجامعات والمدارس والشركات والمؤسسات المدنية؛ تم قتل المئات من المدنيين الأبرياء وأصيب أكثر من 20,000 شخص؛ واستمر اغتيال القادة الفلسطينيين، ووصلت البطالة والفقر إلى خمسين بالمائة- كل هذا بينما الجنرال انثوني زيني أضجرنا بحديثه الرتيب عن العنف الفلسطيني مع البائس عرفات الذي لا يستطيع مغادرة رام الله لأن الدبابات الإسرائيلية تسجنه هناك وبينما قوات أمنه المشتتة تفر محاولة النجاة من الدمار الذي حل بمكاتبهم وثكناتهم.

وزاد الطين بلة، الفلسطينيون الإسلاميون الذين يعبثون في طواحين الدعاية الإسرائيلية وقواتها الجاهزة دوماً بواسطة اندفاعات عرضية لهجمات انتحارية بربرية مستهترة أجبرت عرفات في أواسط كانون الأول بأن يحول قواته الأمنية المعقدة ضد حماس والجهاد الإسلامي، واعتقال الميليشيات وإغلاق المكاتب وإطلاق النار أحياناً على المتظاهرين وقتلهم. كلما طلب شارون أمراً أسرع عرفات بتنفيذه، حتى حين يكون شارون يعد طلباً آخراً، كتحريضه لحدث أو قوله ببساطة- بدعم من الولايات المتحدة- أنه غير راض، وأن عرفات يظل إرهابي دخيل (الذي حرمه بشكل سادي من حضور عيد الميلاد في بيت لحم) غرضه الوحيد في الحياة هو قتل اليهود. لهذا العدد غير المنطقي من الهجمات ضد الفلسطينيين، على الرجل الذي هو قائدهم شاءوا أم أبوا وعلى كيانه الوطني الذليل، ورد عرفات المحير إقتصر على المطالبة الدائمة بالعودة إلى المفاوضات، كما لو أن حملة شارون الواضحة ضد احتمال أي مفاوضات لم تحدث، وكما لو أن كل فكرة مفاوضات أوسلو لم تتبخر سلفاً. ما يدهشني هو عدم وجود أحد، باستثناء عدد صغير من الإسرائيليين (آخرهم ديفيد غروسمان)، يخرج ليقول علنا فقط بأن إسرائيل تقمع الفلسطينيين وتضطهدهم.

نظرة أقرب إلى الواقع الفلسطيني تروي قصة أكثر تشجيعاً. أظهرت استطلاعات الرأي الأخيرة، أن عرفات وخصومه الإسلاميين (الذين يدّعون أنفسهم بالمقومة) نالوا بين 40 و 45 بالمائة على التوالي من القبول الشعبي. هذا يعني أن الأكثرية الصامتة من الفلسطينيين ليست مع السلطة التي خانت الثقة في أوسلو (أو مع نظامها الفاسد والقمعي المخالف للقانون) ولا مع العنف الإسلامي. حتى الداهية التكتيكي عرفات، كان يرد دائماً بتفويض النائب الدكتور ساري نسيبه- المقدسي البارز

ورئيس جامعة القدس والفتحاوي القوي-بإلقاء خطابات كبالونات اختبار توحي أنه لو كانت إسرائيل أكثر عدلاً فربما تخلى الفلسطينيون عن حق العودة. بالإضافة إلى أن عدد وافر من الشخصيات الفلسطينية القريبة من السلطة (أو بدقة أكبر، التي نشاطاتها لم تكن مستقلة عن السلطة أبداً) وقع بيانات وذهب في رحلة مع ناشطي سلام إسرائيليين كانوا من خارج السلطة أو غير مؤثرين ومشكوك بهم. يفترض بهذه الممارسات المثبطة للهمة أن تظهر للعالم بأن الفلسطينيين راغبين لصنع سلام بأي ثمن، حتى بالتكييف مع الاحتلال العسكري. لكن عرفات يظل غير مهزوم طالما نهمه الذي لا يشبع في البقاء في السلطة موجوداً.

لكن من وراء ذلك ينبثق تيار قومي دينوي (علماني) جديد ببطء. من المبكر أن نسميه حزباً أو كتلة، لكنه الآن مجموعة واضحة لها وضع مستقل وشعبي حقيقي. من بينهم الدكتور حيدر عبد الشافي والدكتور مصطفى البرغوثي (دون الإرباك مع قريبه البعيد الناشط في حركة فتح مروان البرغوثي) مع إبراهيم دقاق والبروفيسور زياد أبو عامر ومحمود العكر وأحمد حرب وعلي الجرباوي وفؤاد مغربي وعضو المجلس التشريعي راوية الشوا وكمال شيرافي والكاتب حسن خضر ومحمود درويش ورجا شحاذه وريما ترازي وغسان الخطيب وناصر عروري وإيليا زريق وأنا. في أواسط كانون الأول، أصدرنا بياناً جماعياً غطته بشكل جيد وسائل الإعلام العربية والأوروبية (مر دون ذكر في الولايات المتحدة وإسرائيل) داعياً إلى الوحدة الفلسطينية والمقاومة وإنهاء غير مشروط للإحتلال الإسرائيلي، لكن بالتزام الصمت المتعمد حول العودة إلى مفاوضات أوسلو. نعتقد أن التفاوض تحسين للاحتلال ومساو لتطويله. لا يأتي السلام إلا بعد انتهاء الاحتلال. أكثر أقسام البيان جرأة تركز على الحاجة إلى تحسين الوضع الفلسطيني الداخلي، وأوله تعزيز الديمقراطية وتصحيح عملية صناعة القرار (التي يسيطر عليها عرفات وجماعته)، وتأكيد الحاجة إلى استرداد سيادة القانون واستقلال القضاء ومنع أي استغلال آخر للأموال العامة وتقوية أدوار المؤسسات العامة لكي تعطي كل مواطن الثقة في تلك المؤسسات التي خصصت بوضوح للخدمة العامة. أخر وأهم مطلب هو الدعوة إلى انتخابات برلمانية جديدة.

كيفما قرأ هذا البيان، الحقيقة بالنسبة للكثير جداً من الفلسطينيين البارزين المستقلين- مع أغلب، موظفي الصحة والتعليم ومنظمات الحرفيين والعمال كقاعدة لهم-قالوا هذه الأشياء أهملت من جانب فلسطينيين آخرين (الذين رأوها بأنها أهم نقد لاذع لنظام عرفات أيضاً) أو من جانب القوات العسكرية الإسرائيلية. كما قفزت السلطة لتطيع شارون وبوش بالقبض على الإسلاميين العاديين المشبوهين، أطلق الدكتور البرغوثي حركة التضامن العالمية غير العنيفة، التي تتألف من 550 مراقب أوروبي (عدد منهم برلمانيون أوروبيين) جاؤوا على نفقتهم. معهم زمرة من الشباب الفلسطينيين المنضبطين جيداً الذين منعوا رمي الحجارة أو إطلاق النار من الجانب الفلسطيني بينما كان الأوروبيون يزعجون الجنود الإسرائيليين وتحرك المستوطنين. هذا رغم وجود الجنود الإسرائيليين. هذا جمد السلطة والإسلاميين بشكل فعال ووضع الأجندة لجعل الاحتلال الإسرائيلي بؤرة الاهتمام. حدث كل هذا بينما كانت الولايات المتحدة تستخدم الفيتو ضد قرار لمجلس الأمن يفوض مجموعة دولية من المراقبين غير المسلحين في إدخال أنفسهم بين الجيش الإسرائيلي والمدنيين الفلسطينيين العزل.

كانت النتيجة الأولى لهذا في 2 شباط بعد أن عقد البرغوثي مؤتمراً صحفياً مع حوالي عشرين أوروبي في القدس الشرقية، إعتقله الإسرائيليون مرتين وحبسوه واستجوبوه، وكسروا ركبته بعقوب

البنادق وآذوا رأسه، بذريعة أنه كان يزعج السلام ودخوله إلى القدس بشكل غير شرعي (رغم أنه ولد هناك ولديه ترخيص طبي لدخولها). لم تعقه وزملاؤه كل هذه العقبات من الاستمرار في الصراع غير العنيف، الذي أعتقد، أنه من المؤكد لو وضع يده على تلك الانتفاضة المسلحة ويركزها على إنهاء الاحتلال والمستوطنات وتقود الفلسطينيين نحو الدولاتية والسلام. إسرائيل تخشى من شخص مثل البرغوثي الرابط الجأش والعقلاني والفلسطيني المحترم أكثر مما تخشى من المتطرفين الإسلاميين الملتحين الذين يحب شارون أن يشوههم بتصويرهم تهديداً إرهابياً جوهريا لإسرائيل. كل ما يمكنهم فعله هو إعتقاله وهذا نموذجي في سياسة شارون المفلسة.

لكن أين الليبراليون الأمريكيون والإسرائيليون، الذين يسرعون في شجب العنف بينما لم يقولوا سوى القليل عن الاحتلال المخزي والإجرامي نفسه شيئاً؟ أنا أقترح جدياً بأن ينضموا إلى جيف هالبر من اللجنة الإسرائيلية ضد التدمير ولويزا مورغانتيني عضو البرلمان الايطالي، عند الحواجز العسكرية ويقفون جنباً إلى جنب مع هذه المبادرة الفلسطينية الدنيوية (العلمانية) الرئيسية الجديدة ويبدؤون الاحتجاج ضد الأساليب العسكرية المدعومة مباشرة من دافعي الضرائب وصمتهم الغالي المشترى. لسنة وهم يعصرون أيديهم ويتذمرون من غياب حركة سلام فلسطينية (منذ متى يجب أن يتحمل الشعب المحتل مسؤولية حركة سلام؟)، شياطين السلام المزعومين الذين يستطيعون التأثير على العسكرة الإسرائيلية عليهم واجب سياسي واضح بأن ينظموا أنفسهم ضد الاحتلال الآن، بلا شرط وبدون أي مطالب غير لائقة من الفلسطينيين المثقلين مسبقاً.

بعضهم فعل ذلك. فقد رفض عدة مئات من الجنود الإحتياط الإسرائيليين الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة كما شن طيف واسع من صحفيين وناشطين وأكاديميين وكتاب(أميرة حاس وجدعون ليفي وديفيد غروسمان واسحاق لاور وايلان بابي) هجوماً ثابتاً على حملة شارون العسكرية العقيمة ضد الشعب الفلسطيني لهذا يجب أن توجد مجموعة مماثلة في الولايات المتحدة، التي يسود فيها تواطؤ كبير وحماس قوي مناصر لإسرائيل بإستثناء عدد قليل جداً من الأصوات اليهودية التي تثير سخطاً شعبياً ضد الاحتلال الإسرائيلي. لقد حقق اللوبي الإسرائيلي نجاحاً مؤقتاً في تصنيف تحديد الحرب ضد بن لادن مع هجوم شارون الجماعي الهادف على عرفات وشعبه. لسوء الحظ إن التجمع العربي الأمريكي صغير جداً ومحاصر ويحاول أن يتقي هجمات شبكة اشكروفت المتوسعة باستمرار والصورة العنصرية وتقليص الحريات المدنية هناك.

لذلك إنه من الواجب الملح جداً الآن هو التنسيق بين المجموعات العلمانية التي تؤيد الفلسطينيين، رغم إن العقبة الرئيسية (الأهم من النهب الإسرائيلي) هو التشتت الجغرافي ضد وجود الشعب الفلسطيني. وإنهاء الاحتلال وكل ما يتعلق به أصبحت حاجة واضحة جداً. دعونا الآن نشرع في ذلك. ويجب لا يخجل المثقفون العرب من الإنضمام الفعلي والمشاركة معنا.

ما الذي فعلته إسرائيل؟-زدنت 18نيسان2002.

رشحت أنباء وصور الغزو الإسرائيلي غير العادي لمدن الضفة الغربية ومخيمات اللاجئين رغم الجهود الإسرائيلية الكبيرة لتقييد التغطية الإعلامية.

فقد قدم الانترنت مئات التقارير الشفهية والمصورة لشهود العيان كما غطتها التلفزيونات العربية والأوروبية التي كان معظمها غير متوفر أو محجوب أو محذوف من عالم وسائط الإعلام السائدة. يقدم الحدث دليلاً مذهلاً عن هدف الحملة الإسرائيلية: غزو الأرض والمجتمع الفلسطينيين. يرى الخط الرسمي الذي تدعمه الولايات المتحدة وكل معلق أمريكي في وسائل الإعلام تقريباً أن إسرائيل تدافع عن نفسها بالرد على التفجيرات الانتحارية التي قوضت أمنها وهددت وجودها أيضا. اكتسب هذا الإدعاء منزلة الحقيقة المطلقة التي لا تتغير بما تفعله إسرائيل أو تتعرض له. استئصال شبكات الإرهاب ومهاجمة أوكار الإرهابيين وتدمير البنية التحتية للإرهابيين (لاحظ نزع الصبغة الإنسانية في كل هذه العبارات): تتكرر الكلمات كثيراً بلا تفكير لذلك أعطت لإسرائيل الحق في أن تفعل ما تريد فعله وهو تدمير الحياة المدنية الفلسطينية بأكبر ضرر ولنزوة التدمير فقط، والقتل والإذلال والتخريب المتعمد للممتلكات، بلا هدف لكن بأقصى عنف تكنولوجي ممكن. ليس هناك أية دولة في العالم كله تستطيع فعل ما فعلته إسرائيل بهذا القدر من الدعم والاستحسان الأمريكيين. وليس هناك من هو أكثر عناداً وتدميراً من إسرائيل

هناك علامات لتآكل طبيعة تلك الادعاءات الغريبة والمدهشة (القتال من أجل الوجود) وتقويضها ببطء بواسطة التخريب الفظ الخيالي الذي تقوم به الدولة اليهودية ورئيس وزراءها السفاح، (أرييل شارون) لنأخذ الصفحة الرئيسية لنيويورك تايمز في 11 نيسان وتقرير سيرج شميمان(حولت الهجمات الإسرائيلية المشاريع الفلسطينية إلى حديد ملتو وأكوام تراب) وهو ليس من المروجين للفلسطينيين: (ليس هناك أية طريقة لتقدير مدى وحجم الضرر الذي لحق بالمدن والبلدات(رام الله، بيت لحم، طولكرم، قلقيلية، نابلس وجنين) التي تقبع تحت حصار محكم تدعمه الدوريات والقناصة الذين يطلقون النار في الشوارع. لكن من المؤكد القول أنه طال البنية التحتية للحياة نفسها ولأي دولة فلسطينية مستقبلية (طرق، مدارس، أبراج كهرباء، أنابيب مياه ، خطوط هاتفية) بأي مقياس وحشي يستخدم الجيش الإسرائيلي 50 دبابة و250 صاروخ باليوم وعشرات الهجمات لطائرات إف ستة عشر تحاصر مخيم جنين للاجئين منذ أكثر من أسبوع، لا تزيد مساحته عن كيلو متر مربع واحد من الأكواخ السكنية التي يقطنها 15,000 لاجئ وعدد قليل من رجال لا يملكون سوى البنادق الآلية دون أي شكل من أشكال الدفاع أو قادة أو صواريخ أو دبابات، لا يملكون أي شيء ويسمو هذا رداً على عنف الإرهاب وتهديد بقاء إسرائيل؟ وتفيد تقارير أخرى عن طمر المئات من سكان المخيم تحت أنقاض البيوت التي دمرتها البلدوزرات الإسرائيلية وكومتها فوق بقايا المخيم المخربة.

هل المدنيون الفلسطينيون من رجال ونساء وأطفال ليسوا أكثر من جرذان أو صراصير يمكن قتلهم ومهاجمتهم بالآلاف دون أن يثير ذلك أي نوع من التعاطف والدفاع ؟ ماذا عن آلاف الرجال الفلسطينيين الذين أسرهم الجنود الإسرائيليون ولم يعد لهم أي أثر، والإملاق والتشريد للكثير من الناس العاديين الذين يحاولون النجاة من الخراب الذي أحدثته البلدوزرات الإسرائيلية في كل الضفة الغربية،والحصار المستمر منذ شهور كثيرة، وقطع الكهرباء والماء عن كل البلدات والمدن

الفلسطينية، وأيام حظر التجول الطويلة، والنقص الدائم في الغذاء والدواء، والجرحى الذين نزفوا حتى الموت، الهجمات المتعمدة على سيارات وعمال الإسعاف، لدرجة دفعت المطيع كوفي عنان إلى وصفها بالوحشية؟ لا يمكن رمي مثل هذه الأعمال الإجرامية في مهاوي الذاكرة. يجب على أصدقاء إسرائيل أن يسألوها كيف يمكن لسياستها الإنتحارية أن تحقق السلام والقبول والآمان.

لقد حولت إسرائيل التي تملك أكبر وأرهب آلة دعائية في العالم، شعباً كاملاً إلى مجرد (ميليشيات) و(إرهابيين) وسمحت ليس للجيش الإسرائيلي فقط وإنما لأسطوله من الكتاب والمدافعين بأن يطمسوا التاريخ الرهيب من المعاناة والانتهاكات الهادفة لتدمير الوجود المدني للمجتمع الفلسطيني التي حدثت عام 1948 وخلق الشعب المطرود؛ وغزو الضفة الغربية وغزة واحتلالهما العسكري منذ عام 1967؛ وغزو عام 1982 وقتل 17،500 لبناني وفلسطيني ومذابح صبر وشاتيلا؛ والاعتداءات الدائمة على المدارس الفلسطينية ومخيمات اللاجئين والمستشفيات والتجهيزات المدنية بكل أنواعها. ما هو غرض العمل المضاد (الإرهاب) الذي يأتي من تدمير مقر وزارة التربية والتعليم والتخلص من سجلاتها وبلدية رام الله والمكتب المركزي للإحصاء والمؤسسات المتنوعة المتخصصة بالحقوق المدنية، وتطوير الصحة والاقتصاد والمستشفيات ومحطات الإذاعة والتلفزيون؟ أليس من الواضح أن شارون مصمم ليس على (كسر) الفلسطينيين فقط وإنما على محاولة اجتثاثهم كشعب مع مؤسساته القومية أيضاً؟

في سياق هذه المفارقة والقوة غير المتناسبة، من الخبل الاستمرار في الطلب من الفلسطينيين الذين لا يملكون الدبابات أو الطائرات ولا أي نوع من الدفاعات الجوية ولا القيادة الفاعلة، بأن (يتخلوا) عن العنف، دون فرض قيود مشابهة على الأعمال الإسرائيلية. حتى قضية التفجيرات الانتحارية التي عارضتها دائماً، لا يمكن دراستها من وجهة نظر تسمح بمعيار عنصري خفي يعطي لحياة الإسرائيليين أهمية أكبر من حياة كثير من الفلسطينيين الذين فقدوا وأصيبوا بإعاقات وتشوهات بواسطة الاحتلال الإسرائيلي العسكري الطويل والبربرية المنظمة علناً التي يستخدمها شارون ضد الفلسطينيين منذ بداية سيرته منذ خمسينيات القرن العشرين حتى الآن.

لا يمكن تخيل وجود أي سلام برأيي لا يعالج القضية الحقيقية: رفض إسرائيل المطلق قبول أي وجود سيادي للشعب الفلسطيني يخوله بحقه فوق ما اعتبره شارون وأكثر الداعمين له بأنه أرض إسرائيل الكبرى، أي، الضفة الغربية وغزة. لقد أصدرت الفايننشال تايمز 6-7 نيسان ملفاً عن شارون مع سرد مقتطفات مسهبة من سيرته، عنونته الجريدة ب(لقد كتب مفتخراً بمعتقد والده ووالدته بأن اليهود والعرب يمكنهما العيش جنباً إلى جنب) ثم تسرد مقتطفات من كتاب شارون: (لكنهم يعتقدون بشكل لا يرقى إليه الشك أنهم وحدهم من له الحقوق بالأرض. ولم يجبرهم أحد على الخروج منها، بصرف النظر عن الإرهاب أو أي شيء آخر. تكون الأرض لك مادياً....حين يكون لديك القوة المادية والقوة الروحية أيضاً).

قامت منظمة التحرير الفلسطينية عام 1988 بالتنازل واعتبرت التقسيم التاريخي لفلسطين إلى دولتين مقبولاً. وقد أعيد تأكيد هذا في مناسبات مختلفة، وفي وثائق أوسلو أيضا. لكن من الواضح أن الفلسطينيين وحدهم من اعترف بذلك لأن إسرائيل لم تفعل ذلك أبداً. لهذا السبب هناك أكثر من 170 مستوطنة الآن على الأراضي الفلسطينية وشبكة من الطرق طولها 300 ميل تربطها ببعضها البعض وتعيق حركة الفلسطينيين تماماً (حسب ما جاء عن جيف هالبر عضو اللجنة الإسرائيلية ضد تدمير البيوت، الذي كلف إزالتها 3 بليون دولار أمريكي، بتحويل من الولايات المتحدة) ولهذا

السبب أيضاً لم يعترف أي رئيس وزراء إسرائيلي من رابين وبعد بأي سيادة فلسطينية للفلسطينيين ولهذا طبعاً ازدادت المستوطنات بشكل سنوي. مجرد نظرة سريعة لخريطة حديثة للأراضي تكشف ما فعلته إسرائيل خلال عملية السلام، والمدى الكبير للفجوات الجغرافية الناتجة والتقلص في الحياة الفلسطينية، وفي الحقيقة تفكر إسرائيل والشعب اليهودي في إمتلاك أرض إسرائيل الكاملة: هناك قوانين تَمَلُّكْ في إسرائيل تحمي هذا وهي لشبكة المستوطنات والطرق في الضفة الغربية وغزة فقط، وعدم السماح بأي حقوق سيادية على الأرض للفلسطينيين تقوم بنفس الدور.

ما يجفل العقل هو عدم وجود أي مسؤول أمريكي أو فلسطيني أو عربي أو من الأمم المتحدة أو أي واحد – عارض إسرائيل في هذه النقطة، التي أحيكت في كل وثائق وإجراءات واتفاقيات أوسلو. لهذا السبب طبعاً بعد عشر سنوات من (مفاوضات السلام) لا تزال إسرائيل تسيطر على الضفة الغربية وغزة. بل أكثر من سيطرة مباشرة (مملوكة؟) من قبل 1,000 دبابة إسرائيلية وآلاف الجنود اليوم، لكن المبدأ الضمني هو نفسه. لم يعرض أي قائد إسرائيلي رسمياً (بالتأكيد ليس شارون ومؤيدي أرض إسرائيل الذين يشكلون أغلبية حكومته) الإعتراف بالأراضي المحتلة كأراضي محتلة ولا حتى الإعتراف بأن الفلسطينيين يمكن أن ينالوا حقوق السيادة، أي دون سيطرة إسرائيلية على الحدود والمياه والأجواء والأمن ولهذا يعتبرها أغلب العالم أرضاً فلسطينية. لهذا يبدو الكلام عن (رؤيا) الدولة الفلسطينية أصبح مجرد خيال حتى تتنازل الحكومة الإسرائيلية عن قضية الأرض رسمياً وبشكل علني وصريح وتمنح السيادة. لم تقم أي حكومة إسرائيلية بهذا التنازل أبداً، وإن كنت محقاً، لن يحدث ذلك في المستقبل القريب. من الضروري أن نتذكر أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم اليوم التي لم تعلن عن حدودها دولياً؛ الدولة الوحيدة التي ليست لمواطنيها بل لكل يهود العالم؛ الدولة الوحيدة التي أكثر من 90% من أراضيها وقفاً حصرياً لاستخدام الشعب اليهودي. والدولة الوحيدة في العالم التي لم تعترف أبداً بأي شروط رئيسية من القانون الدولي (كما اثبت ريتشار فولك مؤخراً في هذه الصفحات) التي يشير فيها إلى نزعة الرفض المطلقة وعمقها وتعقيدها البنيوي التي على الفلسطينيين مواجهاتها.

لهذا السبب شككت بنقاشات واجتماعات السلام، تلك الكلمة الجميلة التي تعني في السياق الحالي وببساطة بأن يتوقف الفلسطينيون عن مقاومة السيطرة الإسرائيلية على أرضهم. إنها من بين عيوب قيادة عرفات الرهيبة (لا حاجة للحديث عن وضع القادة العرب عموماً الذي يرثى له) التي لم تجعل مفاوضات أوسلو التي استغرقت عقداً من الزمن تركز على ملكية الأرض، تلقي المسؤولية على إسرائيل لتعلن عن رغبتها في التخلي عن الحق الشرعي بالأراضي الفلسطينية؛ ولم يطالب أبداً بإجبار إسرائيل على تحمل وعلاج مسؤوليتها عن معاناة وعذاب شعبه. وأخشى الآن أن يحاول أن ينقذ نفسه مرة أخرى، في حين أن ما نحتاجه فعلياً هو مراقبون دوليون لحمايتنا بالإضافة إلى انتخابات تضمن للشعب الفلسطيني مستقبلاً سياسياً حقيقياً.

المشكلة العويصة التي تواجه إسرائيل وشعبها هي: هل هي راغبة بأن تكون كغيرها من البلدان وتسلم بحقوقها وواجباتها وتتخلى عن تأكيداتها بملكية الأرض المستحيلة التي كان شارون وآباءه وجنوده يقاتلون من أجلها منذ يومهم الأول؟ في عام 1948 ضاع 78% من أرض فلسطين. في عام 1967 خسروا ال22% الباقية من فلسطين، لصالح إسرائيل في الحالتين. الآن يجب على المجتمع الدولي أن يفرض على إسرائيل الالتزام بقبول مبدأ التقسيم الواقعي، (عكس خيالي)، وعلى قبول مبدأ تقييد المطالب الإسرائيلية بأراضي زائدة يتعذر احتلالها، تلك الذرائع التوراتية السخيفة

والقوانين التي سمحت بالهيمنة على شعب آخر بشكل تام. لماذا تمرر هذه النزعة التعصبية دون أي إعتراض؟ لكن كل ما نسمعه للآن هو أن على الفلسطينيين أن يتخلوا عن العنف ويشجبوا الإرهاب. هل طُلِبَ من إسرائيل أي شيء جوهري؟ هل تستطيع الاستمرار فيما تفعله دون أي فكرة عن النتائج؟ هذا سؤال حقيقي عن وجودها: إن كانت تستطيع العيش كدولة مثل غيرها من الدول أم أن تبقى دائماً فوق قيود وواجبات كل الدول الأخرى في العالم اليوم.

خيانة المثقفين- الأهرام ويكلي 24 حزيران 1999

ليس هناك من يشك بأن ما حصل في كوسوفو نتيجة وحشية سلوبودان ميلوسيفتش ورد الناتو قد فاقم الأمور أكثر مما كانت عليه قبل القصف. أصبحت المعاناة الإنسانية في الجانبين مخيفة إن كانت في مأساة اللاجئين أو في تدمير يوغسلافيا، فلن يتوفر علاج أو حساب لجيل على الأقل وربما أطول. كما يظهر أن أي شخص اقتلع من مكانه وطرد، لا توجد هناك عودة حقيقية بسيطة إلى الوطن ؛ ولا تعويض (غير الانتقام الصريح، الذي يقدم أحياناً نوعاً وهمياً من الرضا) يساوي خسارة المرء لوطنه ومجتمعه أو بيئته. من خلال تركيب لن نعرف نسبه الدقيق أبداً، رغم دعاية الناتو والصرب، تم تطهير كوسوفو إلى الأبد من أي أمل في التعايش بين الجماعات المختلفة وسيصبح ذلك ممكناً قريباً. لقد إعترف عدد من المراسلين هنا وهناك أن ما حدث بالضبط قد لا يتعلق فقط بالتطهير العرقي للألبان من قبل الصرب إذ لا تزال كل الأهداف غير معروفة بعد، بما أن قصف الناتو لكوسوفو وأعمال جيش تحرير كوسوفو والوحشية الحقيقية لأعمال الصرب الجماعية والفردية حدثت كلها في وقت واحد: إن محاولة تحديد اللوم والمسؤولية في مثل هذه الفوضى صعب جداً إن لم يكن مستحيلاً إلا لتسجيل نقاط حوارية.

لكن مما لا شك فيه أن القصف غير الشرعي زاد وعجل بفرار الناس إلى خارج كوسوفو. كيف استطاعت قيادة الناتو العليا مع الزمرة التي يقودها بيل كلينتون وتوني بلير أن يزعموا بأن عدد اللاجئين سينقص نتيجة للقصف يفتقر للخيال. كلا القائدان لم يجربا رعب الحرب أو قاتلا أو لهما أي معرفة لما يعنيه البحث اليائس عن البقاء، لحماية العائلة وإطعامها. لهذه الأسباب فقط، يستحق القائدان أشد أنواع الإدانة الأخلاقية وبسبب سجل كلينتون المرعب في السودان وأفغانستان والعراق وأروقة البيت الأبيض، يجب أن يقاضى كمجرم حرب مثله مثل ميلسوفيتش. بأي مقياس، وحتى وفقاً لقانون الولايات المتحدة، لقد انتهك كلينتون الدستور بخوضه حرب دون تخويل من الكونغرس. ويضاف إلى جريمته انتهاكه لوثيقة الأمم المتحدة أيضاً.

الأخلاق تعلم، إن أراد أحد التدخل ليقلل معاناة أو ظلم (هذه الفكرة الشهيرة للتدخل الإنساني التي أشهرها كثير من الليبراليين الغربيين مبرراً للقصف)، عليه أن يتأكد أولاً بأن ذلك لن يزيد سوء الوضع. يبدو بأن ذلك الدرس قد فات قادة النيتو، الذين اندفعوا بطريقة متهورة وطائشة ينقصها التحضير وبذلك قرروا مصير مئات الآلاف من أهالي كوسوفو بدم بارد، إما أن يتحملوا نيران الانتقام الصربي أو القصف الهائل بحجمه وشدته (رغم الادعاءات المضحكة عن دقة التقديرات الموجهة) الذي أجبرهم على الفرار من الإقليم، أصبحوا ضحايا مرتين.

وهناك الآن مهمة جبارة لاستعادة مليون شخص إلى بيوتهم دون أن تكون هناك فكرة واضحة لشكل مستقبلهم بعد العودة. هل هو حرية تقرير المصير؟ الحكم الذاتي تحت سلطة صربيا؟ تحت احتلال الناتو العسكري؟ التقسيم؟ السيادة؟ حسب أي نوع من الجداول؟ من سيدفع؟ هذا عدد قليل من الأسئلة التي ظلت بلا إجابة، إن نجح الاتفاق الذي توسطت به روسيا ونُفِذَ. ما الذي يعنيه السماح برجوع بعض رجال الأمن الصربيين أو الهيئات العسكرية ؟ من الذي يحميهم من العنف الألباني؟ أضف إلى ذلك الكلفة الفادحة في إعادة بناء كوسوفو وصربيا، ولديك شبكة من المشاكل التي تتحدى قوى الفهم المحدود والغش السياسي الذي يمتلكه كل قادة الناتو الحاليين.

ما يقلقني أكثر، كأمريكي ومواطن، ما تنذر به كوسوفو لمستقبل النظام العالمي. حروب (آمنة) و(نظيفة) تكون فيها الهيئات العسكرية الأمريكية ومعداتها منيعة عن انتقام معادي أو هجوم ، يوضح أمر التفكير فيه كثير من المشاكل. بالتالي، كما ناقش رجل القانون العالمي البارز ريتشارد فوك أن هذه الحروب لها نفس بينة التعذيب، حين يكون للمحقق-المعذب كل السلطة في اختيار الطريقة التي يشاء؛ والضحية ليس لديه أي شيء، وبالتالي يترك لنزوات جلاده. إن مكانة أمريكا في العالم اليوم في أدنى مستوياتها بسبب التنمر الغبي في إلحاق مزيد من الضرر أكثر من أية قوة أخرى في التاريخ.

إن ميزانية الولايات المتحدة العسكرية أكثر ب30% من الميزانية الإجمالية لدول حلف الناتو مجتمعة. تشعر أكثر من نصف دول العالم اليوم أما بتهديد أو تطبيق العقوبات الاقتصادية والتجارية التي تفرضها الولايات المتحدة. تتحمل الدول المنبوذة كالعراق وكوريا الشمالية والسودان وكوبا وليبيا (منبوذة لأن الولايات المتحدة صنفتها هكذا) غضب الولايات المتحدة الأحادي الطرف، وتعاني إحداها من فناء الإبادة الجماعية والفضل في ذلك يعود إلى عقوبات الولايات المتحدة التي تستمر في تجاوز أي غرض منطقي إلا إرضاء مشاعر الولايات المتحدة بالغضب المبرر. ماذا يفترض بهذا أن يبلغ، وما الذي يقوله للعالم عن قوة الولايات المتحدة؟ هذه رسالة مخيفة ليس لها أي علاقة بالأمن والمصلحة القومية أو الأهداف الإستراتيجية المحددة بوضوح. انه مجرد استعراض قوة. وحين يسحر كلينتون موجات الأثير ليعلم الصرب أو العراقيين بأنهم لن يحصلوا على مساعدة من البلاد التي دمرت بلادهم إلا إذا غيروا حكامهم، العجرفة هنا لا تعرف حدوداً. المحكمة الدولية التي صنفت ميليسوفيتش مجرم حرب ليس لها أي قابلية للتطبيق أو مصداقية في الظروف الحالية إلا إذا طبقت نفس المعايير على كلينتون وبلير والبرايت وساندي بيرغر وجنرال كلارك وكل الآخرين الذين تجاوز غرضهم الإجرامي كل أشكال الحشمة وقوانين الحرب. في المقارنة بين ما فعله كلينتون في العراق وبين ميلسوفيتش بكل وحشيته، يظل الأخير في مرتبة هاوٍ غُرٌ في شره. ما يجعل جرائم كلينتون أسوأ والأهم من ذلك هو تنكره وراء التظاهر بالتقوى والقلق المزيف الخداع، الذي يخدع الليبراليين الجدد الذين يديرون حرب الناتو العالمية. من الأفضل الآن أن تكون محافظاً صادقاً بدلاً من أن تكون ليبرالي محتال.

تضيف وسائل الإعلام إلى هذا الوضع غير السليم مزيداً من السوء في الواقع فقد لعبت دوراً لا يتفق مع المراسل غير المنحاز وإنما بدور النصير والشاهد الجزئي لحماقة ووحشية الحرب، خلال الأيام التسع والسبعين من القصف شاهدت ثلاثين يوم من مؤتمرات الناتو الصحفية الموجزة على الأقل، ولا أستطيع تذكر أكثر من خمس أو ست أسئلة للمراسلين تحدث من بعيد الهراء الذي يذيعه جامي شيا وجورج روبرتسون والأسوأ منهما خافير سولانو، الذي باع روحه (الإشتراكية) للهيمنة الكوكبية الأمريكية. لم يكن هناك أي تشكيك من قبل وسائل الإعلام، لم تفعل أي شيء أكثر من (توضيح) مواقف الناتو، مستخدمة عسكريين متقاعدين (ليس بينهم أي امرأة) لتفسير ضرورات القصف الإرهابي. وبالمثل كتبة العواميد والمثقفين الذين كانت تلك حربهم بمعنى ما، وتغاضوا عن تدمير البنية التحتية في صربيا (التي قدرت ب136 بليون دولار أمريكي) في تعصبهم للفكرة التي ترى (أننا) كنا نقوم بشيء لوقف التطهير العرقي. والأسوأ من ذلك هو التغطية الإعلامية الفاترة لعدم شعبية الحرب في الولايات المتحدة وايطاليا واليونان وألمانية. لم يرد ذكر لما حدث في رواندا قبل أربع سنين أو في بوسنيا أو إزاحة 350,000 صربي على أيدي تودجمان أو الأعمال الوحشية

التركية المتواصلة ضد الأكراد، أو قتل أكثر من 650,000 مدني عراقي أو التطهير العرقي الإسرائيلي في فلسطين عام 1948 الذي يستمر بدعم سخي حتى اليوم. بأي أشكال جوهرية يختلف كل من شارون وباراك ونتنياهو وايتان في آرائهم وممارساتهم تجاه الأعراق المختلفة و(الأدنى) عن ميلسوفيتش وتودجمان؟

في فترة ما بعد الحرب الباردة، يبقى السؤال: هل ستحكم الولايات المتحدة العالم بسياستها العسكرية-الاقتصادية القذرة، التي لا تعرف سوى الربح والانتهازية؟ والسؤال هل من الممكن تطوير مقاومة فكرية قوية وأخلاقية لسياساتها؟ بالنسبة لنا نحن الذين يعيشون في فضاءها أو مواطنيها، الواجب الأول هو أن نتخلص من إرباك اللغة المنحطة والرموز المستخدمة لتبرير الممارسات الأمريكية والنفاق لربط سياسات الولايات المتحدة في أماكن مثل بورما واندونيسيا وإيران وإسرائيل بما يجري فعله الآن في أوروبا- جعلها آمنة لاستثمارات الولايات المتحدة وتجارتها- ولإظهار أن هذه السياسات متشابهة أساساً، رغم أنها محاولتها لتبدو مختلفة، لا يمكن أن تكون هناك مقاومة بدون ذاكرة وعقيدة خلاصية. إن كان التطهير العرقي شراً في يوغسلافيا- كما هو كذلك طبعاً- فهو شر في تركيا وفلسطين وأفريقيا وأي مكان آخر أيضاً. إن الأزمات لا تنتهي بمجرد أن تتوقف محطة (C.N.N) عن تغطيتها، لا يمكن أن تظل ازدواجية المعايير. إن كانت الحرب وحشية ومتلفة جداً فهي كذلك، وإذا كان الطيارون الأمريكيون يقصفون من علو 30,000 قدم ويبقون سالمين أم لا. وإن كانت الدبلوماسية هي الوسيلة المفضلة دائماً فيجب أن تستخدم مهما كلف الأمر.

أخيراً، إن كانت الحياة الإنسانية مقدسة، يجب أن لا يضحى بها باحتقار وإن لم يكن الضحايا من البيض والأوروبيين. يجب دائماً على المرء أن يبدأ مقاومته من وطنه ضد السلطة كمواطن يمكنه التأثير؛ لكن يا للأسف، فقد سيطرت القومية المتدفقة المتقنعة بالوطنية والمصلحة القومية على الشعور النقدي، الذي يضع الولاء لل(أمة) فوق كل اعتبار. في تلك النقطة ليس هناك سوى خيانة المثقفين والإفلاس الأخلاقي الكامل.

مشهد شعبي تاريخ شعبي - ادوارد سعيد-الاهرام ويكلي 18شباط 1999.

وفر موت الملك حسين للميديا العالمية وللسي إن إن بالخصوص- فرصة فريدة للقيام لما يبدو أنه افضل نجاحاتها في القدر الذي يهم مشاهديها ورعاتها:إعطاء المشاهدين الإحساس بأنهم يحضرون مناسبة تاريخية هامة يتكشف فيها شيء ذو اهيمة عظيمة أمام أعينهم. لقد فازت السي إن إن الآن بمكانة من السيطرة العالمية تحسد عليها. شكلها (الذي سأصفه في هذه اللحظة) هو الشكل المهيمن الذي يملي على كل منافذ البث الأخرى كيفية القيام بالأشياء. الصيغة بسيطة وسطحية. مراسل صحفي يجلس خلف طاولة في مركز إخباري مثل اتلانتا أو لندن؛ ثم تظل الكاميرا مركزة على الحدث الذي يكون عادة موكباً أو طقساً أو كشف سلسلة من الأحداث (مثل قصف العراق). ثم تنتقل من الحدث العام إلى المراسلين الذين هم في المشهد نفسه، غالباً مع خبراء معتمدين من السكان المحليين الأصليين. وهكذا يستمر الأمر ساعات وأيام إن استدعت الضرورة (كما في قضية محاكمة كلينتون). المنافذ التلفزيونية مثل السي إن إن أصبحت تعتبر عيون وأصوات الحقيقة والمصداقية: إن أراد المرء أن يحصل على أفضل مشهد إخباري ذو أهمية رئيسية، فهناك الآن اعتقاد سائد بأن السي إن إن ستكون الأولي التي تقدم المشهد، بما أنها تنقل أهم الأخبار.

الحشو مهم. الأخبار هي ما تبثه السي إن إن وما تبثه السي إن إن هو الأخبار. لذلك المواضيع التي تمضي السي إن إن جل وقتها عليها(مثل حرب الخليج وجنازة الأميرة ديانا واتهام كلينتون) ترتفع مباشرة إلى وضع التفوق. منذ جيل كانت مجلة التايم مثل السي إن إن، رائدة أمريكية في نشر الأخبار. في كلا الحالتين إنها مجرد تغطية تهم الشعور المعزز لدى المستهلك بأن ما يقدم أمام عينيه هناك قد وضعته سلطة ذات نفوذ هائل تتمتع بالمعرفة الكلية والخبرة الذكية. والأكثر أهمية هو أن الشيء غير الموجود هناك لرؤيته أو التعليق عليه إما أنه غير موجود أو أنه غير مهم حتى لو وجد، باختصار، هذا مقال حرفي من التاريخ المعاصر، ناقد إعلامي أميركي ناشط (جورج دبليو اس ترو) وصف هذه العملية بإيجاز محكم كما يلي: (عمل التلفزيون هو توطيد سياق كاذب وتأريخ حل السياق الموجود؛ وفي النهاية توطيد السياق الذي بلا قرينة وتأريخه)

دعنا نشرح ما يقصد، الحقيقة مشوشة ودينامية معقدة من الأحداث والعمليات والشخصيات. تأمل مثال موت الملك حسين، الفصل الأخير من حياة المرء. كان الملك حسين طبعاً شخصاً حقيقياً، لكنه أيضاً حالة لعائلة تاريخية مميزة (العائلة الهاشمية)، سلسلة من العمليات اشتركت فيها قوى عظمى تشمل بريطانية والولايات المتحدة والدول العربية وإسرائيل وشملت الأحداث (ذكرت القليل عشوائياً) انتخابات الضفة الغربية عامي 1956-1957 والحرب الأهلية عام 1970، والعلاقة بين الأردن والعراق وبين الأردن وإسرائيل والانشقاقات والمشاكل داخل المجتمع الأردني بما فيها الجيش والأمير حسن والطبقة السياسية واللاجئين الفلسطينيين والبورجوازية المزدهرة الصغيرة جداً.

لم يحظ الأردن بتقديم تلك الحقائق التي ذكرناها آنفاً بأي أهمية خاصة في وسائط الإعلام قبل موت الملك حسين وإنما كانت تذكر بشكل عابر في التقارير المتعلقة بعملية السلام في الشرق الأوسط.

لكن بالتأكيد، لنعد الآن إلى جنازة الملك، المشهد الذي قدمته السي إن إن وغيرها من المحطات التلفزيونية أن هذا حدث يتعلق برحيل (رجل سلام)، كما لو أن قصة السلطة والصراع والصدامات التاريخية والأزمات، والانجازات والأخطاء، يمكن اختزالها ببساطة وبراعة إلى شخص خدم عملية السلام الأمريكية كشريك حكيم وموهوب. بعبارة أخرى، لقد أزيل السياق المحلي كله تماماً. ولم يذكر شيء من تاريخ الأردن كبلاد سوى القليل جداً. استدعي (خبراء) عرضيون لمساعدة المراسلة النجمة كريستين امانبور- التي أصبحت الآن صورة كاريكاتورية للنجم أو للصحفي المشهور الذي يطير إلى أماكن ويحط في أخرى لإضفاء بعض المصداقية والاهتمام، تاركاً كل مكان في غموض تالٍ مستحقٍ، إلى أن تضمن الأزمة التالية ظهورها ثانية. هؤلاء الخبراء المحليون لا يسمح لهم بقول الكثير جداً، ويستخدمون لمجرد أن يحددوا شخصاً أو يغطوا القليل جداً عن خلفيته، الذي ليس فيه ما يشتت المراسلة النجمة ومشاهديها عن القصة والمشهد المعروض المتوفر. من المدهش واللافت للنظر الجرعة الثابتة من المعلومات الخاطئة التي تقدم بشكل متكرر، مثلاً، إن عدم حضور النساء في الجنازات تقليد إسلامي وإن حزن الحشود (حقيقي) وليس (كالمشاهد المزيفة والمصنعة كما هي الحال غالباً في الحشود العربية) التي علقت عليها الصحفية البارزة أثناء المراسم. حسب ما جاء في التغطية، في النهاية أهم شيء كان عن الملك حسين أنه خدم الآخرين (أي الولايات المتحدة وإسرائيل) أكثر مما فكر بذاته. الصورة الصهيونية الجوهرية لما يشكل (العربي الجيد) لها وظيفة مزدوجة المحافظة على موقف عام معاد لكل العرب الآخرين والمسلمين وبنفس الوقت سلخه عن تاريخه العربي ووضعه في تاريخ عالمي جديد، تقبله الولايات المتحدة.

دون أن يعرف، أُعطي المشاهد الأمريكي سياقاً كاذباً عن حسين والأردن والعرب والمسلمين وغيرهم، وفي العملية تعزز النظر إلى تاريخ الأردن وملكه كشيء منحل ومبسط ومصغر ومفرغ من كل كثافته وثقله وتقليص دوره إلى منزلة جنازة فخمة يحضرها كثير من زعماء العالم وخصوصاً الأمريكيين والإسرائيليين. لقد تلاشت تماماً الوقائع المهمة والقوى مثل اهتمامات السلطة وتركيب المجتمع الأردني المتأثر بالصراع الفلسطيني ومكونات الدولة، جيشها وبيراقراطيتها وإقتصادها الفاشل والمستقبل السياسي الصعب كلها عُزِلَتْ كما لو أنها خيوط غير نافعة ولم يعد لحضورها أية أهمية كقصة نافعة أمام أعيننا. كما لاحظَ ترو ثم ظهر سياق جديد لا أصل له أثناء البث: إن هذا الرجل الذي ترون عرض جنازته ينتمي إلى ملحمة وتاريخ مثالي وبطولة مقبولة، ومستحسن من الواقع (بطريقة الأميرة ديانا)، معد وموجه ليس من قبل شعبه، وإنما بواسطة الكاميرا والمعلقين وفي النهاية السي إن إن نفسها.

الشيء المزعج هو أن محطة السي إن إن تمثل كل ما يحتاجه المرء لمعرفته عن العالم، مصغر ومغلف ويُسَلِمْ دون أي أثر من التضارب أو التناقض. فكر محطة السي إن إن وإحساسها هو ما تراه بديلاً عما قد يراه المشاهد بنفسه ويشعر به ويفكر. الاستبدال التدريجي لعملية خاصة وشخصية بنظام معد مسبقاً ومصنع حيث هو لا يقل عن اختطاف العقل من قبل جهاز متطور له غرض إيديولوجي عميق، كما أعتقد. لب هذه الإيديولوجية هي (نحن نحدد العالم، ونوضح أغراضه ومعانيه ونتحكم بكشف تاريخه. وبالتالي أصبحت الجنازة مناسبة لإعادة تأكيد سيطرتنا على بلاد بعيدة وشعبها وتاريخها وملكها الراحل. وهذا الأسر أو الإختطاف يبيح سلسلة كاملة من التشويهات الأخرى الأبعد التي تُضَخَمْ لاحقاً في الصحافة المكتوبة.

لنعطي مثالاَ واحداَ: مجلة ذا نيشن- أسبوعية بارزة ليبرالية، يسارية، أكتب لها بشكل منتظم كناقد موسيقي وكمعلق سياسي (حجم تداولها حوالي 100,000 نسخة) سعت لخدمات الصحفي (ميلتون فيروست) الذي جعل من الشرق الأوسط على مدى السنوات العشر الماضية من أختصاصه. من الواضح مما يكتب أنه منجذب للعرب والعالم الإسلامي (دون أن يعرف لغتهم، وهو الآن مشهور كمؤهل شائع للخبراء في الشرق الأوسط!) لأنه مفتون بسبب حالة الانحدار المطولة والانحطاط التي يعاني منها العرب والمسلمون. في مقال له في مجلة ذا نيشن: وصف حسين كقائد جيد وغير عادي ويختلف في ذلك عن أغلب القادة العرب في التاريخ، حاول الإقتراب كثيراً من شعبه، التعميم الواسع مدهش. ما الذي يعرفه فيرسوت عن التاريخ العربي؟ أين بحوثه وكتاباته عن التاريخ العربي؟ ثانياً، حسب ما كتب الحكيم فيروست، حسين حاول بمفرده أن ينتشل الأردن من مرتبة العالم العربي الثانية، قدر كثير من البلدان. أشك أولاً وقبل كل شيءٍ إن كان هناك أية صحفية ليبرالية محترمة تسمح بنشر مثل هذه العبارة الكريهة والشنيعة جداً لوصف أي حضارة أخرى وتعتبرها لائقة إلا للعرب. المغزى، للسياق المقدم لحسين من السي إن إن أن هذه النظرة مقبولة لأنها من خارج الإطار العادي للعرب ثم يطري فيروست على الانجازات الأخيرة للملك في تزويد شعبه (بماء نظيف)، لا شك بأنه نسي فضيحة الماء التي أصابت الأردن منذ أشهر قليلة. لا بأس: الوقائع أقل أهمية من السياق الجديد الذي تبناه فيروست دون تروٍ، عوزه للمعرفة والأصالة والبصيرة، ليست متعلقة ب(الغزل-التلفيق) الذي استولى عليه من التلفزيون ووزارة الخارجية.

هذه ليست مسألة تافهة، ينظر العرب للسي إن إن الآن كسلطة على العرب. بموقعه المهيمن الجديد يصبح هناك إعتقاد غير واع وغير نقدي لدى المتفرج بأن الأحداث العامة تسجل بأمانة كما تحدث. المطلوب بإلحاح حالياً هو مقاومة واعية ضد الإطار وتفصيلاته، روح من النقد والإدراك الشكاك الذي يتحدى الهيمنة. لكن لسوء الحظ، هذا الإدراك الذي لا تُعَلِمَهُ المدارس ولا تعوض عنه وسائل الإعلام العربية لا يزال مرتبط بشكل غير ديمقراطي بالدولة ومصالح الإتحاد التي زيها السائد هو منع النقد وعدم السماح بالنقاش الصريح. لكن يجد المرء الرجاء بأن جيل جديد من المثقفين والشباب قد لا يتحمل هذه الحالة لوقت طويل: هناك علامات في كل مكان بأن الرقابة تتعرض لهجوم حاد. رغم ذلك من المهم أن نتذكر أن الرد الناقد لما يمكن تسميتها سي إن إن لن ينبثق من رفض بسيط لها كـ (امبريالية) أو إمارة غير مرحب بها لـ (العولمة). المطلوب هو ظهور مقاربات ناقدة لوسائل الإعلام كالتي تمثلت في أعمال ترو وبيير بورديو وتشومسكي وكثيرين غيرهم. بما أن أعمالهم مشهورة (وظهرت مقالات نقدية ممتعة عربية) يرجو المرء تطور تفاعل جديد بين مستهلكي ومزودي المشهد العام. في الوقت الراهن ستستمر تشويهات وتحريفات السي إن إن للواقع مثل بريطانية في القرن التاسع عشر، بتحكمها في الأمواج.

الصهيونية الأمريكية- المشكلة الحقيقية 1- الاهرام ويكلي 21 ايلول2000

هذه هي المقالة الأولى من سلسلة مقالات عن إساءة فهم الصهيونية الأمريكية وإساءة الحكم على دورها في القضية الفلسطينية، في رأيي، دور الجماعات الصهيونية والنشاطات في الولايات المتحدة لم يتم التحدث عنه أو التعاطي معه خلال فترة (عملية السلام)، إهمال وجدته مثير للدهشة، لأن السياسة الفلسطينية كانت أساساً ترمي بمصيرنا كشعب في حضن الولايات المتحدة دون أي إدراك استراتيجي للأقلية الصغيرة من الناس الذين يسيطرون على السياسة في الولايات المتحدة ويتحكمون بها تقريباً، هؤلاء الذين آراءهم السياسية أكثر تطرفاً من الليكود الإسرائيلي بشكل ما.

دعوني أقدم مثالاً صغيراً. منذ شهر أرسلت صحيفة هآرتس أحد كتاب أعمدتها البارزين، (اري شافيط) ليقضي عدة أيام في الحديث معي، وظهر ملخص جيد لهذه المحادثة الطويلة على شكل مقابلة سؤال وجواب في ملحق الجريدة الصادر في 18 آب، دون قطع أو رقابة أساساً، لقد عبّرت عن آرائي بكل صراحة، بالتأكيد الأساسي على حق العودة وأحداث عام 1948 ومسؤولية إسرائيل عن كل ذلك. وقد فوجئت بأن آرائي نُشِرَتْ كما قلتها تماماً دون أي تعديل من قبل المحرر (شافيط) التي كانت أسئلته دائما دمثة وغير صدامية.

بعد المقابلة بأسبوع رد (ميرون بنفينيستي) نائب المحافظ السابق للقدس على المقابلة . كان رداً شخصياً مليئاً بالإهانات المقززة والقذف الموجه ضدي وضد عائلتي. لكنه لم ينكر أن هناك شعب فلسطيني أو هناك مطرودين في عام 1948. وفي الواقع قال لقد هزمناهم ولماذا نشعر بالذنب؟ بعد أسبوع رديت على (بنفيستي في هآرتس): ونشر ما كتبته أيضاً دون قطع. ذكرّت القراء الإسرائيليين أن (بنفينيستي) كان مسؤولاً عن تدمير (الحارة المغاربية) في عام 1967التي فقد فيها مئات من الفلسطينيين بيوتِهم بسبب البلدوزرات الإسرائيلية (وربما يعرف عن مقتل كثير من الفلسطينيين). لكنني لم أذّكر (بنفينستي) وقراء هآرتس أننا موجودون كشعب ونستطيع أن نناقش في حقنا في العودة على الأقل لأن هذا مسلم به.

أود التأكيد على نقطتين هنا. الأولى أن المقابلة لم تظهر في أي صحيفة أمريكية وبالتأكيد ولا أي جريدة يهودية-أمريكية. حتى لو كانت هناك مقابلة فستكون الأسئلة الموجهة لي عدائية ومضايقة ومهينة، مثل لماذا تورطتم بالإرهاب، لماذا لم تعترفوا بإسرائيل بعد، ولماذا كان الحاج أمين نازياً وهكذا لم ينكر اليميني الإسرائيلي الصهيوني (بنفينيستي) بغض النظر عن مدى احتقاره لي ولآرائي، بأن هناك شعب فلسطيني أجبر على الرحيل عن أرضه في عام 1948. لكن أي صهيوني أمريكي سينفي حدوث أي غزو أو كما زعم (جان بيترز) في كتابه عام 1984 الذي نسي الآن وأختفى منذ زمن سحيق (الذي فاز بكل الجوائز اليهودية حين ظهر هنا)، لم يكن هناك فلسطينيين أحياء في فلسطين قبل عام 1948.

يعترف كل إسرائيلي بسهولة وبشكل واضح تماماً أن كل إسرائيل كانت فلسطين في السابق، (كما قال موشيه ديان صراحة في عام 1967) كل بلدة أو قرية إسرائيلية لها اسم عربي. ويقول (بنفينستي) صراحة (نحن) غزونا، ماذا في ذلك؟ لماذا نشعر بالذنب من انتصارنا؟ إن النقاش

الصهيوني الأمريكي ليس بهذه الصراحة المباشرة: ويجب أن يلف ويدور في الحديث عن ازدهار الصحراء والديمقراطية الإسرائيلية الخ، متجنباً الوقائع الرئيسية تماماً حول عام 1948، التي عاشها فعلياً كل إسرائيلي تقريباً، بالنسبة للأمريكيين، هذه مجرد أوهام وليست حقائق. لقد ابتعد مناصرو إسرائيل من الأمريكيين عن الوقائع كثيراً جداً، ووقعوا في تناقضات ذنب (الديسبورا) الشتات (لكن ما معنى أن تكون صهيونيا ولا تهاجر إلى إسرائيل؟) وروح الانتصار مثل الأقلية الأقوى والأنجح في الولايات المتحدة، لذلك ما يظهر على الغالب خليط مخيف من العنف البديل ضد العرب وخوف عميق منهم وكره ناتج عن عدم وجود إي اتصال مباشر معهم، على عكس اليهود الإسرائيليين.

بالنسبة للصهيوني الأمريكي، العرب ليسوا كائنات حقيقية، بل خيالات لكل ما يمكن شيطنته واحتقاره، وخصوصاً الإرهاب ومعاداة السامية. تلقيت رسالة مؤخراً من أحد طلابي السابقين، الذي تمتع بأفضل فرصة تعليم متوفرة في الولايات المتحدة: كان يأتي إلي ليسألني في كل صدق ودماثة لماذا لا أزال كفلسطيني، أدع النازي حاج أمين يحدد أجندتي السياسية. كان يجادل (قبل الحاج أمين لم تكن القدس مهمة للعرب. لكونه شرير جداً جعلها قضية مهمة للعرب ليحبط الآمال الصهيونية التي تعتبر القدس مهمة دائماً) هذا منطق شخص لم يعش أو يعرف أي شيء حقيقي ملموس عن العرب. إنه شخص يتكلم بحديث منظم وتدفعه إيديولوجية تعتبر العرب مجرد أدوار سلبية، كتجسيد لعواطف معاداة السامية العنيفة. لذلك، يجب أن تتم محاربتهم والتخلص منهم إن أمكن. ليس من فراغ كان الدكتور (برواخ غولدشتاين)، المجرم المرعب الذي قتل 29 فلسطيني وهم يصلون بأمان في مسجد الخليل (أمريكيا وحاخاما مثل مايير كاهانا) ينظر الكثيرون اليوم إلى كل من كاهانا وغولدشتاين بتبجيل بغض النظر عن الإضطرابات العقلية التي شوشت إتباعهما. إن أكثر اليمينيين المستوطنين الجاثمين على الأرض الفلسطينية الذين يتحدثون بلا ندم عن (أرض إسرائيل) بكونها أرضهم كارهين ومتجاهلين أصحابها الفلسطينيين وسكانها من حولهم، هم من مواليد أمريكا. رؤيتهم وهم يمشون في شوارع الخليل كما لو كانت المدينة العربية لهم منظر مخيف يزيده التحدي والاحتقار الذي يظهرونه ضد الغالبية السكانية العربية.

أورد كل هذه الأشياء هنا لأوضح نقطة جوهرية واحدة. حين أخذت منظمة التحرير الفلسطينية القرار الاستراتيجي بعد حرب الخليج – الذي استقرت عليه دولتان عربيتان رئيسيتان قبلها- في العمل مع الحكومة الأمريكية ومع اللوبي المتنفذ الذي يتحكم بالنقاشات الدائرة حول سياسة الشرق الأوسط إن أمكن، أخذت القرار (كما فعلت الدولتان العربيتان قبلهم)على أساس كبير من الجهل والافتراضات الخاطئة بشكل يفوق العادة. كانت الفكرة، كما عبر لي عنها دبلوماسي عربي كبير، الاستسلام فعلياً، وقال نحن لن نقاتل بعد الآن. نحن راضون الآن بقبول إسرائيل وقبول الدور الأمريكي المقرر والمحدد لمستقبلنا. كانت هناك أسباب موضوعية لمثل هذا الموقف آنذاك، كما هنا الآن، مثل: لماذا نستمر في القتال طالما ما فعله العرب تاريخياً يؤدي إلى مزيد من الهزائم والمصائب. لكنني أعتقد بقوة أنها سياسة خاطئة لإلقاء السياسة العربية في حضن الولايات المتحدة ببساطة، بما أن المنظمات الصهيونية الرئيسية هي المؤثرة في كل مكان في الولايات المتحدة، وبالتالي في حضنها أيضاً، والقول بأننا لن نقاتلكم، دعونا نتحد معاً، لكن نرجوكم أن تعاملونا بشكل حسن. كان الأمل لو تنازلنا وقلنا، نحن لسنا أعداءكم سنكون أصدقائكم.

لكن المشكلة تكمن في تفاوت القوة. من وجهة نظر القوي، ما الفرق الحاصل لإستراتيجيتك إن استسلم خصمك الضعيف وقال لم يعد لدي شيء أقاتل من أجله بعد، خذني، أريد أن أكون حليفك،

حاول أن تفهمني بشكل أفضل قليلاً وربما بعدها ستكون أكثر عدلاً؟ إن الطريقة الجيدة للإجابة على هذا السؤال في لغة عملية ملموسة هي النظر إلى آخر دورة للأحداث في سباق سيناتورات نيويورك، حين كانت هيلاري كلينتون تتنافس مع الجمهوري اريك لازيو من أجل مقعد يشغله الآن دانيال باتريك مونيهان الديمقراطي المتقاعد. السنة الماضية قالت هيلاري أنها تفضل تأسيس دولة فلسطينية وفي زيارة رسمية إلى غزة مع زوجها، عانقت سها عرفات. بعد دخول سباق مجلس الشيوخ في نيويورك تفوقت حتى على غالبية اليمين الصهيوني في تفضيلها إسرائيل ومعارضة الفلسطينيين، وأيدت أيضاً نقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس بل أكثر من ذلك فقد أيدت التساهل والرفق بجوناثان بولارد الجاسوس الإسرائيلي الذي أدين بتجسسه على الولايات المتحدة ويقضي عقوبة الحكم المؤبد الآن. حاول خصومها من الجمهوريين أن يربكوها بتصويرها (صديقة للعرب) ونشروا صورها وهي تعانق سها عرفات. بما أن نيويورك قلعة الصهيونية، وأن مهاجمة شخص بهذه السمات (كمحب للعرب) و(صديقة لسها عرفات) معادل لأسوأ الإهانات. ورغم أن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية أعلنا علناً بأنهما حلفاء لأمريكا، ويتلقيان مساعدة عسكرية ومالية وفي المجال الأمني الذي تدعمه الـ (C.I.A). في غضون ذلك نشر البيت الأبيض صورة للازيو وهو يصافح عرفات منذ سنتين.

الحقيقة الفعلية أن النقاش الصهيوني هو نقاش قوة، والعرب في هذا النقاش المفعول به للقوة. وإن وضع مصيرهم بيد قوة الخصم هي استسلام، ولا يمكنهم أن يتوقعوا بأن يكونوا على شروط متساوية معها. من هنا اسِتُغِلَ المنظر المشين والمهين لعرفات (رمز العداوة الدائم والأبدي للصهيونية) بشكل كامل من قبل التنافس المحلي في الولايات المتحدة بين خصمين يحاول كل منهما أن يثبت أنه الأكثر مناصرة لإسرائيل. علماً أن لا هيلاري كلينتون ولا ايرك لازيو يهوديان.

ما سأناقشه في مقالتي التالية، هو كيف أن الإستراتيجية السياسية الممكنة والوحيدة لسياسة العرب والفلسطينيين من أجل الولايات المتحدة هي أن لا تكون ميثاقاً مع الصهاينة هنا ولا واحدة مع سياسة الولايات المتحدة، بل حملة جماهيرية معبئة وموجهة للسكان الأمريكيين بالنيابة عن الحقوق السياسية والمدنية والإنسانية الفلسطينية. كل التدابير الأخرى، إن كانت أوسلو أم كامب ديفيد، مصيرها الفشل لأن النقاش الرسمي تهيمن عليه الصهيونية تماماً، وماعدا بعض الاستثناءات الفردية القليلة، ليس هناك بدائل معوضة عنها. لذلك كل تدابير السلام التي قامت على أساس التحالف مع الولايات المتحدة هي تحالفات تقر وتؤكد القوة الصهيونية بدلاً من مواجهتها لها ولهذا لن يجلب الاستسلام المنبطح لسياسة الشرق الوسط التي تسيطر عليها الصهيونية كما فعل العرب قبل جيل من الآن، استقراراً في الوطن أو مساواة وعدل في الولايات المتحدة.

لكن التناقض هو وجود كيان واسع من الآراء داخل الولايات المتحدة جاهز لأن يكون ناقداً لإسرائيل ولسياسة الولايات المتحدة. المأساة أن العرب ضعفاء جداً ومنقسمين جداً وغير منظمين ويجهلون اغتنامها. سأناقش الأسباب لذلك أيضاً في مقالتي القادمة بما أن أملي هو محاولة الوصول إلى جيل جديد قد يكون محتاراً أو محبطاً بالمكانة البائسة والمنحطة التي وضعت فيه ثقافتنا وشعبنا الآن والإحساس الثابت من السخط الناتج عن خسارتنا المخزية التي قاسيناها كلنا.

المزيد عن الصهيونية الأمريكية 2 -الأهرام5 أيلول 2000

لقد حدث فصلاً مربكاً صغيراً منذ كتابة مقالتي الأخيرة عن هذا الموضوع قبل أسبوعين. فقد جُرِدَ (مارتن انديك) سفير الولايات المتحدة في إسرائيل (للمرة الثانية أثناء إدارة كلينتون) فجأة من حصانته الدبلوماسية الرسمية بواسطة وزارة الخارجية. القصة التي ظهرت أنه استخدم حاسوبه المحمول دون إجراءات أمنية مناسبة، ولذلك ربما تم كشف معلومات أو إطلع شخص غير مخول عليها. نتيجة ذلك لا يستطيع أن يدخل أو يغادر وزارة الخارجية دون مرافق كما أنه لا يستطيع أن يبقى في إسرائيل ويجب أن يخضع الآن إلى تحقيق كامل.

ربما لن نكتشف الآن ما حدث فعلياً. لكن ما يعرفه العوام ولم تناقشه وسائل الإعلام فضيحة تعيين انديك في منصبه في المقام الأول. عشية تتويج كلينتون في كانون الثاني 1993، صدر إعلان بأن (مارتن انديك) المولود في لندن والمواطن الاسترالي قد أقسم بالولاء كمواطن أمريكي بناء على رغبة الرئيس المنتخب الواضحة. لم يتم التقييد بالإجراءات المناسبة: انه أمر امتياز إداري قطعي، لذلك، بعد أن نال مواطنة الولايات المتحدة، استطاع (مارتن) بعد ذلك مباشرة من أن يصبح عضو في هيئة مجلس الأمن القومي المسؤول عن الشرق الأوسط. هذه هي الفضيحة الحقيقية برأيي، وليست إهمال انديك اللاحق أو حماقته أو حتى تورطه بجريمة تجاهل القواعد الرسمية للسلوك. قبل أن يصل إلى قلب حكومة الولايات المتحدة في منصب مهم وبالغ السرية، كان انديك رئيساً لمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، خزان فكري من شبه المثقفين المنشغلين في دفاع ناشط لمصلحة إسرائيل ونسق أعماله مع الايباك(اللجنة الأمريكية للشؤون العامة الإسرائيلية) اللوبي الأقوى والمرعب في واشنطن. من المهم هنا ملاحظة أن (دينيس روس) قبل أن يأتي إلى إدارة بوش كمستشار لوزارة الخارجية ليقود عملية السلام الأمريكية، كان أيضا رئيس معهد واشنطن، لهذا كانت الحركة بين اللوبي الإسرائيلي وسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أكثر من عادية ومنظمة أيضاً.

كان الايباك منذ سنين اللوبي الأكثر نفوذ وفعالية ليس لأنه اجتذب اليهود المنظمين والمترابطين بشكل جيد والبارزين والناجحين والأثرياء فقط وإنما لوجود مقاومة صغيرة جداً له. هناك خوف صحي وإحترام في كل أنحاء البلاد وخصوصاً في واشنطن حيث يمكن في غضون ساعات سوق كل مجلس الشيوخ تقريباً إلى توقيع رسالة إلى الرئيس تأييداً لمصلحة إسرائيل. من سيعارض الايباك ويستمر بمنصبه في الكونغرس أو يعارضه لصالح القضية الفلسطينية مثلاً عندما لا تستطيع تلك القضية توفير أي شيء ملموس لكل من يتحدي الايباك؟ في الماضي قاوم عضو أو عضوان من الكونغرس الايباك علناً فعرقلت كثير من اللجان السياسية التي يسيطر عليها الايباك إعادة انتخابهما مرة أخرى. السيناتور الوحيد الذي ليس له موقفاً معادياً للايباك بشكل واضح كان جيمس أبو رزق الذي رفض أن ينتخب مرة أخرى لأسبابه الشخصية واستقال بعد انتهاء فترته المكونة من ست سنوات.

لا يوجد أي معلق سياسي الآن يجاهر بصراحة مطلقة في مقاومته لإسرائيل في الولايات المتحدة. قلة قليلة من كتاب الأعمدة مثل انثوني لويس من نيويورك تايمز الذي يكتب نقداً لممارسات الاحتلال الإسرائيلي أحياناً لكنه لم يذكر أي شيء عن 1948 وعن قضية طرد الفلسطينيين الأصلية

وهي أساس وجود إسرائيل وسلوكها اللاحق. في مقالة حديثة للمسؤول السابق في وزارة الخارجية (هنري براشت) لاحظ الإجماع الصاعق في الرأي في كل قطاعات وسائل الإعلام الأمريكية من السينما إلى التلفزيون والإذاعة والجرائد والشهريات والربعيات واليوميات: كلها تمتثل للخط الإسرائيلي الرسمي، الذي أصبح الموقف الأمريكي الرسمي أيضاً. حققت الصهيونية الأمريكية هذا التطابق في سنوات منذ عام 1967 واستغلته في جل النقاشات السياسية المتعلقة بالشرق الأوسط. السياسة الأمريكية تساوي السياسة الإسرائيلية ماعدا مناسبات نادرة جداً (قضية بولارد مثلاً) حين تتجاوز إسرائيل الحد وتزعم أن من حقها أن تساعد نفسها فيما ترغب.

لذلك تقتصر ممارسات نقد إسرائيل على غارات عرضية قليلة نادرة وغير مرئية تقريباً. الإجماع الكلي حصين عملياً وقوي جداً ومفروض بالقوة في كل مكان داخل الإتجاه السائد المقبول. يتكون هذا الإجماع من حقائق لا يمكن مهاجمتها وتنظر إلى إسرائيل كدولة ديمقراطية، فضيلتها الأساسية، الحداثة وحصافة شعبها وقراراتها. الحاخام (ارثر هيتزبيرغ) رجل دين أمريكي محترم، قال مرة أن الصهيونية دين دنيوي للجالية اليهودية الأمريكية. دعمت كثير من المنظمات الأمريكية هذا بشكل واضح وكان دورها ضبط الحقل الشعبي من أجل مخالفة المعاهدات والقوانين، رغم أن كثير من المنظمات اليهودية الأخرى تدير المستشفيات والمتاحف ومعاهد البحوث لمصلحة البلاد كلها. هذه الازدواجية مثل أي تناقض عصي على الحل حيث فيه مشاريع عامة تتواجد مع أحط وأقذر المشاريع الأخرى. لنأخذ مثالاً حديثاً على ذلك، المنظمة الصهيونية من أجل أمريكا، صغيرة لكنها مجموعة من المتعصبين والصاخبين، دفعت من أجل إعلان في نيويورك تايمز في 10 أيلول موجه إلى (ايهود باراك) كما لو أنه كان مستخدماً لدى اليهود الأمريكيين، ذكرّوه في الإعلان بأنهم ستة ملايين شخص ويفوقون عددياً الخمسة ملايين إسرائيلي الذين قرروا التفاوض على القدس، لم تكن لغة الإعلان تذكيرية فقط بل تهديدية تقريباً، ، فقد جاء فيه بأن رئيس وزراء إسرائيل قرر بشكل غير ديمقراطي قبوله بما يبغضه اليهود الأمريكيون ويعتبرونه من المحرمات الدينية ، وأنهم غير مسرورين بسلوكه هذا. ليس واضحاً تماماً مَنْ يفوض هذه المجموعات الصغيرة المشاكسة من المتعصبين لتوبخ رئيس الوزراء الإسرائيلي في هذه العبارات الحادة، لكن تلك المنظمة تشعر بحقها في التدخل في شؤون أي أحد. كانوا يكتبون باستمرار ويهتفون لرئيس جامعتي مطالبين بطردي أو لومي بسبب شيء قلته، كما لو أن الجامعات كانت رياض أطفال والأساتذة يعاملون كجانحين قصر. لقد شنوا حملة السنة الماضية لفصلي وطردي من العمل من منصبي المنتخب كرئيس لجمعية اللغات الحديثة، ووبخت تلك المنظمة أعضائها الثلاثين ألف كما لو كانوا بلهاء ومغفلين. هذا هو أسوأ شكل من التنمر الستاليني لكنه نموذجي للصهيونية الأمريكية المنظمة في أسوأها وأشدها تعصباً.

وبصورة مماثلة انتقد كتاب ومحررون من مختلف أطياف الجناح اليميني (مثل نورمان بودهورتز وتشارلز كروثامر وويليام كريستول، نذكر قلة من أعلى الأبواق الدعائية المروجة) إسرائيل في الشهور القليلة الماضية لمجرد أنها أثارت استياءهم وكأنما لهم الحق فيها أكثر من أي شخص آخر. فعلوا ذلك بثقة تامة وكانت لهجتهم في هذه المقالات وغيرها مخيفة، مركب منفر من الغطرسة الصفيقة والوعظ الأخلاقي وأقبح أشكال النفاق. لقد افترضوا بأنهم يستطيعون النجاة من تجاوزاتهم اللفظية المرعبة لأن سلطة المنظمات الصهيونية تدعم وتؤيد شجبهم القاسي، لكن الحقيقة هي أن أغلب الأمريكيين إما أنهم كانوا يجهلون ما قاله هؤلاء أو تعرضوا للتهديد فصمتوا أمام هذا الهراء

الذي كان قليل منه يتعلق بالسياسات الفعلية في الشرق الأوسط. لكن أغلب الإسرائيليين العاقلين ينظرون إليهم بنفور.

وصلت الصهيونية الأمريكية الآن إلى مستوى من الوهم الصرف بأن كل ما هو جيد للصهاينة الأمريكيين في إقطاعيتهم وخطابهم الخيالي جيد لأمريكا وإسرائيل وبالتأكيد للعرب أيضاً والمسلمين والفلسطينيين، الذين هم ليسوا أكثر من مجرد مجموعة من الأشياء المزعجة التافهة. كل من يجرؤ على تحديهم (خصوصاً إن كان عربياً أو يهودياً منتقداً للصهيونية) يتعرض إلى أكثر الانتهاكات والقدح شناعة، كلها شخصية وعنصرية وإيديولوجية. إنهم قساة لا يعرفون اللين ويخلون تماماً من السماحة والتفاهم الإنساني الحقيقي. إن القول بأن خطبهم اللاذعة مشابهة لأسلوب كتاب العهد القديم هو تحقير للكتاب.

بعبارة أخرى،إن التحالف معهم، كما حاولت الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية أن تصوغه منذ حرب الخليج، أغبى أنواع الجهل.إنهم يعارضون بعناد كل ما يؤيده العرب والمسلمون وبالأخص الفلسطينيين وسينسفون أي شيء كي لا يعقدوا أي سلام معنا، ومن الصحيح أيضاً أن أغلب المواطنين العاديين يحتارون من حماس خطابهم لكنهم لا يدركون خلفيته. حين تتكلم مع أمريكي غير يهودي أو عربي لا خبرة لديه في الشرق الأوسط، تجد عادة شعور بالتعجب والسخط على ذلك الموقف المتوعد، كما لو أن الشرق الأوسط كله غنيمة لهم. لقد استنتجت أن الصهيونية في أمريكا ليست مجرد وهم مبني على أسس مهزوزة، ويستحيل التحالف أو توقع نقاش منطقي معها لكن يمكن محاصرتها وهزمها.

لقد نصحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وكل فلسطيني وعربي قابلته منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين أن بحث المنظمة عن أذن الرئيس وهم، لأن كل الرؤساء الأخيرين كانوا مخلصين ومكرسين للصهاينة وأن الطريقة الوحيدة لتغيير سياسة الولايات المتحدة وتحقيق حق تقرير المصير يجب أن تكون من خلال حملة جماهيرية لصالح الحقوق الإنسانية للفلسطينيين تؤثر في محاصرة الصهاينة وتتوجه مباشرة إلى الشعب الأمريكي. لا يزال الأمريكيون لا يعلمون ومنفتحون لمناشدة العدالة وسيردون كما ردوا على حملة المجلس الوطني الأفريقي ضد سياسة التمييز العنصري، الذي بدل التوازن داخل جنوب أفريقيا أخيراً. في العدل هنا، سوف أذكر أن (جيمس زغبي) الناشط في حقوق الإنسان (قبل أن يرمي بمصيره مع عرفات وحكومة الولايات المتحدة والحزب الديمقراطي) كان واحداً من مؤسسي هذه الفكرة وإن تخليه عنها كلياً علامة على تغير موقفه وليس عن بطلان الفكرة نفسها.

لكن اتضح لي أيضاً أن منظمة التحرير الفلسطينية لن تفعل ذلك أبداً لأسباب كثيرة. أولاً: يتطلب ذلك جهداً وتفانياً. ثانياً: يعني ذلك اعتناق فلسفة سياسية مبنية على تنظيم ديمقراطي راسخ أساساً. ثالثاً: سيكون ذلك حركة وليس مبادرة شخصية لمصلحة القادة الحاليين، وأخيراً يستوجب ذلك معرفة حقيقية غير سطحية لمجتمع الولايات المتحدة. بالإضافة إلى ذلك شعرت أن العقل التقليدي الذي لا يزال يورطنا في موقف إثر آخر يصعب تغييره وأثبت الزمن صحة قولي. اتفاقيات أوسلو كانت تنازلاً لا يمكن تخيله من جانب الفلسطينيين يقابل التفوق والسيادة الإسرائيلية-الأمريكية أكثر مما هي محاولة لتغييرها.

على أي حال، إن أي تحالف أو تسوية مع إسرائيل في الظروف الحالية، التي تسيطر فيها الصهيونية الأمريكية على سياسة الولايات المتحدة محكوم بقسوة بنفس النتائج بالنسبة للعرب عموماً وللفلسطينيين خصوصاً. إسرائيل يجب أن تهيمن، المصالح الإسرائيلية أولاً، والظلم الإسرائيلي الممنهج سيطول. إذا لم يتم هزم الصهيونية الأمريكية وتغييرها-مهمة ليست صعبة جداً، كما سأحاول أن أبين في مقالتي القادمة- ستظل النتائج كما هي: الغم والعار لنا كعرب.

الصهيونية الأمريكية 3 -الأهرام 2تشرين الثاني 2000

كانت أحداث الأسابيع الأربع الماضية في فلسطين نصراً شبه تام للصهيونية في الولايات المتحدة للمرة الأولى منذ الانبثاق الحديث للحركة الوطنية الفلسطينية في ستينيات القرن العشرين. حيث حوّل الخطاب السياسي والشعبي بامتياز إسرائيل إلى ضحية خلال الصدامات الأخيرة، لدرجة أنه رغم الإبلاغ عن الخسارة في الأرواح في صفوف الفلسطينيين باستشهاد 140 شخص وإصابة 5000 لايزال يسميه (العنف الفلسطيني) الذي عطل التدفق السلس والمنظم لـ (عملية السلام).

هناك الآن سلسلة صغيرة من عبارات الابتهال التي يكررها كل معلقو التحرير إما حرفياً أو يعتمدون على إعتقاد ضمني: نقشت في الآذان والعقول والذواكر كارشاد للمشوشين ككتيب للإستعمال أو آلة لإنتاج العبارات التي سدت الأثير لمدة شهر على الأقل. يمكنني سرد أغلبها غيباً: قدم باراك تنازلات في كامب ديفيد أكثر من غيره من رؤساء الوزراء الإسرائيليين السابقين (90% من الأراضي وسيادة جزئية على القدس الشرقية) كان موقف عرفات جبانا ويفتقر إلى الشجاعة الضرورية لقبول العروض الإسرائيلية لإنهاء الصراع، العنف الفلسطيني الذي يوجهه عرفات هدد أمن إسرائيل (مع كل التنوع في هذا، بما فيه الرغبة في اجتثاث إسرائيل، وعداء السامية والغيظ الانتحاري للوصول إلى التلفزيون ووضع الأطفال في الخطوط الأمامية ليصبحوا شهداء) الذي اثبت (الكره) القديم لليهود الذي يحفز الفلسطينيين، عرفات قائد ضعيف لأنه يسمح لشعبه في مهاجمة اليهود وتحريضهم ضدها بإطلاقه للإرهابيين وإصداره كتباً مدرسية تنكر وجود إسرائيل.

هناك صيغة أو اثنتان لم اذكرهما، لكن الصورة العامة أن إسرائيل مطوقة ببرابرة يقذفون الحجارة حتى أن الصواريخ والدبابات والمروحيات المسلحة التي استخدمت لل(دفاع) عن إسرائيل ضد هذا العنف هي مجرد الاحتماء من قوة رهيبة. تحذيرات بيل كلينتون (التي كررها وزير خارجيته كالببغاء) للفلسطينيين (بالتراجع) تمادت لتوحي بأن الفلسطينيين هم الذين ينتهكون الأراضي الإسرائيلية وليس العكس.

من الجدير ذكره أن صهينة الإعلام كانت ناجحة جداً لدرجة لم تنشر فيها أي خريطة أو تعرض على التلفزيون لتذكر للقراء والمشاهدين الأمريكيين- المشهورين بجهلهم للتاريخ والجغرافيا- أن المخيمات العسكرية الإسرائيلية والمستوطنات والطرق والحواجز المتقاطعة هي فوق الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. فضلاً على ذلك وكما حدث في بيروت في عام 1982، هناك حصار إسرائيلي حقيقي على الفلسطينيين، بمن فيهم عرفات ورجاله. كما نسي تماماً نظام المناطق الف وباء وجيم الذي استمر فيها الاحتلال العسكري ل40% من غزة و 60% من الضفة الغربية والذي لم تكرس عملية أوسلو لإنهائه أو تعديله.

بغياب الجغرافيا في هذه الصراعات الجغرافية، الفراغ الناتج، نقطة أساسية ومهمة بما أن الصور التي تعرض أو توصف كانت بدون سياق إطلاقاً. أعتقد أن الحذف من قبل وسائل الإعلام المتصهينة كان متعمدا منذ البداية وأصبح أليا الآن. وقد سمح ذلك للمعلقين الدجالين من أمثال (توماس فريدمان) بتسويق بضاعته بلا حياء، متطفلاً على الحياد الأمريكي والمرونة الإسرائيلية والسخاء على براغماتيته الحادة التي وبخ بها العرب بقسوة أذهلت قرائه الضجرين. ولم ينتج عن

ذلك قبول الفكرة المنافية للعقل تماماً بأن الفلسطينيون يهاجمون إسرائيليين للسيطرة عليها فقط وإنما بتجريد الفلسطينيين من كل الصفات الإنسانية كوحوش بلا حس أو واعز.

وكانت الأعجوبة الصغيرة الأخرى حين تذكر أعداد الموتى والجرحى لا تعطى جنسياتهم: مما يترك الأمريكيون يعتقدون بأن المعاناة مقسومة بالتساوي بين (الطرفين المتحاربين) وفي الواقع يرفع من معاناة اليهود ويقلل أو يحذف المشاعر العربية تماماً، ماعدا للغيظ طبعاً. ويبقى الغيظ وأقرباءه العاطفة الفلسطينية المميزة الوحيدة. فهو يفسر العنف وفي الواقع يجسده لذلك أصبحت تمثل آداب السلوك والديمقراطية المحاصرة دائماً وأبداً بالغيظ والعنف. ليس هناك أي تفسير منطقي آخر لقاذفي الحجارة و(الدفاع) الإسرائيلي الشجاع.

لم يتكلم أحد عن تدمير البيوت ومصادرة الأراضي والتوقيف غير القانوني والتعذيب وما شابه. لم يرد أي ذكر لأطول احتلال عسكري في العصور الحديثة (ماعدا الاحتلال الياباني لكوريا)؛ ولاشيء عن قرارات الأمم المتحدة؛ لاشيء عن خرق إسرائيل لمعاهدات جنيف؛ لاشيء عن عذابات شعب وعناد وقسوة شعب آخر. نسيت كل مآسي نكبة 1948 من تطهير عرقي ومجازر وتدمير (قبيا وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا) سنوات الحكم العسكري للمواطنين غير اليهود وعدم التكلم عن اضطهادهم المستمر كاضطهاد الأقلية التي تشكل 20% داخل الدولة اليهودية. ارييل شارون في أحسن الأحوال محرض وليس مجرم حرب، (ايهود باراك) كرجل دولة وليس سفاك بيروت. الإرهاب من الجانب الفلسطيني دائماً والدفاع من الجانب الإسرائيلي.

فشل (فريدمان) ومؤيدو إسرائيل أن يذكروا حين مجدوا كرم(باراك) غير المسبوق بأنه التجسيد الحقيقي له. لم يذكرونا أنه تعهد بانسحاب ثالث (حولي 12%) في وايا منذ 18 شهر لكنه لم يحدث أبداً. إذاً ما قيمة كل هذه (التنازلات)؟ لقد علمنا أنه كان راغباً في إعادة 90% من الأراضي. لكن ما حدث أن إسرائيل ليس لها نية في التخلي عن ال90%. فالقدس الكبرى أكثر من 30% من الضفة الغربية؛ وتلحق بها مستوطنات كبيرة تشكل 15%؛ وطرق عسكرية أيضاً. لهذا بعد حسم كل هذا، فإن ال 90% الباقية ليست كثيرة.

بالنسبة للقدس: إسرائيل كانت بالدرجة الأولى ترغب في المناقشة وربما تعرض سيادة مشتركة فوق الحرم الشريف. الخداع المثير في المسألة أن كل القدس الغربية (العربية أساساً في عام 1948) تنازل عنها عرفات زائد أغلب القدس الشرقية الممتدة بشكل واسع. تفصيل آخر: بعد إطلاق النار من أسلحة فلسطينية صغيرة على (جيلو) أظهرته وسائل الإعلام آلياً بأنه عنف غير مبرر بينما لم يذكر أحد أن جيلو نفسها تقع على أرض صودرت من بيت جالا، المكان الذي أطلقت منه النار. بالإضافة أن بيت جالا قصفت بصورة غير متكافئة بالمروحيات الإسرائيلية التي استخدمت الصواريخ لتدمير البيوت المدنية.

لقد أجريتُ مسحاً لكل الصحف الرئيسية فوجدت أنه منذ 28 أيلول كان معدل مقالات الرأي من واحد إلى ثلاث يومياً ومنها نيويورك تايمز وواشنطن بوست وول ستريت ولوس انجلوس تايمز وبوسطن غلوب. باستثناء ثلاث مقالات كتبت في لوس انجلوس تايمز من وجهة نظر مؤيدة للفلسطينيين ومقالتين (واحدة بقلم محامي يهودي (اليغرا بشيكو) الأخرى بواسطة صحفي أردني ليبرالي من مؤيدي أوسلو (رامي خوري) في نيويورك تايمز، كل المقالات بما فيها العواميد النظامية مثل (فريدمان ووليام سافاير وتشارلز كروثامر وأشباههم) كانت مؤيدة لإسرائيل ولعملية

السلام التي ترعاها الولايات المتحدة وإلقاء اللوم على العنف الفلسطيني وافتقار عرفات للتعاون والتعصب الإسلامي. كان الكتاب من عسكريين سابقين في الجيش الأمريكي بالإضافة إلى كونهم موظفين مدنيين، ومدافعين إسرائيليين ورسميين وأخصائيين وخبراء من خزانات الفكر ورسميين من اللوبيات والمنظمات المؤيدة لإسرائيل. بتعبير آخر، لقد حدث كل هذا التعتيم بواسطة الاتجاه السائد والتظاهر بعدم وجود موقف فلسطيني أو عربي أو إسلامي من هذه القضايا كالرعب الإسرائيلي ضد المدنيين أو الاستعمار الاستيطاني أو الاحتلال العسكري أو لا يوجد موقف يستحق سماعه. هذه سابقة لا مثيل لها في تاريخ الصحافة في الولايات المتحدة وانعكاس مباشر للعقلية الصهيونية التي جعلت إسرائيل معيار للسلوك الإنساني، وبذلك تم إقصاء 300 مليون عربي و1،2 بليون مسلم.

في الحقيقة إن العقلية التي وصفتها مذهلة في طيشها ولو لم تكن عملية جداً بالإضافة إلى تشويهها الفعلي للواقع، لكنها تتطابق كثيراً مع السياسة الإسرائيلية التي تتعامل مع الفلسطينيين ليس كشعب ذو تاريخ من الطرد، (تتحمل إسرائيل مسؤولية مباشرة عنه إلى حد كبير) وإنما كشيء مزعج متكرر، أو الرد الوحيد عليه هو القوة وليس التفاهم أو التسوية الكاملة. بدأ هذا التعامي المدهش في الازدياد في الولايات المتحدة من الوقت الذي لم يبد العرب والمسلمون أي اهتمام إلا بمؤخرة كل سياسي طامح. منذ بضعة أيام أعلنت (هيلاري كلينتون) في إيماءة عن أكثر أشكال النفاق تقززاً وهي تعيد هبة بقيمة 50,000 دولار من جماعة من المسلمين الأمريكيين لأنهم يؤيدون الإرهاب كما قالت، هذه الواقعة كذبة مكشوفة، إذ أن المجموعة المعنية لم تقل سوى أنها تؤيد المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل أثناء الأزمة الحالية، ليس هذا موقف مشؤوم بحد ذاته وإنما هو جرم من المنظور الأمريكي لأن الصهيونية الاستبدادية ترى أن أي- وأقصد (بأي) حرفياً- نقد لإسرائيل لا يمكن التسامح معه ويصنف على أنه من أشكال العداء للسامية. رغم أن العالم كله انتقد السياسات الإسرائيلية المتمثلة في الاحتلال العسكري والعنف غير المتكافئ وحصار الفلسطينيين. أما في أمريكا فيجب أن تكف عن النقد وإلا ستلاحق كعدو للسامية يستحق أقسى أنواع الازدراء.

إن الغرابة الأكثر للصهيونية الأمريكية هي كونها نظام من الفكر المتناقض والتشويه الاوريلي، لذلك من الممنوع أن تتحدث عن العنف اليهودي أو الأعمال اليهودية حين يتعلق الأمر بإسرائيل حتى أن كل ما تفعله إسرائيل تفعله باسم الشعب اليهودي وبالدولة اليهودية ومن أجلها. لم يذكر أي تعليق حول تلك التسمية المغلوطة لهذه الدولة باعتبار أن 20% من السكان ليسوا يهوداً، مما يسبب كثير من الدهشة، ذلك التناقض التام المتعمد الذي تبثه وسائل الإعلام بين (العرب الإسرائيليين) و(الفلسطينيين): فليس هناك قارئ واحد يعرف بأنهما نفس الشعب الذي قسمته السياسة الصهيونية أو أن المجتمعان الاثنان يمثلان نتائج السياسة الإسرائيلية- الابارتايد في المجتمع الأول والتطهير العرقي في الثاني.

لم تجر الصهيونية الأمريكية أي نقاش جدي عام عن إسرائيل باعتبارها أكبر متلق لمساعدات الولايات المتحدة وعن ماضيها ومستقبلها، تحريم لا يمكن خرقه بأي ظرف. إن القول بأن هذا آخر المحرمات في النقاش الأمريكي مبالغة أكيدة. الإجهاض والشذوذ الجنسي وعقوبة الإعدام، حتى الميزانية العسكرية المقدسة جداً يمكن التحدث عنها ببعض الحرية (لكن ضمن حدود). يمكن حرق العلم الأمريكي في العلن، بينما نشر أخبار استمرار إسرائيل في المعاملة الممنهجة القديمة منذ 52 سنة شيء لا يمكن تخيله ولا يسمح بظهوره.

قد يكون هذا الإجماع إلى حد ما كما لو أنه لم يجعل من العقاب المستمر للشعب الفلسطيني وتجريده من الصفات الإنسانية فضيلة حقيقية. ليس هناك شعب في العالم اليوم يعتبر أغلب المشاهدين الأمريكيين قتله على شاشات التلفزيون مقبولا ومستحقا للعقاب. هذه هي الحال مع الفلسطينيين الذين جمعت خسائرهم في الأرواح في الشهر الماضي تحت عنوان (العنف من الجانبين) كما لو أن حجارة ومقاليع الشباب الذين سئموا تماماً من الظلم والقمع كانت جريمة كبرى وليست مقاومة شجاعة لمصير بائس فرضه عليهم ليس الجنود الإسرائيليين وأمريكا فقط بل عملية سلام رسمت لسجنهم في بانتوستانات ومحميات لا تناسب سوى البهائم.

إن الجريمة الحقيقة التي ارتكبها مؤيدو إسرائيل في الولايات المتحدة خلال سبع سنوات من التآمر هي إصدار وثيقة رسمت أساساً لحبس شعب كنزلاء في مصح عقلي أو سجن. إن النجاح في تمريرها كعملية سلام بدلاً من الخراب الذي سببته، يفوق قدراتي على فهمها أو وصفه بشكل واف بأنها ليست أقل من فجور منفلت. أسوأ من كل هذا هو الجدار الحديدي الدفاعي في النقاش الأمريكي الذي يحمي إسرائيل لدرجة لا يمكن أن تخطر أي أسئلة في عقول الذين أنتجوا أوسلو والذين صار لهم سبع سنوات يمررون خطتهم للعالم على أنها السلام. قلما يستطيع المرء أن يعرف أيهما أكثر ضرراً، العقلية التي تنظر إلى الفلسطينيين بأنهم غير مؤهلين حتى للتعبير عن الشعور بالظلم (هم أدنى من ذلك بكثير) أم تلك العقلية التي تستمر في التآمر على زيادة استعبادهم.

إن الوضع سيء بالإجمال لكن حالتنا البائسة فيما يتعلق بالصهيونية الأمريكية ستزداد بسبب غياب أي مؤسسة هنا أو في العالم العربي مستعدة وقادرة على إنتاج البديل. أخشى أن تغطية هؤلاء المتظاهرون الذين يرمون الحجارة في بيت لحم وغزة ورام الله والخليل قد لا تنعكس بشكل مناسب لدى القيادة الفلسطينية المرتعدة العاجزة عن التراجع أو التقدم. وهذا منتهى الآسف.

فرويد والصهيونية وفيينا- الأهرام ويكلي2001

تستحق هذه الحكاية الرمزية بضعة سطور هنا، رغم أنها نشأت من تجربة شخصية غريبة لي إلا أنها لفتت اهتماماً عاماً وإعلامياً غير عادي لا تستحقه. في العادة، أنا لا استخدم نفسي كمثال، لكن لأن هذه الحقيقة شوهت وقد تضيء سياق الصراع الفلسطيني-الصهيوني الذي حدث فيها، سمحت لنفسي باستخدامها. في أواخر حزيران عام 2000 قمت بزيارة شخصية عائلية للبنان، حيث ألقيت محاضرتين للعوام. مثل أغلب العرب، أنا وعائلتي رغبنا جداً في زيارة جنوب لبنان لنرى (المنطقة المحررة) حديثاً من الاحتلال العسكري الإسرائيلي الذي دام مدة 22 عام، التي طردت المقاومة اللبنانية منها قوات الدولة اليهودية بصورة مذلة. حدثت زيارتنا في 3 تموز، وخلال رحلتنا التي استغرقت طول اليوم أمضينا بعض الوقت في معسكر خيام السيئ السمعة، الذي نصبه الإسرائيليون في عام 1987، وعذبوا وسجنوا فيه 8,000 شخص في ظروف وحشية مخيفة. بعد ذلك قدنا السيارة حتى مركز الحدود، الذي تخلت عنه القوات الإسرائيلية أيضاً، وأصبح منطقة مهجورة الآن إلا من بعض الزوار اللبنانيين الذي جاؤوا في أعداد كبيرة ليرموا الحجارة احتفالاً بالمناسبة عبر الحدود التي مازالت محصنة جداً. ولم نر أي إسرائيلي مدني أو عسكري هناك.

خلال الوقفة التي استمرت عشر دقائق أخذت لي صورة هناك دون معرفتي وأنا أرمي حصاة صغيرة بالتباري مع بعض الشبان الحاضرين دون أن يكون هناك أي هدف محدد مرئي طبعاً لأي منا. فقد كانت المنطقة فارغة على بعد أميال. بعد يومين ظهرت صورتي في كل الجرائد الإسرائيلية والغربية التي وصفت فيها برامي الحجارة الإرهابي ورجل العنف، في جوقة التشويه المألوفة والتزييف المعروف لكل شخص جلب لنفسه عداء الدعاية الصهيونية.

تبرز سخريتان هنا. الأولى رغم أنني كتبت ثمانية كتب عن فلسطين على الأقل وأيدت دائماً مقاومة الاحتلال الصهيوني، لم أؤيد أي شيء سوى التعايش السلمي بيننا وبين يهود إسرائيل بشرط أن يتوقف القمع العسكري الإسرائيلي للفلسطينيين وطردهم. لقد نشرت كتبي في كل أرجاء العالم في 35 لغة على الأقل لهذا لا يمكن أن تكون مواقفي غير معروفة ورسالتي واضحة جداً. لكن، بعد أن وجدت الحركة الصهيونية أنه من العبث تفنيد الحقائق والحجج التي قدمتها والاهم بعد أن أصبحت عاجزة عن منع أعمالي من الوصول إلى عدد أكبر من الجمهور، لجأت إلى تقنيات خسيسة وبالية في محاولة لإيقافي. منذ سنتين استأجروا محامياً أميركياً-إسرائيلياً لكي (يبحث بدقة) في العشر سنوات الأولى من حياتي و(يثبت) أنني رغم ولادتي في القدس إلا أنني لم أكن هناك فعلياً؛ كان المفترض من هذا العمل أن أبدو كذاباً ومشوهاً للحقائق بخصوص حقي بالعودة رغم أن- قانون حق العودة الإسرائيلي البغيض يسمح لكل يهودي في أي مكان في العالم ب(حق) المجيء إلى إسرائيل حتى لو لم تطأها قدمه من قبل أبداً.

بالإضافة إلى ذلك، كثير من الناس الذين قابلهم المحامي كتبوا وأنكروا ما قاله بسبب أساليبه الفظة والخاطئة في التحقيق ؛ ولم تقبل أي جريدة بنشر مقالته سوى واحدة، بسبب تحريفها وتشويهها للحقائق. لم تكن هذه الحملة لتشويه سمعتي شخصياً فقط (قال محرر الجريدة التي نشرت المقالة صراحة أنه نشر الهراء السخيف الذي لفقه هذا المأجور المرتزق لأنه أراد أن يشوه سمعتي شخصياً

لأن لي عدد كبير من القراء) لكن المذهل تماماً كان القصد من ذلك الإظهار بأن كل الفلسطينيين كذابين ولا يمكن تصديق تأكيداتهم في حق العودة.

تلت هذه الحملة المنسقة قضية رمي الحجارة مباشرة. وهذه هي السخرية الثانية. رغم التدمير الإسرائيلي لجنوب لبنان الذي دام 22 عام، وتدميره لقرى كاملة وقتل مئات الآلاف من المدنيين، واستخدامه لجنود مرتزقة للنهب والعقاب، واستخدامه البائس لأشنع الأساليب غير الإنسانية في التعذيب والحبس في معسكر خيام وغيره- رغم كل ذلك، اختارت الدعاية الإسرائيلية المدعومة والمحرضة من قبل وسائل الإعلام الغربية، أن تركز على فعل غير ضار لي، وضخمته إلى أحجام هائلة سخيفة ليوحي بأنني متعصب عنيف أستمتع بقتل اليهود. ظل السياق محذوفاً وكذلك الظروف، بأنني رميت بحصاة ولم يكن أي إسرائيلي هناك، ولم يحدث أي ضرر مادي أو أذى مهدد لأي شخص.لكن الأغرب من ذلك، أججت حملة منظمة كاملة أخرى في محاولة لطردي من الجامعة التي علمت فيها 38سنة. مقالات في الصحافة، تعقيبات ورسائل تعسفية وتهديدات بالقتل استخدمت كلها لترعبني وتسكتني وشملت زملاء اكتشفت فجأة ولاءهم لدولة إسرائيل. المهزلة في كل هذا، الغياب المطلق للمنطق في محاولة الربط الفاشلة بين حادث تافه في جنوب لبنان وعملي وحياتي.

التم شمل الزملاء في صفي، كما فعل أفراد كثيرون من الشعب. أهمهم إدارة الجامعة التي دافعت بشكل مهيب عن حقي في آرائي وأفعالي، وأشارت بأن الحملة الموجهة ضدي ليست بسبب رميي وإنما لإقصاء مواقفي السياسية ونشاطي المقاوم لسياسة إسرائيل في الاحتلال والقمع.

الفصل الأخير في كل الضغط الصهيوني هذا هو الأكثر خزياً وكآبة. في أواخر تموز عام 2000، اتصل بي مدير معهد ومتحف فرويد في فيينا إن كنت سأقبل دعوته لألقاء محاضرة فرويد السنوية في أيار 2001. قلت نعم وفي 21 آب استلمت الرسالة الرسمية من مدير المعهد بأن أقوم بهذا باسم هيئة المعهد. قبلت فوراً، بعد أن كتبت عن فرويد الذي أجله ومعجب به وبأعماله منذ سنوات كثيرة. (عرضياً، يجب الإشارة بأن فرويد كان معادياً للصهيونية في بداياته لكنه عدل رأيه فيما بعد حين جعلت المضايقات النازية ليهود أوروبا الدولة اليهودية حلاً ممكناً للعداء المنتشر والمميت للسامية. لكن اعتقد أن موقفه فيما يتعلق بالصهيونية كان دائماً غير واضح وغير ثابت) وكنت معجباً به

الموضوع الذي اقترحته لمحاضرتي كان (فرويد وغير الأوروبيين) الذي عزمت أن أثبت فيه أنه بالرغم من أن أعمال فرويد كانت من أجل أوروبا وعنها، إلا أن اهتمامها في الحضارات القديمة مثل المصرية والفلسطينية والإغريقية والإفريقية مؤشر عن شمولية رؤيته وطابع أعماله الإنساني. فضلاً، أنني أعتقد أن أفكاره تستحق التقدير لعدائها للإقليمية على عكس معاصريه الذين شوهوا سمعة الحضارات الأخرى غير الأوروبية كحضارات دونية.

بعد ذلك، وبدون إنذار في 8 شباط من هذا العام، أخبرت من قبل رئيس المعهد، عالم اجتماع نمساوي (باسم شولين)، بأن الهيئة قررت أن تلغي محاضرتي، بسبب الوضع السياسي في الشرق الأوسط ونتائجه(كما قال). دون أي تفسير آخر. كانت إيماءة غير مهنية وفاشلة وتتناقض تماماً مع روح ورسالة أعمال فرويد. خلال أكثر من ثلاثين عام وأنا أحاضر في كل أنحاء العالم لم يحدث لي هذا، ورديت برسالة فورية مؤلفة من جملة واحدة على (شولين) أن يشرح لي ما علاقة محاضرة عن فرويد في فيينا بالظرف السياسي في الشرق الأوسط. لكني لم أتلق أي رد طبعاً.

وفاقم السوء، القصة التي نشرتها نيويورك تايمز في 10 آذار عن الفصل، ومعه نسخة مكبرة خيالية للصورة الشهيرة في جنوب لبنان في تموز الماضي، وقع ذلك الحدث قبل أن يدعوني أقارب فرويد في أواخر آب. حين أجرت التايمز مقابلة مع شولين، كانت لديه الوقاحة ليحضر الصورة ويقول ما لم تكن لديه الشجاعة لقوله لي، أنها كانت (بالإضافة إلى نقدي للاحتلال الإسرائيلي) السبب لإلغاء المحاضرة وأضاف كيلا تثير حساسيات يهود فيينا في سياق حضور جورج هايدر، والمحرقة وتاريخ العداء النمساوي للسامية. كل ذلك أجبر هذا الأكاديمي المحترم قول مثل هذا الهراء الذي يفتقر للخيال، فعليه أن يقول أيضاً بأن إسرائيل تحاصر وتقتل الفلسطينيين بلا رحمة يومياً- وأن ذلك غير لائق.

بسبب جبنهم المروع لم يذكر السبب الحقيقي لإلغاء محاضرتي غير اللائق علناً فقد كان الثمن الذي دفعوه لمتبرعيهم في إسرائيل والولايات المتحدة. وأقيم معرضاً لأوراق فرويد الرسمية من قبل المعهد في فيينا ونيويورك؛ الآن الأمل أن يقام في إسرائيل. يبدو أن الممولين الكامنين طالبوا بأنهم يدفعون من أجل معرض في تل أبيب إن ألغيت محاضرتي. هيئة المعهد الضعيفة في فيينا استسلمت للإغراء، وألغيت محاضرتي جراء ذلك، ليس لأنني مؤيد للعنف والكره، بل بسبب مواقفي في القضية الفلسطينية.

قلت في ذلك الوقت أن فرويد طرد إلى خارج فيينا من قبل النازيين وأغلبية الشعب النمساوي. اليوم عليك نفس الشجاعة والمبدأ الفكري عندما يمنعون فلسطيني من إلقاء محاضرة. هذا النوع البغيض والغريب من الصهيونية غار عميقا لأنها لا تستطيع أن تبرئ نفسها من الإثم في جدال علني وحوار حقيقي. إنها تستخدم أساليب المافيا الخفية بالتهديد والابتزاز لتنتزع الصمت والإذعان. تسعى بيأس مفرط لأن تظهر نفسها ومن خلال مؤيديها في إسرائيل وأماكن أخرى، بالسعي لطمس الصوت الفلسطيني تماماً، إما بخنق القرى الفلسطينية مثل (بير زيت) أو بإقفال النقاش والنقد أينما تجد متعاونين وجبناء ينفذون مطالبها الإجرامية. ليس مستغرباً أن يكون (اربيل شارون) قائداً إسرائيلياً في مثل هذا المناخ.

لكن في النهاية هذه الأساليب اللصوصية ستعطي نتائج عكسية طالما هناك أشخاص لا يمكن تخويفهم وأصوات لا يمكن إسكاتها. بعد خمسين عام من الرقابة الصهيونية والتشويه، ظل الفلسطينيون يواصلون صراعهم. وفي كل مكان، رغم التغطية الإعلامية الرديئة، وفساد المؤسسات مثل جمعية فرويد وجبن المثقفين الذين نوموا ضمائرهم، يرتفع صوت الناس عالياً مناصرة للعدل والسلام. مباشرة بعد إلغاء فيينا لدعوتي دعاني متحف فرويد في لندن لألقي محاضرتي التي كنت سألقيها في فيينا. (بعد طرده من فيينا عام 1938، أمضى فرويد السنة الأخيرة من حياته في لندن) دعتني مؤسستان نمساويتان، معهد العلوم الإنسانية والجمعية النمساوية للأدب لكي أحاضر في فيينا في التاريخ الذي اختاره. كتبت مجموعة بارزة من المحللين النفسيين والنقاد النفسيين (منهم مصطفى صفوان) رسالة إلى معهد فرويد احتجاجا على الإلغاء. كما أبدى الكثيرون دهشتهم بسبب هذا التنمر الصريح وعبروا عن ذلك للملأ. وفي هذا الوقت تستمر المقاومة الفلسطينية في كل مكان.

لا أزال أؤمن بأن دورنا كشعب يسعى إلى سلام عادل هو تقدمي، رؤية مبنية على المساواة وتشمل الجميع بدل الرؤية الصهيونية المبنية على التمييز العنصري والإقصاء. كل فصل هنا يثبت صحة قناعتي بأن الإسرائيليين والفلسطينيين ليس لهم بديل عن التشارك في الأرض التي يطالب كلاهما بها. وأعتقد أيضاً أن انتفاضة الأقصى يجب أن توجه إلى تلك الغاية، ومع ذلك يجب أن تستمر

المقاومة السياسية والثقافية بقوة ونشاط ضد سياسات الاحتلال الإسرائيلي الآثم في الحصار والإذلال والتجويع والعقاب الجماعي. سبب ويسبب الاحتلال العسكري الإسرائيلي أضراراً جمة على الشعب الفلسطيني يوماً بعد يوم: قتل منهم المزيد من الأبرياء، خربت أراضيهم وصودرت، قصفت ودمرت بيوتهم، قيدت حركتهم وتوقفت نهائياً. آلاف المدنيون لا يستطيعون أن يجدوا عملاً أو يذهبوا إلى المدارس أو يتلقوا العلاج الطبي نتيجة الأعمال الإسرائيلية. هذه الغطرسة وهذا الهياج الانتحاري ضد الفلسطينيين لن يجلب أي نتيجة سوى المزيد من العذاب والكره، السبب الذي كان دائماً يفشل شارون في النهاية فيلجأ إلى القتل والنهب. يجب أن نترفع عن الصهيونية المفلسة من أجل أنفسنا لنبين رسالتنا الخاصة بنا للسلام والعدل. وإن بدا الطريق صعب، فلن نتخلى عنه. حين يتوقف أي منا، هناك عشرة يستطيعون ملء مكانه. تلك هي السمة الأصيلة لنضالنا ولا تستطيع أي رقابة أو تواطؤ أن تمنعه من النجاح.

نصب تذكاري للنفاق - زدنت14 شباط 2003.

أصبح الاستماع إلى الأخبار أو مشاهدتها لا يطاق في هذه البلاد أخيراً. لكن قلت لنفسي مرات كثيرة أن على المرء أن يتصفح الجرائد اليومية ويشاهد أخبار التلفزيون القومي كل مساء ليعرف ما الذي تفكر به البلاد وتخطط له، لكن الصبر والماسوشية لهما حدود. يبدو لي خطاب كولن باول في الأمم المتحدة المكرس بشكل واضح لإغاضة الشعب الأمريكي وهو يلوح بهراوته على الأمم المتحدة لسوقها إلى الحرب، نقطة رخيصة جديدة في الرياء الأخلاقي والاستغلال السياسي. لكن محاضرات (رامسفيلد) في ميونيخ في نهاية الأسبوع الماضي تجاوزت المتلعثم (باول) في الوعظ المداهن والسخرية المتنمرة. في هذه اللحظة، سأسقط من حسابي (جورج بوش) وزمرته من المستشارين، والمعلمين الروحيين والمدراء السياسيين مثل (بات روبرتسن وفرانكلين غراهام وكارل روف) الذين يبدون لي عبيد سلطة مجسدة تماماً في النغمة المملة المتكررة للناطق بلسانهم (اري فليشر) الذي أعتقد أنه موطن إسرائيلي أيضاً، الذي قال:أن (بوش) على اتصال مباشر مع الرب وإن لم يكن رباً فمع العناية الإلهية على الأقل. ربما لا يستطيع مجادلته سوى المستوطنين الإسرائيليين. لكن يبدو بأن وزيري الخارجية والدفاع قد انبعثا من عالم دنيوي (علماني) من الرجال الحقيقيين والنساء، لذلك ربما تكون هناك فرصة مناسبة للتباطؤ لبعض الوقت للنظر في كلماتهم وأفعالهم.

أولاً: بعض الإجراءات التمهيدية القليلة. من الواضح أن الولايات المتحدة عزمت على الحرب: لهذا لا يبدو هناك طريقين في ذلك. لكن إن حدثت الحرب فعلياً (نظراً لكل الأفعال التي بدأت، ليس من قبل الدول العربية التي ترتجف كالعادة وأصابها الشلل، بل من فرنسا وروسيا وألمانيا) هو شيء آخر تماماً ومع ذلك إن نقل 200,000 جندي إلى الكويت والعربية السعودية وقطر، دون ذكر تشكيلات الجنود المنتشرة في الأردن وتركيا وإسرائيل لا تعني إلا شيئاً واحداً.

ثانياً: مخططو هذه الحرب صقور جبناء، كما قال عنهم (رالف نادر) وهم أجبن من أن يقوموا بأي لوحدهم.رغم أن ولفويتز وبيرل وبوش وتشيني وغيرهم من تلك المجموعة المدنية كانوا من المؤيدين للحرب الفيتنامية بقوة، إلا أن كل منهم حصل على تأجيل من الخدمة العسكرية بناء على الإمتياز ولهذا لم يحاربوا أبداً أو يخدموا في القوات المسلحة، لذلك حربهم القتالية مكروهة أخلاقياً وبالمعنى الحرفي معادية للديمقراطية بالمطلق. ما الذي تقصده هذه الزمرة غير الموكلة التي لا علاقة لها بالاعتبارات العسكرية الفعلية في حرب ضد العراق. العراق، مهما كانت الصفات المقززة لنظامه البائس، لا يشكل تهديداً مباشراً وشيك الحدوث على جيرانه مثل تركيا أو إسرائيل أو حتى الأردن (أي منها يستطيع بسهولة التعامل معه عسكرياً) وبالتأكيد أي حجة من قبل الولايات المتحدة ببساطة هي مناقضة للطبيعة وطائش تماماً ً باستثناء عدد قليل من صواريخ سكود العتيقة وكمية قليلة من المواد الكيماوية والبيولوجية، زودته الولايات المتحدة بأغلبها سابقاً (كما قال نادر، نحن نعرف ذلك لأن لدينا إيصالات ما باعته الشركات الأمريكية للعراق) العراق كان والآن ممكن احتواءه، لكن بكلفة مفرطة من معاناة سكانه المدنيين الطويلة وبسبب تلك الحالة الفظيعة للأمور أعتقد وبشكل مطلق بوجود تواطؤ بين النظام العراقي ومنفذي العقوبات الغربيين.

ثالثاً: منذ أن بدأت القوى الكبرى بتغيير الأنظمة، بدأت التحضيرات بواسطة (بيرل وولفويتز) وأمثالهما في هذه البلاد- التي لا تبدو لها نهاية في المدى المنظور. أليس من الفاضح أن يستمر

أشخاص بهذه المكانة المريبة بترديد حماقاتهم عن جلب الديمقراطية والتحديث والليبرالية للشرق الأوسط؟ الرب يعرف أن المنطقة بحاجة ذلك كما يعرف كثير من المثقفين المسلمين والعرب والناس العاديين وقالوها مراراً وتكراراً. لكن من الذي نصب هؤلاء وكلاء للتقدم؟ وما الذي يخولهم التكلم بطريقة وقحة وصفيقة حين يكون هناك الكثير من الظلم والتعسف في بلدانهم نفسها ؟ من المثير للسخط بشكل خاص أنه كان على (بيرل) كونه شخص غير مؤهل لأن يكون على علاقة بأي موضوع يلامس الديمقراطية والعدالة، أن يكون المستشار الانتخابي لحكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة أثناء فترة 1996-1999 ليشير فيها لهذا المرتد الإسرائيلي لكي يخرب كل محاولة للسلام ويضم الضفة الغربية وغزة ويحاول التخلص من الفلسطينيين بقدر المستطاع. هذا الرجل يتحدث عن جلب الديمقراطية إلى الشرق الأوسط، ويفعل هذا دون إثارة أو أي معارضة من أي ناقد إعلامي يستجوبه بأدب (بإذلال)على التلفزيون القومي.

رابعاً: خطاب (كولن باول) رغم نقائصه الكثيرة، هو دليله المنتحل والمصنع، أشرطته الصوتية المعلبة وصوره المعالجة، كان صحيحاً في شيء واحد. إن نظام صدام حسين قد انتهك الكثير من حقوق الإنسان وقرارات الأمم المتحدة. ليس هناك نزاع في ذلك ولا عذر مبيح. لكن ما هو رياء بارز حول موقف الولايات المتحدة الرسمي أن كل ما اتهم به (باول) البعثيين فعلته ومارسته كثيراً كل الحكومات الإسرائيلية منذ عام 1948، وبشكل فاضح بعد عام 1967. التعذيب والحبس غير القانوني والاغتيال والهجوم على المدنيين بالصواريخ والمروحيات والطائرات المقاتلة وضم الأراضي وترحيل المدنيين من مكان إلى آخر بقصد الحبس والقتل الجماعي (كما في قانا وجنين وصبرا وشاتيلا سنكتفي بذكر الأوضح) إنكار الحقوق في عبور حر وتحرك مدني غير معاق، التعليم والعون الطبي واستخدام المدنيين كدروع بشرية والإذلال وعقوبة العائلات وتدمير البيوت على نطاق شامل وتخريب الأراضي الزراعية ومصادرة المياه والاستيطان غير الشرعي والإفقار الاقتصادي ومهاجمة المستشفيات والخدمات الطبية والإسعاف، وقتل موظفي الأمم المتحدة، لنكتفي بذكر أبشع الانتهاكات: كل هذه، يجب أن تلاحظ ويؤكد عليها، نُفِذَتْ بدعم كامل وغير مشروط من الولايات المتحدة التي لم تزود إسرائيل بالأسلحة لتنفيذ هذه الأعمال وكل أنواع العون العسكري والاستخباراتي فقط وإنما أعطت اكثر من 135 بليون دولار أمريكي من اموال البلاد كمساعدة اقتصادية بمقياس أفقر المقدار النسبي للشخص الواحد الذي تصرفه الحكومة الأمريكية على مواطنيها.

هذا السجل المفرط الذي يشهر بوجه الولايات المتحدة والسيد (باول) باعتباره رمز إنساني خاص وكشخص مكلف بسياسة الولايات المتحدة الخارجية، مسؤوليته أن يدعم القوانين في هذه البلاد، ويتأكد من تنفيذ حقوق الإنسان بالقوة وتعزيز الحرية- اللوح المركزي المعلن لسياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ 1967 على الأقل- وتطبيقها بشكل متساوي دون استثناء أو شرط. كيف يستطيع هو ورؤساءه وزملاءه الوقوف أمام العالم ويوعظون أخلاقياً ضد العراق وفي نفس الوقت يتجاهلون تماماً الشراكة الأمريكية المستمرة مع إسرائيل في انتهاكات حقوق الإنسان. ومع ذلك لم تكن واحدة من كل المقالات المبررة لموقف الولايات المتحدة التي ظهرت منذ أن أدلى باول بخطابه العظيم في الأمم المتحدة على هذه النقطة ولا حتى على الاستقامة الحقيقية للفرنسيين والألمان. تشهد الأراضي الفلسطينية اليوم بداية مجاعة شاملة؛ هناك أزمة صحية ذات أبعاد كارثية؛ هناك وفيات بين المدنيين تصل إلى 20 شخص على الأقل في الأسبوع؛ إنهاء الاقتصاد؛ مئات الآلاف من

المدنيين الأبرياء غير قادرين على العمل والدراسة أو حتى الانتقال بسبب منع التجول وال300 حاجز على الأقل التي تعيق حياتهم اليومية، كما نسفت البيوت ودمرت بالبلدوزرات بشكل شامل (60 بيت يوم أمس فقط). وكل ذلك بمعدات من الولايات المتحدة، ودعم الولايات المتحدة السياسي وتمويل الولايات المتحدة. صرح بوش أن مجرم الحرب، بكل المقاييس، (شارون) رجل سلام وكأنه يبصق على حياة الفلسطينيين الأبرياء التي ضاعت وخربت بواسطة شارون وجيشه المجرم. ولديه الشجاعة ليقول بأنه يتصرف باسم الرب (وإدارته) تتصرف (لخدمة الرب العادل والوفي).
والمدهش أكثر انه يحاضر في العالم عن استهزاء صدام بقرارات الأمم المتحدة بينما هو يدعم إسرائيل التي هزأت ب64 قانون دولي على الأقل بشكل يومي منذ أكثر من نصف قرن.

لكن الأنظمة العربية اليوم جبانة جداً وعاجزة ولا تجرؤ على ذكر أي من هذه الأشياء علناً. كثير منها تحتاج إلى المعونة الاقتصادية. كثير منها تخاف من شعوبها وتحتاج إلى دعم الولايات المتحدة لتدعم أنظمتها. كثير منها يمكن أن تتهم ببعض نفس الجرائم ضد الإنسانية. لهذا لم تقل شيئاً، وتأمل وتتضرع بأن تنقضي الحرب، وفي النهاية تحفظهم في السلطة كما هم.

لكن الحقيقة النبيلة والعظيمة أيضاً أنه لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تكون هناك معارضات شعبية ضد الحرب قبل حدوثها أو خلالها. هذه حقيقة غير مسبوقة ويجب أن تكون هي الواقع السياسي المركزي للفترة العالمية الجديدة التي أقحمت الولايات المتحدة عالمنا فيها بوصفها قوى كبرى.هذا يثبت أنه رغم القوة المرعبة التي يسيطر عليها الحكام المستبدون والطغاة مثل صدام وخصومه الأمريكيين ورغم تواطؤ وسائل الإعلام التي عجلت (عن طيب خاطر أو إكراه) بالاندفاع إلى الحرب ورغم اللامبالاة والجهل عند عدد كبير من الناس، لا تزال الأعمال والاحتجاجات الجماهيرية القائمة على أساس التماثل الإنساني والمؤازرة الإنسانية هي الأدوات الهائلة للمقاومة الإنسانية. سمها أسلحة الضعيف إن رغبت، لكنها عبثت بخطط صقور واشنطن الجبناء ونصراءهم المتحدين، بالإضافة إلى ملايين الموحدين الدينيين المتطرفين (مسيحيين ويهود ومسلمين) الذين يؤمنون بالحروب الدينية، ومنارة عظيمة من الأمل بزمننا. كلما ذهبت إلى محاضرة وتحدثت ضد هذه المظالم لا أجد أي مؤيد للحرب. دورنا كعرب أن نربط معارضتنا للحرب الأمريكية ضد العراق مع دعمنا لحقوق الإنسان في العراق وفلسطين وإسرائيل وكردستان وفي كل مكان في العالم العربي- وأسأل الآخرين أيضاً أن يفرضوا نفس الربط على كل واحد، عربي وأمريكي وأفريقي وأوروبي واسترالي وأسيوي. هذه القضايا قضايا عالمية وليست مجرد مسائل إستراتيجية للولايات المتحدة أو غيرها من القوى الرئيسية الأخرى.

لا نستطيع أن نقدم صمتنا لسياسة حرب أعلن البيت الأبيض صراحة أنها ستشمل من ثلاثمائة إلى خمسمائة صاروخ كروز في اليوم (800 منها خلال الساعات ال48 الأولى من الحرب) تمطر السكان المدنيين في بغداد لكي تحدث (صدمة ورعباً) أو حتى جائحة إنسانية، كما تباهى مخططها السيد(أم الدكتور) (ارلان اولهان)، ذات تأثير محدود من نموذج هيروشيما على الشعب العراقي. لاحظ أن حرب الخليج عام 1991 وبعد 41 يوم من قصف العراق لم تقترب من هذا القياس من التدمير الإنساني. كما هناك 6000 صاروخ ذكي لدى الولايات المتحدة للقيام بهذه المهمة. أي نوع من الآلهة يريد أن تكون هذه سياسة معلنة ومصاغة لشعبه؟ وأي نوع من الآلهة يقول بأن هذه السياسة ستجلب الديمقراطية والحرية ليس لشعب العراق فقط بل لكل شعوب الشرق الأوسط؟

هذه أسئلة لن أحاول حتى الإجابة عليها. لكنني متأكد وأعرف إن حدث أي شيء مثل هذا لأي شعب على الأرض فسيكون عمل إجرامي وأن مرتكبيه ومخططيه مجرمو حرب بناء على قوانين نوربيرغ التي لعبت الولايات المتحدة دوراً أساسياً في صياغتها. ليس من العبث ترحيب الجنرال شارون وشاؤول موفاز بالحرب ومدحهما لجورج بوش. من يعرف ماذا سيرتكب باسم الخير أيضاً؟ يجب أن يرفع كل منا صوته ونخرج في مسيرات ومظاهرات احتجاج مرة تلو مرة. نحتاج إلى تفكير خلاق وعمل جسور لنمنع الكوابيس التي خططت لها هيئة مطيعة محترفة في أماكن مثل واشنطن وتل أبيب وبغداد. وإن كان ما في ذهنهم هو ما أطلقوا عليه اسم (الأمن الأكبر) فلن يظل للكلمات إذاً أي معنى في المفهوم العادي. من الواضح أن بوش وشارون يكنان الإحتقار للناس غير البيض في هذا العالم. السؤال هو إلى متى يستطيعان الاستمرار في ذلك دون عقاب؟

الأدب والحرفية – الأهرام ويكلي 28 كانون الثاني 1999.

إنها واحدة من أقدم المجادلات الشائكة في تاريخ الثقافة: ما الذي يعنيه الأدب حقاً؟ لقد نظر إلى الأدب في كثير من الأعراف (خصوصاً داخل التوحيدية) بعين الشك وخصوصاً الشعراء والفنانين لأنهم يتعاملون بما يبدو أنه صور عن الواقع لكن دون أن يتقيدوا بالاعتبارات العادية للحقيقة والسلوك الأخلاقي (لعن أفلاطون في جمهوريته) محاولته لبناء دولة مثالية- الشعراء وأعتبرهم خطرا على الصالح العام؛ يدفعهم الإلهام وكتاباتهم جذابة بشكل هائل للمستمعين لكنهم، يضيف أفلاطون، لا يشعرون بضرورة تمثيل الحقيقي والمفيد. إن اعتبارهم الأول جمال الشكل والتعبير الذي لا يقدر على الاهتمام بالشخصية الخيرة والسلوك الفاضل وهو ما يعتبره أفلاطون مؤذٍ تماماً. لا مكان للشعراء في جمهورية غرضها الأساسي التعليم والحفاظ على طاعة القانون والمواطنة التي تلهمها الحقيقة وتنيرها الأخلاق.

ثم استرشد الأدب الكلاسيكي والنقد بما اعتبره الشاعر الرومي (هوراس) بالجميل والمفيد معاً، وأصبحت عبارة جميل ومفيد باللغة اللاتينية وصفة لكل العصور، كان هذا بسبب تأثير أفلاطون طبعاً لكن ما عزز هذا وقواه هو الإعتقاد بأن يكون الأدب جميلاً ومفيداً أخلاقياً أجيال من الشعراء والمعلمين الذين رأوا دورهم دائماً في الإصرار على الدرس أخلاقي بالإضافة إلى الإبداع والبهجة. وحسب شاعر النهضة الانكليزي الكبير وأحد رجال الحاشية الملكية (السير فيليب سيدني) كان الشاعر نبياً، شخص أعطته طاقاته العظيمة في النطق والرؤيا تبصراً خاصاً إلى ما هو جيد وأخلاقي وفاضل. ظلت هذه النظرة العامة للشعر والفضيلة سائدة على نطاق واسع حتى منتصف القرن الثامن عشر رغم أن عدداً من الفنانين الكبار اقتربوا بشكل خطير من إفساد ذلك، لكنهم لم يلغوا رسالة الأدب تماماً.

هناك حالة (فرانسوا رابيلا) الكاتب الفرنسي البارز في القرن السادس عشر، الذي روت سلسلة كتبه الكبيرة (غرانغانتويا وبانتاغرويل) المغامرات المستهترة لزوج من العمالقة لهما شهوات غير مكبوحة هائلة؛ أسلوب الكتاب كعنوانه، مفرط ومسرف وغامر، وهذا ما جعل العمل مثير للجدل لأجيال قادمة من القراء رغم التزام رابيلا الصريح بالمسيحية. وتأمل ناقد أمريكي مشهور الصعوبة التي وجدها في نفسه كمؤمن بحقوق النساء حين قرأ هجوم رابيلا المفصل بشكل هائل ضد النساء، حتى لو استنتج أن الهجوم بالأدب مسموح به. لم تكن هناك أي طريقة يستطيع المرء فيها قص أو إزالة تلك الجريمة بحق النساء والقراء الصغار الذين قد يكتسبوا أفكاراً خاطئة منه.

بنهاية القرن الثامن عشر زحف عنصر جديد كنسي وذاتي إلى داخل مملكة الجمال، عنصر برر بأنه لا ينبثق من الطبيعة نفسها وإنما من آثار الطبيعة على الخيال. من روسو إلى وردسويرث وشيللي وكوليردج ونوفاليس وهيوغو وشاتوبرايان وكثيرين غيرهم، كانت وظيفة الأدب في الحقيقة أن يجسد الشكل غير المعبر عنه سابقاً من خصوصية القلب والعقل وينقله إلى مستمعين مستعدين ومتشوقين لتشرب الأسلوب الجديد الذي لا يعرف أي قيود عملياً. جسدت شخصية غوته، فيرذر الحدود القصوى التي يمكن أن تصل إليها العاطفة القوية المجردة من أي التزام بتمثيل العالم (الموضوعي) أو أي مبدأ أخلاقي أو فضيلة. في كل أنحاء أوروبا يقرأ الشباب عن فيرذر، ويعانون ما عانى وينتحرون بنفس طريقته أحياناً.

كانت أصالة التعبير هي المهمة، والإخلاص للذات المبدعة وليس لفضائل الطبقة الوسطى والإحساس العام. وظل هذا صحيحاً عموماً لثلاثمائة سنة على الأقل ليس في الأدب فقط بل في الموسيقى والفنون الرمزية. ليس هناك معجب ببيتهوفن أو بيكاسو، وجويس، وايرزا باوند يستطيع الإدعاء بأنه يستمتع بأعمالهم ويشتكي بنفس الوقت بأنها انتهكت كل أصناف وقوانين السلوك الجيد والتصوير الواقعي أيضاً. لقد اعتبر الفن شيئاً مختلفاً عن الحياة؛ المراد منه تدمير الواقع العادي؛ وخلق واقع آخر لكي يكون مفرطاً وليس عادياً.

هذا كله ملخص لقضايا معقدة كثيرة جداً تتصل بالطريقة التي يفسر بها الأدب، أو بالنص المكتوب حقيقة. لكن مع ذلك من المهم الإصرار على أن كل النصوص المكتوبة هي تفسيرات بحد ذاتها، مثلما كل قراءات النص تفسيرات أيضاً. اللغة ليست واقعاً؛ الكلمات ليست قابلة للتبادل مع الأشياء. علم اللغويات(اللسانيات) يعلمنا ذلك، وبهذا توصلنا إلى إدراك أن كل الأشياء المكتوبة تتطلب التفسير، أي، الحاجة إلى اكتشاف معاني النص لتوضيح قصد الكاتب. لكن ليس هناك اتفاق مطلق حول هذا وإنما إجماع لأن أي تفسير يعتمد على مهارة وظروف ووجهة نظر المفسر.

تكمن المشكلة حين يؤكد المفسر من طرف واحد أن رواية ما مثلا تعني شيئاً محدداً فقط دون غيره، أو عندما يقول القارئ أن الروايات يجب أن تعني سين أو صاد وليس ألف باء جيم. لقد دار الكثير من المناظرات الثقافية الرئيسية في السنوات الأخيرة حول مثل هذه القضايا، لهذا لن أدعي بأنني سأتعامل معها كلها هنا ولا أن أحسم كل الخلافات. كل ما أريده هو أن أوضح بأن التفسير نفسه يكون ويجب أن يكون دائماً من أجل الثقافة وتعايش محترم للمواطنين ضمنها، وأن النص شيء متعدد الوجوه ولا ينتهي لذلك لا يمكن أن يبت فيه مرة واحدة ونهائية.

من الواضح بأن هذا صحيح حين يتعلق الأمر بالنصوص المقدسة. إن كانت هناك قراءة بسيطة واحدة فلن يكون هناك عدد كثير من المدارس والعقائد والتيارات والنزعات: تحل كلها ويتبع الجميع التفسير ذاته، وبذلك ينتهي الأمر. جزء مما يدور الآن في العوالم الإسلامية والمسيحية واليهودية هو بالضبط القتال حول التفسيرات والحرفية. مصدر الخلاف الرئيسي في إسرائيل اليوم هو النزاع حول التفسير، وهو ممزق لذلك ينفصل المجتمع كما يحاول اليهود الأرثوذكس (التقليديون) أن يفرضوا إرادتهم على الأغلبية الدنيوية (العلمانية) بالقول بأن هناك قراءة واحدة فقط للقانون الأرثوذوكسي وهم الوحيدون الذين يمتلكونه: البقية (الليبراليون والمحافظون الخ) ليسوا يهودا حقيقيين لأنهم لا يقبلون بهذا الرأي. نفس القضية موضوع نزاع في الولايات المتحدة والعالم الإسلامي أيضاً.

حين يأتي الأمر إلى النصوص الأدبية-رواية وشعر ودراما- وكيف تعلم في المدارس والجامعات تتحول القضية كلها إلى ما هو مناسب للصغار. الحرفية في تفسير الأدب ببساطة وصراحة غير مناسبة. وإلا لكان هناك رأي مؤكد واحد. أتذكر ذلك حين ذهبت لأول مرة إلى بولندا في العام 1972، اخبرني زميل لي في الجامعة أنه من الصعب جداً أن تعلم أو تكتب أي شيء عن كارل ماركس بطريقة نقدية؛ فقد فرضت الحكومة حظراً صارماً على الإنحراف عن الخط الشيوعي. القراءة الوحيدة لقراءة ماركس، ماركس الوحيد الذي اعتبر ملائماً للتعليم في حصص الفلسفة. أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وفتغشتاين وهايدغر وبرتراند روسل اعتبروا ثانويين كلهم ونادراً ما يتم السماح بهم إطلاقاً.

لكن لا يمكن أن يكون هناك مجتمع متحضر تحكم الحياة فيه قوانين عقائدية تحدد ما هو محرم وما هو ممنوع قراءته. وهذه قضية ملحة خصوصاً في الجامعات حيث دور التدريب الأكاديمي هو بالضبط تعليم الصغار أن العقل له قدرات للبحث، والنقد والاستعلام وأن خنقها أو اختصارها أو منعها يعتبر جريمة. هذا لا يعني أن المبدأ الأكاديمي يهمل تدريب الصغار في فنون التفسير والقراءة التفريقية والتجرد النقدي : هذه أشياء جوهرية وأساسيات. لكن القول بأن هناك كتب معينة وأفكار ومؤلفون يجب أن لا ندسهم ونقرأهم لأنهم ينتهكون التعريفات الإعتباطية لما هو صحيح ومناسب هو انتهاك لفكرة الجامعة كلها كما نظر إليها هنري نيومان وطه حسين ورعيل من المفكرين غيرهم. لأنه لو وضع معلم أو موظف كبير قواعدا لما هو صحيح ومناسب وفرض ما يجب أن لا يقرأ ومنع أو حظر كتباً في الصفوف المدرسية أو المكتبة، السؤال الذي يجب أن يسأل إذاً: من سيوجه الموجه، من سيكون فوقه في السلطة، من سيضع المعايير للشخص الأفضل الذي سيقرر ما يجب أو لا يجب أن يتعلمه الصغار؟ هذه الأسئلة تأخذنا إلى انكفاء لا نهاية له لأن الإجابة عليها كلها وتسويتها دفعة واحدة ونهائية مستحيل.

إضافة إلى ذلك حين يتعلق الأمر بالأدب خصوصاً والفن عموماً، لا يجب أن ننسى بأن الفن ليس دينا، والرواية ليست فلسفة والشعر لا يقدم نماذج للسلوك الجيد. في أغلبه، الفن صور كما قال أرسطو، محاكاة للواقع، وليس الواقع نفسه، والطريقة التي يخترق فيها الأدب أو الموسيقى أو الرسم الواقع لا تزال موضوع نقاش وجدال وخلاف وتحقيق فلسفي ودراسي منذ قرون. هذه الحالة ليست مقتصرة على التقليد الأوروبي وإنما الهندي والعربي والصيني أيضاً وغيرها. حين تقول بأن رواية ما لا أخلاقية فأنك تفترض أن تكون الروايات أخلاقية، وهذا محض هراء، بما أن الفضيلة الوحيدة التي يدور حولها الأدب هي الكتابة إما جيدة أو سيئة. إن معاملة الأدب القصصي كما لو كان عظة دينية أو أخلاقية انعكاس بعيد عن حقيقة الأدب الممكن تحصيلها، وفي الوقع هي أنقى شكل من البربرية الفكرية.

أي شخص يحسب الأدب واقعاً، ويعامله حرفياً، يكون قد شوش نظرته للأشياء بشدة؛ تذكر أن واحدة من أعظم الروايات التي كتبت على مدى العصور (دون كيشوت لسيرفانتس) هي عن رجل يرتكب ذلك الخطأ بالضبط ولذلك يعتبر مجنوناً. كل الهدف من تعليم طلاب الجامعة في الفنون الليبرالية عامة والأدب بالتحديد، هو تمرينهم وتدريبهم بأن لا يقرؤوا الكتب الدينية عن السلوك الجيد فقط وإنما كل الكتب وخصوصاً تلك التي تتحدى وتعرض أخلاقياً وفكرياً. ماذا سيحل بالأدب إن خضع لقوانين تصوغها لجنة من الخبراء تحدد ما يقرأ وما لا يقرأ؟ هذا مثل محاكم التفتيش الإسبانية أكثر مما هو ممارسة منهجية لمؤسسة تعليمية حديثة.

أقول هذا لأننا في الولايات المتحدة والعالم العربي نقترب بشكل خطر من وضع بدأ فيه الضغط السياسي المنبعث من السلطات الدينية من خارج الأكاديمية ينتهك حريتنا في التعبير التي فزنا بها بشق الأنفس وحرية الفنانين في كتابة وتمثيل ما هو مهم ومشوق بالنسبة لهم. منذ سنوات واللوبي الأمريكي الطنان يحاول أن يرهب المدارس والجامعات ليحذف الكتب التي يعتبرها (غير أخلاقية) على أساس أنها لا تتوافق مع العقيدة الدينية أو ليست معادية للشيوعية. في العالم العربي والإسلامي مثل هذه الممارسات كالرقص والغناء تتعرض للتهديد بالمثل، وتعتبر غير أخلاقية، وكذلك بعض الكتب والمؤلفين. الرد الوحيد على هذا ليس بالتراجع خوفاً وجبناً بل في فتح هذه القضايا لحوار ونقاش صريح وشجاع. دع خصوم الحرية يتقدمون ويدلون بحجتهم بشكل مكشوف ودع المدافعين

عن الحرية يدلون بدلوهم أيضا. وليكن هذا علنيا. لكن الضغط من وراء الستارة، والتهديد وقبل كل شيء التخويف، من الجانب الآخر، الإذعان للرقابة على الأدب والفنون على أسس حرفية محضة هو كارثة.

وكعرب لقد دفعنا ثمناً باهظاً جداً بسبب غياب الحريات الديمقراطية. الطلب في البقاء صامتين هو طلب بالاستسلام والقيام به بطريقة جبانة وغير منطقية. أي مكان تحرم فيه الكتب أو الأفكار على أسس (أخلاقية) مخادعة يجب على كل المثقفين والكتاب والمعلمين فيه أن يتقدموا دون خوف وفي تضامن. وإلا لن يظل القول أي كتاب سيمنع أو فكرة بعد ذلك، خصوصاً في مؤسسات التعليم حيث من السهل بشكل سخيف ومفرط القول أن تحريم الكتب تم لحماية الصغار وتعليمهم فقط الكتب (الأخلاقية) المناسبة والمفيدة لهم. هذا هراء مطلق، وفاشية مقنعة وتعتيمية في التداول الحالي للأفكار المقبولة. هذه الممارسات نقيض للفضيلة والتعليم، ويجب أن تكشف فورا وبصراحة بأنها بالضبط فاشية وتعتيمية متعمدة، وليس لأي منهما أي مكان في التعليم.

السياسة الثقافية - الأهرام ويكلي10 أيار 2000

إن مملكة الجمال مستقلة ذاتياً ويجب أن لا تشوش أو تقلل إلى السياسة والاقتصاد أو التاريخ رغم أن كل عمل فني متصل بزمنه ومكانه في المجتمع. جوهر النقد طبعاً أن يحدد طبيعة تلك العلاقة المختلفة تماماً في كل عمل لأن النتاج الفني فردي بكل ما تعنيه الكلمة ولا يقبل الاختزال. على أي حال ذلك شيء للاعتبار في مكان آخر، بما أنني أريد أن أناقش هنا موضوعاً أقل تعقيداً بكثير لكنه مشوق ومتعلق بالعمل الجمالي في العالم المعاصر. أردت ببساطة أن أبين نسخة تخطيطية لفلسفتي الجمالية الخاصة منذ البداية لكي أوضح أن ما سأقوله فيما يلي ليس مقصوداً ولا يمكن أن يكون نقاشاً موسعاً عن علم الجمال وإنما عن السياسة والثقافة.

سوف ابدأ بملاحظتين. الأولى شهد نصف القرن الأخير حراك فني مهم في العالم العربي. فلم يكن هناك روائي عظيم غير واحد (نجيب محفوظ) وإنما سلسلة كاملة في التأليف والدراما والرقص والسينما والنحت والرسم والموسيقى والإنتاج الفني الهائل. يشمل ذلك الأعمال الكلاسيكية والفن الشعبي. إن ذكر بعض الأسماء بطريقة عشوائية مثل طه حسين وأم كلثوم وأدونيس ويوسف شاهين وطيب صالح ونزار قباني وعبد الرحمن منيف ومحمود درويش ومحمد عبد الوهاب وتحية كاريوكا وتوفيق الحكيم وسعدي يوسف والياس خوري هو مجرد غيض من فيض.

الملاحظة الثانية لا تقل أهمية عن الأولى كما أعتقد. رغم ذلك يشعر المثقفون العرب بعدم وجود اعتراف كامل في هذا الواقع الثقافي العظيم في بقية العالم عموماً وعالم شمال الأطلنطي وأكثر تحديدا العالم الانغلوساكسوني بشكل خاص. إن المشهور نجيب محفوظ نفسه يعتبر دائماً كقضية منعزلة رغم تميزه، بعد أن خمدت شعلة الحماس الأولى اثر نيله جائزة نوبل في عام 1988. أقصد بذلك أنه يُقرأ ويُكتب عنه بإهمال أكثر وأقل معرفة واهتمام من معاصريه البارزين كغارسيا ماركيز ونابكوف أو شينوا اشيبي. أتذكر مقالة طويلة وقيمة وأصيلة في نيويورك (ريفيو اف بوكس) (22 أيلول 1994) للروائي الجنوب أفريقي الرائع جي ام كويتزي عن كتاب محفوظ الحرافيش، كويتزي ككاتب موهبة بارزة ومصقولة، لكنه كان خاماً بشكل مذهل ومؤطر في عموميات عن تخلف الإسلام وكل أنواع الأغلاط الأولية في أسلوب محفوظ في روايته المثيرة للجدل أولاد حارتنا وهذا لا يستطيع المرء أن يتجرأ على كتابته حول الروايات في اسبانيا أو روسيا أو حتى اليابان. طبعا كوتيزي يستخدم ترجمات انكليزية، أغلبها رديئة وليس كلها، ومن الواضح أنه لا يعرف الكثير عن البيئة والتقاليد التي عمل فيها محفوظ، لكن النقطة هي أنه استطاع أن يكتب دون تلك المعرفة وظل ما كتبه مرجعاً كافياً مؤهلاً لأن الثقافة العربية يفترض بها أن تكون بتلك الطريقة، تستحق ذلك النوع من الاهتمام الناقص والمخلخل. توجد أسباب كثيرة لذلك. بعض منها العداء الثقافي والديني الموجود بين الغرب والعرب وتاريخ الاستشراق ومشكلة إسرائيل وغياب أي سياسة ثقافية جادة للدول العربية والحالة البائسة للديمقراطية في العالم العربي والجهل المتبادل الصاعق بين الثقافات الذي يؤدي بكل منها إلى العيش لوحدها. كانت النتائج بالنسبة للعرب أن فهمت ثقافتهم بشكل رديء وبخست قدرها وهذا غير مقبول أبداً آخذين بالإعتبار تلك الأعمال الممتعة الأصيلة والهادفة التي أبدعها شعبنا في العصر الحديث. هناك ترجمات ممتازة لمحمود درويش وادونيس بالفرنسية بالإضافة إلى عدد محترم من الروايات المترجمة لتلك اللغة واللغة الاسبانية والألمانية لكن ليس

هناك أي ترجمة انكليزية شاملة ومصقولة لادونيس أو محمود درويش كما أن نزار قباني وآخرين غيره من نفس المقام غير معروفين وليس هناك أي احتمال عاجل لترجمات قادمة بمعيار لائق يقوم بها مترجمون ممتازون ودور نشر محترمة. ما هو موجود متقطع ومتفاوت وغير منتظم وفي حالة محفوظ، يوفر طلباً مؤقتاً لكنه غير ثابت أو جدير. يوسف شاهين مثلاً، نال منزلة أستاذ لكن أفلامه لا تعرض في مسارح لندن أو نيويورك بشكل متكرر. إننا نحتاج إلى دمج فوري متاح للإنتاج الثقافي العربي المعاصر في العالم الناطق بالانكليزية (مركز الحوار الثقافي العالمي الآن). فكرة المكتبة المتممة في اللغة الانكليزية للأعمال العربية لم يجر التفكير بها في المناخ السياسي والثقافي الحالي، حيث ينظر للعرب إما كمشكلة أو كمرشحين محتملين لعملية سلام مشكوك بأمرها. لا أريد أن استفيض بهذه النقطة لأنني افعل ذلك منذ زمن طويل قبل الآن.

ما أريد قوله هنا شيء أكثر ايجابية. للمرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية هناك أسماء عربية وانجازات على الميدان العالمي بفضل جيل جديد من الفنانين الموهوبين بصورة استثنائية في الأربعينات من أعمارهم لم يكونوا بحاجة إلى عذر أو تعليل . لقد فعلو ما فعلوه كفنانين مؤلفين ورسامين وسينمائيين مثل نظرائهم وأندادهم في الغرب وأي مكان في العالم (بما فيه الهند وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا واليابان الخ) بنفس تأكيد الوعي الذاتي وبنفس الإحساس بالانجاز، طالما ينظر إلى عملهم كعمل فني وليس كمنتج غريب لمجتمع شرقي أو شيء يحتاج إلى شرح وتبرير. شخصيات كهذه مثل ضحى حديد ومنى حاطوم واهداف سويف- كلهن نساء- معروفات كمهندسات معماريات وفنانات وكاتبات دون أي مؤهل إلا أنهن عربيات، وهو أقل أهمية من عملهن الذي يحتل المرتبة الأولى بكل المقاييس العالمية. وأود القول بأن الكتاب الذين ترجمت أعمالهم مثل الطيب الصالح والياس خوري وغسان كنفاني وحنان الشيخ ونوال السعداوي، لأسباب مختلفة جداً، لهم منزلة مساوية لكن مع قليل من الاختلاف كفنانين من وفي العالم العربي. ربما كان السبب أن النساء الفنانات الثلاث اللواتي ذكرتهن يعشن في الغرب واستخدمن لغته ولهجته أو لأنهن أمهر وأبرع في المستوى الجديد، من الصعب تحديد ذلك. لكن الحقيقة أنهن عضوات بارزات في المجتمع الثقافي الذي لم يخترقه الجيل العربي السابق سابقاً.

تعليقاتي هنا سببها اسم جديد، هو المخرج المصري يسري نصر الله، وهو من نفس الجيل الذي ذكرته سابقاً أيضاً لكن ليس مثله في إقامته الأساسية التي لا تزال في العالم العربي. رغم ذلك، أنجز مؤخراً مكانة بارزة كمخرج سينمائي في الغرب الانغلوساكسوني بفيلمه المدينة، الذي عرضه مؤخراً متحف الفنون الحديثة في نيويورك وقبلت بتوزيعه مجموعات توزيع كبيرة. هذه المؤشرات الناجحة أقل أهمية طبعاً من إنجاز الفعل الحقيقي، الذي اشتهر بطريقة غير مسبوقة في وسائل إعلام نيويورك الحاقدة. لأن المدينة أولاً، لم يقم بأي تنازلات لما يعتبر غرابة (دخيل). هذا ليس فقط فيلم يقدم لوناً محلياً أو عن فئة مصرية/عربية خاصة أو قابل لتفسيره في سياقات اجتماعية/اقتصادية واثنية تأخذ في حسبانها أشياء مثل العولمة والعالم الثالث. كل هذه العناصر موجودة هناك طبعاً - وإنما هو قصة شاب مصري من الطبقة الوسطى يريد أن يصبح ممثلاً - ولغته وصوره وأسلوبه كلها مصرية بشكل واضح. لكن جاذبيته ومستوى كينونته الجمالية يفترض مشاهدين أكثر كونية بالإضافة إلى طموح أعظم ووصول. الأهم، أن جاذبية الفيلم هي سينمائية، أي لا تعتمد على تفسيرات ثقافية لازمة للفهم أو لشيفرة خاصة لتعليله وتبريره. لعب الشاب الوسيم (باسم سمره) دور علي بطل نصر الله ببراعة (في الحقيقة بطريقة وأسلوب مصريين مميزين). الشاب علي من سكان

روض الفرج ويعمل في محل حكومي لبيع اللحوم يطمح في الذهاب من القاهرة إلى باريس حيث يحلم بامتهان التمثيل هناك. يتشابه الفيلم في كثير من مظاهره مع مسلسل شاهين الإسكندرية طبعاً، لكن قصة نصر الله قاسية بشكل وحشي ولا تركز فقط على قصيدة كفافي الرائعة (فيلسوف إغريقي مصري-المترجم) بأنه ليس هناك من يستطيع مغادرة المدينة وإنما على التداعيات بين الشباب الذين يسجنون ويغتنون بنفس الوقت. يظهر القسم الأوسط من الفيلم علي وهو في باريس ليس كممثل وإنما كملاكم يقاتل في نزالات معدة ومرتبة يحصل مقابلها على المال الذي يذهب جله لمديره الإقليمي الجزائري-المغربي. ثم يصبح واحداً من مجموعة كبيرة من المهاجرين العرب غير الشرعيين (أكثرهم من الفلسطينيين)، المذعنين لمخاطر حياتهم ووجودهم القلق الذي يعيشونه بحثاً عن عمل ووثائق إقامة قانونية، تجربة لم يصورها أي فيلم في مثل هذه القوة التي لا تلين.

في النهاية ينتهي علي إلى شخص من الشارع مصاب بسبب حادث نعتقد أنه فقد ذاكرته فيه، رغم أن الفيلم كان غامضاً بذكاء هنا، بعد أن يتنازل في الحقيقة عن جواز سفره لمديره الذي يسرق تذكرته ويعود إلى مصر بينما تنشأ علاقة محددة بين علي وممرضة فرنسية لطيفة تقوم بدورها بشكل مبهر انيس دي ميديروس لكنها تنتهي فجأة. قسم من قوة الفيلم هو أفكاره عن الهوية-التمثيل والأصالة والعرق والجنس-معقدة لكنها غير مضللة أو خادعة ولا محتشمة بشكل مفرط أو مراوغة أبداً. كما يشير إلى علاقات ذكورية مثلية جزئياً، وأخرى ليست كذلك جزئيا وتحد هذا البعد بمهارة عظيمة في سؤال أوسع عن المكان في عالم متقلب معولم، أين يمكن أن يكون فيه المرء وكيف. يحمل مجاز التمثيل كل هذا بصورة ممتازة، إلى المشهد الأخير حين يطلق نصر الله المشهد الذي ينذر بكارثة، في القاهرة التي عاد علي إليها، ليثبت نصر الله أن نهاية الفيلم مثل نهاية تريفو (مخرج فرنسي-المترجم) في للنهار والليل، مشهد تحول إلى فيلم.

هذا لا يعني أن فيلم المدينة يتملص من المسائل السياسية أو القضايا الصعبة والمعقدة: على العكس، لا يفعل ذلك وإنما هي مندمجة في الفيلم كجزء من بنيته الجمالية الاجتماعية الثقافية وليست كعنصر إيديولوجيا. المؤثر بشكل مميز كما وجدت، هو العناية بالمظاهر الثانوية الإضافية لقصة علي: علاقة الحب مع ابنة جاره التي تنقطع تارة وتعود أخرى التي قامت بدورها بسمه بشكل يثير الفضول، إضافة إلى علاقته الغنية مع شيلا مع كل التلميحات لمظاهر الحياة العربية المعاصرة، من العمل في الخليج إلى بؤس الوجود تحت سلطة عرفات، والطريقة السهلة التي تم التعامل فيها مع باريس والقاهرة بالاحترام والاهتمام اللتان تستحقانه كمسخين عن إسكندرية كفافي. لكنن وقبل كل شيء لا يشعر المرء بالملل وضياع الوقت رغم طول الفيلم: فهو محكم ونحيل ومختصر بشدة، دون عاطفة جياشة وتوان ولم تحشر فيه أي مشاهد محلية لإرضاء المشاهدين. عند الانتهاء من العرض في متحف الفنون الحديثة أعلن نصر الله (يجب أن أقول شيئاً لمشاهديه القلقين) أن فيلمه لم يعرض إلا في مهرجان الإسكندرية السينمائي وليس هناك أي خطط لعرضه تجارياً في دور السينما المصرية.

هذه الحالة المرعبة للأشياء، بسبب الغياب الكامل لسياسة الحكومة في حماية الأفلام المصرية من ضراوة الموزعين الأمريكيين وجشع أصحاب مسارح المدن الذين يريدون أن يعرضوا الأفلام المستوردة الضاربة في السوق فقط. يعيدنا هذا مرة أخرى إلى كل قضية الثقافة كسياسة، التوزيع والانتشار واثبات الثقافة كطريقة لتحقيق مكاسب سياسية وأن الفن يتقنه خصومنا في الحركة الصهيونية والغرب. نحن لم نفهم أبداً (ولو فعلنا فسنتحول عن الدروس) قيمتنا كشعب وثقافة، وأننا

وضعنا ثقتنا (تراث من الكولونيالية) في السيد الأبيض أو في الوسطاء. لهذا السبب يجد فيلم نصر الله مشاهدين له خارج العالم العربي، وينال سمعة هناك، أكثر من الوطن حيث أصبحت الكلبية والاعتقاد بالاستقامة الذاتية قانون الوقت الحاضر. لقد أحرزت أعمال حاطوم وحديد وسويف ومثيلاتها مقامات رفيعة لأن فيها وصية تبين كيف نجت أخيراً من العقبات المهينة التي وضعت في دروبها في الوطن. وبسخرية واسعة، يرينا هذا العمل الذي هو لفنانين عرب وبتجارب عربية وعنها الذي انتهى بإعطائنا المتعة غير المستحقة، مدى نجاحنا حين تتوفر لنا الفرصة .

إسرائيل إلى أين؟ الأهرام ويكلي8 شباط 2001

القصة عن الكاتب المشهور (غاي دي موبسان) الذي بعد بناء برج إيفل بوقت قصير في أواسط القرن التاسع عشر طاف حول المدينة متشكياً من كرهه الكبير لهذا الصرح المعماري. لكن مع كل ذلك ظل يذهب باستمرار إلى مطعم البرج لتناول غداءه هناك يومياً. حين انتبه إلى التناقض في سلوكه أجاب موبسان ببرود (أذهب هناك لكي أكون داخله وهو المكان الوحيد في باريس الذي لا أكون فيه مضطراً للنظر للبرج أو حتى رؤيته.)

انطباعي العام بأن أغلب الإسرائيليين يعتقدون أن بلادهم محجوبة. كونهم فيها يعني عمى معيناً أو عجز عن الرؤية لما يحدث فيها والمثير للانتباه بشكل استثنائي رفضهم بأن يفهموا ماذا تعني للعالم الآخر وخصوصاً في الشرق الوسط. قبل أن تظهر هذه السطور في الطباعة، ستجرى الانتخابات الإسرائيلية كما هو مقرر منذ عدة أسابيع، وسيصبح (ارييل شارون) رئيساً للوزراء. وكما حدث تماما قبل أشهر وبعد انتخاب (ايهود باراك) فوراً، ركز الأعلام في الولايات المتحدة في محاولات متنوعة على شارون لتجميل صورته وجعله مقبولاً أو على الأقل مرشحاً ليس شاذاً أو متوحشاً. لا اعتقد أن أي شخص خارج إسرائيل مقتنع فعليا لكن الغريب والمذهل هو تفكير الأغلبية في إسرائيل في اللجوء إلى قاتل الفلسطينيين القديم الضال بعد أربعة أشهر من حكم (ايهود باراك) من سفك للدم الفلسطيني وعقاب الجماعي لملايين العرب الفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع دون أن تحقق إسرائيل أي شيء. حسب استطلاعات الرأي، اختار الإسرائيليون الرجل الذي سيجلب لهم قدر أكبر من العنف، مما يقلل احتمال وجود علاقات إسرائيلية مستقبلية سلمية وسهلة مع الفلسطينيين والدول العربية والعالم الإسلامي. السؤال هو كيف استطاع الناس أن يفكروا بخيار عقيم إلا إذا لم يكن لديهم أدنى فكرة عن نظرة العالم لهم، أو أي فكرة بأن مثل هذا التدمير والوحشية لن ينال سوى مزيد من الانعزال والكره وبالتالي انعدام الأمن.

لذلك العبث مع شارون الآن هو انكفاء أبعد نحو الداخل وطرد عنيد للعالم الخارجي لفائدة السياسة القديمة والمخزية المتمثلة بضرب العرب والتي زادت من عزلة إسرائيل وخزيها. تستمر الحياة فيها طبعاً مثلما تفعل في أي مكان آخر وبشتى أنواع الطرق، يجب أن يكون واضحاً أن أغلب الإسرائيليين ناس عاديون يريدون العيش حياة عادية ليرعوا عائلاتهم وينجحوا في أعمالهم ويستمروا بدون خوف من كارثة أو حرب. لكن كشعب، كان تاريخهم الجمعي في أكثره غير مرحب به في التاريخ العربي الحديث و نكبة كاملة بالنسبة للفلسطينيين بشكل خاص. لا يوجد ما يشبه علاقة التساوي والتضاد تلك في أي مكان في العالم. وفي الوقع، لم أقابل أي فلسطيني بعد لا يعني له أفضل أشكال الوجود الإسرائيلي الحميدة إلا شيئاً سلبياً جداً على فلسطين والفلسطينيين. من الصعب أن تنظر إلى المشهد الإسرائيلي مثلاً دون أن ترى المزرعة أو القرية الفلسطينية التي طمست واستبدلت، وصعب أن تسمع من شخص مهاجر إلى إسرائيل من رومانيا أو روسيا دون الشعور بالكرب من المنفي الفلسطيني الممنوع من العودة إلى الوطن.

وهكذا استمر الوضع أكثر من خمسين عام: الحياة في المجتمع الأول تعني الإحباط وفي الآخر المعاناة،واحدة بواحدة، والمثل بالمثل بشكل متصلب ووحشي. لا يحتاج أي فلسطيني إلى التذكير بأن أي انتصار إسرائيلي يقابله خسارة فلسطينية.

حتى بعد 1967، حين اختلط الإسرائيليون والفلسطينيون ديموغرافياً معاً أكثر من أي زمن مضى، تعمقت المسافات والاختلافات بين العالمين وتوسعت رغم التقارب التام بينهما ولم يعمل الاحتلال العسكري على التفاهم أبداً ولم توفر سنوات بعد أوسلو أيضاً سوى القليل من المشاركة، باستثناء ما يتعلق بمجموعة صغيرة نسبياً من أصحاب الإمتياز والمفاوضين. لكن ما وجدته محير جداً مدى الإحباط والغضب الذي بدا على الكثير من الإسرائيليين بسبب انتفاضة الأقصى، وكأن الأعمال الاستيطانية الدائمة والاغلاقات المستمرة ومصادرات الأراضي وآلاف الاهانات والعقوبات والعوائق الاعتباطية التي فرضها الإسرائيليون على الفلسطينيين، وكأن مفاوضات السلام التي كانت تجري بين الجانبين لا تعني شيئاً، وكأن الشهامة الإسرائيلية حين سمحت بالقليل جداً من الاستقلال الذاتي يكفيها هذا للاستيلاء على كل شيء ويجب أن يكون الشعب الفلسطيني ممنوناً بتنازلاتها هذه. بدلاً من الربط بين سياسة إسرائيل في الاحتلال العسكري والانتفاضة كسبب ونتيجة، يريد كثير من الإسرائيليين الآن من شارون أن يغزو وقال أحدهم إلى أحد الصحفيين (تعاملوا مع العرب كما لو أنهم أسراب من الذباب أو النحل المزعج).

ما لم يخطر على بال الإسرائيليين أبداً حتى السلفيين منهم أن مسار الخطوات الإسرائيلية البطيء والمشوه إلى السلام في التخلي عن الأراضي هنا وهناك، زائد آلاف الشروط والساعات الكثيرة جداً التي ضاعت في التفاوض حول كل الشروط المعقدة التي تربطها إسرائيل بكل خطوة صغيرة تأخذها، مثل تحريك بعض القوات من جانب في الضفة الغربية إلى جانب آخر، زائد البناء المستمر للمستوطنات زائد التقسيمات الفرعية الجديدة والطرق التي زادت في فصل غزة عن الضفة إضافة إلى الاغلاقات المتكررة والاستخدام الدائم للتعذيب والعنف الذي يمارسه المستوطنون ضد الفلسطينيين في أماكن كالخليل مثلا، زائد الحقيقة بأنه في ظل براك ليس هناك أراض يتخلون عنها-كما لو أن كل هذا، الذي جعل الأمور أسوأ مما كانت عليه شيء لم يفهمه المعسكر المناصر للسلام في إسرائيل. ويجب القول أيضاً أن الفلسطينيين تصرفوا مثلما تصرفت كل الشعوب المستعمرة ضد المستعمر في التاريخ: ثاروا محتجين. الصعب جداً والغامض في ذلك، لماذا يقاوم شعب ذكي كالإسرائيليين فَهِمْ أبسط مظاهر السلوك الإنساني؟

لو قبل المرء للحظة أن كل هذه الأشياء التي تعرض لها الفلسطينيين كانت جزءاً من عملية سلام يفترض بها أن تحسن الأوضاع-نعم، أفصل- إذاً يجب أن يتولد لدى هذا المرء أغرب إحساس ممكن بنفسه، أغرب سلوك ممكن تخيله. ما الذي يكشفه هذا الإحساس المنحرف بالسبب والنتيجة عن هذا الشخص؟ ما الذي يوحي به الإعتقاد أن العقاب والسادية سيحسنان العلاقات بين الناس؟ تصف (أميره حاس) في مقالة حديثة لها في هآرتس (28كانون الثاني2001) بتفصيل مؤلم ما الذي يعنيه استخدام الطرق بالنسبة للفلسطينيين اليوم وكم هي بائسة ومخيفة وكريهة هذه التجربة لكل شخص، صغير كان أم كبير، ذكر أم أنثى، فقط لأن إسرائيل شرعت في جعله بتلك الطريقة للشعب الفلسطيني. هذه سادية عقابية صرفة: لا تخدم الأمن ولا الهدف البعيد وإنما تحول الحياة إلى جحيم بالنسبة لكل الفلسطينيين الذين يضيعون أكثر أوقاتهم على الطرقات في المسير العادي لحياتهم اليومية، يعانون من التأخيرات التي لا تنتهي والالتفافات والتفتيش والإذلال والاستجوابات وفي أغلب الأوقات يفشلون في الوصول إلى مقاصدهم بسبب النزوة الإسرائيلية. كيف يمكن لتلك الممارسات أن تساعد أي شخص، وكيف يمكن لأي شخص أن يعتقد بالعكس إلا إذا لم تكن له أي علاقة بالحقيقة والواقع أبداً.

أستطيع أن أتخيل بسهولة أن الإسرائيليين الذي يؤيدون هذه الإجراءات كانوا مثل غيرهم من الناس الآخرين حين يتعلق الأمر بكل مظاهر الحياة الأخرى. لكن حين يتعلق الأمر بالعرب تختلف المعتقدات. لم يقف أبداً، حسب معرفتي، أي قائد إسرائيلي وقال أننا أخطأنا بحق هؤلاء الناس وأننا طردناهم من بيوتهم ودمرنا مجتمعاتهم وجردناهم من أملاكهم، دعنا نتذكر ذلك على الأقل ونحاول أن نسهل الأمر عليهم الآن. خلال جلسات مفاوضات عملية السلام الطويلة والملتوية لم يصل إلى مسامع الصحافة ولو همسة بأن أحد المسؤولين الإسرائيليين قال شيئاً نبيلاً أو لمح بأنه شعر ببعض من تأنيب الضمير لما ارتكب ضد الفلسطينيين باسم إسرائيل. كل ما سمعناه أن كل بوصة من الأرض يفترض أن تعطى للفلسطينيين يكبلها آلاف الشروط، وبذلك قسمت فلسطين المقسمة مسبقا إلى أربعة أضعاف أو أكثر لكي تبقى بعيدة عن متناول الفلسطينيين، ولكي يظل الفلسطينيون يقفزون الحواجز الكثيرة وينتظرون سنوات أكثر قبل أن يصلوا إلى شيء يشبه دولة الحكم الذاتي. كما لا يزال يقبع مئات السجناء السياسيين في زنزاناتهم ولا يزال المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل محاصرين في قراهم المفقرة ومدارسهم المتخلفة وبلدياتهم لا يستطيعون شراء أو استئجار أرض لأسباب دينية واثنية لكي تستطيع إسرائيل على المحافظة على أغلبية يهودية ولكي يستطيع اليهود الإسرائيليون التنمر واضطهاد شعب آخر دون التفكير بهم أو حتى رؤية الكثير منهم.

لكن ليس من الضروري أن يكون لديك مواهب أرسطو أو ديغول لتدرك أن السياسة الإسرائيلية في التعامي الرسمي لن تجلب النصر أبداً، كالفشل الذي لاقته سياسة شارون في لبنان، أو ما ستجلبه سياسة باراك من سلام وإنهاء لانتفاضة الأقصى. مثل دي موسبان في مطعم برج إيفل، ستغرق إسرائيل التي يقودها الصقور العسكريون أكثر وأعمق في مكان لا تستطيع الإفلات منه أو كسب معركة فيه. بعيداً عن الانكفاء داخل ذاتها، فهي تؤكد العكس بأنها ستبقى متصلة بالعالم العربي بأسوأ شكل بواسطة جيشها ومستوطنيها وغزاتها وإيديولوجييها المتبجحين، بينما يشل مواطنيها وفنانيها وناسها العاديين رؤى النجاة والفوز بكل شيء التي لم تعد لتحقيقه أي فرصة الآن. تتجسد الأفكار الخيالية عن القوة الإسرائيلية في أشخاص دمويين، يعتبر شارون في أفضل أحواله من النوع الثاني منهم الذين يرون أن سياسة الفصل العنصري تنجح إن قبل الشعبين بفكرة العزل مع دونية يفرضها القوي على الضعيف. لكن بما أن الحالة ليست كذلك (ولم تحدث في التاريخ أبداً) سيظل ذلك دائماً غير محتمل بأن يقبل شعب بالعبودية وهو مبتهج ومسرور. لماذا يخدع الإسرائيليون أنفسهم في التفكير بأن هذا سينجح في منطقة صغيرة كهذه وجغرافية مشبعة تاريخياً كفلسطين؟

طالما هم يعتقدون في معجزة في إسرائيل المفصولة عن ظروفها وبيئتها-فكرة شاذة شجعتها حملة شارون الانتخابية- يشبه اليهود الإسرائيليون أعضاء طائفة دينية أكثر من كونهم مواطنين في دولة علمانية حديثة. ومن الصحيح في بعض الوجوه أن تاريخ إسرائيل السابق كدولة رائدة جديدة هو اعتقاد طوباوي، يدعمه أشخاص يستمدون قوتهم بإغلاق محيطاتهم ليعيشوا أوهام مشاريع بطولية مجردة. لقد اتضح ازدياد مدى ضرر ومأساة هذا الوهم الجمعي يوماً بعد يوم، الذي أوصل شخصيات منفرة وعتيقة كسيئ الصيت شارون. كم ستستغرق اليقظة وكم سيعانى من ألام قبل أن تتفتح العيون بشكل تام؟

أوهام وأحلام – زدنت 30 آب 2003

خلال الأيام الأخيرة من تموز، تخلى النائب الجمهوري توم ديلاي من تكساس وزعيم الأغلبية البرلمانية الموصوف بصورة روتينية كواحد من الرجال الثلاث أو الأربع الأقوى في واشنطن، عن رأيه المتعلق بخارطة الطريق ومستقبل السلام في الشرق الأوسط. ما اضطر للقول بأنه كان يعني الإعلان عن رحلة قام بها فيما بعد إلى إسرائيل وعدة دول عربية حيث، كما نقلت الأخبار، تفوه هناك بنفس الرسالة. في لغة غير ملتبسة، أعلن ديلاي نفسه معارضاً لإدارة بوش لدعمها لخارطة الطريق وخصوصاً الشرط المعلق فيها بالدولة الفلسطينية وقال مؤكداً (إنها ستكون دولة إرهابية) مستخدماً كلمة(إرهابية) التي أصبحت خطبة أميركية رسمية-دون اعتبار للظروف أو تحديد أو صفات مادية. استمر ليضيف إنه اكتسب أفكاره المتعلقة بإسرائيل بفضل ما وصفه بقناعاته ك(مسيحي صهيوني) عبارة بديلة ليس لدعم كل ما تفعله إسرائيل وإنما أيضاً حق الدولة اليهودية الدينية في الاستمرار بغض النظر إن تضررمن جراء ذلك بضعة ملايين من الفلسطينيين.

إن عدد الناس في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الذين يفكرون مثل ديلاي كبير وملحوظ ويتراوح من 60-70 مليون، ومن أبرزهم (جورج دبليو بوش) المسيحي الجديد المولود الذي يرى كل ما في الكتاب المقدس بحرفيته. إن بوش هو قائدهم ويعتمد على أصواتهم في انتخابات عام 2004 التي لن يفوز بها في رأيي. ولأن رئاسته مهددة بسياساته المخربة في الداخل والخارج تحاول استراتيجيات حملته جذب عدد أكبر من التيار المسيحي اليميني من أقسام أخرى من البلاد وخصوصاً الغرب الأوسط. إذاً ستشكل آراء اليمين المسيحي (المتحالف مع اللوبي المؤيد لإسرائيل من المحافظين الجدد) قوة مرعبة في السياسة الأمريكية الداخلية وهي المجال الذي يدور فيه النقاش حول الشرق الأوسط في أمريكا. يجب أن نتذكر أن فلسطين وإسرائيل تعتبران من قضايا السياسة الداخلية وليست الخارجية في أمريكا.

لهذا، لو أن تصريحات ديلاي مجرد آراء شخصية لمتحمس ديني أو لغو وهمي لحالم غير منطقي، لأمكن التغاضي واعتبارها محض هراء. لكنهم يمثلون لغة القوة التي ليس من السهل معارضتها في أمريكا، حيث يقتنع كثير من المواطنين أن الرب يهديهم مباشرة فيما يرونه ويعتقدون به ويفعلونه أيضاً. (جون اشكروفت) المحامي العام، نقلت الأنباء عنه، أنه يبدأ يوم عمله بصلاة جماعية في مكتبه. رائع: يريد الناس أن يصلوا، ومسموح لهم بحرية دينية تامة بالدستور. لكن في حالة ديلي، بقول ما قاله ضد سلالة كاملة من البشرية (الفلسطينيين) أنهم يشكلون دولة من (الإرهابيين) أي أنهم أعداء الإنسانية في تعريف واشنطن الراهن للعالم، لقد عرقل جدياً تقدمهم نحو حق تقرير المصير وسار في فرض عقاب آخر عليهم وعذاب على أساس ديني. بأي حق؟

تأمل اللاإنسانية المحضة والغطرسة الامبريالية لموقف ديلاي: أشخاص مثله من مرتبة قوية على بعد 10الاف ميل، الذين يجهلون كل شيء عن الحياة الحقيقة للعرب الفلسطينيين كما لو أنه رجل من القمر، يستطيع فعلياً الحكم ضد الفلسطينيين ويعرقل حريتهم ويرسخ سنوات أخرى من الاضطهاد والعذاب لمجرد أنه يعتقد أنهم إرهابيين كلهم ولأن صهيونيته المسيحية تقول له هذا دون إثبات أو مبرر. بالإضافة إلى اللوبي الإسرائيلي هنا، ناهيك عن الحكومة الإسرائيلية هناك، يجب

على الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين أن يتحملوا مزيد من العوائق والعقبات الموضوعة في طريقهم في الكونغرس الأمريكي.

ما أدهشني حول تعليقات (ديلاي) ليس خلوها من المسؤولية وسهولة الإهمال غير المتحضر لآلاف الناس الذين لم يرتكبوا أي ذنب في حقه (غير متحضر كلمة تستخدم كثيرا في وصف الحرب ضد الإرهاب) فقط وإنما أيضا الزيف والزيف التضليلي الذي تشترك فيه تعليقاته مع الكثير من الرسميين في واشنطن بما يتعلق بالنقاش حول الشرق الأوسط والعرب والإسلام (والسياسة تجاه ذلك). لقد وصل هذا إلى مستويات جديدة من التركيز والتفاهة والتجريد في فترة ما بعد 11 أيلول. ويسيطر الغلو على الجو العام،أي التكنيك في إيجاد مزيد من التصريحات المفرطة لوصف الوضع والمبالغة فيه ابتداء من بوش نفسه طبعاً الذي أخذت تصريحاته الغيبية عن الخير والشر ومحور الشر ونور الله وإسرافه المقزز عن شرور الإرهاب لغة التاريخ الإنساني والمجتمع إلى مستويات جديدة من الاختلال الوظيفي الصرف والجدل الذي لا أساس له. كل هذه مزركشة بالمواعظ الجليلة والتصريحات الموجهة إلى بقية العالم ليكون براغماتياً ويتجنب التطرف وأن يكون متحضراً وعقلانياً، وبنفس الوقت يستطيع صناع السياسة في الولايات المتحدة بسلطتهم التنفيذية غير الملجومة شرعنة نظام حكم هنا وغزو هناك و(إعادة البناء) في دولة ثالثة، كل ذلك من مكاتبهم المكيفة الضيقة في واشنطن. هل هذا أسلوب لضرب نماذج للحوار المتمدن وترقية القيم الديمقراطية بما فيها فكرة الديمقراطية نفسها؟

أحد المواضيع الأساسية لكل حوار المستشرقين منذ منتصف القرن التاسع عشر هو أن اللغة العربية والعرب مبتلون في عقلية ولغة غير مفيدة للواقع. أصبح كثير من العرب يصدقون مثل هذا الهراء العنصري، كما لو أن كل اللغات العالمية مثل العربية والصينية أو الانكليزية تمثل أذهان مستخدميها. الفكرة جزء من نفس الترسانة الإيديولوجية التي استخدمت في القرن التاسع عشر لتبرير الاضطهاد الاستعماري: لا يستطيع (الزنوج) التكلم بشكل لائق وصحيح لذلك بناء على (توماس كارليل) يجب أن يبقوا مستعبدين؛ اللغة (الصينية) معقدة ولذلك بناء على (ايرنست رينان) الرجل الصيني والمرأة الصينية مخادعان ويجب أن يقمعا؛ وهلم جر. ليس هناك من يأخذ هذه الأفكار على محمل الجد إلا حين يتعلق الأمر بالعرب واللغة العربية والمستعربين.

في ورقة كتبها (فرانسيس فوكوياما) منذ بضع سنوات، بابا الجناح اليميني والفيلسوف الذي اشتهر لمدة وجيزة بفكرته المنافية للعقل عن (نهاية التاريخ) قال أن وزارة الخارجية ستحسن التصرف لو تخلصت من المستعربين والمتحدثين باللغة العربية لأنهم بتعلم تلك اللغة تعلموا (أوهام) العرب أيضاً. اليوم كل فيلسوف قريب من وسائل الإعلام، بمن فيهم النقاد من أمثال (توماس فريدمان) يثرثرون على نفس الوتر، مضيفين إلى ذلك أوصافهم العلمية للعرب أنه من بين الأوهام الكثيرة للغة العربية المعتنقة بشكل مشترك ال(أسطورة) بأن العرب يعتبرون أنفسهم شعباً. ان العرب حسب ما يراه مثل هؤلاء الخبراء مثل (توماس فريدمان وفؤاد عجمي) عبارة عن جماعة مفككة من المتشردين الجوالين، وقبائل بأعلام، متنكرين كثقافة وشعب. من السهل أن يبرز المرء بأن هذا مجرد وهم استشراقي هذياني، له نفس وضع الإعتقاد الصهيوني بأن فلسطين كانت أرض فارغة وأن الفلسطينيين لم يكونا هناك وبالتأكيد لا يعتبروا شعباً. من النادر أن يحتاج المرء إلى إثبات بطلان هذه المعتقدات النابعة بوضوح من الخوف والجهل.

لكن ليس هذا كل ما هناك. إذ يُوَبَخْ العرب دائماً لعجزهم على التعامل مع الواقع، وتفضيل الكلام الطنان على الحقائق، والتمرغ في الإشفاق على الذات وتبجيل الذات بدلاً من الروايات الرزينة للحقيقة. الموضة الجديدة هي الإشارة إلى تقرير برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة في العام الماضي كوصف (موضوعي) لاتهام العرب لذاتهم. يا لبؤس ذلك التقرير، كما أشرت، فهو ضحل وليس أكثر من ورقة طالب خريج، ويعكس بشكل ناقص العلوم الاجتماعية، ومكرس لإثبات أن العرب يستطيعون قول الحقيقة عن أنفسهم وأنه دون مستوى قرون من الكتابة النقدية العربية من زمن ابن خلدون إلى الوقت الحاضر. بإبعاد كل ذلك جانباً كالسياق الفخم الذي تجاهله مؤلفو التقرير فربما من الأفضل لو أثبتوا أن تفكيرهم يتماثل مع البراغماتية الأمريكية

وقد قال خبراء آخرون أن العربية كلغة غير دقيقة وغير قادرة على التعبير عن أي شيء بالدقة الحقيقية. إن مثل هذه الملاحظات ضارة جداً إيديولوجياً ولا تحتاج إلى برهان في رأيي. لكن أعتقد بأننا نستطيع أن نكوّن فكرة عما يدفع مثل هذه الآراء للأمام بالبحث عن تباين تعليمي في أحد أعظم نجاحات البراغماتية الأمريكية وتظهر كيف يتعامل قادتنا الحاليين وسلطاتنا مع الحقيقة واللغة الحقيقة الرزينة. أتمنى أن تكون السخرية التي ناقشتها واضحة. المثال الذي في بالي هو المخطط الأمريكي لعراق ما بعد الحرب. هناك وصف مرعب لهذا في عدد 4 آب من الفايننشال تايمز التي تخبرنا بأن (دوغلاس ليث وبول ولفويتز) وهما المسؤولان غير المنتخبين ومن أقوى صقور المحافظين الجدد في إدارة بوش وتربطهما علاقات قوية استثنائية مع حزب الليكود الإسرائيلي، كلفا مجموعة من الخبراء في البنتاغون الذين ادركوا منذ البداية أن هذه (الحرب وما بعدها) لن تكون رقصة زنجية فقط (مصطلح عامي لشيء سهل عمله ولا يحتاج إلا لجهد قليل) وإنما ستتتغرق (كلها) من 60-90يوم، ثم يترك الأمر للجلبي والمجلس الوطني العراقي ويمكن لوزارة الدفاع بعدئذ غسل يدها من المسألة برمتها والمغادرة بسرعة وبطريقة ملساء ورشيقة. وسيكون هناك عراق ديمقراطي منقاد لرغباتنا وأمانينا جراء ذلك.

نحن نعرف، طبعاً، أن الحرب كانت بناء على تلك المقدمات واُحتل العراق عسكرياً بناء على تلك الفرضيات الامبريالية الوهمية. لم يكن سجل الجلبي كمخبر ومصرفي جيداً. والآن من اللازم أن يذكر المرء بما حدث في العراق بعد سقوط صدام حسين. الفوضى الفظيعة من النهب والسلب للمكتبات والمتاحف (التي هي مسؤولية القوات الأمريكية وقوات الاحتلال) والانهيار التام للبنية التحتية وعداء العراقيين- الذين هم أخيراً ليسوا جماعة واحدة متجانسة- للقوات الانكلوامريكية، وفقدان الأمن والأهم العجز الإنساني غير العادي لغارنر وبريمر وكل تابعيهم وجنودهم في مواجهة مناسبة لمشاكل عراق ما بعد الحرب، كل هذا يثبت نوع البراغماتية المدمرة الزائفة وواقعية التفكير الأمريكي الذي من المفترض أن يكون على تباين حاد مع أشباه الشعوب كالعرب الذين تملأهم الأوهام ولديهم لغة مليئة بالأخطاء أيضاً. حقيقة الأمر هي أن الواقع ليس بأمر الفرد (مهما كان قوياً) ولا يتقيد بالضرورة ببعض الشعوب والعقليات أكثر من غيرها. الحالة الإنسانية مكونة من التجربة والتفسير وهاتان لا يمكن السيطرة عليهما بالسلطة: هما أيضاً المجال المشترك للكائنات البشرية في التاريخ. الأخطاء الفادحة التي ارتكبها (ولفويتز ولايث) الناتجة عن استبدال متعجرف ولغة متعجرفة لواقع متمرد موغل في التعقيد. النتائج المرعبة لا تزال ماثلة أمام اعيننا.

لذا دعنا لا نقبل بأي ديماغوجية إيديولوجية تترك اللغة والواقع على أنهما الخاصية الوحيدة للقوة الأمريكية أو ما يدعى بالمنظور الغربي. جوهر المسألة هو الامبريالية طبعاً، تلك المهمة (المبتذلة

في النهاية) الزائفة والمزعومة لتخليص العالم من أشكال شريرة مثل صدام باسم العدالة والتقدم. تبريرات غزو العراق والحرب الأمريكية على الإرهاب التي أصبحت أحد أقل الصادرات المرحب بها من إمبراطورية فاشلة سابقة (بريطانية) وقست النقاش وشوهت الواقع والتاريخ بطلاقة مرعبة، تلك التي أعلن عنها الصحفيون البريطانيون المنفيون الذين لا يملكون الصدق ليقولوا صراحة (نعم) نحن أعلى وأرفع مستوى ونحتفظ بحقنا في تعليم السكان المحليين الأصليين الدرس في أي مكان في العالم نراه كريهاً ومتخلفاً. ولماذا لنا ذلك الحق؟ لأن هؤلاء السكان الأصليون ذوي الشعر الصوفي الذين نعرفهم من خلال حكم إمبراطوريتنا الذي دام خمسمائة عام ونريد الآن أن تتبعنا أميركا، قد فشلوا: لم يفهموا أن حضارتنا أعلى وأرفع، لقد أدمنوا على الخرافة والتعصب، إنهم طغاة ضالون يستحقون العقاب ونحن الذين كلفهم الرب بتولي تلك المهمة، باسم التقدم والحضارة. إن استطاع بعض من هؤلاء الصحفيون المتقلبون البهلوانيون (الذين خدموا كثير من السادة لدرجة لم تعد لديهم أي قيمة أخلاقية إطلاقاً) النجاح في اقتباس ماركس والمفكرين الألمان رغم عدائهم المعلن للماركسية وجهلهم المطلق لأي لغة أو دراسة ليست إنكليزية- لدعم ما يقولونه سيبدون أكثر تذاكياً. إنها نوع من العنصرية في الصميم ولا يهم أي ثوب تلبس.

المشكلة حقيقةً، أعمق وأكثر تشويقاً مما تخيله منظرو وخبراء السلطة الأمريكية. إذ أن كل الشعوب في كل أنحاء العالم تعاني من ورطة ثورة فكر ومعجم النيوليبرالية الأمريكية والبراغماتية التي صنعها صناع السياسية الأمريكية لتكون معياراً عالمياً - كما رأينا في المثال العراقي الذي ذكرته- بينما هناك في الواقع كل أنواع الهفوات والمعايير المزدوجة في استخدام كلمة (واقعية)و(براغماتية)وكلمات أخرى مثل (علماني) و(ديمقراطية) التي تحتاج إلى إعادة نظر وتقدير تأمين. الواقع معقد جداً ومتنوع وأكثر من أن يستسلم لصيغة هزيلة مثل (عراق ديمقراطي مطيع لنا بالنتيجة) مثل هذا الاستنتاج لا يستطيع أن يجتاز اختبار الواقع. لا تفرض المعاني من ثقافة على ثقافة أخرى كما لم تعد لغة واحدة وثقافة واحدة تمتلك سر كيفية القيام بالأشياء بكفاءة.

أنا أقر بأننا كعرب وأمريكيين لقد سمحنا أكثر مما يجب بشعارات طنانة جداً ع(نا) وعن طريقة (نا) للقيام بالنقاش والحجة والتبادل. أحد حالات الفشل الرئيسية لدى أغلب المثقفين العرب والغربيين اليوم أنهم قبلوا بدون جدال أو تدقيق صارم بمصطلحات مثل العلمانية (الدنيوية) والديمقراطية، كما لو أن الكل يعرف ما تعنيه هذه الكلمات. في أمريكا الآن أكبر عدد من السجناء وأكثر عدد من الإعدامات من أي دولة في العالم ولكي تنتخب رئيساً لست بحاجة إلى الفوز بأصوات الناخبين وإنما عليك أن تنفق أكثر 200 مليون دولار. كيف تمر هذه الأشياء في إختبار الديمقراطية الليبرالية؟

بدلاً من أن تكون لغة النقاش مبنية على عدم الشك بمصطلحات فضفاضة مثل (الديمقراطية) و(الليبرالية) أو حول مفاهيم غير مدروسة عن (الإرهاب) و(التخلف) و(التطرف)، يجب أن نضغط من أجل نوع من النقاش أكثر دقة وصرامة تعرف فيه المصطلحات من وجهات نظر كثيرة ووضعها دائماً في الظروف التاريخية الملموسة. الخطر الكبير هو أن الفكر الأمريكي (السحري) (لولفويتز وتشيني وبوش) قد تم أقراره وقبوله كمعيار فخم يجب أن تتعبه كل الشعوب واللغات. في رأيي، وإن كان العراق مثالاً بارزاً، يجب أن لا نسمح بأن يحدث ذلك دون نقاش عسير وتحليل طويل، ويجب أن لا نخاف من الإعتقاد بأن سلطة واشنطن مرعبة بشكل لا تقاوم. وطالما يتعلق النقاش بالشرق الأوسط يجب أن يشمل العرب والمسلمين والإسرائيليين واليهود كمشاركين متساويين. أناشد كل واحد أن ينضم وأن لا يترك مجال القيم والتعاريف والثقافات دون نضال

وحوار. إنها بالتأكيد ليست ملكية مقتصرة على قلة من موظفي واشنطن كما هي ليست مسؤولية حفنة من حكام الشرق الأوسط أيضاً. هناك مجال مشترك لواجب إنساني جرى ابتداعه وإحيائه ولم يعد بإمكان أي تهديد امبريالي مهما كان حجمه أن يخفي تلك الحقيقة أو ينفي ذلك الواقع.

صدام الجهل-ذا نيشن 22تشرين اول 2001

لقد اجتذبت مقالة صمويل هنتينقتون (صدام الحضارات؟) التي ظهرت في عدد صيف عام 1993لمجلة فورين افيرز مقداراً مدهشاً من الانتباه ورد الفعل لأن القصد من المقالة تزويد الأمريكيين بفرضية مبتكرة عن (طور جديد) في السياسة العالمية بعد انتهاء الحرب الباردة. بدت عبارات هتنغتون في الإثبات ضخمة وفارضة وجريئة وتنبؤية. من الواضح أنه كان يراقب منافسيه في صفوف صناع السياسة والمنظرين من أمثال فوكوياما وأفكاره عن (نهاية التاريخ) والفيالق التي احتفلت باستهلال العولمة والقبلية وتشتت الدولة. لكنهم لم يدركوا سوى شكل واحد من هذه الفترة الجديدة. لقد كان على وشك الإعلان عن(المظهر الحاسم والمركزي) لما سماه بالسياسة الكونية المحتملة في السنوات القادمة.

(ترى فرضيتي أن المصدر الأساسي للصراع في العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا في المقام الأول. الانقسامات الكبيرة بين الجنس البشري ومصدر الصراع المهيمن سيكون ثقافياً. ستبقى الدولة-الأمم العوامل الأقوى في الشؤون الدولية، لكن الصراع الرئيسي للسياسة الدولية سينشب بين أمم وجماعات من حضارات مختلفة. كما سيطغى صدام الحضارات على السياسة الكونية. ستكون خطوط التصدع بين الحضارات خطوط المعركة في المستقبل)

أغلب البراهين في الصفحات التالية تعتمد على فكرة غامضة لشيء يسميه هنتينغتون ب(الهوية الثقافية) و(التفاعل بين سبع أو ثمان حضارات رئيسية) ويشغل جل اهتمامه الصراع بين اثنين منها، الإسلام والغرب. في هذا النوع من الفكر القتالي، يعتمد كثيراً على مقال للمستشرق بيرنارد لويس بتاريخ 1990، الذي تتضح ألوانه الإيديولوجية من خلال عنوانه (جذور الغيظ الإسلامي). أكد في كلا المقالتين على تشخيص كينونات هائلة سميت (بالغرب) والإسلام بشكل متهور وطائش، كما لو كانت قضايا الهوية والثقافة المعقدة بشكل هائل موجودة في عالم من الرسوم المتحركة يضرب فيه بباي وبلوتو بعضهما البعض بلا رحمة، حيث الأول دائماً ملاكماً محترفاً فاضلاً يتغلب على خصمه. من المؤكد أنه لم يتوفر الوقت لهنتنغتون أو للويس للديناميكية الداخلية والتعددية في كل حضارة، أو لحقيقة أن السباق الرئيسي في أغلب الحضارات الحديثة يتعلق في وضوح وتفسير كل حضارة ، أو للإمكانية المكروهة بتضمين قدر كبير من الديماغوجية والجهل الجلي عند التظاهر بالتعبير عند ين كامل أو حضارة. كلا، ليس الغرب غرب، والإسلام إسلام.

إن التحدي لصناع السياسة الغربيين (يقول هتنغتون) هو التأكد بأن الغرب يزداد قوة ويصد الآخرين كلهم، والإسلام خصوصاً. المقلق أكثر أن ادعاء هنتغتون بأن منظوره، الذي يفحص به العالم كله من مجثم عال معزول عن كل الروابط العاطفية العادية والولاءات الخفية، هو المنظور الصحيح، كما لو أن كل شخص آخر يجري متلهفاً للبحث عن الأجوبة التي وجدها فوراً. في الحقيقة (هنتينغتون منظر وإيديولوجي) شخص يريد أن يجعل (الحضارات) و(الهوية) على ما هي ليست عليه: كينونات مغلقة بإحكام ومسدودة تماماً تطهرت من آلاف التيارات والتيارات المضادة التي تحيي وتنشط التاريخ الإنساني، وأنها خلال قرون لم تتمكن فقط من احتواء الحروب الدينية والغزوات الامبريالية وإنما كونت وحدة من الهجين المتبادل والتشارك. يتم تجاهل هذا التاريخ الأقل وضوحاً في عجالة تركيز الضوء على المصلحة المحدودة السطحية بشكل مضحك التي تثبت

حقيقتها (صدام الحضارات). حين نشر كتابه الذي يحمل نفس العنوان عام 1996، حاول هنتغتون أن يعطي برهانه دقة أكثر وكثير من الهوامش؛ لكن كل ما فعله هو إرباك نفسه وأثبت بأنه كاتب اخرق ومفكر سمج.

هذه الصيغة الأساسية، الغرب ضد البقية، بقيت دون مساس وهذا ما جرى الإلحاح عليه كثيراً بطريقة مبطنة وماكرة في النقاش منذ حوادث الحادي عشر من أيلول الفظيعة. الهجمة الانتحارية المريضة والمريعة المخططة بدقة والمذبحة الجماعية التي ارتكبتها مجموعة صغيرة من المقاتلين المخبلين قد تحولت إلى دليل واثبات لفرضية هنتغنتون. بدلاً من النظر في جوهرها- أسر أفكار كبيرة (استخدمت الكلمة بحرية) من قبل زمرة صغيرة جدا من المتعصبين المجانين لإغراض إجرامية- الشخصيات العالمية المشهورة من رئيسة وزراء باكستان السابقة بنازير بوتو ورئيس الوزراء الايطالي سيلفيو بيرلسكوني تفاصحوا بالتعبير عن مشاكل الإسلام واستخدم الأخير أفكار هنتنغتون للتبجح بالتفوق الغربي، كيف (نحن) لدينا موزارت ومايكل انجلو وهم لا. (لقد قدم بيرلسكوني اعتذاره الفاتر عن هذا للإسلام)

لكن لماذا لا نرى أنداد، أقل إثارة في تخريبهم على نحو لا يمكن إنكاره، لأسامة بن لادن وأتباعه في الطوائف الدينية مثل برانش دافيديانز (فرع الداوديين) أو مريدي المبجل جيم جونز في غويانا أو اوم شينريكو؟ حتى الأسبوعية البريطانية الايكونوميست الواقعية عادة (في عددها 22-28 أيلول) لم تستطع مقاومة التطاول لتعميم واسع، بمدح هتنغتون بشكل مفرط على أحكامه الوحشية والشمولية على الإسلام. تقول صحيفة (تودي) برزانة غير لائقة، كتب هنتنغتون أن (مسلمي العالم البالغين بليون أو أكثر مقتنعون بتفوق ثقافتهم، وقلقون من دونية قوتهم.) هل تفحص 100 اندونيسي و200 مغربي و500 مصري وخمسين بوسني؟ حتى لو فعل ذلك، ما هذا المثال؟

لا تعد أو تحصى الافتتاحيات في كل صحيفة ومجلة أمريكية وبريطانية مشهورة التي أضافت العملقة والتدمير لهذه المفردة، التي لم تكرس لتثقيف وإنما لإشعال انفعال القارئ الساخط كفرد من (الغرب) وما يجب علينا عمله. يستخدم الخطاب التشرشلي بشكل غير ملائم من قبل الذين نصبوا أنفسهم مقاتلين من أجل الغرب وخصوصاً حروب أميركا ضد كارهيها وناهبيها ومخربيها دون اهتمام بالقصص التاريخية المعقدة التي تتحدى مثل هذا الاختزال وتسربت من منطقة إلى أخرى، بطريقة تتجاوز الحدود التي يفترض بها أن تعزلنا كلنا في معسكرات مسلحة منقسمة.

هذه هي المشكلة مع الأوصاف المميزة التجهيلية للإسلام والغرب: إنها تضلل وتشوش الدماغ، وتحاول أن تمنطق حقيقة منافية للأخلاق لا يمكن وضعها على الرف أو تطويقها بسهولة. أتذكر مقاطعة رجل لي أثناء محاضرة ألقيتها في جامعة في الضفة الغربية عام 1994، حين وقف من بين الحضور وبدأ بمهاجمة أفكاري ك(غربي)، بسبب معارضتي للفكر الإسلامي المتزمت الذي يعتنقه. (لماذا ترتدي بدلة وربطة عنق؟) كان الرد السريع الذي خطر له.(إنهم غربيون أيضاً.) جلس بابتسامة على وجهه، لكني تذكرت حادثاً حين بدأت المعلومات عن 11 أيلول في الظهور: كيف تمكنوا من كل التفصيلات المطلوبة ليرموا بشرهم الإجرامي على مركز التجارة العالمي، والبنتاغون والطائرة التي جندوها. أين سيقف المرء بين التكنولوجيا(الغربية) و(العجز الإسلامي) كما قال بيرليسكوني ليكون جزء من (الحداثة).

لا يمكن للمرء القيام بذلك بسهولة طبعاً. كم هي غير ملائمة تلك الأوصاف المميزة والتعميم والإكراه الثقافي. في مستو ما (مثلاً) كيف تتحد الانفعالات البدائية والمهارة الممذوقة بطرق لتعطي الأكذوبة حداً محصناً ليس بين (الغرب) و (الإسلام) وإنما بين الماضي والحاضر، بيننا وبينهم، فضلاً عن مفاهيم الهوية والقومية التي يدور حولهما خلاف وجدال لا ينتهيان. أتخذ قراراً أحادياً بالتهديد بالعقاب، والشروع بحملات صليبية، والمقارنة بين شرهم وخيرنا، واستئصال الإرهاب و، في عبارات بول ولفويتز العدمية، لإنهاء الأمم نهائيا، ولا يسهل للكينونات المزعومة بأن ترى أن إطلاق التصريحات القتالية بغرض تعبئة الانفعالات الجماعية أسهل بكثير من التأمل والتدقيق، وفرز ما نتعامل معه في الحقيقة وتداخل حياة الأرواح التي لا تعد (أرواحنا) و(أرواحهم) أيضاً.

في ثلاث مقالات متسلسلة لافتة للنظر نشرت بين كانون الثاني وآذار عام 1999في(دون) الصحيفة الأسبوعية الباكستانية الأكثر احتراماً، كتب إقبال احمد للقراء المسلمين، محللاً ما سماه بأصول الحق الديني، منتقداً تشويه الإسلام من قبل مؤيدي الحكم الاستبدادي وطغمة المتعصبين الذين هاجسهم توليف السلوك الشخصي لتشجيع (نظاماً إسلامياً يقلل إلى مجموعة قواعد جزائية مجرداً من إنسانيته وجماليته ومناقبه الفكرية وورعه الروحي.) وهذا (يستلزم إصرار مطلق بالأوحد، مظهرا لا علاقة له بالدين وإلغاء تام للآخر. الظاهرة تشوه الدين وتحط من قدر التقاليد وتحرف العملية السياسية أينما تنتشر)

كمثال مناسب لهذا الانحطاط، يباشر (أحمد) أولا بتقديم المعني الغني والمعقد والمتعدد لكلمة جهاد ثم يستمر ليبين أن الكلمة انحصرت حالياً على الحرب المشوشة الاعتباطية ضد الأعداء المفترضين، من المستحيل (إدراك الإسلام كدين ومجتمع وتاريخ وسياسة- كما عاشه المسلمون عبر العصور.) الإسلاميون الجدد (يختم أحمد) (مهتمون بالسلطة وليس بالجوهر؛ بتعبئة الناس لأغراض سياسية بدلاً من تقاسم وتسكين العذاب والطموحات. أجندتهم أجندة سياسية ضيقة جداً وآنية) وفاقم سوء الأمور التشويه المماثل والحماس المفرط الذي حدث في خطاب العالمين (اليهودي) و(المسيحي).

كان (كونراد) أقوى مما تخيل كل قراءه في نهاية القرن التاسع عشر، حين أدرك أن التمييز بين لندن المتحضرة و(قلب الظلام) قد انهار بسرعة في الأوضاع المفرطة، وأن ذرى الحضارة الأوروبية يمكن أن تهوي مباشرة إلى أبشع الممارسات البربرية دون تحضير أو تحول. وكان كونراد أيضاً، في (الوكيل السري) هو من وصف تشابه الإرهاب وصلته بمفاهيم مثل (العلم التجريدي) [وتوسيعه ليشمل (الإسلام) أو (الغرب)] إضافة إلى الانحطاط الأخلاقي النهائي للإرهابي.

لوجد روابط متينة بين الحضارات المقاتلة أكثر مما يعتقد أغلبنا؛ بين فرويد ونيتشه كيف أن المرور عبر الحدود المصانة والمحروسة يتقدم براحة مرعبة تقريباً. لكن مثل هذه الأفكار الرشيقة، المملوءة بالغموض والشكوكية حول أفكار نتمسك بها، لتمدنا بصعوبة بنهج مناسب عملي لأوضاع كالتي نواجهها الآن. لهذا كل أوامر القتال المؤكدة (حملة صليبية، الخير مقابل الشر، الحرية ضد الخوف، الخ) مأخوذة من عداء هنتنغتون المزعوم بين الإسلام والغرب، الذي استجر منه الخطاب السياسي الرسمي مفرداته في الأيام الأولى التي تلت هجمات 11 أيلول. لقد صار هناك تخفيف ملحوظ في تصعيد ذلك الخطاب، لكن بالحكم من خلال المقدار الثابت من خطاب وأفعال الكره،

بالإضافة إلى محاولات فرض القانون الموجه ضد العرب والمسلمين والهنود في كل البلاد، يظل ذلك النموذج.

إن الضغط المتزايد على المسلمين في كل أوروبا والولايات المتحدة سبب آخر في استمراره. فَكِرْ بالسكان الحاليين في فرنسا وايطاليا وألمانيا واسبانيا وبريطانيا وأميركا وحتى السويد لتستنتج أن الإسلام لم يعد على حدود الغرب الخارجية بل في وسطه. لكن ما هو الشيء المهدد جداً فيه؟ لقد انطمرت ذكريات الفاتحين العرب المسلمين الأوائل في الثقافة الجمعية، التي بدأت في القرن السابع عشر والتي، كما كتب المؤرخ البلجيكي المشهور (هنري بيرنيه) في كتابه الكبير محمد (عليه الصلاة والسلام) وشارلمان 1939، حطمت نهائياً وحدة البحر الأبيض المتوسط القديمة، وحطمت المركب (المسيحي-الرومي) ومهدت لبروز حضارة جديدة هيمنت عليها القوى الشمالية (ألمانيا وفرنسا) (يبدو أنه يقول) لكي نستأنف الدفاع عن الغرب ضد أعداءه التاريخيين-الثقافيين. ما أهمله بيرنيه للأسف، هو أن خلق هذا الخط الدفاعي الجديد للدفاع عن الغرب قد استخدم النزعة الإنسانية وعلوم وفلسفة الإسلام وعلم الاجتماع والتاريخ الإسلامي التي أقحم نفسه بين عالم شارلمان والعصور الكلاسيكية القديمة. الإسلام في الداخل منذ البداية (حتى دانتي) العدو الكبير لمحمد(عليه الصلاة والسلام) أذعن وسلم حين وضع النبي في قلب جحيمه (أعوذ واستغفر بالله).

ثم هناك أيضاً الميراث المستمر للتوحيد نفسه، الأديان الإبراهيمية، كما يسميها لويس ماسينغون بصورة مناسبة. بدءاً من اليهودية والمسيحية، كل واحدة منها وريثة وأسيرة سابقتها، بالنسبة للمسلمين، الإسلام أتم وأنهى خط النبوة.لا يوجد تاريخ كريم محترم أو إزالة الغموض للنزاع المتعدد الجوانب بين أتباع الديانات الثلاثة- ولا واحدة منها بأي شكل من الأشكال معسكر توحيدي موحد- الغيورين أكثر من كل الآلهة، بالرغم من التقارب الحديث القذر على الفلسطينيين يقدم مثالا دنيوياً غنياً لما هو متناقض غير قابل للمصالحة بينها بشكل مأساوي. ليس مدهشاً (إذاً) أن يتكلم المسيحيون عن الحملات الصليبية والمسلمون عن الجهاد، كلاهما يتجاهلان الوجود اليهودي بلامبالاة جليلة غالباً. مثل هذه الأجندة يقول إقبال أحمد (مهددة جدا للرجال والنساء الذين تركوا في منتصف النهر، بين مياه التقاليد العميقة وبين الحداثة.

لكن كلنا نسبح في تلك المياه، غربيون ومسلمون وآخرون على السواء. وبما أن المياه جزء من محيط التاريخ، ومحاولة حرثها وفصلها بحاجز عقيمة. هذه أوقات متوترة، لكن من الضروري أن نفكر بلغة المجتمعات القوية والضعيفة، بسياسة العقل والجهل الدنيوية والمبادئ الكونية للعدالة والظلم، بدلاً من أن نهتم في البحث عن أفكار مجردة واسعة قد تقدم إرضاء مؤقتاً لكن دون معرفة للذات أو التحليل الملم. فرضية (صدام الحضارات) وسيلة مناسبة مثل (حرب العوالم) لتعزيز التفاخر الذاتي الدفاعي بدلاً من فهم نقدي للاعتماد المتبادل المربك لعصرنا

أعداء الدولة –الاهرام21 حزيران 2001

بسبب سلوك إسرائيل المقيت تجاه الفلسطينيين، نزع أغلب العرب- ومنهم أنا - إلى تقليل نقدنا الموجه للوضع العام في العالم العربي. لا أعتقد أنني أبالغ حين أقول أنه منذ أن بدأنا بالنظر إلى ما يسود في العالم العربي أصيب أغلبنا بالرعب من الحالة الكلية من الوسطية والتفسخ السريع التي أصبحت قدر لنا كما يبدو. لقد انحدرنا في كل المجالات المميزة (باستثناء الطبخ ربما) إلى القاع حين تتصل الأمور بنوعية الحياة. أصبحنا عائقاً، بسبب عجزنا ورياءنا(فيما يتعلق مثلا بالانتفاضة، التي لم تفعل الدول العربية شيئا لها) وبسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية البائسة بشكل مخيف والتي عمت كل الأقطار العربية دون استثناء. ازدادت الأمية والفقر والبطالة واللاإنتاجية بصورة مخيفة. في الوقت الذي تسير فيه بقية دول العالم في الاتجاه الديمقراطي، يذهب العالم العربي في الاتجاه المعاكس، نحو درجات أعظم من الحكم الاستبدادي والأوتوقراطية وأنظمة المافيات. نتيجة لذلك يشعر الكثير منا بأننا يجب أن لا نستمر في السكوت عن هذا. نادراً ما يعرف المرء من أين سيبدأ في محاولة تحسين الوضع، لكن سنجعل الصدق طريقاً ننطلق منه.

سأوضح عدد صغير من الأمثلة لما أقصد بتفصيل أكثر من قوائم الوقائع والأرقام، التي تدعم كلها ما أعنيه هنا مصادفة. منذ وقت قصير، حكمت محكمة أمن الدولة على المثقف المصري-الأمريكي سعد الدين إبراهيم، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في القاهرة ومدير مركز ابن خلدون، بسبع سنوات سجن بالأعمال الشاقة بعد شهرين من الحبس الانفرادي إثر اعتقال عاجل، تلته عدة أشهر من المحاكمة بسبب جرائم مالية وتلويث صورة مصر والتلاعب بالعملية الانتخابية وتحريض الطائفية بالإضافة إلى كونه مخبر للعدو. هذه هي التهم الرئيسية طبعاً لكن ما يبدو مذهلاً هو أن المحكمة أصدرت حكمها خلال ساعات بعد أن قضت أشهراً في سماع الأدلة .

لقد استحوذت القضية على مقدار ضخم من الاهتمام لأسباب واضحة. مثقف بارز فقد مركزه وثروته في بلاد أثارت مركزيتها السياسية وحجمها كثير من التعليق وخصوصاً في الغرب الليبرالي ومقداراً كبيراً من الأحكام السلبية ضد النظام الذي بدأ يضطهد رجلاً بسبب آراءه المستقلة، إن لم تكن الشعبية دائماً. القليلون الذين دافعوا عنه من العرب قالوا أنهم وجدوا آراءه وأساليبه بغيضة: لقد أشتهر بتفضيله للتطبيع مع إسرائيل ولازدهاره المالي جراء مشاريعه الخاصة وأفكاره عموماً التي جرى تداولها بنجاح خارج الوطن العربي أكثر من داخله. لكن المقصود هو التوضيح لكل شخص بأنه جعل عبرة لغيره؛ لذلك قاسى بشكل ظالم بصرف النظر عن طريقته الخاصة في الحياة ونجاحه عموماً.

يجب أن أكون واحداً من القلة التي تابعت القضية من بعيد، لكنني عرفت إبراهيم منذ ثلاثين سنة تقريباً ولم أسمع منه أو أراه منذ ذلك الوقت. لقد زرت مصر والجامعة الأمريكية في القاهرة في العقدين الأخيرين لكن دربي لم يتقاطع مع دربه أبداً. لا أتذكر بأني قرأت أي شيء له لكني أعرف اهتمامه بالمجتمع المدني وعلاقته الودية مع نخبة السلطة في مصر والأردن وغيرهما، بالإضافة إلى اهتمامه بالانتخابات والأقليات. جمعت كل هذه المعلومات نقلاً لهذا وأنا هنا لست في موقع، لقول أي شيء عن أفكاره. ولا أعتقد أنها مهمة أيضاً وعلى علاقة بالموضوع بشكل أو بآخر.

افترض بأن له أفكاره ولكن افترض أيضاً بأنه تسبب ككل المثقفين بعداء بقدر التأييد الذي ناله. لكن هذا لا يثبت أي شيء وأراه شيئاًعادياً تماماً.

ما يبدو غير عادي ولا جدال فيه، أنه عوقب بشكل منظم من قبل الدولة بسبب سمعته ونقده لكثير من سياساتها. يبدو أن الدرس هو إن كنت متهوراً وتكلمت وأزعجت السلطات فسوف تستأصل. كثير من دول العالم تحكمها أحكام الطوارئ لكن هذه القوانين يجب أن تعارض وتشجب بدون استثناء. لا يوجد أي سبب سوى الكارثة الطبيعية الصرفة لتعطيل دور القانون من جانب واحد والحفاظ على العدالة النزيهة. حتى أسوأ المجرمين في مجتمع القانون مخول للعدالة والعقاب التناسبي. في الولايات المتحدة مثلاً، فشل كثير من المعلقين على قضية إبراهيم في إبراز أمريكا (التي لا تحكمها أحكام الطوارئ) على أنها واحدة من أسوأ الدول المذنبة فيما يتعلق بالأحكام القضائية (التي تطبق على غير البيض عادة) عقوبة الإعدام ونظام السجون المرعب وهذه السجون هي الأكثر بالنسبة للشخص الواحد والأشد تأديبا في كل العالم. بعبارة أخرى، ما فعلته مصر يجب أن ينظر إليه من منظور يشمل ما يسمى بالبلدان المتحضرة التي أدان كثير من صحفييها معاملة إبراهيم دون الاعتراف أيضا بأن هذه القضية ليست الوحيدة في الشرق الأوسط أو الغرب. آلاف من الميليشيات الإسلامية تعامل بطريقة أسوأ بكثير دون احتجاج يذكر من الصحفيين الليبراليين الذين يدافعون بحماس عن إبراهيم (مثل توماس فريدمان) الذين ليس لديهم ما يقولونه عن انتهاكات حقوق الإنسان في بلدانهم رغم القانون أو عن مصير الضحايا العرب الأقل بروزاً من سعد الدين إبراهيم الذين تعرضوا لظلم الدولة.

النقطة، طبعاً أن العدالة هي العدالة والظلم هو الظلم، بغض النظر عن هوية المتهم أو المتعرض للمعاملة السيئة. السخرية في العملية القانونية في قضية إبراهيم أنها جريمة ليس لأنه غني ومشهور بل لأن الجريمة خطيرة بغض النظر عن هوية الضحية. والمهم في القضية أنها تعبر كثيراً عن قلقنا الراهن وشعورنا بالأوليات المشوهة حين يكون أي مواطن عادي موضوع تشويهات السلطة في العالم العربي وليس أكاديمي مشهور. تخبرنا القضية أن حكامنا يدركون أن لا أحد بمنأى عن غيظهم ويجب على المواطنين أن يحافظوا على شعور مستمر من الخوف والخضوع حين يتعلق الأمر بالسلطة الدينية والدنيوية على السواء. حين يتبدل دور الدولة من ملكية الشعب وتصبح بدلاً من ذلك مملوكة لنظام أو حاكم، يستخدمها بالشكل الذي يراه، يجب أن نعترف بأننا انهزمنا كشعب ذو سيادة ودخلنا في طور متقدم من الانحطاط الذي ربما فات أوان إصلاحه أو عكسه.

ليس هناك أي معنى حقيقي للدستور أو العملية الانتخابية إن حدث مثل هذا التعطيل والتعليق للقانون والعدالة بإذعان نسبي من كل الناس، وخصوصاً المثقفين. ما أقصده ليس أننا لا نملك أي ديمقراطية فقط وإنما يبدو أننا رفضنا مجرد الفكرة نفسها أساساً. لقد أصبحت مدركاً بشكل مفاجئ في هذه السنوات الثمان الأخيرة، بعد محاضرة ألقيتها في لندن انتقدت فيها الحكومات العربية لانتهاكها الحريات الإنسانية، استدعيت من قبل سفير عربي لاعتذر عن ملاحظاتي. حين رفضت التحدث للرجل، توسط صديق ورتب لي موعداً لشرب قدح من الشاي مع السفير المهان في بيت صديقي. ما رشح كان كاشفاً بشكل عميق. حين كررت تعليقاتي، فَقَدَ السفير أعصابه (صدف أن كان عضو في الحزب الحاكم) وأخبرني في لغة واضحة، أنه ونظامه لا يريان في الديمقراطية أكثر من مرض الايدز، والصور الإباحية والفوضى. (نحن لا نريد ذلك) ظل يكرر هذه العبارة في هياج بربري.

بعدها فهمت: لقد تجذرت فينا الفاشية وأصبح أي تحد لها نراه مساو للشيطاني، لذلك هو غير مقبول. ليس عبثاً أن يتحول عدد كبير من الناس إلى شكل متطرف من الدين نتيجة اليأس وغياب الأمل. حين أبطلت الحقوق الديمقراطية أولاً في سنوات الاستقلال الأولى بسبب مخاوف أمنية حقيقية، لم يدرك أحد أن (الطوارئ) ستستمر لمدة نصف قرن دون أن تكون هناك أي علامة إطلاقاً لإلغائه لمصلحة الحرية الفردية. على النقيض لأن الدولة الأمنية أصبحت عرضة للخطر أكثر –أخيراً، أي دولة في منطقتنا تستطيع أن توفر لمواطنيها ما يستحقونه من الأمن والحرية من الخوف والحاجة ؟ مستوى القمع في ازدياد. لا أحد في مأمن أو خال من القلق، وليس هناك قيمة يصونها القانون.

لقد انهار الوضع الشرعي للفرد وتلاشى حقه الأساسي في المواطنة وحقه في العيش حراً من التهديد الشخصي من الدولة. كمثال آخر لما أصفه كوضع سيء، هناك قضية الصحفية اللبنانية رغيدا درغام، امرأة لبنانية بارعة ظلت تمثل صحيفة الحياة في نيويورك سنوات كثيرة. مراسلة ومعلقة رائعة ذات سمعة ممتازة في أمريكا، لقد كانت مفخرة لمهنتها وبلادها. اتهمت الآن بالخيانة العظمى في بلادها لأنها حضرت اجتماع عام في واشنطن وحاورت يوري لوبراني عميل الموساد الإسرائيلي الذي كان أحد (وربما رئيس) المشرفين على نظام الاحتلال في جنوب لبنان. (قبل أن يكون الصلة الإسرائيلية مع شاه إيران). سحب جواز درغام وإن أرادت العودة إلى بلادها سيلقى القبض عليها مباشرة. (صحفي لبناني آخر، سمير قصير ألغيت جنسيته بسبب شيء كتبه أغضب السلطة)

قضية درغام عمل مدهش من الفساد توحي إلى أي مدى تؤخذ فيه أفكار (جريمة) (التطبيع) فكرة غبية حين تستخدم بإفراط إما لتحويل الانتباه عن اللامبالاة العربية نحو الفلسطينيين أو لمهاجمة العرب الآخرين أو لتعزيز الجهل كما ناقشت في مقالتي الأخيرة. في المقام الأول، كان حوار درغام مع لورباني علنياً وفي الولايات المتحدة. ليس فيه أي سرية؛ ولم يكن أكثر من مجرد نقاش وهو بالتأكيد ليس مفاوضات. المتوقع لدور المواطن العادي أن يطيع القوانين ويحرم حتى ذكر اسم إسرائيل دون قصد. علماً أن كل حكومة عربية عرفتها، لها تعاملات مع إسرائيل إما سرية أو مكشوفة. العالم كله يعرف وخصوصاً الضحايا الفلسطينيين الإسرائيليين بأن إسرائيل وجيشها وعملاءها وشرطتها ومجتمعها موجودون: ما الحكمة والفائدة من التظاهر بعكس ذلك؟ لكن أن نسمي ما فعلته درغام بالخيانة العظمى لا يكشف فقط بأن فكرة الخيانة قد تجاوزت العقل والممارسة وإنما يبين العدائية المتطرفة التي تنظر فيها الدولة إلى مواطنيها خصوصاً من ينفذ منهم واجباته المهنية بمهارة وضمير. إضافة إلى أنه، في أغلب البلدان ماعدا بلداننا، الحوار المفتوح أحد الطرق للتعريف بوجهة النظر العربية. كيف يدان ذلك؟

لكن الحكومات العربية على ما يبدو، تحزن وتشعر بأنها يجب أن تقاوم كل فكرة منيرة وخصوصاً إن أزعجت الحاكم. يستطيع المرء أن يفهم ويقبل أيضاً بإمكانية وجود علاقة خصومة بين الدولة ومواطنيها، لهذا فقد التوازن بين اهتمامات الدولة المتنوعة كل معانيه. لم تعد الجريمة فعلاً موضوعياً يحكمه الاعتراف والإجراءات المنظمة والأدلة العلنية والمحاكمة والاستئناف وإنما أصبحت امتيازا للدولة تسمي بواسطته وتعاقب حين تشاء.

موضوع النقاش هو حق تحرير الفكر والتعبير وما يتضمن ذلك، الحق بأن تكون حراً من القيود المسنونة ضد الحرية الفردية بشكل مضحك. كانت كلا القضيتين ضد شخصيتين مشهورتين توفرت لهما المصادر والارتباطات لجذب الانتباه للظلم الذي وقع عليهما. لكن يوجد عدد كبير من

المواطنين كضحايا محتملين ومخفيين في المجتمعات العربية اليوم عرضة لنفس الإجراءات التي أخذت فردياً أو جماعياً. لقد اسُتخدمت طويلاً عناوين وتسميات مستهلكة مثل الشذوذ الجنسي والإلحاد والتطرف والتعصب بلا حرص أو فرق، فقط لكي يكتموا أصوات من ينتقد الزمر الحاكمة ويسجنوها. أصبح التعذيب عادياً في السجون العربية كما كان في السجون الإسرائيلية.

يعيش أغلبنا في الخوف من مصير كهذا ولهذا السبب يلزم الصمت كثير من المثقفين أو يشكرون حظهم لأن ما حدث لسعد الدين إبراهيم ورغيدا درغام لم يحدث لهم. وبالتأكيد لقد تم انتقاء هذين الفردين لكي يكون عقابهما وإذلالهما عبرة للغير. لكن يأمل بعض المثقفين الآخرين بغباء أنهم إن تصرفوا وانضموا إلى كورس الشجب وحرصوا أن لا يقولوا إلا الأشياء (الصحيحة) لن يواجهوا نفس المصير. في هذه النقطة، أنا لا أعرف أيهما أسوأ: الرقابة المباشرة التي تمارسها الحكومة أم الرقابة الذاتية والحيطة التي يقوم بها كل منا يومياً لكي نعيش حياتنا بأمان ونبتعد عن السجن أو الاختفاء ليلاً. في اليوم السابق قابلت كردي عراقي شاب فر حديثاً من بلاده. هناك، اخبرني، إن أراد أحد ما أن يضر بك، يكتب تقريراً للأمن يتهمك فيه بأنك عدو للدولة: الاحتمال القوي هو أن تختفي أنت وعائلتك بعد ذلك. كم دولة في العالم اليوم يصح فيها هذا وكم دولة منها عربية؟ أنا مرتبك جدا لأسأل.

بما أن العالم العربي يدور في تشوش وخزي أكثر، من واجب كل واحد منا أن يحتج ضد هذه الانتهاكات المرعبة للسلطة. لا أحد في آمان إلا إذا اعترض كل مواطن على كل ما هو عودة إلى الممارسات الاوتوقراطية القروسطية. إن اتهمنا إسرائيل بما فعلته ضد الفلسطينيين يجب أن نرضى بتطبيق نفس معايير السلوك بدقة على بلداننا. هذه القاعدة صحيحة للمثقفين الأمريكيين كما هي للعرب والإسرائيليين، الذين يجب أن ينتقدوا انتهاكات حقوق الإنسان من وجهة نظر شاملة، وليس حين تحدث ضمن مجال العدو الذي حدد كذلك رسمياً. تقوى قضيتنا حين نأخذ مواقف يمكن تطبيقها على كل الأوضاع، دون شروط مثل قول (أنا أختلف مع وجهة النظر هذه، لكن) كطريقة لتقليل حرج ومسؤولية الاحتجاج. الحقيقة هي، كعرب، كل ما ظل لنا الآن هو قوة الاحتجاج، وإذا لم نمارس هذا الحق، فلن يمكن إيقاف الانزلاق في الانحطاط النهائي أبداً. تأخرت الساعة كثيراً.

أفكار حول أمريكا –زدنت 2 آذار 2002.

لا أعرف عربي أمريكي واحد أو مسلم أمريكي لا يشعر بأنه لا ينتمي إلى معسكر العدو، وكوننا في الولايات المتحدة في هذه اللحظة يمدنا بتجربة مزعجة من الاغتراب ويوسع العداء المستهدف بشكل دقيق. باستثناء التصريحات الرسمية العرضية القائلة بأن الإسلام والمسلمين والعرب ليسوا أعداء في الولايات المتحدة، فإن كل ما في الوضع الراهن يثبت العكس تماماً. لقد تم توقيف مئات الشباب العرب والمسلمين للاستجواب وفي قضايا كثيرة جداً، احتجزهم رجال الشرطة أو الرجال الفيدراليين. أي شخص (مسلم أو عربي) يعزل جانباً لانتباه خاص أثناء عمليات التفتيش الأمني في المطارات. لقد وردت تقارير كثيرة كأمثلة عن سلوك التمييزي ضد العرب، لذلك التحدث بالعربية أو قراءة وثيقة عربية قد يجلب انتباه غير مستحب. وطبعاً وسائل الإعلام أطلقت كثير من (الخبراء) و(المعلقين) على الإرهاب والإسلام والعرب الذين شوهوا تاريخنا ومجتمعنا وثقافتنا بنهجهم المتكرر المختزل والمعادي جداً لذلك وسائل الإعلام نفسها أصبحت أكثر من ذراع حربية ضد الإرهاب في أفغانستان وفي كل مكان آخر، كما تبدو عليه قضية الهجوم (لإنهاء العراق). هناك قوات أمريكية في عدة دول يشكل فيها المسلمون نسبة هامة من السكان مثل الفيليبين والصومال، الحشد ضد العراق مستمر، وإسرائيل تطيل عقابها السادي الجماعي على الشعب الفلسطيني، وينال ذلك كله استحسان عام في الولايات المتحدة.

بينما في الحقيقة، هذا مضلل تماماً. أمريكا هي أكبر وأكثر مما يقوله عنها بوش ورامسفيلد والآخرون. لقد أصبحت امتعض كثيراً من فكرة أنني يجب أن أقبل بصورة أمريكا المتورطة في (حرب عادلة) ضد شيء صنفه بالإرهاب بوش ومستشاريه من طرف واحد، الحرب التي حددت لنا دور (شاهد العيان الصامت) أو المهاجر المدافع الذي يجب أن يكون ممنونا بالسماح له في الإقامة في الولايات المتحدة. الحقائق التاريخية مختلفة: أمريكا جمهورية من المهاجرين وكانت دائمة واحدة. إنها أمة قوانين لم يقرها الرب وإنما مواطنيها. باستثناء السكان الأمريكيين المنقرضين تقريباً، الهنود الأصليين، كل من يعيش هنا كمواطن أمريكي جاء أصلاً إلى هذه الشواطئ كمهاجر من مكان آخر، حتى بوش ورامسفيلد نفسيهما. الدستور لم يؤيد مستويات مختلفة من (الأمركة) ولا أشكال مقبولة أو مرفوضة من (السلوك الأمريكي) بما فيها الأشياء التي أصبحت تسمى بالتصريحات أو المواقف (المعادية للأمريكان). هذا اختراع طالبان، أمريكا الذي يريد أن ينظم الخطاب والسلوك في طرق تذكر المرء بشكل خفي بالحكام السابقين غير المأسوف عليهم. حتى لو أن السيد بوش أصر على أهمية الدين في أمريكا، هو ليس مخولاً لأن يفرض مثل هذه الآراء على كل المواطنين أو أن يتكلم لكل واحد عن الرب حين يدلي بتصريحاته في الصين وغيرها عن الرب وأمريكا ونفسه. الدستور يفصل بوضوح بين الكنيسة والدولة.

لكن هناك ما هو أسوأ. بإقرار القانون الوطني في تشرين الثاني الماضي، قمع بوش والكونغرس المذعن له أو أبطلوا أو اختزلوا التعديل الأول والرابع والخامس والثامن، إجراءات قانونية شرعية لا تعطي الأفراد أي سبيل إلى دفاع قانوني لائق أو محاكمة عادلة، التي تسمح بالتفتيش والتنصت والاحتجاز دون حد، ومعروفة معاملة السجناء في خليج غوانتنامو، الذي يسمح للسلطة التنفيذية في الولايات لمتحدة بخطف السجناء واحتجازهم إلى وقت غير محدد، ويقرر من طرف واحد أن كانوا

أسرى حرب أم كانت تطبق عليهم اتفاقيات جنيف - القرار الذي لا يمكن أن تأخذه البلدان منفردة. فضلا عن ذلك، قال عضو الكونغرس الديمقراطي دينيس كوشينيتش في خطاب رائع في 17شباط، الرئيس وأزلامه ليسوا مخولين لإعلان الحرب (عملية الحرية الطويلة الأمد) ضد العالم بدون قيد أو مبرر، ليسوا مخولين بزيادة الإنفاق العسكري إلى أكثر من 400 بليون دولار سنوياً، ليسوا مخولين أن يلغوا وثيقة حقوق الإنسان. بل أضاف زيادة على ذلك-التصريح الأول من نوعه لمسؤول بارز منتخب شعبياً- (نحن لا نطلب بأن ينتقم لدماء الأبرياء الذين ماتوا في 11 أيلول بدماء القرويين الأبرياء في أفغانستان.) أنا أنصح بشدة أن ينشر الخطاب الذي ألقاه الجمهوري كوشينيتش الذي تجلت فيه أفضل المبادئ الأمريكية والقيم في العالم العربي كاملا لكي يستطيع أن يدرك الشعب في قسمنا من العالم أن أمريكا ليست حكومة أو منظمة يستخدمها جورج بوش وديك تشيني، بل تحتوي في الواقع على أصوات كثيرة وتيارات رأي تحاول هذه الحكومة أن تسكتها وتجعلها غير لازمة.

مشكلة العالم اليوم هي كيف عليه أن يتعامل مع القوة التي لا نظير لها وغير المسبوقة للولايات المتحدة، والتي نتيجة ذلك لم تُخْفِ حقيقة عدم حاجتها إلى التنسيق مع الآخرين أو الاتفاق معهم في السعي وراء ما يعتقده بوش ودائرة صغيرة من الرجال والنساء المحيطين به بأنها مصالح أمريكا. بقدر ما يتعلق الأمر بالشرق الأوسط، يبدو أنه منذ 11ايلول صار هناك شبه (أسرلة) لسياسة الولايات المتحدة: وبنتيجة ذلك استغل اريل شارون ورفاقه بازدراء اهتمام جورج بوش أحادي الهدف ب(الإرهاب) واستخدموه كغطاء لسياستهم المستمرة الفاشلة ضد الفلسطينيين. النقطة المهمة هنا هي أن إسرائيل ليست الولايات المتحدة ولحسن الحظ الولايات المتحدة ليست إسرائيل: وبالتالي، رغم أن إسرائيل تسيطر على دعم بوش المؤقت، فهي دولة صغيرة لا يعتمد بقاءها المستمر كدولة عنصرية أثنية في وسط بحر عربي-إسلامي على ذريعة نفعية إن لم يكن اعتماد مطلق على الولايات المتحدة وإنما على تسوية خلافاتها مع محيطها، وليس العكس. لهذا السبب أعتقد أن سياسة شارون انكشفت أخيراً لعدد مهم من الإسرائيليين بأنها سياسة انتحارية، ولهذا يأخذ عدد متزايد من الإسرائيليين موقف ضباط الاحتياط ضد الخدمة في الاحتلال العسكري كنموذج لمقاربتهم للمقاومة. هذا هو الشيء الأفضل الذي انبثق عن الانتفاضة. إثبات بأن الشجاعة الفلسطينية والتحدي في مقاومة الاحتلال قد أ ثمرا أخيراً.

لكن الذي لم يتبدل هو الموقف الأمريكي، الذي تصاعد نحو مجال ميتافيزيقي متزايد يعّرف بوش وناسه أنفسهم فيه (بأنهم الحملة العسكرية نفسها، عملية الحرية الطويلة الأمد) بتبرير أخلاقي والطهارة والخير، وأعداءها الخارجيين على السواء بالشر المطلق. يستطيع كل من قرأ الصحافة العالمية في الأسابيع القليلة الماضية يستطيع التأكد بأن الناس خارج الولايات المتحدة مرتبكين ومذعورين من غموض سياسة الولايات المتحدة، التي تدّعي لنفسها الحق في تخيل الأعداء وخلقهم على مستوى العالم، ثم شن الحرب عليهم دون إعتبار لدقة التعريف، وصفات الهدف وتحديده و الأسوأ من كل ذلك، شرعية مثل هذه الأعمال. ما هو المقصود (بالإرهاب الشرير) في عالم مثل عالمنا؟ لا يمكن أن يعني اجتثاث كل من يعارض الولايات المتحدة، فهي مهمة غير محدودة وغريبة، ولا يمكن أن يعني تغيير خريطة العالم لتلاءم الولايات المتحدة، واستبدال الشعب الذي نعتقد بأنهم (الفتيان الطيبون) بالمخلوقات الشريرة مثل صدام حسين. هذه السذاجة المفرطة جذابة لحكام واشنطن الذين مجالهم إما نظري محض أو لأنهم يجلسون وراء الطاولات في البنتاغون، يميلون إلى رؤية العالم كهدف بعيد حقيقي للولايات المتحدة و قوة غير معارضة عملياً. لو عشت

على بعد 10,000ميل من أي دولة شريرة وكان تحت تصرفك اكرات من الطائرات الحربية، و19 حاملة طائرات، وعشرات الغواصات ومليون ونصف شخص يحملون السلاح، كلهم راغبون في خدمة بلادهم بأفضل صورة في مطاردة ما يستمر بوش وكوندليزا رايس في الإشارة إليه بالشر، فالفرص هي أن تكون راغباً في استخدام كل تلك القوة أحياناً في مكان ما وخصوصاً إن استمرت الإدارة في طلب بلايين الدولارات لإضافتها إلى ميزانية الدفاع المتضخمة مسبقاً.

من وجهة نظري، أكثر ما يصدم من كل ذلك مع بعض الاستثناءات القليلة أن أبرز المثقفين والمعلقين في هذه البلاد قد تسامحوا مع برنامج بوش، وفي بعض الحالات حاولوا أن يتخطوه بسفسطة أكثر عن الاستقامة الذاتية ومداهنة الذات الأكثر سذاجة وحجج أكثر خداعاً. الذي لم يقبلوا به هو العالم الذي نعيش فيه، هذا العالم التاريخي للأمم والشعوب الذي يتحرك ويمكن فهمه من خلال السياسة وليس بالمطلقات العامة مثل الخير والشر، مع أمريكا في الجانب الخير دائماً وأعداءها على الجانب الشرير. حين يَعِظْ توماس فريدمان بشكل ممل العرب بأنهم يجب أن يكونوا أكثر نقداً للذات، مفتقراً في كل ما قاله لأقل حس من النقد الذاتي. بطريقة ما، يعتقد، أن الأعمال الوحشية ل11 ايلول تؤهله لوعظ الآخرين، كما لو أن الولايات المتحدة هي الوحيدة التي عانت من مثل هذه الخسائر الفظيعة، وكما لو أن حياة الناس التي ضاعت في أماكن أخرى في العالم لا تستحق الرثاء نفسه أو يمكن استخلاص النتائج الأخلاقية الكبيرة منها.

يلاحظ المرء نفس التناقضات والتعامي حين يركز المثقفون الإسرائيليون على مآسيهم ويحذفون من المعادلة العذاب الأكبر للشعب المطرود بدون دولة أو جيش أو قوة جوية أو قيادة حقيقية، اقصد الفلسطينيين الذي تستمر معاناتهم على أيدي إسرائيل دقيقة بعد أخرى وساعة بعد ساعة. هذا النوع من العمى الأخلاقي، هذا العجز لتقدير وترجيح الدليل المقارن للجاني والمجني عليه (لنستعمل اللغة الأخلاقية التي أتجنبها عادة وأبغضها) هو الشائع جداً، ويجب أن يكون هذا مهمة المثقف في عدم السقوط- حقاً، أن يشن حملة ضد السقوط في الفخ. لا يكفي القول بصورة عمياء أن كل البشر يعانون بشكل متساوي ثم تستمر في النوح على آلامك الخاصة أساسا: الأكثر أهمية أن ترى ما يفعله الطرف الأقوى، وأن تسأل وتشكك بدلاً من أن تبرر ذلك. المثقف هو صوت في معارضة السلطة وناقد لها، الذي هو بحاجة بشكل دائم إلى الكبح وتصفية الضمير والنظرة المقارنة، لكي لا تتعرض الضحية للوم كما هو الحال غالباً وتحظى السلطة الحقيقية بالتشجيع لتنفيذ إرادتها.

لقد ذهلت الأسبوع الماضي حين سألني صديق أوروبي عن رأي في الإعلان الذي وقع عليه 60مثقف أمريكي ونشر في كل الجرائد الرئيسية الفرنسية والألمانية والايطالية وقارات أخرى لكنه لم يظهر في الولايات المتحدة إطلاقاً، باستثناء الانترنت حيث لفت انتباه عدد قليل من الناس. أخذ هذا الإعلان شكل خطبة طنانة حول الحرب الأمريكية ضد الشر والإرهاب وأنها (عادلة) وتنسجم مع القيم الأمريكية كما حددها الذين نصبوا أنفسهم في بلادنا كمفسرين. مول ذلك ورعاه شيء يسمى معهد القيم الأمريكية (الممول جيداً بالهبات) الذي كان هدفه الأساسي أن ينشر أفكاراً لصالح عائلات، عن (الأبوة) و(الأمومة) والرب، كان الإعلان موقعاً من قبل صامويل هنتنغتون وفرانسيس فوكوياما ودانييل باتريك موينيهان وكثيرين غيرهم، وكتبته الأكاديمية النسوية المحافظة جان بيثك ايلشتاين. الحجج الأساسية عن الحرب العادلة استلهمها البروفيسور مايكل ولزر، اشتراكي مزعوم متحالف مع الداعمين للوبي الإسرائيلي في هذه البلاد، ودوره أن يبرر كل شيء تفعله إسرائيل باللجوء إلى مبادئ يسارية مبهمة. بتوقيع هذا البيان، تخلى ولزر عن كل مزاعمه

اليسارية مثل شارون، وربط نفسه عرض (مشكوك في ذلك) أميركا كمحارب مستقيم ضد الإرهاب والشر، وإظهار أن إسرائيل والولايات المتحدة دولتان متشابهتان وأهدافهما متشابهة أيضاً.

ليس هناك ما هو أبعد من الحقيقة، بما أن إسرائيل ليست دولة مواطنيها وإنما كل الشعب اليهودي، بينما الولايات المتحدة بالتأكيد وبكل ثقة دولة مواطنيها. فضلاً أن ولزر لم يتحل بالشجاعة أبداً ليوضح بجرأة أنه بتأييده لإسرائيل فهو يؤيد دولة مبنية على أسس دينية- إثنية، يعارضها في الولايات المتحدة (بتظاهر كاذب نموذجي) لو أعلنت هذه البلاد بأنها دولة بيضاء ومسيحية.

لنضع كل رياء ولزر وتناقضاته جانباً، الوثيقة فعلاً موجهة (لأخوتنا المسلمين) الذي يفترض بهم أن يفهموا أن حرب أميركا ليست ضد الإسلام وإنما ضد الذين يعارضون المبدأ الذي يرى أن كل البشر سواسية، وأن القتل باسم الرب شيء سيء وأن حرية الضمير ممتازة وأن الهدف الأساسي في المجتمع هو الشخص الإنساني وأن الدور الشرعي للحكومة أن تحترم وتساعد وترعى وتعزز الظروف من أجل الازدهار الإنساني؟ وتلا ذلك بأن أميركا أثبتت أنها طرفاً مظلوماً، وكذلك تمت الإشارة باختصار شديد إلى بعض أخطاء سياستها (دون ذكر أي تفاصيل معينة)، التي صورت بأنها التزام بمبادئ فريدة للولايات المتحدة، مثل أن كل الناس يملكون كرامة أخلاقية فطرية ومنزلة وأن الحقائق الأخلاقية الكونية موجودة ومتوفرة للجميع أو أن الكياسة مهمة إن كان هناك خلاف وأن حرية الضمير والدين انعكاس للكرامة الإنسانية الأساسية ومعترف بهما عالمياً. رائع. كما لو أن مؤلفو هذه العظة يقولون أن الحالة الغالبة لمثل هذه المثل هي الانتهاك، لم تكن هناك أي محاولة مدعومة للقول متى وأين حصلت هذه الانتهاكات أو أنها تنتهك أكثر مما تراعى وتتبع، أو أي شيء محدد من قبيل ذلك. مع ذلك في ملاحظة هامشية طويلة، قدم ولزر وزملاءه قائمة بعدد (القتلى) الأمريكيين بأيدي المسلمين والعرب، وفيهم المارينز في بيروت عام 1983 بالإضافة إلى المقاتلين العسكريين الآخرين. بطريقة ما تقديم قائمة من ذلك النوع يستدعي تقديم قائمة بهذه الميليشيات المدافعة ضد أمريكا، بينما قتل العرب والمسلمين-بمن فيهم مئات الآلاف الذين قتلتهم إسرائيل بأسلحة ودعم أمريكيين، أو مئات الآلاف الذين قتلتهم العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة ضد السكان العراقيين المدنيين-لا ضرورة لذكرهم أو جدولتهم). أي كرامة في إذلال إسرائيل للفلسطينيين بتواطؤ أمريكي وتعاون أيضاً، وأين النبل والضمير الأخلاقي في عدم قول شيء عن قتل الأطفال الفلسطينيين وملايين المحاصرين وملايين اللاجئين غيرهم الذين بلا دولة ؟ أو الملايين الذين قتلوا في فيتنام وكولومبيا وتركيا واندونيسيا بدعم وقبول أمريكيين ؟

إجمالاً، إعلان المبادئ هذا والتشكي موجه من كل المثقفين الأمريكيين إلى أخوتهم المسلمين يبدو أنه ليس ببيان عن الضمير الحقيقي ولا نقد ثقافي صحيح ضد الاستخدام المتغطرس للقوة، وإنما مجرد فتح النار في حرب باردة جديدة أعلنتها الولايات المتحدة بتعاون تهكمي تام مع هؤلاء الإسلاميين الذين جادلوا بأن حرب(نا) هي مع الغرب ومع أمريكا، كما يبدو. أتكلم كشخص وأناشد أمريكا والعرب، بأنني أجد هذا النوع من الخطاب الإجرامي بغيض بشكل عميق. بينما يتظاهر بتوضيح المبادئ وإعلان القيم، هو في الحقيقة عكس ذلك، مناورة لتجهيل وإعماء القراء بخطاب وطني يشجع الجهل بتجاهله للسياسات الحقيقية والتاريخ الحقيقي والقضايا الأخلاقية الحقيقية، لم يفعل سوى التلويح بها بطريقة متنمرة لترويع القراء الأجانب وإخضاعهم. أعتقد أن هذه الوثيقة لم تنشر هنا لسببين: الأول لأنها ستنتقد بقسوة من جانب القراء الأمريكيين وتعتبر غير جديرة

بالاهتمام، وأنها مصممة كجزء من خطة أعلنت مؤخراً يمولها البنتاغون لنشر الدعاية كجزء من جهود الحرب فلذلك هي معدة للاستهلاك الأجنبي.

أيا كانت القضية، نشر (ما هي القيم الأمريكية؟) ينذر بفترة جديدة منحطة في إنتاج الحوار الثقافي. لأنه حين ينحاز مثقفو أقوى دولة في التاريخ العالمي بشكل متعمد وواضح مع تلك القوة، ويدفعون بها بدلاً من تقييدها، ويجافون التأمل والتواصل الحقيقي والصادق والتفاهم، لقد عدنا إلى الأيام السالفة السيئة للحرب الفكرية ضد الشيوعية، التي نعرف الآن بأنها أحدثت كثير من التسويات، والتعاون والتلفيق من جانب المثقفين والفنانين الذين كان بهم أن يلعبوا دوراً جماعياً مختلفاً. بدعم مالي وموافقة من الحكومة(وكالة الاستخبارات خاصة، التي ذهبت بعيداً في تقديم الإعانات المالية لمجلات مثل انكاونتر، ودعمت البحوث الثقافية والسفر والحفلات الموسيقية بالإضافة إلى المعارض الفنية)، هؤلاء المثقفون المجندون الطائشون والفنانون في خمسينيات وستينيات القرن العشرين جلبوا على كل فكرة الأمانة الفكرية والمسؤولية أبعادا كارثية جديدة. وبموازاة ذلك الجهد ساروا في حملة محلية لخنق النقاش وترويع النقاد وتقييد الفكر. لكثير من الأمريكيين بمن فيهم أنا، هذا فصل معيب في تاريخنا ويجب أن ندافع ضد عودته ونقاومه.

تأملات في الألفية-البطولة والإنسانية-زدنت 6 كانون الثاني 2000

حدث أن كنت في النمسا لإلقاء محاضرة مؤخراً وكانت مناسبة سعيدة لزيارة معرض فرويد الذي أعد ونظم بالاشتراك بين بيت سيغموند فرويد ومكتبة الكونغرس. ليس هناك أحد من جيلي لم يتأثر في كل نواحي حياته وتجربته في قراءة الأعمال الإبداعية الضخمة لفرويد، لهذا ذكرني بقوة العدد الكبير من المخطوطات والأشياء والصور والأفلام التي تجمعت في قاعة معرض جوزيف بلاتس بمدى ومثابرة جهوده لمنفعة ما اعتبره في ذلك الوقت منافذ منفردة في النفس الإنسانية. لقد استحوذ علي شيئان بوجه خاص. كان الأول ما بثته محطة الـ B.B.C)) بأن فرويد حقق النجاح في أعماله وإنجازاته في وقت متأخر من حياته ثم أضافت بلهجة ثقيلة وصارمة متعمدة أنه كان محظوظاً في أصدقاءه وتابعيه، لكن فرويد يستنتج (بتجهم) بأن الصراع لم ينته بعد.

كان الشيء الثاني العدد الكبير من المخطوطات المعروضة التي تحمل كل واحدة منها سمات الجهد اليدوي الصعب والسخي المبذول لإنتاج هذه النصوص المؤثرة مثل (تفسير الأحلام و موسى والديانة التوحيدية و مستقبل الوهم). أشار لي قيّم المتحف إنه بالإضافة إلى تواصل إصدار سلسلة من النسخ الممتازة لمخطوطات فرويد أعيدت أيضاً كتابة كل المخطوطات وتصحيحها وشطب العبارات المكررة. الأكثر إثارة، في طرف من البناء الزجاجي الكبير الذي إحتوى على الأريكة التي كان يضطجع مرضاه عليها أثناء جلسات العلاج والتي كانت تقوم بدور آخر كسرير نهاري لفرويد حين يجبره فكه المتسرطن بأخذ استراحة قصيرة في وضعية الانبطاح، كان هناك حبر أمريكي أسود وحيد يعود تاريخه إلى أواخر ثلاثينات القرن العشرين، أخبرت القيم المسلي بأني ترعرعت على هذا الحبر لأن تجارة عائلتي بالقرطاسية والأدوات المكتبية تبرز بدقة ذلك النوع من الأدوات، كما كان أبي يسميها. شيء تافه، لكنه مليء بكل المعاني بالنسبة لي. لم يكن الأداة الرئيسية في جهد فرويد كعالم لكنه كان مع الورق المصفوف بعناية التعبير المادي لإرادته العقلية.

لا أريد أن أجمل عاطفة غير ملائمة لكن القلم والحبر والورق يجسد عمليا الغرض العلمي والإنساني كما أخبر صديقه المعجب (لودفيغ برينفساغنر) لإكتشاف الدور السفلي من صرح الحياة البشرية وليس أدوارها وطوابقها العليا. كان هناك معادل مادي ملموس مطابق لأعمال فرويد يرمز إلى فكرة العمل، ذلك الجهد الروحي غير المنقطع وتحقيقه المادي، والغياب المطلق لأي نوع من المساعدة الالكترونية أو حتى الكهربائية الذي عبر عنه بتواضع قلم الحبر المضطجع الذي أبدع الصفحات المملوءة بالحبر بمظهرها المجعد غير المنظم. كان القلم ينم عن نوع من الأثر العبق والمخطوطات نفسها تؤرخ فترة كاملة أوضحت أوراق فرويد وقلمه بصورة محزنة ، بأن مؤسس التحليل النفسي ذاته كان أحد أنصار الكتاب المنتج يدوياً وبصورة بطولية. وأود الآن أن استذكر هنا الصفحات الكثيرة والعدد الغزير من المقالات والكتب التي نعت مؤخراً انحدار القراءة وموت الأدب. مهنتنا اليوم تشقها فجوة تفصل نصراء ما يعتبر جديد وتقدمي عن الذين يشعرون بأن النص الأدبي وأعظم تراث مؤلفينا والقانون والنماذج، تقليدية للدراسة استسلمت للرطانة والبربرية. لكن الموضوع الوحيد الذي لم يتم التركيز عليه ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين هو استبدال النموذج القديم والبطيء في الكتابة كتعبير مفترض لما سماه روجر شارتيه نظام الكتب، بأساليب من

التواصل المعتاد أحدث وأسرع لكل شخص تقريباً اليوم-يعني النظام الالكتروني الذي جعل الكتابة أسهل بكثير وأكفأ ومتاحة وقابلة للتخلص منها أيضاً.

استأصل برنامج الكتابة في الحاسوب(وورد) عناء كتابة المسودات اليدوية، ثم إعادة النسخ والطباعة والتصحيح وصولاً للنسخة الأخيرة. يظهر تأثير ذلك بشكل مثير في كتابات الطلاب: بينما كان المرء قبل 10 سنوات يطلب من الطلاب أن ينتجوا من ثمان إلى عشر صفحات، يضطر الآن بأن يكون استبدادياً ولا يقرأ أكثر من 15 صفحة. الطلاب وكلية الكتابة، بتحريرها السريع، وأدوات النسخ واللصق والترقيع طورت استرخاء إنشائي واضح وانتفاخ قبيح. يمكنك الكتابة على لوحة المفاتيح بمجرد الجهد اللازم لضغط المفاتيح والأزرار التحريرية فقط؛ وتستطيع أن تحفظ وتعدل وتهيئ وتدمج عدد هائل من الكلمات بلا جهد أو عرق. ذهبت الصحافة بنفس الاتجاه أيضاً، بتوحيد معايير النغمة التي تتخلص من خصوصية وتطور فكرة الكتابة المكتوبة التي ترافق رمزياً وفعلياً ليس عمل فرويد ككاتب فقط وإنما الشخصيات الأدبية العظيمة المعاصرة له مثل (بروست ومان وفيرجينيا وولف وباوند وجويس وطه حسين ونجيب محفوظ) وأغلب عمالقة الحداثة. كان التواصل الذي نجحت فيه الكتابة المكتوبة إحساس نشيط من التغلب المادي ليس على مقاومة الصمت فقط وإنما على خلو الصفحة أيضاً والعقبات المادية التي يشترطها الورق والحبر. يجب أن لا نبالغ في تقدير هذه المقاومات طبعا، لكنها تتشارك في شيء يشبه حاجة النحات لنحت أشكال فنية من الخشب أو الصخر أو تعويل الرسام على مواد مثل اللون والقماش والفرشاة إذ يضفي كل منها نسيجاً وسطحاً وصفة، وتعوق بشكل متناقض مثل ورق الكاتب وحبره، لكنها تمكن من إنتاج النص واللوحة والتمثال أيضاً.

يصادف هذا العام الذكرى الخمسين بعد المائتين لوفاة (جوهان سيباستيان باخ)، وهو عملاق بين الموسيقيين، ومثال إبداعي لا يصدق من خلال مهارته الاستثنائية وفي مقدرته على الانتشار بكثير من الجهد والمثابرة أكثر من أي واحد غيره في أسرار مزج الألحان التي وصلت أوجها معه، وفي توقيره للأساتذة السابقين أيضاً. لقد روت القصة أنه حين لم يسمح له أخوه الأكبر في الإقتراب من السلالم الموسيقية، أمضى ساعات كثيرة من الليل ساهراً وهو ينسخ يدوياً موسيقى (باشلبل وفروبيرغر): كان نوع من التبجيل وإيماءة بطولية من التأكيد الكتابي الذي لا مكان له اليوم، حيث يمكن فحص النصوص الموسيقية والجداول المعقدة ونسخها ونقلها بمجرد لمسة زر. كما فعل الكاتب الاندونيسي المعاصر (اناتا توير براموديا) الذي أبقاه النظام الاستبدادي الذي تدعمه الولايات المتحدة تحت الإقامة الجبرية لكنه استطاع أن يكتب باليد روايته العظيمة (أرض الإنسان).

ليس مصادفة أن تكون الكتابة المكتوبة القواعد الضابطة لفقه اللغة وأصبحت مترافقة مع قراءة وتفسير الكتب والنصوص التي نجت في رحلتها من العصور السابقة إلى الأزمنة الحديثة. وتأسس (فقه اللغة) في أنبل أشكاله كقواعد جريئة في نظام الكتب بالإضافة إلى كونه شكل خاص من الجهد العقلي الذي تجسد بالأنسنة في التقاليد الأوروبية وغير الأوروبية. بين هلالبين، أود أن ألاحظ هنا أن كثير من المواقف المتغطرسة التي وجدتها منفرة جداً في المديح المنقول بصورة سيئة للتقاليد الإنسانوية الغربية من (جاكوب بيركهاردت إلى بول كريستلر إلى الآن بلوم) وأتباعه كانت مبنيةعلى جهل عميق وعنيد يستحق التوبيخ ببيئتهم التي فيها كثير من مواقف وأعمال تمثلت وارتبطت مسبقاً بشخصيات كبيرة مثل (فيشينو ومونتان وايراسموس) قبل أن يعثر عليها الأوروبيون صدفة. وهذا صحيح تماماً فيما يتعلق بالمدارس الإسلامية، بالإضافة إلى الإنسانويين

الهنود والصينيين الذين قاموا بأشياء (غربية) قبل أن يقدر الغرب على معرفتها أو فعلها لوحده بوقت طويل. لقد بين زميلي في جامعة كولومبيا (جورج صليبا) بدليل مقنع أنه في العلوم الثقيلة (الفلك والرياضيات والفيزياء الخ) حتى الشخصيات المهيبة مثل (كوبرنيكوس) اعتمد في عمله الرئيسي على علماء غير أوروبيين سابقين. النقطة التي أريد أن أوضحها أن الممارسة المجهدة للكتابة التي بلغت ذروتها عند المؤلفين الإنسانويين الأوروبيين الحديثين والأمريكيين الذين أشرت إليهم، لها تاريخ طويل متعدد ثقافياً وجغرافياً، وللحكم من خلال غياب الوسائل الآلية والالكترونية المتوفرة للأكاديميين والباحثين والمؤلفين وأهم المفكرين قبل عصرنا الالكتروني،فإنها فرضت نظاماً بطولياً من التبعية والعمل إختفى أمثاله الآن تماماً. وكان نظام هذا العمل مثل نظام فرويد، جزء من مشروع جماعي، الفرد ذو الميول الإنسانية فيه جزء من مجتمع عالمي مكون من عقول أفراد متشابهة (لأنها ملتزمة بنفس الأهداف من الجهد الإنساني والإنتاج والتفسير).

ما أحب أن أعود إليه الآن هو ما وراء هذا المجتمع، أي المثال الأعلى البطولي الذي أعطى نوع من المعنى لما تم فعله. أليس مجحفاً جداً الإعتقاد بأن التشوش الذي نجد أنفسنا فيه كباحثين ومعلمين للأدب في خلافات واسعة تفصلنا عن بعضنا البعض في حقول جديدة متشابكة سيئة التشكيل كثير منها ليس من اللغويات ولا من التحليل النفسي أو الانثربولوجيا أو التاريخ أو علم الاجتماع أو الفلسفة بل أجزاء صغيرة منها تفيض وتغمر صفاء وسكون العصور السابقة برطانات كثيرة مستخرجة من انتقادات النقاد التقليديين اللاذعة وتفسيراتهم الخاطئة- كل هذا في الواقع يعزى إلى غياب صورة الفرد الإنساني القادر في الاستمرار في عمله، القلم في اليد والمخطوط والكتاب على الطاولة، يسترد بعض المعنى للصفحة من خارج الفوضى والتشويش الذي يطوقنا في حياتنا اليومية.

من كل الشخصيات التي انتحلت من أفكارها هنا، الأنسنة هي أسلوب من التقصي العقلي وتفسير ملموس منفذ بإحساس حيوي بالجهد المتين والمخاطرة أفادتني فيه صورة فرويد وقلمه وحبره أولاً: لا أريد أن أفهم بأنني أحرض على نبذ الوسائل الالكترونية التي في حوزتنا الآن (أعترف لكم أنني لا أزال رجل قلم وأكتب كل شيء باليد) ولا أريد أن أصور الفترات السابقة بصورة رومانسية وأنها تستحق كل تقديرنا التام. ما أريده هو أن اقترح شيئاً آخراً- أي: كما فهمت من هؤلاء الباحثين والمفكرين الذين تحدثت عنهم هنا، أن ممارسة الأنسنة في حقول التاريخ الإنساني والثقافة والفن وعلم النفس تستلزم رفضاً بطولياً للاندماج في المواقف الموجودة مسبقا. كل واحد من تلك النصوص المنتجة التي وصفتها بأنها سابقة لعصرنا وإنتاجه الالكتروني وتشمل مظاهر معينة من ذلك العصر أيضاً، يرمز إلى مثال بطولي، كان راغباً في المجازفة بعيداً وزعزعة وإعادة اكتشاف المخفي والمنسي تحت ما اسماه فرويد بالطوابق العلوية من بيت الوجود الإنساني. الأنسنة كشف وإفشاء وواسطة، وغمر الذات في العنصر التاريخي، وهي استرداد العقلانية من وقائع الحياة المضطربة ثم إخضاعها بكد متواصل لعمليات منطقية من المحاكمة العقلية والنقد.

كما كانت آنذاك، من المهم والجدير الآن ونحن نقف لنودع القرن العشرين، أن نسترجع فكرة ورمز الجهد الجليل والبطولي للمشروع الإنسوي الذي يمر ذكره دون أي اهتمام الآن. يرى النقاش في التعليم الأدبي والبحث والخطاب بأننا يجب أن نتخطى مرحلة الالتزام والتوكيل الإنساني الذي تمثل لي في قلم فرويد وأوراقه التي كتبها بحذر وجهد شديدين. علاوة على ذلك، الرمز البطولي في الأنسنة أساساً ليس عملاً في التطابق أو التعزيز لما هو معروف مسبقاً، ولا عملاً من الاحترام

الودي للسلطات الموجودة و بالتأكيد ليس له أي علاقة بتقدير الذات أو الرضا. إن المهم والحاسم للفكر الإنسوي، محاولة فهم الماضي وبهذا هو إيماء بالمقاومة والنقد-إيمان فرويد المتين بأن الصراع لم يتته بعد.

يقول ادورنو (إن المفكر النقدي الصلب هو الذي لا يتخلى عن شعوره ولا يدع نفسه تخاف وتكره الفعل، في الحقيقة هو من لا يستسلم. إن التفكير ليس إعادة الإنتاج الفكري لما هو موجود مسبقاً أبداً. إن لم يقطع التفكير ستظل له قبضة أكيدة على الإمكانية. مظهره الرافض النهم وبغضه الشديد للرضا السريع والسهل وحكمة الاستسلام السخيفة. اللحظة الطوباوية (وأعتقد أنه يمكن إضافة، البطولية) في التفكير أقوى كلما قل تشيئها في طوباوية تفسد تحقيقها. التفكير الصريح يشير إلى أبعد من ذاته.) [نماذج نقدية ص 293]. يجب أن نضيف إلى هذا الرصد تعليق الفيلسوف العظيم (ليو سبتزر) (يؤمن الإنسانوي بالقوة الموهوبة للعقل الإنساني في تفحص العقل الإنساني) [اللغويات ص 24].

كان اسحاق دويتشر محقاً كما أعتقد حين عزا عواطف التحدي والجرأة الفكرية إلى تقليد لا يرتبط بفرويد فقط وإنما بسبينوزا وماركس وهاينه ونفسه، يكون المرء فيه يهودياً أو لايهودي بالنسبة لنا بتجاوز اليهودية، بيئة فكرية علمانية ترى الطريق إلى الحرية الإنسانية في نقد لا يعرف الخوف أو التبرير. قد نستطيع المضي بعيداً لنتخيل إنساني لاإنساني، شخص لا يميل الى الورع ولا إلى الكلام الممل والتافه.

أعتقد أنه بإمكاننا أن نوسع وصف (دويتشر) أكثر لكي نشمل الخيار الحقيقي للانسانوي الحديث في مستهل القرن الواحد والعشرين وهو يواجه تحولاً زلزالياً رئيسياً في ظروف الممارسات الإنسانوية، والذي يعتبر أن أفكار العرف والطائفة والدين ليست موجهات ملائمة ولا أشكال لفهم التاريخ الإنساني. وما هو الوضع المعقد الذي نواجهه. هؤلاء الذين تربوا فكرياً في الولايات المتحدة وتأطروا بالحرب الباردة هم الآن مواطنوا القوة العظمى الأخيرة الباقية، مع قدرة كوكبية موضوعة في خدمة التدمير المرعب والممارسات غير الإنسانية مثل سياسة عقوبات الإبادة الجماعية ضد شعب العراق. نحن نواجه عالماً لم يعد تحت عبودية المركزية الأوروبية المنفلتة التي انبثقت كل أبهة الآداب والحضارات من آفتها الكولنيالية التي تزيد من تحدياتنا. دون تردد، نستطيع أن نتحدث عن صراع الحضارات أو ربما من المحتمل برأيي، من الأفضل بالتأكيد توسيع فهمنا للتاريخ الإنساني لنحتوي كل ما اختلقه الآخرون من خصوم جردوا من إنسانيتهم وشيطنتهم المعارف الامبريالية والرغبة في الحكم. لم يحدث أن عاشت الحضارات وقتاً طويلاً بطرد كل الآخرين: تحت المستوى السطحي للدعاية الدفاعية كل حضارة عظيمة مكونة من تبادل لا ينتهي مع الآخرين.

لقد قدمت العولمة اليوم وفرضت مفهوم اقتصاد السوق الوحيد، الذي سبب بدوره تفاوتاً جديداً في الثروة والإمتيازات وتوزيع البضائع، مما أفسد فكرة التطور الإنساني نفسها وأثار صراعات من المقاومة ضد الظلم. فكرياً، على كل حال، البحث عن بدائل جديدة- يفكر المرء بعمل (امارتيا شون) الريادي- الجاري الآن. لقد طال عمر نظرية (سي بي سنو) القائلة بالحضارتين البالغة من العمر 40سنة بلجوئها إلى مذاهب التعصب الديني والتوكيد الاثني والنزعة العسكرية المبذرة، فهي تنتج كل أنواع الإدانات المسعورة من جهة، ومناسبة رئيسية لإحياء الإنسانيات من جهة أخرى بجعلهما إعادة التزام وتعهد بالمعرفة والنقد والحرية بكل معنى الكلمة ... باختصار، نحن أمام منظر جديد وغير مألوف يمتد أمامنا، يوفر لنا فرصة لا تنتهي في ممارسة طاقاتنا الفكرية بالبطولة والدعم

الشخصي اللذان ميزا أفضل الأعمال في الإنسانيات منذ سنوات كثيرة. هل ستستطيع أشكالنا النقدية أن تضم ثراء الماضي وإثارة الجديد من أجل السنوات القادمة. لا يكفي أن يرجو المرء وإنما عليه أن يعمل على ذلك.

سارتر والعرب: ملاحظة هامشية –الأهرام ويكلي 18 ايار 2000.

ظل (جان بول سارتر) أشهر مفكر في فرنسا حتى تلاشى من المشهد مؤخراً. بعد موته بوقت قصير في عام 1980 هوجم (لتعاميه) عن معسكرات الإعتقال السوفيتية ، وسخروا من وجوديته الإنسانية لنزعتها التفاؤلية والطوعية، وانتشارها النشط. كانت كل سيرة سارتر هجوماً على الفلاسفة الجدد الذين كانت إنجازاتهم السيئة مجرد عداء متقد للشيوعية لم تنل أي اهتمام، وعلى بعد البنيويين وبعد الحداثيين، مع بعض الاستثناءات، الذين سقطوا في نرجسية تكنولوجية كئيبة هاجم شعبوية سارتر وآراءه السياسية البطولية بنقد لاذع. الانتشار الهائل لأعمال سارتر كروائي ومحلل وكاتب مسرحي وكاتب سيرة وفيلسوف ومفكر سياسي وناشط ملتزم، نفر كثير من الناس بدلاً من أن ينجذبوا كقراء له، لكن رغم كونه الفرنسي الأكثر استشهاداً بأقواله، فقد أصبح أقل كاتب مقروء أو تحلل أعماله، في فترة العشرين سنة الماضية. نسيت آراءه الشجاعة حول الجزائر وفيتنام، وجهده المكرس لصالح المهاجرين، ظهوره الباسل كماوي راديكالي أثناء المظاهرات الطلابية عام 1968 في باريس، بالإضافة إلى مرتبته الإستثنائية وتمييزه الأدبي (الذي نال عليه جائزة نوبل للأدب ورفضها). لقد أصبح أحد المشاهير السابقين الخبيثين، إلا في العالم الانغلوأمريكي الذي لم يأخذه بشكل جدي كفيلسوف وكان يقرأ دائماً بتنازل كروائي عرضي جذاب وكاتب مذكرات، وكمعاد للشيوعية بشكل منقوص، ليس بطريقة أنيقة وقوية ككامو (الأقل موهبة).

بعد ذلك، كما مع الكثير من الأشياء الفرنسية، بدأت الموضة بالتبدل والعودة للوراء، أو بدت هكذا من بعيد. ظهرت كتباً كثيرة عنه وأصبح مرة أخرى موضوع الأحاديث (ربما مؤقتا)، لكنها لم تكن بالضبط للدراسة أو التأمل. يجب أن أقول بالنسبة لجيلي أنه كان دائماً أحد أعظم المفكرين الأبطال في القرن العشرين، رجل كرّس كل بصيرته ومواهبه العقلية في خدمة كل قضية تقدمية في زمننا. لكن دون أن يشعر المرء أنه كان نبياً أو معصوماً. على العكس، يحترم المرء سارتر لمحاولاته التي بذلها لفهم الأوضاع وعند الضرورة يقدم التضامن مع القضايا السياسية، ولم يتنازل أو يراوغ أبداً. يمكن أن يخطئ أحياناً، وكان عرضة للخطأ والمبالغة في التقدير مراراً لكنه كان دائماً أكبر من الحياة، وبالنسبة لقارئ مثلي، وجدت كل ما كتبه ممتعاً لجرأته وحريته (حتى حرية الإطناب)، وكرم روحه. باستثناء مثال واحد خاص أود ذكره هنا.

ما شجعني على فعل هذا تحليلان فاتنان رغم أنهما يوقعان الكآبة في النفس عن زيارته لمصر في بداية عام 1967 اللذان ظهرا في ملحق الأهرام ويكلي عن الكتب الشهر الماضي (نيسان 2000). تجربتي الخاصة المحزنة مع سارتر كانت فصلاً ثانوياً في حياة عظيمة جداً، لكنها قد تستحق الاستدعاء لسخريتها وحدتها. كانت في القسم الأول من كانون الثاني عام 1979 وكنت في بيتي في نيويورك أحضّر لأحد دروسي. أعلن جرس الباب عن إستلام برقية وفتحتها ولاحظت بتقدير أنها كانت من باريس.(أنت مدعو من قبل لا تيمبي مودرين لحضور حلقة دراسية عن السلام في الشرق الأوسط في 13و14 آذار من هذه السنة. نرجو الرد. (سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر.) ظننت في البداية أن البرقية دعابة من نوع ما: لا أحد مثلي يتلقى رسالة خطية استثنائية من هذه الشخصيات الأسطورية. قد تكون دعوة من كوزيما وريتشارد واغنر للذهاب إلى بيروت أو رسالة من تي اس ايليوت وفرجينيا ولف لقضاء المساء في مكاتب ديال. استغرق الأمر مني يومين لأتأكد

من أصدقائي في نيويورك وباريس بأن البرقية حقيقية وبأقل ذلك من الوقت عبرت عن قبولي غير المشروط (هذا بعد أن علمت أن لا موداليتيس، التعبير الملطف عن نفقات السفر كانت ستتحملها لا تيمبي موديرن، الصحيفة المشهورة التي أسسها سارتر بعد الحرب). بعد أسابيع قليلة كنت في باريس.

حين وصلت وجدت رسالة قصيرة وغريبة من سارتر ودي بوفوار تفيد بأنهما ينتظراني في الفندق المتواضع الذي حجزت فيه في الحي اللاتيني.(لأسباب أمنية)، وتابعت الرسالة (سيعقد الاجتماع في بيت ميشيل فوكو. زودت بالعنوان بشكل لائق وفي العاشرة من صباح اليوم التالي وصلت إلى شقة فوكو الفسيحة لأجد عدداً من الناس-ماعدا سارتر نفسه- المتحلقين. لم يقم أي شخص بشرح (الأسباب الأمنية) الغامضة التي فرضت تغييراً في الموقع، لكن بالنتيجة خيم جو تآمري غير ضروري فوق إجراءاتنا. كانت دي بوفوار هناك مسبقا في عمامتها الشهيرة، تحاضر في كل من يود الاستماع إليها عن رحلتها القادمة إلى طهران مع كيت ميليه حيث كانتا تخططان للتظاهر ضد العباءة السوداء التي تغطي كامل الجسم والرأس؛ بدت لي كل الفكرة كمناصرة مضحكة وأدركت أنها عقيمة تماماً وأبعد من التجادل معها في تلك اللحظة. بالإضافة إلى ذلك ظلت لمدة ساعة أو أكثر (قبل وصول سارتر) ولم أراها ثانية.

كان فوكو هناك لكنه أوضح لي بسرعة بأنه ليس لديه ما يقوله عن موضوع الحلقة الدراسية وأنه سيغادر مباشرة من أجل نوبة بحثه اليومي في البوليتيك ناسيونال. سررت حين لاحظت بأن أحد كتبي كانت على أحد رفوف مكتبته،التي كانت تطفح بكمية كبيرة من الكتب المرتبة بأناقة والأوراق الرسمية والصحف اليومية. رغم أننا تجاذبنا أطراف الحديث بشكل ودي لكني لم أشكل فكرة ما عن سبب عدم رغبة فوكو بذكر أي شيء عن آراءه السياسية في الشرق الأوسط إلا بعد وقت طويل (في الحقيقة بعد عقد من وفاته). في كتابيهما عن سيرته، ديدير ايربون وجيمس ميللر كشفا انه في عام 1967 كان يعلم في تونس وأنه أخرج بسرعة من هناك في ظروف غير عادية بعد حرب حزيران بفترة قصيرة. قال فوكو آنذاك أن سبب مغادرته الطوعية كان خوفه من معاداة السامية والشغب المعادي لإسرائيل في ذلك الوقت، العام والمشترك في كل مدينة عربية بعد الهزيمة الكبرى للعرب. لكن زميلة له في جامعة تونس في قسم الفلسفة أخبرتني قصة مختلفة في أوائل الثمانينيات: قالت: لقد رحل فوكو بسبب نشاطاته الجنسية الشاذة مع الطلاب الصغار. ولا أعرف أي من الروايتين هي الصحيحة لحد الآن. في زمن حلقة باريس أخبرني فوكو أنه عاد من إقامة في إيران كمبعوث خاص لكوريير ديلا سيرا. (مثيرة جداً وغريبة جداً، مجنونة) أتذكره وهو يقول عن تلك الأيام من الثورة الإسلامية. أظن أنني سمعته يقول أنه حين كان في طهران، تنكر بوضع شعر مستعار على رأسه، لكن بعد ظهور مقالاته بفترة قصيرة أسرع في إبعاد نفسه عن كل ما هو إيراني. أخيراً وفي أواخر الثمانينيات ، أخبرني جيليس ديليوز أنه وفوكو كانا صديقين عزيزين، لكنهما اصطدما بسبب خلافاتهما حول فلسطين، كان فوكو مؤيداً لإسرائيل وديليوز مؤيداً للفلسطينيين. لذلك لا عجب بأنه لم يرغب في التحدث معي أو مع أي شخص آخر هناك عن الشرق الأوسط!.

شقة فوكو رغم أنها مريحة جداً كانت بيضاء بشكل قوي وصارم، تعكس بالضبط الفيلسوف المنعزل والمفكر النشيط الذي بدا أنه يقطنها لوحده. كان هناك بعض الفلسطينيين واليهود، من بينهم عرفت إبراهيم دقاق الذي أصبح صديقاً طيباً للقدس منذ ذلك الوقت، نافذ نزال معلم في بيرزيت الذي

عرفته بشكل سطحي في الولايات المتحدة ويهوشوفات هاركابي، رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق الذي أقالته غولدا مائير لخطأه في تسبب استنفار الجيش. قبل ثلاث سنوات، أمضيت سنة معه في ستانفورد سنتر للدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية، حيث أصبحنا عضوين، لكن دون أن تقوم بيننا علاقة كبيرة إطلاقاً. كانت مهذبة دائماً لكنها ليست حارة. في باريس بدا بأنه في خضم تغيير موقفه ليكون إسرائيليا رائدا في مؤسسة الحمائم، رجلاً كان يتكلم بشكل صريح عن الحاجة إلى دولة فلسطينية واعتبرها فرصة إستراتيجية من وجهة النظر الإسرائيلية.

كان غالبية المشاركين الآخرين من الإسرائيليين أو اليهود الفرنسيين. ويتدرجون من الديني جدا إلى الدنيوي جداً، لكنهم كانوا كلهم مؤيدين للصهيونية بشكل أو بآخر. أحدهم، ايلي بن غال، بدا أنه على معرفة وثيقة بسارتر: علمنا لاحقاً أنه كان دليل سارتر في رحلة قام بها الأخير حديثاً لإسرائيل. لكن حين ظهر الرجل الكبير أخيراً بعد الوقت المحدد بفترة جيدة، صعقت كم هو كبير في السن وضعيف. أتذكر تقديم فوكو غير الضروري والأحمق له (كما لو أنهما لا يعرفان بعضهما من قبل بشكل جيد من قبل) وأتذكر مدى الوضوح بالنسبة لي منذ البداية بأن سارتر كان محاطا دائماً ومدعوماً ومحرضاً ببطانة صغيرة من الناس يعتمد عليها كلياً وكان لأفرادها الشغل الأساسي في حياتهم. احد أفراد البطانة ابنته بالتبني التي علمت مؤخراً أنها كانت وصية أعماله الأدبية؛ وكانت من أصول جزائرية. وعضو آخر هو بيير فيكتور، ماوي سابق وشريك مع ناشر سارتر غوشيه بورليتاريان، الذي أصبح الآن متديناً جداً وأعتقد بأنه يهودي أرثوذوكسي؛ وأذهلني حين اكتشفت فيما بعد من أحد معاوني التحرير الذي كان يحوم في المكان أن فيكتور كان يهودي مصري يدعى (بيني ليفي) وكان أخاً لعادل رفعت، أحد الاثنين المعروفين بمحمود حسين (كان الآخر بهجت النادي: كلا الرجلان عملا في اليونيسكو تحت اسم (محمود حسين)، الذي كتب دراسة مشهورة في مصر ونشرت في ماسبيرو). لم يظهر أي شيء مصري على فيكتور؛ لقد مر كمثقف باريسي يساري، نصف مفكر ونصف محتال. كانت الثالثة هيلين فون بولو، إمرأة تتكلم ثلاث لغات وتعمل في صحيفة وتترجم كل شيء لسارتر. لقد اندهشت قليلاً وأحبطت حين أدركت أنه أمضى وقتاً في ألمانيا ولم يكتب أي شيء عن هايدغر أو حتى عن فوكنر ودوس باسوس، فسارتر لا يعرف الألمانية ولا الانكليزية.

كانت فون بولو امرأة أنيسة وأنيقة، ظلت إلى جانب سارتر طيلة يومي الحلقة الدراسية، تهمس في أذنه ترجمات فورية. باستثناء شخص فلسطيني قادم من فيينا لا يستطيع تكلم سوى العربية والألمانية كان نقاشنا في الإنكليزية. الحقيقة لم أعرف أبداً ما رشح لسارتر وأدركه لكن ما أحبطني وغيري بقاءه صامتاً تماماً خلال أعمال اليوم الأول كلها. كانت ميشيل كونتانت، كاتبة سيرة سارتر هناك أيضاً، لكنها لم تشارك.

أصبح تناول الغداء وما اعتبرته طريقة فرنسية فيه الذي لا يتجاوز الساعة الواحدة في المناسبات الأخرى، قضية موسعة اذ انعقد في مطعم بعيد وبسبب المطر الذي لم يتوقف عن الهطول تم نقلنا فرادى بسيارات أجرة، وجلسنا في مطعم وجبات رباعية، ثم عدنا وتجمعنا مرة أخرى وانهينا يومنا بمشروع رئيسي دام حوالي ثلاث ساعات ونصف. لهذا دامت مناقشاتنا حول السلام وقتاً قصيراً نسبياً في اليوم الأول. وضع مواضيع النقاش فيكتور، دون استشارة أي شخص آخر. قبل ذلك، شعرت أنه يتصرف بحرية دون مراعاة ما يريده الآخرون، بسبب علاقته المميزة مع سارتر (الذي تبادل معه بعض الهمسات أحياناً)، وبسبب الهيبة، التي يسميها البعض الغطرسة، الثقة بالنفس. بناء

عليه كنا سنناقش:(1) قيمة معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل (كامب ديفيد)، (2) السلام بين إسرائيل والعالم العربي عموماً، (3) الظروف العويصة للتعايش الذي قد يحدث بين إسرائيل والعالم العربي المحيط بها. لم يكن أي من العرب مسروراً بهذا، في حالتي لأنها من الواضح قفزة فوق البعد الفلسطيني أما الدقاق فلم يرض بكل النظام وغادر في اليوم الأول. ووعد بأن بعض المثقفين المصريين سيحضرون، وحين لم يظهروا كما اتفقوا عليه، شعر بأنه لن يستطيع البقاء أكثر من نصف الوقت.

وبمرور اليوم اكتشفت ببطء أنه جرت مفاوضات مسبقة لإقامة الحلقة الدراسية، وأن أي شكل من أشكال المشاركة العربية شبهة لذلك اختصرت بالطريقة السابقة غير الشريفة. لقد تكدرت بأنني لم أكن مشمولاً في كل هذا. هل لأنني كنت ربما ساذجاً جداً ومتلهفاً للقدوم إلى باريس للقاء سارتر، فكرت بيني وبين نفسي مشككاً؟ كان هناك حديث أدرج لمانويل ليفناس لكنه لم يظهر، كغيره من المصريين. خلال ذلك سجلت نقاشاتنا ونشرت لاحقاً في إصدار خاص لتيمبس مودرنيس (أيلول 1979). اعتبرتها غير مقبولة، كلنا نكرر بشكل أو بأخر حجة مألوفة مع لقاء أراء ناقص أو اكتشافات جديدة مشوقة.

لقد افترضت أن يكون كل الحدث بشكل رئيسي تدريبياً شفوياً نبدأ به لكنه فشل وبشكل واضح ليس للمدعوين إلى الاجتماع فقط وإنما لسارتر نفسه. أثبتت سيمون دي بوفوار نفسها أنها خيبة أمل كبرى بالإضافة أنها غادرت قبل أن تتحدث ساعة عن الهذر العنيد حول الإسلام وحجاب النساء. في ظل هذه الظروف، لم أتأسف على غيابها؛ اقتنعت فيما بعد أنها ستحيي الأشياء وتملأها إثارة. لكن حضور سارتر أو ما كان موجوداً منه كان سلبياً بشكل غريب وغير مؤثر وغير عاطفي. لم ينطق بأي شيء لساعات من النهاية. على الغداء جلس مقابلي، بدا مغموماً وبقي متحفظاً طول الوقت والبيض والمايونيز يسيل من وجهه. حاولت التحدث معه لكنني لم أصل إلى شيء. ربما كان أصماً لم أكن متأكداً. بأي حال، بدا لي نسخة شبحية عما كان عليه في السابق، قبح يضرب به المثل، بغليونه وثيابه الغريبة المعلقة حوله مثل دعامات كثيرة في مسرح مهجور. كنت ناشطا في السياسة الفلسطينية آنذاك: أصبحت عضواً في المجلس الوطني في عام 1977 في زياراتي المتكررة لبيروت (خلال فترة الحرب الأهلية اللبنانية) لزيارة أمي، كنت أرى ياسر عرفات بانتظام وأغلب القادة الناشطين الآخرين آنذاك. فكرت بأنه سيكون انجاز كبير لكسب سارتر ليكون مؤيداً للقضية الفلسطينية في تلك اللحظة الحاسمة من صراعنا المميت مع إسرائيل.

خلال فترة الغداء وجلسة بعد الظهر أدركت أن بيير فيكتور كان مثل مدير محطة الحلقة الدراسية التي حتى سارتر نفسه أحد قطاراتها. بالإضافة إلى تفاعلهم الغريب على الطاولة، كان فيكتور دائماً ينهضه ويقود الرجل العجوز المتثاقل بعيداً ويتكلم معه بسرعة ويحصل على إيماءة أو اثنتين متقطعتين، ثم يعودان. في ذلك الوقت أراد كل عضو في الحلقة الدراسية أن يلقى خطابه، لهذا كان من المستحيل إجراء جدال، رغم أنه أصبح من الواضح لي أن تعزيز إسرائيل (ما يسمى اليوم بالتطبيع) كان الموضوع الحقيقي للقاء، وليس الفلسطينيين أو العرب. كنت في وضع بعض العرب قبلي الذين ظنوا عن حسن نية أنه من المجدي محاولة إقناع مفكر مهم جداً (مثل سارتر وغيره من البارزين) على أمل أن يتحول إلى ارنولد توينبي آخر أو شون ماكبرايد. قلة من هؤلاء البارزين فعل. أدهشني سارتر بأنه يستحق المحاولة لأنني لم أنسَ موقفه من الجزائر، الذي كان أصعب عليه كرجل فرنسي من موقف نقدي لإسرائيل. لكنني كنت مخطئاً طبعاً.

في نقطة ما، بتواصل النقاشات الطنانة وغير المجدية، اكتشفت أنني أؤكد لنفسي أنني جئت إلى فرنسا أولاً وأخيراً لأسمع لما يقوله سارتر وليس لأشخاص أعرف آراءهم مسبقاً ولا أجدها جذابة بشكل خاص. لذلك قاطعت النقاش بصفاقة في وقت مبكر من المساء وأصررت بأن نسمع من سارتر فوراً. سبب هذا رعباً في صفوف دائرته. أجلت الحلقة وعقدت مشاورات طارئة بينهم. يجب أن أقول أنني وجدت الأمر برمته هزلياً ومحزناً بنفس الوقت، حيث أن سارتر نفسه ليس له أي دور واضح في المشاورات المتعلقة بمشاركته! أخيراً استدعينا إلى طاولة من قبل الغاضب بشكل واضح بيير فيكتور الذي أعلن بنزق وبكل التكلف الهائل لسناتور رومي، (غداً سيتكلم سارتر.) ولذلك انسحبنا للتجمع ثانية صباح اليوم التالي لنسمع الرجل العظيم.

من المؤكد أن سارتر سيقدم لنا شيئاً في اليوم التالي: نصاً معداً مطبوعاً على صفحتين كان أساساً مدحاً لشجاعة السادات في أتفه ابتذال يمكن تخيله. لا أتذكر أن كلمات كثيرة قيلت عن الفلسطينيين أو عن الأراضي المحتلة أو عن الماضي المأسوي. وبالتأكيد لم تكن هناك أي إشارة للاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي المشابه في كثير من النواحي للممارسات الفرنسية في الجزائر. كان تثقيفياً مثل أي تقرير لرويتر، ومن الواضح أن الرديء فيكتور كتبه لسارتر، الذي بدا منقاداً تماماً وبريئاً. يجب أن أقول بأنني تحطمت تماماً، بأن ذلك المفكر البطل قد استسلم في سنواته الأخيرة إلى معلم رجعي جداً مخلص، وبالنسبة لفلسطين قضية اعتبرتها ذات ضرورة أخلاقية وسياسية ملحة- بمستوى القضيتين الجزائرية والفيتنامية- المحارب السابق المناصر للمظلومين لم يجد سوى اللغة التقليدية والإخبارية لمدح القائد المصري الشهير جداً مسبقاً! استمر سارتر بصمته فيما تبقى من اليوم وتابعنا نحن كما كنا سابقاً.

من المثير، حين نشرت أشرطة الحلقة الدراسية بعد بضعة أشهر، أن مداخلة سارتر كما قدمها قد أزيلت من التسجيل. لم استطع تخيل السبب ولم أحاول اكتشافه. وأعرف أنها سطحية جداً ولا تساوي الورق الذي كتبت عليه رغم احتفاظي بإصدار (تيمبز موديرن) التي ظهرنا فيها كلنا والتي لم أستطع أن أعيد قراءة سوى بعض المقاطع القليلة منها. لهذا ذهبت إلى باريس بأمل دعوة سارتر لزيارة مصر، لكي يراه المثقفون المصريون ويتحدثوا إليه- بنفس النتائج تماماً، حتى لو لم يلطخ لقائي بحضور الوسيط المنفر بيير فيكتور، الذي منذ أن تخفى في غموض مصطنع. كنت، مثل فابرايس أبحث عن معركة ووترلو- غير ناجح وخائب كما اعتقدت آنذاك.

ملاحظة هامشية أخرى. منذ أسابيع قليلة صدف حين أمسكت بجزء من برنامج (بيرنارد بيفوت) الأسبوعي الثقافي الذي يعرضه التلفزيون الفرنسي (حساء الثقافة) ويعاد بثه في الولايات المتحدة بعد وقت قصير. كان البرنامج عن سارتر، رد اعتبار بعد موته، بروزه الجديد رغم الانتقاد المستمر لخطاياه السياسية. بيرنارد هنري-ليفي، الذي يندر وجود أي شخص يختلف عن سارتر أكثر منه في نوعية عقله وشجاعته السياسية، كان هناك لينتقد بقسوة الفيلسوف المشهور بدارسته المستحسنة بشكل واضح. (أعترف بأنني لم أقراها ولا أخطط لذلك) قال الراعي ب.ه.ل.: لم يكن رديئاً جداً حقاً، لأن هناك أشياء حول سارتر ممتازة بشكل متناسق وصحيحة سياسياً. لكن ب.ه.ل. تقصد هذا ليوازن ما اعتبره النقد المؤسس جيداً لسارتر (الذي أصبح مثيرا للاشمئزاز بواسطة بول جونسون) لأنه أخطأ دائماً بخصوص الشيوعية. ترنم ب.ه.ل. قائلاً (مثلاً سجل سارتر بخصوص إسرائيل كان مثالياً: لم ينحرف أبداً وظل مؤيد تام للدولة اليهودية.) الكلمات (سجل سارتر حول إسرائيل كان مثالياً) اقتباساً حرفياً.

لأسباب لم نتأكد منها بعد، ظل سارتر ثابتاً في مناصرته للصهيونية المتعصبة. إما لأنه كان يخاف من أن يبدو معادياً للسامية أو لأنه شعر بالذنب حول الهولوكوست أو لأنه في نفسه إعجاب عميق للفلسطينيين كضحايا ومقاتلين ضد الظلم الإسرائيلي أو بسبب آخر لن أعرفه أبداً. كل ما أعرف أنه كرجل عجوز بدا كما كان تقريباً وهو أصغر: خيبة مريرة لكل عربي (غير جزائري) أعجب به لمواقفه وأعماله الأخرى. من المؤكد أن بيرتراند روسل كان أفضل من سارتر، وفي سنواته الأخيرة (رغم أنه كان منقاداً، كما يقال، ويتلاعب به زملائي السابقين في برينستون وصديقه القديم رالف شونمان) أخذ موقفاً نقدياً فعلياً من السياسات الإسرائيلية تجاه العرب. أظن أننا نحتاج لفهم لماذا الرجال الكبار في السن يخضعون أخيراً إما لخداع الرجال الأصغر سناً أو إلى نوع من الخضوع الصارم لمعتقد سياسي غير قابل للتعديل. باستثناء الجزائر، عدالة القضية العربية لم تترك أي تأثير عليه وإن كان ذلك بسبب إسرائيل أو بسبب نقص أساسي في التعاطف لأسباب ثقافية ودينية، فأنا لا أعرف. في هذا هو مختلف تماماً عن صديقه ومعبوده جان جينيه، الذي اشتهر بهيامه الغريب بالفلسطينيين في إقامة مطولة معهم وبكتابة (أربع ساعات في صبرا وشاتيلا) و(أسير العشق).

بعد لقائنا المخيب للآمال القصير في باريس بعام واحد مات سارتر. أتذكر الحزن الكبير الذي رثيت فيه رحيله.

جسر فوق الهاوية –الأهرام ويكلي 10ايلول 1998 .

تقترب الألفية ومعها إدراك مكثف بأن الإنسانية على عتبة عصر جديد لم ينل سوى القليل من التحضير والتفكير. يعود جزء من هذا الشعور بالقلق مع اقتراب الموعد النهائي لنهاية الحرب الباردة التي لم تحدث ذلك الاسترخاء الرئيسي للتوترات الذي توقعه الجميع. إذ تلا حل الاتحاد السوفييتي حرب الخليج مباشرة تقريباً التي (في رأيي) معلم رئيسي في تاريخ العالم. ذلك الصراع يوضح بشدة دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة ويبين بطريقة مثيرة مدى ودرجة قوتها العسكرية والاقتصادية كما أخبر سلوكها اللاشرعي الأخير في أفغانستان والسودان الأكثر إثارة العالم بأنها الوحيدة التي تستطيع فعل ما تريد.

ظهر فيض كامل من النظريات في الغرب لشرح ما سماه جورج بوش بالنظام العالمي الجديد، لكن بعضها نال رواجاً قصيراً ثم اختفى وبعضها الآخر سبب الرعب لكثير من الناس باستبصارها لمشاكل وعنف أكبر مما كان في الماضي. اشتهر فوكوياما بكتابه (نهاية التاريخ) مدة سنتين ثم تبخر في غيمة من الدخان، ولم يسمع به ثانية، وأصبح كما يبدو صامويل هنتغنتون وكتابه (صدام الحضارات) في طي النسيان وهو أحد المتبارين الأخيرين في الحلبة؛ لكن ليس دون أن يحرك المشاعر حول الأخطار التي تترصد الغرب- فرادته وزعامته التكنولوجية والروحية وتفوقه الأخلاقي- من قبل الحضارات الأخرى التي اعتبر الإسلام والكونفوشية من أخطرها. يفترض هنتنغتون مثل فوكوياما تفوق الانجازات الغربية على غيرها وكفوكوياما عمله في الحقيقة محاولة في إعادة تحويل قسمة الحرب الباردة القديمة (نحن) مقابل (هم) إلى الحاضر.

من جانب آخر، من المثير للاستياء ألا نعلم بأن الصراعات الثقافية والحضارية موجودة وأنها تكثفت منذ نهاية الحرب الباردة. إن سرد الأسماء والأماكن التي سيحدث فيها ذلك شيء بغيض جداً طبعاً، لكنه ينفع لتأكيد إما عبث مخططات التقسيم (كما في يوغسلافيا السابقة وفلسطين) أو المفاهيم الحمقاء العتيقة في التركيب الشمولي. تبدو المشكلة بأن العالم متغاير أكثر مما هو متجانس لكن هناك أصوات كثيرة مشاكسة منسية أو تابعة تطالب بأن تسمع.

لكن حين نطلب (فرصة للإدلاء برأينا لأي سبب وباسم من؟) تحدث صعوبة خطيرة من صحيح والمؤكد أن بلدان أوروبا الغربية مثل فرنسا وبريطانية وألمانيا وايطاليا وسويسرا والدول الاسكندينافية فيها عدد كبير من الجاليات المهاجرة غير الأوروبية في وسطها لأول مرة في تاريخها. النتيجة أنه لا تستطيع أي ثقافة أو أمة أن تفصل نفسها في ثقافة نقية وغير نقية أو ثقافة هجينة؛ لا توجد هناك ثقافات معزولة أو حضارات ولم توجد سابقا أبداً. أي محاولة تجري الآن لفصلها في حجرات عازلة ومقاومة للماء كما وصفها هنتنغتون ستسبب ضرراً لتنوعها واختلافاتها وتعقيد عناصرها وجوهرها الهجين.

لهذا السبب (إذاً) يبدو أننا نعيش في فترة تعريفات الثقافات والمجتمعات نفسها، وتحديد القضايا المثيرة للنزاع إلى أقصى حد فيها. هذا صحيح بالتأكيد في العالم الإسلامي، حيث يحدث نقاش نشيط بشكل غير عادي من موسكو إلى إيران حول ماهية الإسلام وكيفية تفسيره ووجهاته ومقاصده. لكن هذا مهمل في الغرب بشكل روتيني، حيث يحافظ الاستشراق على هيمنته ويتجاهل دينامية الثقافات

والتنوع الذي بداخلها. ما بقي هو صورة باهتة توحي بأن الإسلام في قبضة موجة من الأصولية العنيدة: وهذا بعيد جداً عن الحقيقة.

النقاش نفسه يدور في الولايات المتحدة، البلاد التي كانت دائماً من المهاجرين الذين بأيديهم أبيد المجتمع الأمريكي الأصلي تقريباً وسلبت منه أرضه وما بقي منه اقتصر على محميات قليلة. إن النقاش حول صور أمريكا التي مرت بعدد كبير من التحولات والانتقالات المثيرة أحياناً هو علامة عن الضيق الحالي في الولايات المتحدة.

حين كنت يافعاً، كانت السينما الغربية تصور الأمريكيين الأصليين كشياطين شريرة، يجب تدميرها أو ترويضها؛ وأطلق عليهم اسم الهنود الحمر وليس لهم أي دور في الثقافة عموما-هذا صحيح بالنسبة للسينما بالإضافة إلى كتابة التاريخ الأكاديمي- الذي يفترض به أن يكون إحباط لمسيرة الحضارة البيضاء المتقدمة. اليوم تبدل ذلك تماماً. وينظر للأمريكيين الأصليين كضحايا للتقدم الغربي وليس كأوغاد. هناك تغيير لمكانة كولومبس أيضاً وهناك أيضاً انقلابات عكسية أكثر إثارة في تصوير الأمريكيين الأفارقة والنساء. ولاحظت توني موريسون كيف تم ذلك، في الأدب الأمريكي التقليدي، هناك هاجس مع البياض، كما أثبت ذلك ميلفيل في موبي ديك وبو في آرثر غوردون بايم بوضوح تام. وتقول الكاتبة أيضاً أن الذكر الرئيسي والكتّاب البيض في القرنين التاسع عشر والعشرين، رجال شكلوا القانون لما نعرفه كأدب أمريكي وأبدعوا أعمالهم باستخدام البياض كوسيلة لتجنب كشف وتصوير الحضور الأفريقي المحجوب في وسط مجتمعنا. الحقيقة ذاتها التي تكتب فيها توني موريسون روايتها ونقدها بهذا النجاح والتألق يؤكد الآن مدى التحول من عالم ميلفيل وهمنغواي إلى الكتاب السود مثل دبليو اي دوبويس وبولدوين ولانغستون هيوز وتوني موريسون نفسها. أي إنها أمريكا الحقيقية، ومن الذي يستطيع الادعاء بأنه يمثلها ويوضحها؟ السؤال معقد ومشوق جداً، لكنه لا يمكن تسويته باختصار الأمر برمته على كليشهات قليلة.

هناك نقاش مماثل في العالم الإسلامي اليوم الذي، في غمرة الاحتجاج الهستيري حول خطر الإسلام، الإسلام المتشدد والإرهاب الذي يقابله المرء كثير في وسائل الإعلام الغربي، الذي فقد بصيرته تماماً. مثل أي ثقافة عالمية، يحتوي الإسلام داخله تنوع مذهل من التيارات والتيارات المضادة، أغلبها غير مميزة للمستشرقين الذين يمثل الإسلام بالنسبة لهم موضوع للخوف والعداء، أو لصحفيين لا يعرفون أي لغة من لغاته أو تاريخه الضروري والذين رضوا بالإتكال على النماذج النمطية السائدة في الغرب منذ القرن العاشر.

إيران اليوم-خصوصاً بعد الانتخابات الرئيسية- في مخاض عن القانون والحرية والمسؤولية الشخصية والتقاليد لكن المراسلون الغربيون لا يغطونه. يحمل المحاضرون الساحرون والمثقفون-الكنسيون وغير الكنسيين على السواء- على الشريعة متحدين بذلك مراكز السلطة والأرثوذوكسية المحصنة بنجاح شعبي كبير كما يبدو. في مصر، تورطت التدخلات الدينية المتطفلة في قضيتين مدنيتين في حياة المخرج السينمائي المشهور والمثقف وانتهت بانتصار الأولى على الأرثوذوكسية وخسارة الأخرى (أشير إلى قضيتي يوسف شاهين ونصر حامد أبو زيد). لقد ناقشت في كتاب حديث لي (سياسة الطرد1994) بالإضافة إلى مجرد موجة الأصولية الإسلامية، كما اختزلها الإعلام الغربي، هناك مقدار مهم من المعارضة العلمانية لها على شكل خلافات متنوعة حول تفسير السنة لقضايا قانونية والتصرف الشخصي وصناعة القرار السياسي وغيره.

الثقافة الرسمية هي ثقافة رجال الدين والأكاديميين والدولة. توفر تعاريف للوطنية والولاء والحدود وما سميته بالانتماء. إنها الثقافة الرسمية التي تتحدث باسم الكل، والتي تحاول أن تعبر عن الإرادة العامة والروح الجماعية العامة والفكرة التي تمثل الماضي الرسمي، الآباء المؤسسون والنصوص، وهيكل الأبطال والأنذال الخ وتقصي كل ما هو أجنبي أو مختلف أو غير مرغوب في فيه، من هنا جاءت التعاريف التي تقال، والتي لا تقال، تلك المحرمات والمحظورات الضرورية لكل ثقافة تريد السلطة.

لكن من الصحيح أيضاً أنه بالإضافة إلى الثقافة الكنسية السائدة، هناك ثقافات منشقة وغير تقليدية وهرطقة تحتوي أصناف كثيرة معادية للسلطة تتنافس مع الثقافة الرسمية. يمكن تسمية هذه بالثقافة المضادة وهي مجموعة من الممارسات مصحوبة بأنواع مختلفة من الدخلاء-الفقراء والمهاجرين والمتشردين الرحل والعمال والثوار والفنانين.

لسوء الحظ أن كل أنظمة التعليم المعروفة اليوم لا تزال قومية خفية أو ضمنية. إلى حد ما هذه ضرورة للغة والسياق والحقيقة الوجودية. إن كنت فرنسياً مثلاً، يجب أن تتعلم اللغة القومية، وتتعلم تاريخ البلاد وتفهم مجتمعه لكي تعيش فيه. في المجتمعات الأقل ليبرالية، هناك ضرورة أكبر لتعليم الشباب بأن لغتهم وثقافتهم متفوقة وبالإستنتاج تكون الثقافات الأخرى أقل أهمية أو بطريقة ما أجنبية وغير مرغوبة لكي تبدو غير جذابة.

أتمنى لو أستطيع القول بأن الطرق العامة الأحدث للتعليم والتطوير الثقافي تلهم المرء بحماس أكبر، لكنها للأسف لا تفلح في ذلك. خذ مثال واضح للمشكلة، التقرير الإجمالي للجنة العالمية للثقافة والتطوير الذي نشر جزئياً تحت رعاية اليونيسكو في عام 1995. مؤلفيه وكفلاءه جماعة لافتة للنظر من الرجال اللامعين والنساء، مع عدد من الفائزين بجائزة نوبل، وعلماء قادة وشعراء ومنظرين اجتماعيين في صفوفهم. يميز عنوان العمل-تنوعنا الإبداعي- بجدارة التأكيد الذي تمنوا أن يضعوه على التعددية والتعددية الثقافية في التعليم. بالنسبة لهم، التطوير ليس اقتصادياً فقط، وإنما إنساني وثقافي؛ يرفع للحد الأعلى العوالم الفنية والثقافية. قائمة المواضيع المستكشفة شاملة، أخلاق عالمية جديدة؛ الالتزام بالتعددية؛ الإبداع والتفويض؛ تحدي وسائل إعلام العالم الغني؛ الجنس (النوع) والثقافة؛ الأطفال والشباب؛ التراث الثقافي من أجل التطوير؛ الثقافة والبيئة؛ إعادة التفكير في السياسات الثقافية.

بقراءة ثلاثمائة صفحة من هذا العمل المستنير، يجد المرء نفسه ينكس رأسه بالموافقة لكل مفصل فيه. بنعم، يجب أن نهتم بالتعددية والتنوع؛ نعم يجب أن نأخذ قضايا الجنس (النوع) في الحسبان ويجب أن نزيل اللامساواة؛ نعم لا يكمن أن تمارس الثقافة في بيئة طبيعية منكمشة أو متفسخة وهكذا. يطالب التقرير بموارد وتفكير تخيلي، والإكثار من المشاركة وبالأصالة والتحرر. كل هذا سليم وجيد وأخشى القول في التحليل النهائي، أن جوهر تقارير اللجان العالمية يدور حول صناعة الإجماع والشعور الطيب، وليس عن فكر راديكالي حقيقي.

ما وجدته مفقود تماماً في التقرير هو ذلك البعد الضروري جداً للديمقراطية، أي كيف يستطيع التعليم أن يشجع الناس كي يفكروا لوحدهم، ليفكروا ضد السلطة والارثوذكسية (العقيدة)، ليفكروا بصيغة الشك والشقاق وليس بصيغة الإذعان والوفاق. إن اللجنة العالمية للثقافة والتطوير ترى الثقافة في شروط إيجابية تماماً، ولا تسمح بأي مجال أياً كان للعالم النقيض. هذا عيب هائل. كل

شيء حولنا في هذا العصر من الإتصالات الالكترونية الضخمة والرأسمالية الكوكبية مصمم ليفوز بالقبول؛ إن لم يتم صنعه فعلياً. ترك أحد نماذج التطوير دون إعتراض من قبل اللجنة العالمية وهو السوق الحرة، أو النموذج الرأسمالي، وكأنه ليس هناك بديل عنه، كما لو أن التاريخ وصل لنهايته (كما جادل فوكوياما) بانتصار السوق. هناك الآن خطر التخمة الإيديولوجية الكبير لدرجة إقصاء إمكانية العالم الجمالي، الذي لا يحكم مباشرة بواسطة السلطة الاقتصادية والسياسية.

التفكير المشترك عن العولمة تغلب على الشعور لدرجة (في رأيي) يجب أن تكون فيها وظيفة التعليم تعزيز روح المقاومة بدل الامتثال، والتفويض الفردي بدلاً من الجبرية الجمعية. وإلا كيف سنشجع طلابنا على التمييز بين العدل والظلم بين الأفكار العقائدية(الأرثوذوكسية) عن الديمقراطية وبين الديمقراطية التشاركية الحقيقية؟ أولاً وقبل كل شيء، كيف نستطيع أن نحفز من خلال التعليم الناس ليصنعوا تاريخهم بأنفسهم، وأن يكون التاريخ نفسه تنافس حول القضايا الأخلاقية الأساسية التي تشمل السلطة والمسؤولين والشعور الأخلاقي؟ دعني الآن أقدم وجهة نظر بديلة عن النظرة التقليدية الموجودة في تقرير اللجنة العالمية.

هناك سطر لازمني منذ سنوات كثيرة في مقال عن (ليوناردو دا فينشي) لشاعر أوائل القرن العشرين الكبير (بول فاليري). واصفاً عقل (ليوناردو) في قوته وأناقته، يقول (فاليري): إن الفنان الايطالي لم يستطع التفكير إلا بالجسر كلما فكر بالهاوية. كلام مجازي، الهاوية البديل عما يقدم لنا كثابت ونهائي ومستحيل تجاوزه. بغض النظر عن مدى عمق وصعوبة المشهد الذي قدم نفسه له، كان لدى (ليوناردو) المقدرة للتفكير في بديل ما دائماً، طريقة ما لحل المشكلة،هبة ما لعدم القبول السلبي لما قدم له، كما لو أن المشهد الذي تخيله يمكن دائماً تخيله بطريقة مختلفة وربما بطريقة مفعمة بأمل أكبر.

طبعاً، كان ليوناردو عبقرياً وفي كل طريقة يمكن تخيلها لم يكن شخصاً عادياً. قليل منا من يجرؤ على مقارنة نفسه به. لكني أعتقد أن إحدى فوائد التعليم هي، عدا عن إعطائنا أساليب ومهارات للتعامل مع مجالات من الخبرة مثل الطب أو القانون أو الإنسانيات، يعطينا أيضاً الفرصة لنرى الأشياء بصورة مختلفة وأن نحاول بطريقتنا الخاصة بنا أن نبني جسوراً فوق الهاوية. لا يعني هذا بأن لا يفترض في التعليم أن يكون حول اكتساب المعرفة- طبعاً هو كذلك. لكن المعرفة أكثر من مجرد تكديس للمعلومات. قال (جان بول سارتر) مرة عن صديق درس في أعظم الجامعات الفرنسية، (ايكول بوليتكنيك) : (صديقي ذكي بشكل لا يصدق حقاً. هو يعرف كل شيء. لكن ذلك كل ما يعرفه.)

أحد أصعب الأشياء بالنسبة لي كمعلم هو أن أعطي طلابي كل ما أعرفه عن الموضوع، وأحاول شرحه بشكل كامل بقدر ما أستطيع وبعد ذلك أجعلهم يشعرون بعدم الرضا حول ما قلته أيضاً أو على الأقل الشك به. بعيداًعن حالة الرفضية الآلية، الشكوكية هي الخطوة الأولى لتشيد بناء فوق هاوية. إن لم تستطع أن تلهم طلابك لفعل ذلك، إن لم تستطع أن تحركهم ليفهموا بأن التعليم هو تعليم ذاتي فعلاً وليس قبول بلا نقاش لما يقوله المسؤول (السلطة) أخيراً، حينها عليك أن تدرك بأنك سلمتهم إلى عبودية فكرية وبالتالي أخلاقية.

لا يوجد شيء عن زمننا الآن، بما أننا نقترب من الألفية، مثبط أكثر من العبودية الفكرية والطاعة. أنظر إلى ما تعرضه شاشات تلفزيوناتنا-الأخبار المعدة مسبقاً، البرامج الحوارية المملة التي لا

تنتهي، البرامج الرياضية المكررة، أخبار الساعة الراهنة المثيرة (مثل موت ديانا)- وما تراه جهاز لتنويم العقل النقدي المحتمل، بإجباره على قبول وجود هاوية وراء ما يقدم له لا يسعنا فعل أي شيء حولها. يا للأسف، الوضع متشابه حتى في النقاشات الأكاديمية والفكرية، حيث الموضة والحمية الثابتة في الاكتفاء بالأفكار المسلم بها، تجبر أكثر الناس على نوع من القبول بالوضع القائم كما صرح بهم مسؤول ما أو آخر. ما أتحدث حوله هو نقيض ذلك تماماً، أي القلق الفكري: أرفض أن تقبل ما تخبرك به الأرثوذكسية أو العقيدة أو الأفكار المسلم بها بأنه الحقيقة وابحث بطريقتك كي تفهم الأشياء لكي تغييرها ولتجعلها لك.

أي واحد لديه تجربة مرض خطير سيخبرك أن أحد المناظر المرعبة التي تواجهها في مثل هذه الشدة هو ليس الحزن فقط من العجز البدني، وإنما فقدان القوة، قوة التفكير بشكل واضح. ايرنست جونز، كاتب سيرة سيغموند فرويد، يقول عن فرويد حين أصبح مريضاً جداً ويعاني من ألم فظيع بسبب سرطان في فكه، رفض أن يأخذ حتى الأسبرين خشية أن يبلد الحد النقدي لذهنه، يخفف حدة فكره. ما الذي جعل (ستيفن ديدالوس) بطل (جيمس جويس) صورة الفنان كشاب، مجبراً إن لم يكن شعاره، لن أعمل خادماً؟ لن أخدم ما لم أؤمن به بعد، إن كان يدعو نفسه وطني أو أرض أجدادي أو كنيستي.) ماذا يعني أن لا أؤمن؟ يعني عدم القدرة على الاستمرار في التفكير بالطريقة التي يفكر بها الآخرين وعدم القدرة في الاستمرار في قبول الأشياء كما هي عليه.

المفارقة الأساسية في التعليم هي أنك يجب أن تخدم وتخضع للسلطة-سلطة التقاليد، والتعليم نفسه، والباحثين والعلماء الذين مروا قبلك أي جعلك ممكناً وبنفس الوقت، يجب أن تبقى ناقداً ومتحدياً. وما يجعلك متحدياً، وما يمكنك من بناء جسر فوق الهاوية الذي انهزم فيه كثير من الناس، هو الأمل والإيمان في فكرة عظيمة، فكرة العدالة، فكرة التحرر، فكرة التنوير، حيث الدرب الذي يقودك إليه الجسر. هناك مخاطر كبيرة هنا، مخاطر اللاشعبية بكونك معزولاً ومشتوماً. بإميناز في (اوبرا موزارت) المزمار السحري، في لحظة الخطر الأكبر تغني (يجب أن أقول الحقيقة، الحقيقة، حتى لو كانت جريمة.)

لكن في التحليل الأخير، أعتقد، أنه لا يوجد شي أنبل من المخاطرة بكل تلك الأشياء لكي تكون قادراً على بناء جسر. إنها عبقرية المدرسة والجامعة التي توفر مكاناً وبضع سنوات فيها تحاول وتحاول وتحاول. طبعا ربما لا ينجح المرء تماماً، لكن المرء يدرك أيضاً أنها المحاولة الأبدية لإيجاد طريق، لبناء جسر، بصورة تخيلية وانتقادية، تحفظنا أحياء فكرياً وديمقراطياً.

مغزى راشيل كوري-الكرامة والتضامن-الأهرام ويكلي 26 حزيران 2003.

في أوائل شهر أيار، ذهبت إلى سياتل لبضعة أيام لإلقاء بعض المحاضرات. بينما كنت أتناول العشاء في إحدى الليالي مع والد ووالدة راشيل كوري وأختها، الذين كانوا يترنحون من صدمة جريمة قتل ابنتهم في 16 آذار بواسطة بلدوزر إسرائيلي. أخبرني السيد كوري انه قاد هذا النوع من البلدوزرات بنفسه، حتى ذاك الذي قتل ابنته قصداً لأنها حاولت ببسالة أن تحمي البيت الفلسطيني في رفح من التدمير، يزن هذا البلدوزر ستون طنا صممته (كاتربيلار) خصيصاً لتهديم المنازل، أكبر من أي آلة قادها أو رآها. لفت انتباهي شيئان في زيارة آل كوري لي. الأول القصة التي أخبروني بها عن عودتهم إلى الولايات المتحدة مع جثة ابنتهم. وبعد ذلك مباشرة بحثوا عن ممثليهما في مجلس الشيوخ، (باتي موراي وماري كانتويل) وكلاهما من الديمقراطيين، أخبروهما قصتهم وقوبلوا بالعبارات المتوقعة بالصدمة والوحشية والغضب ووعود بالتحقيق. بعد أن عادت المرأتان إلى واشنطن، لم يسمع (آل كوري) أي شيء منهما، وببساطة لم يجر التحقيق الموعود. كما هو متوقع لقد شرح لهما اللوبي الإسرائيلي الحقائق فاعتذرتا. مواطنة أمريكية تقتل عمداً من قبل الجنود الإسرائيليين من دولة عميلة للولايات المتحدة دون أي نظرة رسمية أو حتى تحقيق ضروري وعدت به عائلتها.

لكن المظهر الثاني والأهم لقصة (راشيل كوري) بالنسبة لي كان عمل الشابة نفسه، ذلك العمل البطولي والجليل بنفس الوقت. لقد ولدت وتربت في (اولمبيا) مدينة صغيرة تبعد 60 ميلاً جنوب سياتل، انضمت إلى حركة التضامن العالمية مع غزة وذهبت إلى غزة لتقف مع الكائنات البشرية المعذبة التي لم يكن لها إي اتصال بهم قبل ذلك. إن رسائلها التي بعثت بها إلى والديها وثائق هامة وحقيقة عن إنسانيتها العادية تتحول إلى قراءة مؤثرة خصوصاً حين تصف الكرم والقلق الذي أبداه كل الفلسطينيون الذين قابلتهم ورحبوا بها كواحد منهم لأنها تعيش معهم كما يعيشون تشاركهم حياتهم وقلقهم بالإضافة إلى الرعب من الاحتلال الإسرائيلي وآثاره المخيفة حتى على الأطفال الصغار. لقد تفهمت مصير اللاجئين وما سمته محاولة الحكومة الإسرائيلية الخبيثة كنوع من الإبادة الجماعية يجعل البقاء بالنسبة لهذه المجموعة الخاصة من الناس مستحيل تقريباً. مؤثرة في تضامنها الذي ألهم الجندي الإحتياط الإسرائيلي (داني) الذي رفض الخدمة العسكرية ليكتب لها ويقول: أنت تقومين بعمل طيب وأشكرك عليه.

ما تألق في الرسائل كلها التي كتبتها للوطن ونشرتها صحيفة الغارديان اللندنية فيما بعد هو المقاومة المذهلة التي ابتدعها الشعب الفلسطيني نفسه، أناس عاديون علقوا في أفظع ألوان العذاب واليأس لكن استمروا في البقاء رغم ذلك. لقد سمعنا الكثير مؤخراً عن خارطة الطريق وآمال السلام لذلك تغاضينا عن الحقيقة الجوهرية الأهم أن كل الفلسطينيون رفضوا أن يذعنوا أو يستسلموا حتى تحت ضغط العقوبات الجماعية الجائرة التي طبقتها عليهم الولايات المتحدة وإسرائيل. تلك هي الحقيقة الإستثنائية التي أوجدت خارطة الطريق وكل الأشياء الكثيرة من قبلها التي سميت بخطط السلام وليس أبداً لأن الولايات المتحدة وإسرائيل والمجتمع الدولي قد اقتنعوا لأسباب إنسانية بأن القتل

والعنف يجب أن يتوقف. لو نسينا قوة المقاومة الفلسطينيين (التي لا أقصد بها التفجيرات الانتحارية، التي تضر أكثر مما تنفع)، رغم كل نواقصها وكل أخطاءها، فإننا سنفقد كل شيء. لقد شكل الفلسطينيون مشكلة دائمة للمشروع الصهيوني، وما يسمى بالحلول كانت تهدف دائماً إلى تقليل المشكلة إلى أقصى حد بدلاً من حلها. السياسة الرسمية الإسرائيلية بغض النظر إن استخدم شارون كلمة (إحتلال) أم لا أو أنه فكك برجاً صدئاً غير مستخدم أو اثنين، فقد كان دائماً لا يقبل حقيقة مساواة الشعب الفلسطيني للإسرائيليين أو حتى الإعتراف بأن إسرائيل تنتهك حقوقه بصورة مخزية دائماً. في حين أن قلة من الإسرائيليين البواسل الذين حاولوا منذ سنين أن يتعاملوا مع تاريخ الآخر الغامض، الذي حاول أكثر الإسرائيليون وما يبدو بأنه غالبية الأمريكيين إنكاره وتجنب أو نفي الحقيقة الفلسطينية. لهذا السبب ليس هناك سلام.

علاوة على ذلك لم تقل خارطة الطريق شيئاً عن العدل أو عن العقوبات التاريخية التي طبقت ظلماً على الشعب الفلسطيني منذ عقود كثيرة لا تحصى. إن فعل (راشيل كوري) في غزة يثبت، وبدقة خطورة وكثافة تاريخ الشعب الفلسطيني الحي كجماعة قومية وليس مجرد مجموعة من اللاجئين المحرومين. هذا ما تضامنت معه (راشيل كوري). وعلينا أن نتذكر أن ذلك النوع من التضامن لم يعد مقصوراً على عدد صغير من الأرواح الجسورة هنا وهناك، وإنما أقره العالم كله. في الأشهر الستة الماضية حاضرت في أربع قارات في ألوف كثيرة من الناس. إن الذي جمعهم معاً هو فلسطين والصراع من أجل الشعب الفلسطيني الذي هو الآن كلمة متداولة عن التحرير والتنوير، بغض النظر عن التشويه الذي راكمه الأعداء.

متى تُعرفْ الحقائق، يكون هناك إدراك فوري وتعبير عن أعمق أشكال التضامن مع عدالة القضية الفلسطينية والصراع الشجاع إلى جانب الشعب الفلسطيني لنصرة قضيته. إنه شيء استثنائي بأن تكون فلسطين القضية المركزية هذه السنة لاجتماعات بورتي اليغري المعادية للعولمة، بالإضافة إلى اجتماعات دافوس وعمان، القطبان العالميان للطيف السياسي كله. فقط لأن أخوتنا المواطنون في هذه البلاد تغذوا بوجبات منحازة بشكل بغيض من الجهل وتشويه وسائل الإعلام (الميديا)، عند ذلك لا يشار إلى الاحتلال أبداً عند الوصف المثير للهجمات الإنتحارية. ولم تعرض أبداً شبكات الـ (C.N.N) صوراً لجدار الفصل العنصري الذي يبلغ ارتفاعه خمس وعشرين قدماً وبسماكة خمس أقدام وبطول ثلاثمائة كيلو متراً الذي تبنيه إسرائيل (إلا بقدر ما أشاروا مصادفة إلى النص الميت لخارطة الطريق) أو جرائم الخزي والتدمير غير المبرر والإذلال والتشويه وهدم المنازل والتخريب الزراعي والموت المفروض على المدنيين الفلسطينيين ولم تظهر أبداً على الصحف المحنة اليومية التي هم فيها، ويجب ألا نفاجأ بأن لأغلب الأميركيين رأي رديء جداً بالعرب والفلسطينيين، أخيراً، أرجو أن تتذكروا بأن الأعضاء الرئيسيين للمؤسسة الإعلامية ابتداءً من الليبراليين اليساريين إلى أقصى اليمينيين كلهم معادون للعرب والإسلام والفلسطينيين. انظر إلى جبن وسائل الإعلام أثناء التعبئة للحرب الغاشمة اللاشرعية ضد العراق، وانظر كم كانت التغطية قليلة مقارنة بالضرر الهائل الذي سببته العقوبات ضد المجتمع العراقي وكم كانت التقارير قليلة حول الرأي العالمي العاصف الرافض للحرب. فلم يهتم أي صحفي بالعقوبات التي فرضتها الإدارة باستثناء هيلين توماس التي حمّلت الإدارة مسؤوليتها عن الافتراءات المفضوحة و(الوقائع) المركبة التي نسجتها ضد العراق كتهديد عسكري وشيك الحدوث على الولايات المتحدة قبل الحرب، والآن هؤلاء المروجون (للدعاية الحكومية الذين اختلقوا (الوقائع) الملفقة والمزيفة حول أسلحة التدمير

الشامل التي كادت أن تنسى وتزول كشيء لا علاقة له بالموضوع) وهم يرفعون عقيرتهم من خلال وسائل الإعلام الكبيرة في مناقشة الوضع الرديء غير المبرر للشعب العراقي الذي سببته الولايات المتحدة بيدها وبدون أي مسؤولية. لأنه مهما لمنا صدام حسين كمستبد شرير، فقد وفرَّ للشعب العراقي أفضل بنية تحتية كالماء والكهرباء والصحة والتعليم بالمقارنة مع أي دولة عربية أخرى. لكن لم يبق أي شيء منه الآن.

لا عجب إذا من الخوف الغريب من الظهور بمعاداة السامية بانتقاد إسرائيل على جرائمها اليومية ضد المدينين الفلسطينيين العزل أو النعت بمعاداة الأمريكيين لانتقاد الحكومة الأمريكية على حربها غير الشرعية وإحتلالها العسكري الجاري بشكل مروع، إن تلك الحملة الشريرة التي تقودها الحكومة ووسائل الإعلام ضد المجتمع العربي والثقافة والتاريخ والعقلية التي يقودها خبراء نياندرتال والمستشرقون مثل بيرنارد لويس ودانييل بايبس، قد روعت جداً الكثيرين ودفعتهم للإعتقاد بأن العرب هم شعب غير متطور وعاجز وهالك ومع كل المحاولات الفاشلة في الديمقراطية والتطور، العرب هم الوحيدون في هذا العالم لكونهم معاقين، ووراء العصور، غير متحضرين وتتجذر فيهم الرجعية. هنا الميدان الذي يجب أن تتحرك فيه الكرامة والفكر التاريخي النقدي لمعرفة ما هو هام وفرز الحقيقة عن الدعاية الزائفة.

لا أحد ينكر بأن أغلب البلدان العربية تحكمها أنظمة غير مقبولة اليوم وأن أعداد واسعة من الشبان العرب الفقراء والمحرومين معرضون إلى أشكال لا ترحم من المتشددين الدينيين. لكن من الكذب المكشوف القول كما فعلت صحيفة نيويورك تايمز بأن المجتمعات العربية مسيطر عليها بالكامل وأنه ليس هناك حرية رأي ولا مؤسسات مدنية ولا حركات اجتماعية فاعلة من قبل الناس ومن اجلهم. رغم قوانين الصحف، تستطيع أن تذهب إلى وسط مدينة عمان وتشتري جريدة الحزب الشيوعي بالإضافة إلى صحيفة إسلامية. مصر ولبنان مليئة بالجرائد والصحف التي تقدم مناظرات ومناقشات أكثر من هذه المجتمعات التي نالت السمعة والتكريم، القنوات الفضائية تعج بالآراء المتناقضة في تنوع مشوش، مؤسسات مدنية في مستويات كثيرة تقوم بخدمات إجتماعية، منظمات حقوق الإنسان والنقابات ومعاهد البحوث، نشطة في كل أرجاء العالم العربي. لا يزال هناك الكثير الذي يجب أن نقوم به قبل أن نصل إلى المستوى المناسب من الديمقراطية لكننا على الطريق.

في فلسطين وحدها هناك أكثر من(1000) منظمة غير حكومية وهذه الحيوية وهذا النوع من النشاط الذي يحافظ على سير المجتمع، رغم محاولة كل إسرائيلي وأمريكي لتشويهها وتوقيفها أو تقويضها على أسس يومية. تحت أسوأ الظروف الممكنة، المجتمع الفلسطيني لم ينهزم ولم يتقوض نهائياً. لا يزال الأطفال يذهبون إلى المدارس والأطباء والممرضات يعتنون بمرضاهم ويذهب الرجال والنساء إلى أعمالهم، وتعقد المنظمات اجتماعاتها ويستمر الناس بالعيش، مما يبدو إهانة لشارون والمتطرفين الآخرين الذين يريدون وضع الفلسطينيين في السجون أو ترحيلهم للخارج جملة. لم ينجح الحل العسكري أبداً ولن ينجح. لماذا يصعب على الإسرائيليين رؤية ذلك؟ يجب أن نساعدهم ليفهموا هذا، ليس بالتفجيرات الانتحارية وإنما بالبرهان العقلاني وبالعصيان الجماهيري المدني والاحتجاج المنظم هنا وفي كل مكان آخر.

الهدف الذي أحاول توضيحه أننا يجب أن نرى العالم العربي عامة وفلسطين خاصة بطرق أكثر مقارنة وانتقاد من الكتب السطحية النابذة مثل كتاب لويس (ما الخطأ المرتكب) وتصريحات بول ولفويتز الجاهلة عن جلب الديمقراطية للعرب والعالم الإسلامي. مهما كان صحيح حول العرب،

فهناك قوة تغيير فعالة تعمل لأنهم شعب حقيقي ويعيشون في مجتمع حقيقي فيه مختلف التيارات والتيارات المضادة التي لا يمكن رسمها بسهولة ككتلة مضطربة واحدة فقط من التعصب العنيف. إن النضال الفلسطيني من أجل العدالة خصوصاً شيء يعبر عن التضامن، بدلاً من النقد الذي لا ينتهي والمطنب ويحبط التثبيط ويعطل الانشقاق. تذكروا التضامن هنا وفي كل مكان آخر في أميركا اللاتينية وإفريقيا وأسيا واسترالية وتذكروا أيضاً أن هناك قضية كرس الكثير من الناس أنفسهم لها رغم المصاعب والمعيقات الرهيبة. لماذا؟ لأنها قضية عادلة وهدف نبيل وسعي أخلاقي نحو المساواة وحقوق الإنسان.

أريد أن أتكلم حول الكرامة، التي لها مكانة خاصة طبعاً في كل حضارة يعرفها المؤرخون، وعلماء علم الإنسان وعلماء الاجتماع والإنسانيون. سأبدأ بالقول فوراً إن القبول بأن العرب على عكس الأوروبيين والأمريكيين، ليس لديهم أي شعور بالفردانية ولا احترام للحياة الفردية ولا قيم للتعبير عن الحب هو خطأ استشراقي جوهري وخطة عنصرية غريبة وأن الألفة والتفاهم المفترض أن يكونا صفة مميزة تقتصران على ثقافات أوروبا وأميركا التي كان لها نهضة وإصلاح وتنوير. من بين الكثير غيرهما، من بينهم السوقي والتافه (توماس فريدمان) الذي كان يسوّق قذارته التي التقطها للأسف على حد سواء المثقفون العرب الجهلة الميالين لخداع أنفسهم ولا أريد أن أذكر أسماء الذين رأوا أن أعمال 11ايلول الوحشية هي علامة على أن العالمين العربي والإسلامي أكثر مرضاً وأكثر اختلالاً من أي عالم آخر، وأن الإرهاب علامة أكبر من أي تشوه حدث في أي حضارة أخرى.

يمكننا الإنتقال إلى الجانب الذي، بينهما، أوروبا والولايات المتحدة مسؤولتان عن أكبر عدد من الوفيات العنيفة خلال القرن العشرين التي لا يشكل العالم الإسلامي إلا القليل واليسير منها. ووراء كل ذلك اللغو المغرر اللاعلمي عن الحضارات المستقيمة والمنصفة والحضارات الضالة والمضرة، يلوح هناك الظل البشع للمتنبئ الكبير الزائف (صاموئيل هنتينغتون) الذي قاد كثير من الناس إلى الإعتقاد بأن العالم يمكن تقسيمه إلى حضارات متميزة تحارب بعضها البعض إلى الأبد. على العكس إن هنتنغتون مخطئ تماماً في كل نقطة أشار إليها. ليس هناك أي ثقافة أو حضارة تحيا لوحدها؛ ليس هناك واحدة مكونة من الفردانية والتنوير وأنهما يقتصران عليها؛ ولا تعيش حضارة بدون الصفات الإنسانية الأساسية كالحب وتثمين الحياة والقيم الأخرى. الإيحاء بغير ذلك كما فعل هتنغتون هو مجرد عنصرية بغيضة صرفة من نفس طراز الناس الذين يجادلون بأن الأفارقة لديهم أدمغة أدنى بشكل طبيعي وأن الآسيويين مولودين حقيقة للعبودية وأن الأوروبيين عرق متفوق وأعلى بشكل طبيعي. هذا نوع من محاكاة للعلم الهتلري موجه حصرياً اليوم ضد العرب والمسلمين ويجب علينا أن نكون حازمين بقوة بألا نقبل فكرة دحضها. إنه هراء محض. ومن جانب آخر، هناك الشرط الأكثر مصداقية والأخطر، إن الحياة العربية والإسلامية مثل أي شاهد آخر من الإنسانية، لها قيمها الموروثة وكرامتها التي يعبر عنها العرب والمسلمون بأسلوبهم الثقافي الفريد، وليس من الضروري أن يشبه هذا التعبير أو يكون نسخة من نموذج واحد متفق عليه يناسب أي شخص.

إن كل القصد من التنوع الإنساني هو في النهاية شكل من التعايش العميق بين أساليب مختلفة من الفردانية والتجربة التي لا يمكن أن تختزل في شكل واحد متفوق: هذا البرهان الزائف دسه لنا النقاد الذين ناحوا على نقص التنمية والمعرفة في العالم العربي. كل ما على المرء فعله هو أن ينظر إلى التنوع الهائل للأدب والمسرح والرسم والموسيقى والثقافة الشعبية التي أنتجتها العرب من المغرب

إلى الخليج. بالتأكيد يجب أن يثمن ذلك كإشارة عن دور العرب الحضاري، وليس من خلال تلك الجداول الإحصائية للإنتاج الصناعي التي تشير إلى مستوى التطور أو تبين الفشل فقط.

لكن النقطة الأهم التي أريد توضيحها، هو وجود تعارض واسع اليوم بين حضاراتنا ومجتمعاتنا وبين مجموعة الناس التي تحكم هذه المجتمعات. لم يحدث في التاريخ أن تركزت السلطة بهذا الشكل بيد مجموعة بالغة الصغر مثل الملوك المنوعين والجنرالات والسلاطين والرؤساء المترئسين على العالم العربي اليوم. هذه المسألة مسألة الديمقراطية فقط. أنهم يبخسون بشكل كبير جداً قدر أنفسهم وشعوبهم بأساليب تغلقهم، وتجعلهم غير متسامحين وخائفين من التغيير ومرعوبين من فتح مجتمعاتهم لشعوبهم، ومذعورين أكثر من كل ذلك من إغضاب الأخ الكبير، أي الولايات المتحدة. بدلاً من أن يروا أن موطنيهم هم الثروة الكامنة للأمة يعتبروهم متآمرين جناة منافسين على السلطة.

هذا هو الفشل الحقيقي، خلال كل فترة الحرب الرهيبة ضد العراق لم يكن لدى أي حاكم عربي الكرامة الذاتية والثقة ليقول شيئاً عن النهب والسلب والاحتلال العسكري الذي تعرض له واحد من أهم البلدان العربية. حسناً، شيء رائع لم يعد نظام صدام حسين المروع موجوداً، لكن من عَيَّنَ الولايات المتحدة لتكون الناصح المخلص للعرب؟ مَنْ الذي طلب من الولايات المتحدة أن تغزو العالم العربي لمصلحة مواطنيه وتجلب له شيئاً يسمى ب(الديمقراطية)، خصوصاً في وقت كان فيه النظام المدرسي والنظام الصحي وكل الاقتصاد في أمريكا يتدهور إلى أسوأ مستوى له منذ كساد عام 1929.

لماذا لم يرتفع الصوت الجماعي العربي ضد التدخل الأمريكي الفاضح اللاشرعي، الذي سبب الكثير جداً من الضرر وألحق إذلالاً أكبر بكل الأمة العربية؟ هذا فشل هائل حقيقة في العصب وفي الكرامة وفي التضامن الذاتي.

تضمنت كل خطابات إدارة بوش عن توجيه الرب القدير له، ألا يملك أي قائد عربي الشجاعة ليقول فقط أننا، كشعب عظيم، نسترشد بمناراتنا وتقاليدنا وديننا؟ لكن لا شيء ولا كلمة، بينما كان الموطنين العراقيين يعيشون أرهب محنة وبقية المنطقة ترتعد مع جيوشها، كل واحد منهم مشلول من الخوف من أن تكون بلاده الثانية. كم هو تعيس عناق جورج بوش الرجل الذي دمر دولة عربية بلا مبرر، بالتحالف مع الدول العربية الرئيسية الأسبوع الماضي. أليس هناك أحد لديه الشجاعة ليذكر جورج دبليو بوش بما فعله ليذل ويزيد من عذاب الشعب العربي أكثر من أي واحد سبقه، وهل يجب أن يرحب به بالعناق والابتسامات والانحناءات الزائدة؟ أين الدعم السياسي والاقتصادي الضروري لتقوية الحركة المعادية للاحتلال في الضفة الغربية وغزة؟ بدلاً من كل ذلك نسمع أن وزراء الخارجية يعظون الفلسطينيين كي يحذروا في أساليبهم ويتجنبوا العنف ويلتزموا بمفاوضات السلام رغم التأكد بأن اهتمامات شارون بالسلام كانت شبه معدومة. ليس هناك أي رد فعل عربي متفق عليه ضد جدار العزل أو الاغتيالات أو العقوبات الجماعية سوى باقة من العبارات المبتذلة تكرر الصيغ البالية التي إجازتها وزارة خارجية الولايات المتحدة.

ربما الشيء الوحيد الذي لفت انتباهي كنقطة متدنية في العجز العربي في إدراكه لكرامة القضية الفلسطينية هي ما تعبر عنها الحالة الراهنة للسلطة الفلسطينية (أبو مازن)، شخصية خاضعة بتأييد سياسي قليل وسط شعبه الذي إختارته إسرائيل والولايات المتحدة لمهمة عرفات، لأنه لا يملك جمهور من الناخبين وليس خطيباً أو منظماً عظيماً أو أي شيء حقيقي سوى أنه معاون مطيع لياسر

عرفات وأخشى بأنهم يروا فيه رجلاً ينفذ الأوامر الإسرائيلية، كيف استطاع أبو مازن الوقوف في العقبة لينطق بالكلمات التي أمليت عليه،مثل دمية تتكلم من بطنها، بواسطة موظف من وزارة الخارجية، وتكلم بإطراء عن عذاب اليهود ومن المدهش أنه لم يتكلم شيئاً تقريباً عن آلام شعبه على يد إسرائيل؟ كيف استطاع أن يقبل بالدور غير المشرف والمرسوم له، وكيف استطاع أن ينسى كرامته الذاتية كممثل لشعب ظل يقاتل من أجل حقوقه لأكثر من قرن لمجرد أن الولايات المتحدة وإسرائيل طلبتا منه ذلك؟ وحين تقول إسرائيل ببساطة أنه ستكون هناك دولة فلسطينية مؤقتة، دون التأسف والاعتذار عن مقدار الضرر الرهيب الذي سببته، وجرائم الحرب التي لا تحصى والإذلال السادي المنظم لكل فلسطيني، رجلاً كان أم امرأة أم طفل، يجب أن أعترف بغياب تام للفهم. لماذا لا يهتم قائد أو ممثل بمعاناة شعبه الطويلة.هل فقد شعوره بالكرامة تماماً؟

هل نسي بأنه لم يعد مجرد فرد بل الحامل لمصير شعبه في لحظة خطرة جدا؟

هل هناك أي أحد لم يصب بخيبة ألم مريرة بهذا الفشل التام في الإرتقاء إلى مستوى الحدث والوقوف بكرامة لإثبات كرامة شعبه وتجربته وقضيته بفخر ودون تسوية، بدون غموض ودون نصف الارتباك ونصف النغمة التبريرية التي يستخدمها القادة الفلسطينيون حين يتضرعون من اجل قليل من الحنان من أب أبيض تافه تماماً.

لكن ذلك هو سلوك القادة الفلسطينيين منذ أوسلو وبالحقيقة منذ (حاج أمين) تركيب من الاستخفاف الصبياني والتضرع الكئيب. لماذا يعتقدون دائماً أنه من الضروري جدا أن يقرؤوا النصوص التي كتبها لهم أعدائهم؟ الكرامة الأساسية لحياتنا كشعب عربي فلسطيني، في كل العالم العربي، وهنا في أمريكا، أننا نملك شعباً، بتراث وتاريخ وتقاليد وقبل كل شيء لغة أكثر من ملائمة لمهمة تمثيل آمالنا الحقيقية، لأن هذه الآمال نابعة من تجربة الطرد والعذاب الذي فرض على كل فلسطيني منذ عام 1948. ليس هناك زعيم عربي منذ زمن عبد الناصر تكلم بطريقة فيها احترام لذاته وكرامته، من نكون وماذا نريد وماذا فعلنا وأين نريد أن نذهب.

الوضع يتبدل لكن ببطء، والنظام القديم المشكل من أبو مازن وأبو عمار وأمثالهما في هذا العالم، يفوت وسيستبدل تدريجياً بمجوعة جديدة من القادة منبثقة في كل العالم العربي. الرجاء الأكبر متمثل بأعضاء المبادرة الوطنية الفلسطينية؛ إنهم ناشطون متأصلون ونشاطهم الرئيسي ليس دفع الأوراق على الطاولة أو التلاعب بالحسابات المصرفية ولا يبحثون عن الصحفيين لكي يعيروهم قليل من الاهتمام، وإنما من الذي انحدروا من المحترفين، المعلمين والأطباء والمحامين والشغيلة الذين حافظوا على استمرار المجتمع وهم بنفس الوقت الذين يصدون الهجمات الإسرائيلية اليومية. ثانياً، هؤلاء الناس ملتزمون بنوع من الديمقراطية والمشاركة الشعبية التي لم تخطر ببال السلطة حتى في الحلم، التي ترى الديمقراطية في استقرارها وأمنها الذاتي فقط. أخيراً، إنهم يقدمون الخدمات الاجتماعية للعاطلين عن العمل والصحة لغير المؤمن عليهم والفقراء، والتعليم الدنيوي المناسب للجيل الجديد من الفلسطينيين الذي يجب أن يتعلم حقائق العالم الحديث وليس عن الثروة الاستثنائية للعالم القديم فقط. لمثل هذه البرامج، تشترط المبادرة الوطنية الفلسطينية أن التخلص من الاحتلال هو الطريق الوحيد للتقدم، لتحقيق مثل هذه البرامج، تشترط المبادرة الفلسطينية الجديدة أن التخلص من الاحتلال هو الطريقة الوحيدة للمضي قدما ولتفعل ذلك يجب أن تنتخب بشكل حر، قيادة فلسطينية تمثيلية موحدة لتحل محل العجز والمحاباة والتقادم الذي ابتلي به القادة الفلسطينيين في القرن الماضي.

فقط لو احترمنا أنفسنا كعرب وأمريكيين وفهمنا كرامة نضالنا الحقيقية وعدالته، فقط حينها نستطيع أن ندرك السبب، رغم أن الكثير من الناس في كل العالم، بما فيهم (راشيل كوري) والشابين الذين أصيبا معها من اي(ا س ام) (توم هيرندال وبريان افيري) قد شعروا بضرورة وإمكانية التعبير عن تضامنهم معنا.

أختم بسخرية. أليس من المذهل أن كل علامات التضامن الشعبي التي يتلقاها الفلسطينيين والعرب تحدث دون أي علامة مشابهة من التضامن والكرامة منا ومن أجل أنفسنا، وأن الآخرون يجلوننا ويحترموننا أكثر مما نحترم أنفسنا؟ ألم يحن الوقت لنعود إلى منزلتنا الخاصة ونتأكد بأن ممثلينا هنا وفي كل مكان يدركون، كخطوة أولى، أنهم يقاتلون من أجل قضية عادلة ونبيلة وأنهم غير معنيين بالإعتذار والإرتباك من أي شيء؟ على العكس، يجب أن يكونوا فخورين بما فعله شعبهم وفخورين بتمثيله أيضاً.

مقدمة للاستشراق -الأهرام ويكلي 7اب 2003

قبل تسع سنوات كتبت خاتمة لكتابي الاستشراق حاولت فيها توضيح ما أعتقدت بأني قلته وما لم أقله، والتأكيد ليس فقط على النقاشات الكثيرة التي أثيرت منذ ظهور الكتاب عام 1978 وإنما الطرق التي استخدم فيها عمل تصوير (المشرق) في تفسيرات مغلوطة متزايدة أيضاً. وحين أجد نفسي أشعر بسخرية أكثر من الغضب حول نفس ذلك الشيء فاليوم هو علامة على طول الدهر الذي جثم علي. سبب لي موت اثنين من المثقفين السياسيين الرئيسيين والمعلمين الشخصيين لي، (إقبال احمد وإبراهيم أبو لغد) الحزن والخسران بالإضافة إلى القبول وإرادة عنيدة للاستمرار.

في مذكراتي خارج المكان (1999) وصفت العوالم الغريبة والمتناقضة التي كبرت فيها، موفراً لنفسي وللقراء سرداً مفصلاً عن البيئات التي أعتقد بأنها شكلتني في فلسطين ومصر ولبنان. لكن ذلك كان وصفاً شخصياً توقف فجأة خلال كل سنوات التزامي السياسي الذي بدأ بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967.

الاستشراق مثل أي كتاب ارتبط بدينامية التاريخ المعاصر المضطربة. تبدأ صفحته الأولى بوصف للحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت في عام 1975 وانتهت في عام 1990 لكن العنف والسفك القذر للدم البشري مستمر لهذه اللحظة. لقد نلنا الفشل في عملية أوسلو للسلام واندلعت الانتفاضة الثانية وازدياد معاناة الفلسطينيين الرهيبة في الضفة الغربية وغزة اللتين تكرر احتلالهما. ثم ظهرت ظاهرة التفجيرات الانتحارية بكل ضررها البشع والتي ليست بأي حال من الأحوال أكثر فظاعة رؤيوية من أحداث 11 ايلول2001 ، والحروب ضد أفغانستان والعراق الناتجة عنها . وأنا اكتب هذه السطور يتواصل الاحتلال الامبريالي الأميركي البريطاني اللاشرعي للعراق الذي يرعب تأمل نتائجه في الحقيقة. لقد اعتبر هذا كله جزء من صدام حضارات حقود وعضال لا ينتهي. لكنني لا اعتقد بهذا رغم كل ذلك.

أتمنى لو بإمكاني القول أن الفهم العام للشرق الأوسط والعرب والإسلام في الولايات المتحدة قد تحسن نوعاً ما، لكن وللآسف، الحقيقة ليست كذلك. لأسباب كثيرة ومتنوعة الوضع في أوروبا أفضل بكثير. أما في الولايات المتحدة فقد أدى تصلب المواقف وتشديد قبضة التعميم المهين وكليشهات النصر الفارغة وهيمنة السلطة الفجة التي تحالفت لازدراء المنشقين و(الآخرين) إلى تأسيس واقعاً مناسباً لنهب وتدمير مكتبات العراق ومتاحفه. يبدو أن قادتنا وأتباعهم من المثقفين المتزلفين لن يفهموا بأن التاريخ لا يمكن مسحه وتنظيفه كلوح أسود، للنقش عليه مستقبلنا ونفرض أشكال حياتنا على هؤلاء الناس الدونيين ليتبعوها. من المألوف جداً أن يتكلم كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها عن تغيير خارطة الشرق الأوسط كما لو أن المجتمعات القديمة والعدد الهائل من الشعوب يمكن هزهم مثل حبات من الفول السوداني في مطربان. لكن هذا يحدث كثيراً مع (الشرق)، ذلك المرّكب شبه الأسطوري الذي رسم وأعيد رسمه مرات لا تحصى منذ غزو نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر. في خضم هذه الترسبات التاريخية تم إقصاء وتجاهل تواريخ لا تحصى و تنوع شعوب مسبب للدوار ولغات وخبرات وثقافات وحولت إلى كوم رمال وشظايا تافهة كالكنوز الأرضية إلى أخرجت وسرقت من بغداد .

حجتي أن التاريخ يصنعه الرجال والنساء، كما يمكن أن يغير ويكتب ثانية، لذلك شرق(نا)، أصبح (لنا) نملكه ونديره. وأنا أكن كل الاحترام الكبير لقوى ومواهب شعوب تلك المنطقة لاستمرارها في نضالها من أجل رؤيتها لهويتها وما تريد أن تكون. لقد شنت هجمات عدوانية كبيرة جدا ومتعمدة ضد المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة بسبب تخلفها ونقص الديمقراطية فيها وإلغاء حقوق النساء التي نسينا ببساطة أن مثل تلك الأفكار كالحداثة والتنوير والديمقراطية هي أفكار ليست بسيطة ومتفق عليها قد يجدها أو لا يجدها المرء في غرفة الجلوس مثل بيض عيد الفصح. اللامبالاة اللاهثة للخبراء التافهين الذين يتكلمون باسم السياسة الخارجية وليس لديهم أي معرفة إطلاقا بلغة الشعب الحقيقي قد لفقوا مشهداً قاحلاً جاهزاً للقوة الأمريكية لتبنيه هناك كنموذج بديل للسوق الحرة (الديمقراطية). ليس هناك حاجة إلى وعظ عربي أو فارسي أو حتى فرنسي حول حاجة العالم العربي إلى الديمقراطية التي ستنتشر بسرعة كتأثر أحجار الدومينو.

لكن هناك فرق بين معرفة الشعوب والعصور الأخرى الناتجة عن الفهم والتعاطف والدراسة اليقظة والتحليل وبين المعرفة التي هي جزء من حملة شاملة من تأكيد الذات. وأخيراً هناك فرق عميق بين الرغبة للفهم بغرض التعايش المشترك وتوسيع الآفاق وبين الرغبة في الهيمنة بغرض التحكم.

من المؤكد أن إحدى الكوارث الثقافية في التاريخ أن حرباً إمبريالية أعدتها وحضرتها وأججتها مجوعة صغيرة من المسؤولين غير المنتخبين ضد ديكتاتورية مدمرة من العالم الثالث على أسس إيديولوجية شمولية تتعلق بالهيمنة العالمية والسيطرة الأمنية والثروات النادرة لكنها موهت نواياها الحقيقية وبررت من قبل مستشرقين خانوا إسمهم كباحثين وأكاديميين.

تأتي التأثيرات الأساسية على بنتاغون جورج بوش وعلى مجلس الأمن القومي من رجال مثل (برنارد لويس وفؤاد عجمي) الخبيران بالعرب والعالم الإسلامي اللذان ساعدا الصقور للتفكير بظاهرة منافية للعقل كالعقل العربي والانحدار الإسلامي منذ قرون طويلة وأن القوة الأمريكية تستطيع عكسه. اليوم تغص المكتبات في الولايات المتحدة بمقالات خسيسة تحمل عناوين صارخة ضد الإسلام والإرهاب مثل انكشاف الإسلام وتهديد العرب وخطر المسلمين، دبج قسم من المقالات خبراء سياسيون يفضحهم تظاهرهم بالمعرفة ولفق القسم الآخر منها خبراء زعموا بأنهم اخترقوا قلب هذه الشعوب الشرقية الغربية. يرافق خبرة تجار الحروب تلك محطات ((C.N.N وفوكس زائد عدد كبير من المضيفين الإذاعيين من الجناح اليميني البروتستانتي وعدد لا يحصى من الملخصات والصحف المتوسطة ثقافياً التي تكرر وتعيد نفس القصص غير المثبتة والتعميمات الواسعة لكي يعبئوا (أمريكا) ضد الشيطان الأجنبي.

بدون هذا الشعور المنظم جيداً بأن هؤلاء الناس البعيدون ليسوا مثلنا ولا يقدرون قيمنا-جوهر العقيدة الاستشراقية عينه- لن تكون هناك حروب. لهذا جاء مستشارو البنتاغون والبيت الأبيض الأمريكيون من نفس مجلس إدارة الباحثين المحترفين المأجورين الذين جندهم الغزاة الهولنديون في ماليزيا واندونيسيا والجيوش البريطانية في الهند وبلاد الرافدين ومصر وغرب إفريقيا والجيوش الفرنسية في الهند الصينية واستخدموا نفس الكليشهات ونفس الأنماط المنحطة ونفس التبريرات للقوة والعنف (أخيرا أنشد الكورس القوة هي اللغة الوحيدة التي تفهمها) تلك الشعوب في هذه الحالة كما في سابقاتها. لقد انضم إلى هؤلاء الناس جيش كامل من المقاولين الخاصين والملتزمين الذين سيؤتمنون على كل شيء من كتابة الكتب المدرسية والدستور إلى تجديد الحياة السياسية في العراق وصناعته النفطية.

تدعي كل إمبراطورية منفردة وتقول في خطابها الرسمي بأنها ليست كغيرها من الإمبراطوريات الأخرى وأن ظروفها مختلفة ومهمتها هي التنوير ونشر التمدن وإحلال النظام والديمقراطية وأنها لا تستخدم القوة إلا كخيار أخير. ومما يثير الحزن وجود كورس دائم من المثقفين الراضين بقول كلمات مهدئة عن الإمبراطورية الحميدة والإيثارية.

خمس وعشرون سنة مضت على نشر الاستشراق ثم طرح السؤال مرة أخرى إن كانت الامبريالية الحديثة قد انتهت أو أنها مستمرة في الشرق منذ دخول نابليون إلى مصر منذ قرنين. لقد قيل للعرب والمسلمين بأن قضية الضحية والتفكير بنهب الإمبراطورية ليس سوى طريقة التهرب من المسؤولية في الحاضر. (أنتم فشلتم، أنتم ضللتم الدرب) قال المستشرق الحديث. هذا طبعاً إسهام في اس نيابول في الأدب حين قال بأن ضحايا الإمبراطورية يتباكون بينما تمر بلادهم بحالة مزرية جداً. لكن يا لهذا التفكير الضحل للتدخل الامبريالي وكيف سيواجه السنين المتعاقبة الطويلة التي استمرت فيها الإمبراطورية في التأثير على حياة الفلسطينيين والكونغوليين والجزائريين والعراقيين. لننظر إلى الخط الذي بدأ مع نابليون واستمر إلى ظهور دراسات المستشرقين والاستيلاء على شمال أفريقيا وتواصل في المشاريع المماثلة في فيتنام ومصر وفلسطين وأثناء القرن العشرين في الصراع من أجل النفط والتحكم الاستراتيجي في الخليج وفي العراق وسوريا وفلسطين وأفغانستان. ثم فكر في بروز العداء للاستعمار خلال الفترة القصيرة من الاستقلال الليبرالي وفترة الانقلابات العسكرية والعصيان والحرب الأهلية والتعصب الديني والصراع اللاعقلاني والوحشية المتصلبة ضد آخر باقة من السكان الأصليين. لقد أنتجت كل فترة وطورَ من تلك معرفتها المشوهة الخاصة بها للآخر ولكل فترة رموزها وأنماطها المهينة ومنظريها العدوانيين المثيرين للخلاف.

فكرتي في الاستشراق هي استخدام النقد الإنساني لتمهيد السبيل إلى مجالات جدية من الصراع وتقديم تسلسل أطول من التفكير والتحليل نستبدل به تلك النوبات القصيرة من الغضب الجدلي المانع للفكر الذي يحبسنا داخله. لقد سميت ما أحاول القيام به (الأنسنة)، كلمة استمر في استخدامها بعناد رغم الاستعباد المحتقر للمصطلح من قبل ناقدي ما بعد الحداثة؟ أقصد بالأنسنة أولاً كل المحاولات لحل القيود الفكرية المطروقة عند (بليك) لكي نستطيع استخدام عقولنا تاريخياً ومنطقياً بغرض الفهم التأملي. إضافة إلى ذلك، تتعزز الانسنة بشعورها التشاركي مع مفسرين آخرين وجمعيات أخرى وفترات: بكلام آخر: أوجز وبناء على ذلك لا يوجد ما يسمى بالإنساني المنعزل.

هذا يعني أن كل ميدان مرتبط بغيره ولا يوجد شيء في عالمنا استمر في عزلة ونقاء عن التأثير الخارجي. يجب أن نتكلم عن قضيا الظلم والعذاب ضمن سياق قائم في التاريخ والثقافة وفي واقع إقتصادي-إجتماعي. دورنا أن نوسع حقل النقاش. لقد أمضيت فترة طويلة من حياتي خلال ال35 سنة ماضية مدافعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني في حق تقرير المصير، لكنني حاولت دائما أن أفعل ذلك مع الانتباه الكامل لحقيقة الشعب اليهودي وما عانى من اضطهاد وإبادة جماعية. الشيء الأسمى هو ذلك الصراع من أجل المساواة في فلسطين/إسرائيل الذي يجب أن يوجه إلى هدف إنساني (أي) التعايش وليس إلى مزيد من الاضطهاد والإنكار. ليس صدفة، حين أشرت بأن الاستشراق ومعاداة السامية الحديثة لهما جذور مشتركة. لذلك هناك ضرورة أساسية بأن يوفر المثقفون المستقلون نماذج بديلة دائماً عن تلك النماذج المبسطة والضيقة المبنية على العداء المتبادل التي سادت زمناً طويلاً في الشرق الأوسط وغيره.

أستطيع القول كإنساني حقل تخصصه الأدب بأنني أمتلك خبرة كافية بعد أن تدربت 40 عام في حقل الأدب المقارن في الأفكار الهامة التي تعود إلى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. قبل ذلك يجب أن أذكر المساهمة الإبداعية الهامة (لجان باتيستا فيكو) الفيلسوف واللغوي الذي سبقت أفكاره هؤلاء المفكرين الألمان مثل (هيردر وولف) الذين لحق بهم بعد ذلك (غوته وهمبدولت ونيتشه وغادامر) وأخيراً لغويو القرن العشرين الرومانسيين الكبار (ايريك اورباخ) (وليو سبتزر وارنست وربرت كورتيوس).

توحي فكرة فقه اللغة المقارن لشباب الجيل الحالي بشيء أثري لا يطاق ومبتذل، لكن فقه اللغة في الواقع هو أكثر الفنون التفسيرية أهمية وإبداعاً. وتتمثل لي في اهتمام غوته المثير للإعجاب بالإسلام عموماً وحافظ (شاعر فارسي/ المترجم) بشكل خاص، تلك العاطفة الغامرة التي أدت إلى تأليف ديوان الغرب والشرق، وغيرت أفكار غوته حول الأدب العالمي، أي دراسة كل آداب العالم ككل متجانس يمكن فهمه نظرياً والحفاظ على فردية كل عمل دون أن نخسر إدراك الكل.

ثم هناك سخرية كبيرة حين ندرك أن عالم العولمة اليوم يقترب معاً في بعض من الطرق التي تحدثت عنها هنا من نوع من النمطية والهيمنة اللتين هدفت أفكاره (غوته) لمنعهما بالتحديد. في مقال نشر عام 1951 بعنوان (فقه اللغة والأدب العالمي) (لايريك أورباخ) وضح فيه تلك النقطة في مستهل فترة مابعد الحرب والتي كانت بداية الحرب الباردة أيضاً. كتابه العظيم (المحاكاة) المنشور في بريمن عام 1946 لكنه كتب بينما كان (أورباخ) في المنفى الحربي يعلم لغات الرومانس في اسطنبول، كان الهدف منه أن يكون وثيقة للتنوع وصلابة الواقع الممثل في الأدب الغربي من هومر إلى فرجينيا وولف؛ لكن عند قراءة مقال 1951 يشعر المرء أن الكتاب العظيم كان مرثاة غنائية لفترة استطاع فيها الناس تفسير النصوص بشكل لغوي ومادي ومحسوس وحدسي باستخدام معرفة واسعة وتمكن قوي من عدد من اللغات لدعم نوع الفهم الذي دعا إليه غوته في دراسته للأدب الإسلامي.

المعرفة الحقيقية للغات والتاريخ ضرورية لكنها لا تكفي أبداً، وهي ليست أكثر من التجميع الآلي للوقائع ولا تشكل طريقة ملائمة لفهم مؤلف (كدانتي) مثلاً. الحاجة الأساسية لنوع الفهم الفيلولوجي الذي تحدث عنه (أورباخ) ومن سبقه وحاولوا ممارسته هو الفهم الذي يدخل إلى روح النص بشكل ودي وشخصي ويراه من منظور زمنه ومؤلفه. بدلاً من الإغتراب والعداء للزمن الآخر وللثقافة المختلفة اقتضى فقه اللغة عند تطبيقه على آداب العالم روح إنسانية عميقة انتشرت بكرم وحسن ضيافة. بهذا عقل المفسر يفسح مكاناً في نفسه للآخر الأجنبي. وهذا الخلق للمكان في الأعمال الأدبية الأجنبية الغريبة والبعيدة هو أهم وجه لمهمة المفسر.

من الواضح أن الاشتراكية القومية في ألمانيا قوضت وخربت كل هذا. بعد الحرب، يلاحظ (أورباخ) بحزن، أن تنميط الأفكار والتخصص المتزايد في المعرفة يضيق بالتدريج لنوع العمل الفيلولوجي القائم على التحقيق والاستفسار الدائم الذي مثله (أورباخ). وللأسف، لقد أصبح الواقع أكثر كآبة بعد موت (أورباخ) في عام 1957 حيث تقلص مدى البحث الإنساني ومركزيته في الفكر والممارسة. بدلاً من القراءة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، يتشتت طلابنا غالباً بالمعرفة المتشظية المتوفرة على الإنترنت ووسائل الإعلام العامة.

لكن الأسوأ هو أن التعليم تهدده العقائد التقليدية الدينية والقومية التي تنشرها وسائل الإعلام العامة حين تركز بشكل لا تاريخي ومثير على الحروب الالكترونية البعيدة التي تعطي المشاهدين الإحساس بإثارة بالغة لكنها تخفي حقيقة الحروب الحديثة وما تحمله من عذاب ودمار. إن شيطنة عدو مجهول ووصفه (الإرهابي) تخدم الغرض العام في إبقاء الناس هائجين وغاضبين، تلك الصور والرموز التي تلفقها وسائط الإعلام وتستولي على كثير من الاهتمام كبير واستغلالها في أوقات الأزمات وإنعدام الأمن مثل النوع الذي حدث بعد (11 أيلول).

عند التكلم كأمريكي وعربي يجب أن اسأل القارئ أن لا يستخف بنوع النظرة المبسطة للعالم التي رسمتها حفنة من نخب البنتاغون المدنية سياسة للولايات المتحدة في العالمين العربي والإسلامي، نظرة فيها إرهاب وحرب استباقية وتبديل أنظمة حكم - مدعومة بأكبر ميزانية عسكرية في التاريخ- هذه الأفكار الرئيسية التي تناقشها بلا نهاية وسائط الإعلام التي نصبت نفسها بدور المنتج لما يسمى بالخبراء الذين يبررون الخط العام للحكومة. التأمل والحوار والجدال والبرهان العقلي والمبدأ الأخلاقي المبني على فكر دنيوي(علماني) الذي يجب أن تجعله الكائنات الإنسانية تاريخ لها قد استبدل بأفكار نظرية مجردة تمجد الفرادة الأمريكية أو الغربية وتشوه كل ما يتعلق بالسياق وتنظر إلى التيارات الأخرى باحتقار.

ربما تقول أنني أقوم بانتقالات فجائية كثيرة بين التفسير الانساني من جانب والسياسة الخارجية من جانب آخر، وأن المجتمع التكنولوجي الحديث ومعه القوة غير المسبوقة التي تمتلك الانترنت وطائرات (أف 16) النفاثة المقاتلة يجب أن يقودها خبراء مرعبون في مهنة السياسة مثل (دونالد رامسفيلد وريتشار بيرل). لكن ما ضاع في الواقع هو الإحساس بكثافة الحياة الإنسانية وإتكالها المتبادل التي لا يمكن أن تختزل إلى وصفة ولا أن تمسح وتعتبر غير لازمة.

هذا جانب واحد من الجدال الكوني. في البلدان العربية والإسلامية الوضع ليس أفضل. كما اثبت رولا خلف، لقد انزلقت المنطقة إلى معاداة سهلة للأمركة تظهر فهماً ضحلاً لحال المجتمع الأمريكي الحقيقي. لأن الحكومات عاجزة نسبياً عن التأثير على سياسة الولايات المتحدة نحوها، فهي تحول طاقاتها لكبح وقمع شعوبها وينتج عن ذلك الاستياء والغضب واللعن اليائس الذي لا يساعد على انفتاح مجتمعات انهزمت فيها الأفكار العلمانية عن التاريخ الإنساني والتطوير أمام الفشل والإحباط، بالإضافة إلى الأسلمة المبنية على تعليم روتيني وإلغاء لما أعتبر بأنه أشكال أخرى من المعرفة العلمانية. لقد أصبح الاختفاء التدريجي لتقليد الاجتهاد الإسلامي أو التفسير الشخصي أحد الكوارث الرئيسية في عصرنا وبالنتيجة سيختفي ذلك التفكير النقدي والصراع الفردي ضد مشاكل العالم الحديث.

هذا لا يعني بأن العالم الثقافي قد إنقسم إلى استشراق جديد عدائي من جانب وإلى رفضية مشوشة في الجانب الآخر. كشفت قمة الأمم المتحدة العالمية في (جوهانسبيرغ) في العام الماضي، بكل نواقصها عن مساحة واسعة من الهم الكوني المشترك الذي يوحي بجمهور جماعي جديد يؤكد من جديد على الفكرة السهلة ب(عالم واحد). لكن يجب أن نعترف أنه ليس بإمكان أحد أن يعرف الوحدة المعقدة بشكل غير عادي لعالمنا المعولم، رغم حقيقة أن العالم فيه إعتماد متبادل بين أجزاءه لا يترك أي فرصة حقيقية في الإنعزال.

إن الصراعات الرهيبة التي يساق إليها الناس تحت أسماء موحدة مضللة مثل (أمريكا) أو (الغرب) أو (الإسلام) وابتداع هويات جمعية لعدد كبير من الأفراد الذين هم مختلفون في الواقع، لا يمكن أن تبقى مؤثرة كما هي الآن ويجب أن تتم معارضتها. لا تزال لدينا مهارات التفسير العقلي وهي إرث من التعليم الإنساني الذي لا يعني الورع العاطفي الذي يفرض علينا العودة إلى القيم التقليدية أو الكلاسيكية فقط وإنما الممارسة الفاعلة للنقاش العلماني العقلاني. العالم العلماني هو العالم الذي يصنع تاريخه البشر. لا يخضع الفكر النقدي للأوامر وينضم إلى الصفوف التي تزحف ضد بعضها البعض أو ضد عدو آخر متفق عليه. بدلاً من صدام الحضارات المصنّع نحتاج إلى التركيز على العمل المتأني المشترك للحضارات المتشابكة وأن نستعير من بعضنا ونعيش معاً في طريق أكثر إمتاعاً من أي أسلوب مختصر وزائف يسمح به التفاهم. لكننا نحتاج إلى وقت من أجل هذا التبصر والإستفسار الشكاك والصابر المدعوم بالإيمان بتفسير جماعات يصعب استمرارها في عالم يطالب بالفعل ورد الفعل الفوريين.

ترتكز الإنسانية على قوة الفرد الإنساني والحدس الذاتي أكثر من الأفكار المرحب بها والمرجعية المستحسنة. يجب أن تقرأ النصوص كنصوص نحن من أنتجها وتعيش في مملكة تاريخية في كل أصناف ما أسميته بالطرق الدنيوية. لكن لا يعني هذا إقصاء السلطة، بل على العكس فقد حاولت أن أبين تملق وتدخل السلطة في أكثر الدراسات عمقاً.

وأخيراً إن الأهم من كل ذلك، سأذهب بعيداً وأقول أن الأنسنة هي المقاومة الوحيدة الحاسمة المتوفرة لنا في الصراع ضد الممارسات اللاإنسانية والمظالم التي تشوه التاريخ الإنساني. يحرضنا ويؤازرنا اليوم الفضاء الإلكتروني الواسع المشجع، المفتوح لكل المستخدمين في أشكال لم تحلم بها الأجيال السابقة من طغاة وعقائد تقليدية. الاحتجاجات العالمية التي بدأت قبل حرب العراق لم تكن ممكنة لولا وجود المجتمعات البديلة في كل أنحاء العالم، التي تتعلم بواسطة معلومات بديلة ومدركة جداً لبيئتها ولحقوق الإنسان وللنبض التحرري الذي يربطنا معاً في هذا الكويكب الصغير.

أزمة كوكبية - زدنت 17 آذار 2003

في نبأ صغير نقل بأن الأمير وليد بن طلال من المملكة العربية السعودية تبرع بعشرة ملايين دولار للجامعة الأمريكية في القاهرة لتأسيس مركز دراسات أمريكية. وعرض البليونير الشاب عشرة ملايين دولار لمدينة نيويورك إثر 11 أيلول 2001، مع رسالة وصفت الهبة بأنها عربون إحترام لنيويورك وأقترح بوجوب مراجعة الولايات المتحدة لسياساتها نحو الشرق الأوسط. لقد كان في ذهنه الإجمالي دعم الولايات المتحدة المطلق لإسرائيل، لكن اقتراحه المهذب بدا تغطية أيضا للسياسة العامة بتشويه الإسلام أو إظهار عدم احترامه على الأقل.

أعاد (رودولف جولياني) عمدة نيويورك (التي فيها أكبر جالية يهودية من أي مدينة في العالم) الشيك بحنق وإحتقار عنصري متطرف قصد به الإهانة. بالنيابة عن صورة معينة لنيويورك، كان يدعم شجاعتها ومقاومتها المشروعة للتدخل الخارجي. ويرضي أكثر مما يحاول أن يثقف جمهور الناخبين اليهود الموحد.

كان سلوكه يتوافق مع رفضه في عام 1995، بعد توقيع أوسلو، دخول ياسر عرفات إلى قصر محبي الموسيقى لحضور حفلة موسيقية دعي إليها كل من في الولايات المتحدة. لذلك ما فعله في رده على هبة الأمير السعودي الشاب كان متوقعاً. رغم أن المال كان مطلوباً والحاجة ماسة إليه، مساعدة إنسانية لمدينة جرحت بوحشية فظيعة، لكن النظام السياسي في الولايات المتحدة وممثليه وضعوا إسرائيل قبل كل شيء، ومن غير المهم إن تبرعت إسرائيل بقدر كاف أم لا أو إن كان أعضاء اللوبي الإسرائيلي المعبئون جيداً قد فعلوا الشيء نفسه.

لا أحد يعرف ماذا سيحدث لو أن (جولياني) لم يرد المال؛ لكن كما أوضحت الأشياء، إنه استبق أنصار اللوبي المؤيدين لإسرائيل. كما كتب الروائي (جون ديديون) في نيويورك تايمز ريفيو (1)، إنه مسمار في سياسة الولايات المتحدة، كما عبر عنها لأول مرة (اف دي روزفلت)، إن أمريكا حاولت ضد كل المنطق أن تحافظ على الدعم المتناقض للملكة السعودية ولدولة إسرائيل؛ ولذلك (أصبحنا عاجزين عن مناقشة أي شيء يمكن إعتباره مؤثراً على علاقتنا مع الحكومة الراهنة في إسرائيل.)

تظهر تلك القصص عن الأمير وليد استمرار نادر في نظرات العرب للولايات المتحدة. لثلاثة أجيال على الأقل، رسم القادة العرب، والسياسيون ومستشاريهم سياسات لبلدانهم على أساس فكرة شبه خيالية وهمية عن حقيقة الولايات المتحدة، الفكرة الأساسية بعيدة عن التماسك، بأن الأمريكيون يديرون كل شيء وتشمل تفاصيل الفكرة طيف واسع من الآراء المختلطة غير المنظمة، من رؤية الولايات المتحدة كمؤامرة يهودية إلى التصديق بأنها نبع لا قرار له من المساعدة الحميدة للمضطهدين، أو أنها تحكم من قبل رجل أبيض لا غبار على شرعيته جالس في البيت الأبيض يشبه آلهة الأولمب.

أتذكر مرات كثيرة خلال العشرين سنة التي عرفت بها عرفات أنني حاولت فيها أن أشرح له بأن الولايات المتحدة مجتمع معقد فيه تيارات كثيرة ومصالح وضغوط وتواريخ تتصارع في داخله. إنها لا تحكم بالطريقة التي يحكم بها في أغلب الدول العربية: إنها نموذج مختلف من القوة والسلطة

يحتاج إلى دراسة. وانضممت إلى صديقي الباحث والناشط السياسي (إقبال أحمد) الخبير بمجتمع الولايات المتحدة (ربما كان من أفضل المنظرين والمؤرخين لحركات التحرر المناوئة للاستعمار) للتحدث إلى عرفات وجلب إقبال خبراء آخرين معه لتطوير نموذج مختلف قليلاً للفلسطينيين خلال الاتصالات التمهيدية مع حكومة الولايات المتحدة في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، بلا طائل، درس (إقبال أحمد) علاقة جبهة التحرير الجزائرية مع فرنسا أثناء حرب 1954-1962، بالإضافة إلى الطريقة التي فاوض بها الفيتناميون الشماليون (هنري كيسنجر) في سبعينيات القرن العشرين. كان التباين بين المعرفة المفصلة والمشككة للمجتمع المدني لدى الثوار الجزائريين والفيتناميين وبين نظرة الفلسطينيين الكاريكاتورية للولايات المتحدة (مبنية على إشاعة وقراءات خاطئة للتايم) يثير السخرية والعار. لقد كان هاجس عرفات أن يدخل إلى البيت الأبيض ويتحدث إلى أكثر الرجال البيض بياضاً، الرئيس (بيل كلينتون) وهي فكرته البديلة عن تنسيق الأمور والقيام بها مع مصر وسوريا.

لو أظهر كلينتون نفسه سيداً للسياسة الأمريكية لأربك الفلسطينيين أكثر وغمرهم بسحره وتلاعب بالنظام بما هو ليس لصالح عرفات ورجاله. فكرتهم الساذجة عن الولايات المتحدة لم تتبدل، وبقيت هكذا حتى اليوم. بالنسبة للمقاومة أو معرفة كيف تلعب لعبة السياسة في عالم فيه قوة عظمى واحدة، مسألتان ظلتا كما كانتا عليه منذ نصف قرن. أغلب الناس رفعوا أيديهم يائسين- (الولايات المتحدة ميئوس منها ولا أريد العودة إلى هناك أبداً).

أكثر قصة مشجعة هي تلك التي عن تبديل الأمير وليد لمساره الذي ليس بإمكاني سوى أن أحدسه فقط. ماعدا بعض المقررات التعليمية القليلة في الأدب والسياسة في الجامعات العربية، ليس هناك شيء كمركز أكاديمي من أجل تحليل علمي نظامي للولايات المتحدة وشعبها ومجتمعها وتاريخها. ولا حتى في مؤسسات مثل الجامعات الأمريكية في القاهرة وبيروت. وقد يصح هذا على دول العالم الثالث كله وحتى بعض البلدان الأوروبية.

يفرض العيش في عالم تقبض علية قوة عظمى غير مقيدة مثل الولايات المتحدة حاجة حيوية لأكبر قدر ممكن من المعرفة حول قوانين وطبيعة تلك القوى التي تحركها. ويتطلب ذلك تمكن ممتاز من اللغة الإنكليزية شيء لا يملكه سوى القليل من القادة العرب. الولايات المتحدة بلاد ماكدونالد وهوليوود وسي ان ان وجينز وكوكا-كولا، كلها متوفرة في كل مكان عبر كل الكوكب، شركات متعددة القومية، وميل العالم لأشياء الاستهلاك السهلة. لكن يجب أن نكون واعين لمصدرها، وكيف تفسر العمليات الثقافية والاجتماعية التي اشتقت منها هذه الأشياء بما أن التفكير في الولايات المتحدة بسيط جداً وجامد بشكل واضح.

الآن وأنا أكتب هذا المقال، هناك دول كثير من العالم تكره الخضوع (مثل ايطاليا واسبانيا على تحالف انتهازي) للولايات المتحدة التي تعد نفسها لحرب غير شعبية أبداً ضد العراق. لكن تلك الحرب ستكون عملاً صفيقاً لسيطرة غير مكبوحة بسبب المظاهرات والاحتجاجات التي اندلعت على المستوى الشعبي في كل أنحاء العالم. الدرجة التي يعارضها فيها هؤلاء الكثير من الأمريكيين والأوروبيين والأسيويين والأفارقة والأمريكيين اللاتينيين الذين احتلوا الشوارع توحي بأن البعض تنبه أخيراً لحقيقة أن الولايات المتحدة، أو بالأحرى للقلة من الرجال البيض المسيحيين اليهود الذين يسطرون على حكومتها في الوقت الراهن يميلون إلى الهيمنة العالمية. ماذا يجب أن نفعل؟

أريد أن أرسم منظراَ شاملاَ غير عادي للولايات المتحدة الآن كما أراها كمُطلِعْ، أمريكي عاش فيها سنوات بشكل مريح لكن بفضل أصوله الفلسطينية لا يزال يحتفظ بمنظوره كغريب مقارن. هدفي هو أن اقترح طرقاً للفهم والتدخل ومقاومة بلاد بعيدة هي أكبر وأعمق من الشكل المفروض والكريه الذي أخذ طريقه في العالمين العربي والإسلامي خصوصاً.

الفرق بين الولايات المتحدة والإمبراطوريات التقليدية السابقة هو أنه، رغم أن كل إمبراطورية تاريخية أكدت عزمها بأن لا تكرر الأطماع المبالغة لسابقاتها،تثبت هذه الإمبراطورية الأخيرة بشكل مثير للدهشة إيثاريتها المقدسة وبراءتها ونيتها الحسنة. هذا الوهم المرعب بالفضيلة الذي أقر به حتى الجناح اليساري سابقاً أو المثقفين الليبراليين، الذين عارضوا في الماضي حروب الولايات المتحدة في الخارج لكنهم الآن يعدون ليجعلوا القضية من أجل إمبراطورية فاضلة (صورة الخفير الوحيد هي المفضلة) باستخدام أساليب الوطنية العدوانية من اجل الكلبية.

لعبت أحداث 11 أيلول دوراً في هذا المظهر المتوتر. لكن المدهش هو التعامل مع الهجمات المرعبة على البرجين التوأمين والبنتاغون وكأنها جاءت من اللامكان، بدلاً من أن تكون عالم عبر البحار دفعه التدخلات الأمريكية والتواجد إلى الجنون. هذا ليس للتغاضي عن الإرهاب الإسلامي، المكروه بكل أشكاله. لكن في كل التحاليل المرائية لردود أفعال الولايات المتحدة ضد أفغانستان والآن العراق، إختفى فيها التاريخ والشعور بتناسب الحجم.

لم يشر ليبراليو الصقور إلى الحق المسيحي (المماثل جداً للتطرف الإسلامي في حماسته وإستقامته) وحضوره الهائل والحاسم في الولايات المتحدة. رؤيته تنبع من مصادر العهد القديم، مثل الحق الإسرائيلي تماماً، شريكه القوي ونظيره. هناك تحالف فريد بين المحافظين الجدد المؤثرين الإسرائيليين المؤيدين للولايات المتحدة وبين المتطرفين المسيحيين، المؤيدين الصهيونية كأسلوب لجلب كل اليهود إلى الأرض المقدسة كي يعدوا لقدوم المسيح الثاني، حينها على اليهود إما أن ينقلبوا إلى المسيحية أو يبادوا. لكن قلما يشار إلى هذه الغائيات اللاسامية الضارة، وبالتأكيد ليس من الكتيبة اليهودية المؤيدة لإسرائيل.

الولايات المتحدة هي البلاد الأكثر تديناً في العالم. الإشارات للرب تخترق الحياة الوطنية، من العملة إلى الأبنية: بالرب نثق، بلاد الرب، بارك الله أميركا. قاعدة سلطة الرئيس بوش مكونة من ال60-70 مليون من المتشددين المسيحيين، الذين يعتقدون مثله بأنهم رأوا المسيح وأنهم يقومون بعمل الرب في أرض الرب. بعض المعلقين ومنهم (فرانسيس فوكوياما) جادل بأن الدين المعاصر في الولايات المتحدة هو نتيجة الرغبة بالتجمع والتشارك و الشعور بالإستقرار وذلك مبني على حقيقة أن حوالي 20 % من السكان ينتقلون من بيت إلى آخر بشكل دائم. لكن ذلك صحيح إلى حد ما: الأكثر أهمية هو طبيعة الدين- أن يكون تنوير نبوي وقناعة لا تهتز بشعور رؤيوي بالمهمة وتجاهل تام للتعقيدات الصغيرة. المسافة الطبيعية الهائلة التي تفصل الولايات المتحدة عن بقية العالم المضطرب، وكما هو الواقع في الجارتين كندا والمكسيك اللتان ليست لهما القدرة على تلطيف وضبط التعصب الديني للولايات المتحدة.

تتجمع كل هذه الأشياء حول مفهوم حق الولايات المتحدة وطيبتها وحريتها ونجاحها الاقتصادي والتقدم الاجتماعي وتُحَّبكْ جيداً في الحياة اليومية بحيث تبدو واقع طبيعي وليس مجرد إيديولوجية. الولايات المتحدة مساوية للطيبة والطيبة تتطلب الولاء التام للولايات المتحدة وحبها. هناك تبجيل

غير مشروط للآباء المؤسسين، وللدستور- وثيقة مذهلة، مجرد ابتداع بشري. أميركا السابقة مرسى الموثوقية والأصالة.

في بلاد أخرى أعرف أن التلويح بعلم يلعب دوراً أيقونياً مركزياً جداً. لكن هنا تراه في كل مكان، في عربات الأجرة وعلى طية السترات وعلى النوافذ والسقوف الأمامية للبيوت. إنه تجسيد للصورة الوطنية، ترمز إلى طاقة تحمل بطولية وشعور بأنك مطوق من قبل أعداء غير جديرين. تبقى الوطنية الفضيلة الأولى، المربوطة بالدين، تلاءم، وتفعل الشيء الصحيح في الوطن وفي كل أنحاء العالم. كما يجري تصوير الوطنية الآن أيضاً كمستهلك منفق: أمر الأمريكيون بعد 11 أيلول أن يتسوقوا تحدياً للإرهابيين الأشرار.

استغل (بوش ودونالد رامسفيلد وكولن باول وكوندو ليزا رايس وجون اشكروفت) تلك الوطنية ليحشدوا الجيش لحرب تبعد 7,000 ميل عن الوطن (للتغلب على صدام). وراء كل هذا آلة الرأسمالية، التي تعاني الآن من تغيير جذري غير من عدم الاستقرار الاقتصادي (جولي شكور) بيَّنَ أن الأمريكيين الآن يعملون ساعات عمل أكثر مما كانوا قبل ثلاثة عقود، ويكسبون نقود اقل نسبياً لكن ليس هناك تحدي سياسي لعقائد (فرص السوق الحرة). وليس هناك من يهتم إن كان المركب متحد، بالتحالف مع الحكومة الفيدرالية التي لا زالت عاجزة بأن تقدم لأغلب الأمريكيين غطاءً صحياً كريماً وتعليماً صحيحاً، يحتاج إلى تغيير. أنباء سوق الأسهم أكثر أهمية من أي إعادة استجواب للنظام.

هذا الإيجاز الفج للإجماع الأمريكي، الذي إستغله السياسيون وبسطوه في شعارات وطعوم طنانة. لكن ما يكتشفه المرء عن هذا المجتمع المعقد هو كيف تصب هذه التيارات الكثيرة معاً لتلتقي في إجماع دائم. المقاومة المتنامية للحرب التي قلصها الرئيس وتظاهر بتجاهلها وحاول الرسميون في الولايات المتحدة والتيار السائد في وسائل الإعلام (الجرائد وشبكات البث، وصناعة النشر والمجلات) أن تخمدها. لم يحدث من قبل مثل هذا التواطؤ المخزي والوقح بين البث الإخباري والحكومة أبداً: الصحف والـ (C.N.N) وأحاديث الشبكات عن شرور صدام وكيف علينا أن نوقفه قبل أن يفوت الأوان. امتلأت موجات الأثير بالرجال العسكريين السابقين، وخبراء الإرهاب ومحللي سياسة الشرق الأوسط الذين لا يعرفون أي دارسة متعلقة بالموضوع ولم يذهبوا إلى الشرق الأوسط أبداً وثقافتهم الناقصة التي لا تؤهلهم ليكونوا خبراء في أي مجال، يناقشون في رطانة طقوسية عن الحاجة إلى فعل شيء ضد العراق، ويعدوننا لوضع أشرطة لاصقة على نوافذنا ضد هجمات الغاز السام.

يعمل الإجماع في حاضر سرمدي لأنه مدبر. التاريخ محرم بالنسبة له. في النقاشات الشعبية حتى كلمة تاريخ مرادفاً للفراغ أو للتفاهة، كما في العبارة المستهجنة (أنت تاريخ). التاريخ بالنسبة لنا كأمريكيين ما هو مفترض بنا أن نصدقه عن الولايات المتحدة دون نقد ودون سياق تاريخي (وليس عن بقية العالم، القديم وبالتالي غير لازم). هنا تناقض مذهل. في العقل الشعبي، المفروض أن تقف الولايات المتحدة فوق التاريخ. لكن هناك اهتمام قوي عام في الولايات المتحدة بتاريخ كل شيء، من المواضيع الإقليمية الصغيرة إلى إمبراطوريات العالم. لقد تطورت طوائف دينية كثيرة من هذه التناقضات المتوازنة من رهاب الأجانب إلى تحضير الأرواح والتقمص. منذ عقد مضى اشتعلت معركة ثقافية حول نوعية التاريخ الذي يجب أن يعلم في مدارس الولايات المتحدة. إعتقد متعهدو الفكرة التي ترى بأن تاريخ الولايات المتحدة عبارة عن أخبار وقصص موحدة مع أفكار طنانة

ايجابية، بأن التاريخ أساسي للياقة الإيديولوجية في الإدارات التي تقولب الطلاب وتحولهم إلى موطنين مطيعين، جاهزين لتقبل مواضيع محددة أساسية مثل الثوابت في علاقات الولايات المتحدة مع نفسها ومع العالم. من هذه النظرة وجب تطهير التاريخ من عناصر بعد الحداثة والتاريخ الشقاقي (الأقليات والنساء والعبيد). لكن النتيجة كانت فشلاً مجلجلاً في فرض مثل هذه المعايير المضحكة.

كتبت (ليندا سيموكس) أن مقاربة المحافظين للمعرفة الثقافية كانت محاولة خفية لغرس نظرة تاريخية خالية من الصراعات نسبياً وتوافقية في أذهان الطلاب. لكن المشروع إنتهى في التحول إلى اتجاه آخر. على أيدي المؤرخين الاجتماعيين والعالميين، الذين كتبوا مع المعلمين المعايير التي أصبحت الحامل لنظرة تعددية حاولت الحكومة محاربتها. لكن المؤرخون الذين شعروا أن العدالة الاجتماعية وإعادة توزيع السلطة يحتاجان إلى رواية أكثر تعقيداً للماضي تحدوا ذلك.(3)

في المجال العام الذي تترأسه وسائط الإعلام العامة السائدة هناك ما سأسميه (مواضيع إخبارية) تلك التركيبة، تلف وتسيطر على النقاش، رغم ظهور التنوع والإختلاف. سأناقش تلك التي لفتت انتباهي كأشياء متعلقة بالموضوع الآن. أحدها: هناك كلمة(نحن) الجامعة، الهوية الوطنية التي يصرح بها دون اعتراض الرئيس ووزير الخارجية في الأمم المتحدة والقوات المسلحة في الصحراء ومصالح (نا)، كدفاع عن النفس بدون دافع خفي و(بريء) كما يفترض بالمرأة التقليدية أن تكون بريئة- طاهرة وبلا إثم.

موضوع إخباري آخر هو عدم إلزامية التاريخ، وعدم القبول بأي روابط غير شرعية: مثلاً: أي ذِكِرْ للولايات المتحدة بأنها سلحت وشجعت صدام حسين وأسامة بن لادن سابقاً أو أن فيتنام كانت (سيئة) للولايات المتحدة أو كما قال الرئيس جيمي كارتر مرة (تدمير ذاتي متبادل). مثال آخر صاعق: عدم لزوم المشروع لتجربتين أساسيتين وهامتين للولايات المتحدة وهما استعباد الأمريكيين الأفارقة وطرد وإبادة الأمريكيين الأصليين تقريباً. لم تدرجا في تاريخ الإجماع بعد. هناك متحف رئيسي للهلوكست في واشنطن (دي سي) لكن ليس هناك مثل هذا النصب التذكاري للأمريكيين الأفارقة أو الأمريكيين الأصليين في أي مكان في هذه البلاد.

ثم هناك القناعة غير المدروسة التي تعتبر أي معارضة معادية للأمريكيين مبنية على الغيرة من ديمقراطيت(نا) وحريت(نا) وثروت(نا) وعظمت(نا) أو حقارة أجنبية (كهاجس مثل المقاومة الفرنسية لحرب الولايات المتحدة ضد العراق). يتم تذكير الأوروبيين دائماً كيف أن الولايات المتحدة أنقذتهم مرتين في القرن العشرين مع التلميح إلى أن الأوروبيين يقفون متفرجين بينما الجنود الولايات المتحدة يقاتلون قتالاً حقيقياً.

حين يصل الأمر إلى أماكن تورطت فيها الولايات المتحدة لمدة خمسين عام على الأقل، مثل الشرق الأوسط أو أمريكا اللاتينية، الموضوع الإخباري للولايات المتحدة كوسيط شريف وحكم نزيه وقوة حسنة النية للخير ليس لها أي منافس حقيقي. لا يستطيع هذا الموضوع الإخباري التعامل مع قضية السلطة أو الكسب المالي أو الاستيلاء على الموارد أو اللوبيات الإثنية أو جماعات الضغط أو تغيير أنظمة الحكم الخرافي (كما في إيران عام 1953 أو تشيلي في عام 1973) ويبقى ساكناً إلا عندما يحاول عرضياً أن تذكر القضايا. لا يقترب أحد من حقيقة هذه القضايا إلا من خلال اللغة الاصطلاحية الملطفة لخزانات الفكر والحكومة، مصطلحات تناقش القوة الناعمة ومخطط الولايات المتحدة ورؤيتها. كما لا تزال السياسات المثيرة للبغض المسؤولة عنها الولايات المتحدة مباشرة

بدون شرح أو تلميح: العقوبات على العراق التي سببت خسائر كثيرة في الأرواح بين صفوف العراقيين، والدعم الإسرائيلي لحملة شارون على حياة الفلسطينيين المدنية والدعم لنظامي الحكم في تركيا وكولمبيا وأعمالهما الوحشية ضد المواطنين. هذه أمور خارج حدود النقاشات الجدية للسياسة.

وأخيراً هناك السرد الإخباري للحكمة الأخلاقية الفريدة الممثلة بالسلطة الرسمية (هنري كيسنجر ودافيد روك فيلر) وكل مسؤول من الإدارة الحالية، التي تكرر بدون شك. والمجرمين المدانين في فترتي حكم (ريتشارد نيكسون) و (ايليوت ابرامز) و(جون بويندكستر) اللذين أعطيا مناصب حكومية هامة دون لفت كثير من الاهتمام أو المعارضة. الإذعان الأعمى للسلطة في الماضي والحاضر، عفيفة كانت أو ملطخة، الذي يتجلى بأشكال خطابية محترمة أو حتى دنيئة يستخدمها المعلقون، وفي رفض ملاحظة أي شيء حول شخصية الحكومة سوى مظهرها الملمع الذي لا تشوبه أي إتهامات في سجلها.

يكمن خلف ذلك السلوك،كما أظن، الإعتقاد بأن البراغماتية كفلسفة صحيحة للتعامل مع الواقع- براغماتية معادية للميتافيزيقيا وللتاريخ، وللفلسفة بشكل غريب. مذهب معاداة السامية بعد الحداثوي، الذي قلص كل شيء إلى جملة نحوية وسياق لغوي متحالف مع هذا؛ إنه أسلوب مؤثر في الفكر والفلسفة التحليلية في جامعات الولايات المتحدة. في جامعتي أنا، يتم تعليم هيغل وهايدغر في أقسام الأدب أو تاريخ الفن أما في قسم الفلسفة فنادر ذلك. تكرس الجهود المنظمة الجديدة لإعلام الولايات المتحدة (خصوصاً في العالم الإسلامي) لنشر هذه القصص الدائمة المسيطرة. أما التقاليد المعارضة العنيدة في الولايات المتحدة-الذاكرة غير الرسمية المضادة لمجتمع مهاجر- التي تزدهر جنباً إلى جنب أو بعمق داخل المواضيع الإخبارية فيتم التعتيم عليها بشكل متعمد. لكن قلة من المعلقين في الخارج تلاحظ هذه الغابة من الإنشقاق كما يستطيع المراقب المدرب أن يرى في تلك الغابة من الروابط بين المواضيع الإخبارية غير الواضحة بشكل أو بآخر.

لو دققنا في مكونات المقاومة القوية المؤثرة للحرب المزعومة ضد العراق، تنبثق صورة مختلفة جداً للولايات المتحدة، ميالة أكثر للتعاون الأجنبي في الحوار والعمل. سأدع جانباً هؤلاء الذين يعارضون الحرب بسبب كلفتها في الدم والمال، ونتيجتها الكارثية على الاقتصاد المشوش مسبقاً. ولن أناقش أيضاً رأي الجناح اليميني الذي يعتبر أن الولايات المتحدة منتهكة من قبل الخونة الأجانب والأمم المتحدة والمجتمعات الكافرة.

إن جمهور التحرريون والانعزاليون، تركيب غريب من اليسار واليمين، لا يحتاج إلى تعليق. أَشْمُلْ أيضاً بين الأصناف غير المدروسة قطاع واسع من السكان الدارسين الملهمين الذين يشكون بعمق من سياسة الولايات المتحدة الخارجية وخصوصاً العولمة الاقتصادية: هذه جماعة ذات مبادئ شبه فوضوية أبقت حرم الجامعات ناشطاً ضد الحرب في فيتنام والتفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا والحقوق المدنية في الوطن.

هذا يترك عدة دوائر جماهيرية مهمة وبارزة ذات خبرة وضمير، تنتمي في المصطلحات الأوروبية والإفروأسيوية إلى اليسار، رغم أن الجناح اليساري المنظم أو الحركة الإشتراكية لم تتواجد فعلياً لمدة طويلة في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية فقد كانت قبضة جهاز ثنائي الحزب قوية جداً. كما أن الحزب الديمقراطي في وضع سيء لن يصحو منه قريباً.

أود أن أشمُلَ الجناح المتطرف الساخط من المجتمع الأمريكيين الأفارقة- تلك المجموعات المدينية التي ثارت ضد وحشية الشرطة والتمييز في الوظائف والإهمال السكني والتعليمي ويقودها شخصيات ساحرة للجماهير مثل المبجل (آل شاربتون وكورنيل ويست ومحمد علي وجيسي جاكسون) وغيرهم مِنَ الذين ربوا أنفسهم على تعاليم مارتن لوثر كينغ الصغير.

ينضم إلى هذه الحركة جمعيات إثنية ناشطة تشمل اللاتينيين والأمريكيين الأصليين والمسلمين. كل من هؤلاء كرس طاقة ضخمة للتسلل داخل الاتجاه السائد سعياً وراء تنازلات سياسية هامة في الحكومة والمثول في عروض الأحاديث التلفزيونية وعضوية هيئات المؤسسات الحاكمة والجامعات والشركات. لكن لا يزال الشعور بالظلم والتمييز هو المحرك لغالبية هذه الجماعات بدلاً من الطموح وليست مؤمنة تماماً بالحلم الأمريكي (أغلبهم من البيض والطبقة الوسطى). الشيء المثير حول شاربتون أو رالف نادر ومؤيديهما المخلصين في حزب الخضر، أنهم ظلوا دخلاء، متصلبين وينقصهم الإهتمام الكافي في المكافآت العادية لمجتمع الولايات المتحدة بالرغم من تمتعهم برؤية وقبول معين.

وهناك جناح رئيسي من الحركة النسوية فعال لصالح حقوق الإجهاض وقضايا الإنتهاك والتحرش والمساواة المهنية ورصيد للمنشقين (للمعارضة) أيضاً في مجتمع الولايات المتحدة. قطاعات من المجموعات المهنية الرزينة التي توجهها المصلحة والتقدم (طبيبات ومحاميات وعالمات وأكاديميات بالإضافة إلى نقابات عمالية وبعض من الحركة البيئية) تغذي فعالية التيارات المضادة، رغم أنها تحتفظ ككيانات متحدة باهتمام قوي في الأداء المنظم للمجتمع والأجندات النابعة من ذلك.

لا يمكن التغاضي عن الكنائس المنظمة كتربة صالحة للتغيير والانشقاق. عضويتهم يجب أن تميز عن حركات المتعصبين والمبشرين التلفزيونيين. الأساقفة الكاثوليك، وسواد رجال الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، الكويكرز والمجمع الكنسي المشيخي- رغم المخاضات التي تشمل الفضائح الجنسية بين الكاثوليك والعضويات المستنفذة في أغلب الكنائس- أصبحت ليبرالية بما يتعلق بقضايا الحرب والسلام وراغبة في التكلم ضد انتهاكات حقوق الإنسان والميزانيات العسكرية المتضخمة جداً والسياسات الاقتصادية النيوليبرالية.

تاريخياً كان هناك جزء من الجالية اليهودية مشارك دائم في حقوق الأقليات التقدمية وشكلاً حليفاً داخلياً وخارجياً. لكن منذ عهد ريغان سيطرة حركة المحافظين الجدد، والتحالف بين إسرائيل وبين اليمين الديني في الولايات المتحدة ونشاط الصهيونية المنظمة التي تساوي بين إنقاذ إسرائيل وعداء السامية، قللت بشكل هام قوتها الإيجابية.

جماعات أخرى كثيرة وأفراد انضموا للاجتماعات ومسيرات الاحتجاج ومظاهرات السلام التي قومت الوطنية المميتة للعقل بعد 11 أيلول. لقد تجمعت حول الحريات المدنية بما فيها حرية الكلام التي هددها قانون المواطن في الولايات المتحدة. الاحتجاج ضد عقوبة الإعدام والانتهاكات المتمثلة بمعسكرات الاحتجاز في خليج غوانتانامو زائد الارتياب بالسلطات المدنية في الجيش بالإضافة إلى الانزعاج من سرية نظام السجون في الولايات المتحدة الأولى عالميا بعدد السجناء نسبة إلى عدد السكان- وهو ما يقلق نظام الطبقة الوسطى الاجتماعي.

إن العبث والفوضى في الفضاء الالكتروني الذي يقاتل من أجله الرسميون وغير الرسميين في الولايات المتحدة. في الهبوط الحالي للاقتصاد،هو البديل عن المواضيع المثيرة للشقاق مثل الفروق

بين الأغنياء والفقراء وتبذير وفساد النسق الأعلى من المجتمع، والخطر على نظام التأمين الاجتماعي من مكائد الخصخصة الجشعة التي تضر بشكل خطير الفضائل المشهورة للنظام الرأسمالي الأمريكي الفريد.

هل الولايات المتحدة خلف بوش في سياسته الخارجية العدوانية ورؤيته الاقتصادية الساذجة؟ هل تثبتت هوية الولايات المتحدة للأبد، أم هل هناك شيء آخر في عالم يجب أن تعيش فيه مع القوة العسكرية الأمريكية، غير ما تمثله الولايات المتحدة التي لم تستعد تلك الأجزاء من العالم للتعامل معها بعد؟

حاولت أن أوحي بطريقة أخرى للنظر إلى الولايات المتحدة، كبلاد مشوشة بشكل مختلف عليها. اعتقد من الأدق أن نفهم الولايات المتحدة كأمة تعاني من صدام هويات خطير، مشابه للنزاعات الأخرى في بقية أنحاء العالم. ربما فازت الولايات المتحدة بالحرب الباردة لكن نتائج ذلك الانتصار داخل الولايات المتحدة بعيد عن الوضوح والصراع لم ينته بعد. يتجاهل الكثير من كبار إداريي الجيش والسلطة السياسية الجدل الداخلي المستمر والبعيد عن الاستقرار بتركيز شديد. لا تزال حقوق الإجهاض وتعليم التطور قضيتان مضطربتان.

الفكرة الخاطئة لنظرية فوكوياما عن نهاية التاريخ أو نظرية صامويل هنتينغتون عن صدام الحضارات، كلاهما زعم خاطئ بأن التاريخ الثقافي له حدود واضحة أو بدايات وأواسط ونهايات، في حين المجال الثقافي-السياسي هو مكان صراع حول الهوية وتحديد الذات وإسقاط في المستقبل. ينظر المنظران الإثنان بتشدد إلى الثقافات المرنة (السائلة) في اضطراب متواصل ويحاولان أن يفرضا حدود ثابتة ونظام داخلي لا يمكن لأحد البقاء فيه.

إن الثقافات وخصوصاً الثقافة المهاجرة إلى الولايات المتحدة تتشابك مع الثقافات الأخرى؛ إحدى النتائج غير المقصودة للعولمة هو ظهور المجتمعات العابرة للقومية ذات المصالح الكوكبية- منظمات حقوق الإنسان الحركات النسوية والمعادية للحروب. الولايات المتحدة ليست معزولة عن هذا، لكن يجب أن نتجاوز السطح الموحد المخيف للولايات المتحدة لنرى النزاعات التي كثير من شعوب العالم الأخرى طرف فيها. هنالك أمل وتشجيع في ذلك.

الهوامش:

1- في 16 كانون الثاني 2003.

2- الأمريكيون المجهدون: هبوط غير متوقع لوقت الفراغ، بيسك بوكس. نيويورك،1991.

3- ليندا سيموكس، تاريخ من: الصراع من اجل معايير في غرف التدريس الأمريكية، تيشرز كوليج بريس، نيويورك، 2002.

أحدث خطة للسلام- زد نيت 23حزيران 2003.

في أوائل شهر أيار التقى وزير الخارجية الأميركي كولن باول مع رئيس الوزراء الفلسطيني الجديد محمود عباس بينما كان الأول يقوم بزيارة إسرائيل والأراضي المحتلة، واجتمع بشكل منفصل مع مجموعة صغيرة من نشطاء المجتمع المدني تضمنت حنان عشراوي ومصطفى البرغوثي. وجاء عن البرغوثي أن باول عبّر عن دهشته وإمتعاضه من الخرائط المعدة بالكومبيوتر للمستوطنات والجدار الفاصل الذي يبلغ ارتفاعه 8 أمتار والعشرات من نقاط التفتيش التابعة للجيش الإسرائيلي التي جعلت الحياة بالغة الصعوبة والمستقبل قاتماً للغاية للفلسطينيين. إن رؤية باول للواقع الفلسطيني ناقصة على رغم موقعه المهيب في أحسن أحوالها، لكنه طلب بالفعل تزويده بوثائق ليأخذها معه والأهم من ذلك أنه طمأن الفلسطينيين أن بوش يكرّس جهداً مماثلاً لما بذله بخصوص العراق الآن لتطبيق خريطة الطريق. وقد أكد بوش النقطة ذاتها في الأيام الأخيرة من أيار في سياق مقابلات أجرتها معه وسائل الإعلام العربية لكنه شدد كعادته على العموميات دون تحديد أي شيء واجتمع بوش مع القادة الفلسطينيين والإسرائيليين في الأردن، وقبل ذلك مع أبرز الزعماء العرب، باستثناء الرئيس السوري بشار الأسد وهذا كله جزء مما يبدو بدفع أميركي كبير إلى الأمام. وأن قبول اريبل شارون بخريطة الطريق (مع تحفظات تقوض موافقته) يعتبر دلالة على دولة فلسطينية قابلة للحياة.

يفترض أن تتحقق رؤية بوش (تثير الكلمة نبرة حالمة غريبة في ما يفترض أن يكون خطة سلام جدية ومحددة ثلاثية المراحل) عبر سلطة يعاد هيكلتها وإزالة كل أشكال العنف والتحريض ضد الإسرائيليين وتنصيب حكومة تلبي احتياجات إسرائيل وما سمي ب(الرباعية) [الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا] التي أعدت الخطة. تتعهد إسرائيل من جانبها بتحسين الوضع الإنساني وتخفيف القيود ورفع حظر التجول لكن دون تحديد للمكان والزمان. بحلول حزيران 2003 يفترض أن يتضمن (الطور الأول) تفكيك نقاط الاستيطان الستين الغير شرعية والتي أقيمت منذ آذار 2001، لكن لم يرد شيء عن إزالة بقية المستوطنات، التي تضم 200 ألف مستوطن في الضفة الغربية وغزة، ناهيك عن الـ200 ألف مستوطن إضافي في القدس الشرقية الملحقة. سيركز (الطور الثاني) الذي وصف بأنه مرحلة انتقالية تمتد من حزيران إلى كانون الأول 2003، الاهتمام على (خيار إقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات حدود مؤقتة وصفات سيادية) - دون تحديد- يتوج هذا الطور بمؤتمر دولي يصادق ثم(ينشيء) دولة فلسطينية ذات(حدود مؤقتة)ثانية. ينهي الطور الثالث الصراع تماما بواسطة مؤتمر دولي أيضا مهمته تسوية القضايا الأكثر تعقيداً: اللاجئين والمستوطنات والقدس والحدود. ودور إسرائيل في هذا كله هو أن تتعاون بينما ألقي العبء الحقيقي على الفلسطينيين الذين يجب عليهم أن يواصلوا تنفيذ التزاماتهم بتعاقب سريع بينما يظل الاحتلال العسكري في مكانه تقريباً رغم تخفيفه في المناطق الرئيسية التي تعرضت إلى الغزو خلال ربيع 2002. ليس في الخطة تصور لأي عنصر مراقبة، ويترك تماثل هيكليتها المضلل لإسرائيل السيطرة على ما سيحدث إلى حد كبير. أما فيما يتعلق بحقوق الإنسان الفلسطينية، التي تعاني حالياً القمع أكثر من التجاهل، وخلت الخطة من أي شيء مكتوب عن تصحيح محدد : يعود الأمر إلى استمرار إسرائيل كما في السابق أم لا.

لمرة واحدة كما قال جميع المعلقين المألوفين يعرض بوش أملاً حقيقياً للتسوية في الشرق الأوسط. لمحت تسريبات محسوبة من البيت الأبيض إلى لائحة عقوبات محتملة ضد إسرائيل إن تمادى شارون في تعنته لكنها نفيت بسرعة ثم اختفت. عرضت وسائل الإعلام مجتمعة ومتفقة محتويات الوثيقة - كثير منها مأخوذ من خطط سلام سابقة - نتيجة للثقة التي شعر بها بوش بعد انتصاره في العراق. وكحال معظم النقاشات ذات الصلة بالنزاع الفلسطيني-الإسرائيلي، شكلت الكليشيهات المناورة والافتراضات المبالغة نسق الخطاب بدلاً من حقائق النفوذ والتاريخ الحي. وجرى إقصاء المشككين والنقاد جانباً كمناهضين لأميركا، بينما جزء كبير من القيادة المنظمة لليهود شجبت خريطة الطريق لحاجتها إلى كثير من التنازلات الإسرائيلية. لكن الصحافة السائدة ظلت تذكرنا بأن شارون تحدث عن(إحتلال) لم يعترف به إطلاقاً حتى الآن، وأفصح عن نيته في إنهاء حكم إسرائيل المفروض على 3،5 مليون فلسطيني. لكن هل هو مهتم حقاً بما عزم على إنهاءه؟ كتب جدعون ليفي المعلق في هآرتس في 1 حزيران (أن شارون، مثل معظم الإسرائيليين، لا يعرف شيئاً عن الحياة في ظل حظر التجول في تجمعات السكان المحاصرة منذ سنين. ما الذي يعرفه عن إذلال نقاط التفتيش أو عن إجبار الناس على السفر على دروب طينية غير معبدة مجازفين بحياتهم للخطر ليوصلوا امرأة في المخاض إلى مستشفى؟ عن الحياة على حافة المجاعة؟ عن بيت مهدّم؟ عن أطفال يرون آباءهم وأمهاتهم يتعرضون للضرب والإذلال في منتصف الليل؟)

ومن القضايا الأخرى التي أغفلت من خريطة الطريق عمداً (الجدار العازل) الضخم الذي تشيده إسرائيل في الضفة الغربية الآن: (347) كيلومتراً من الإسمنت المسلح الممتد من الشمال إلى الجنوب الذي نصب منه 120 كيلومتر ويبلغ ارتفاعه 25 قدماً وسمكه عشرة أقدام، وتقدّر كلفته بـ1.6 مليون دولار لكل كيلومتر. لا يفصل الجدار إسرائيل عن دولة فلسطينية مزعومة على أساس حدود 1967 فحسب : وإنما يضم دروباً جديدة من أراضي فلسطين تمتد أحياناً خمسة أو ستة كيلومترات. يحيط بالجدار خنادق وأسلاك كهربائية وخنادق مائية، وهناك أبراج مراقبة على مسافات منتظمة. يرتفع هذا الجدار العنصري البشع بعد عقد تقريباً من إنهاء نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، دون أن يرتفع صوت يذكر من غالبية الإسرائيليين أو حلفائهم الأميركيين الذين سيدفعون، شاءوا أم أبوا، معظم كلفته. يعيش سكان بلدة قلقيلية الفلسطينيون البالغ عددهم 40 ألف شخص في منازلهم على جانب من الجدار بينما تقع الأرض التي يزرعونها ويعيشون منها على الجانب الآخر. ويقدّر عدد الفلسطينيين الذين سيفصلون عن أراضيهم بحوالي 300 ألف بعد إنجاز الجدار فيما تواصل الولايات المتحدة وإسرائيل والفلسطينيون الجدل بشأن قضايا إجرائية على مدى شهور من غير انقطاع. تلتزم خريطة الطريق بالصمت عن هذا وعن موافقة شارون على جدار على الجانب الشرقي من الضفة الغربية الذي سيقلّص، في حال إنشائه، الأراضي الفلسطينية المتاحة للدولة التي يحلم بها بوش إلى 40% من المساحة. هذا هو ما كان يخطط له شارون طوال الوقت.

إن ما يكمن وراء قبول إسرائيل بالخطة المعدلة والتزام الولايات المتحدة الواضح بها هو النجاح النسبي للمقاومة الفلسطينية. ويصح هذا بغض النظر عن شجب بعض وسائلها وكلفتها الباهظة والخسائر الجسيمة التي ألحقتها بجيل آخر من الفلسطينيين الذين لم يستسلموا كلياً في وجه التفوق الساحق للقوة الإسرائيلية - الأميركية. لقد توفرت كل المبررات لظهور خريطة الطريق: يؤيدها 56 % من الإسرائيليين ، ورضخ شارون أخيراً للواقع الدولي، ويحتاج بوش إلى غطاء عربي - إسرائيلي لمغامراته العسكرية في أماكن أخرى، وأن الفلسطينيين عادوا لرشدهم وجاءوا بأبي مازن

(الإسم الأكثر شيوعاً لمحمود عباس) وهلم جرا. بعض هذا صحيح، لكنني ما زلت مقتنع أنه لولا حقيقة رفض الفلسطينيين العنيد القبول بأنهم (شعب مهزوم) كما وصفهم رئيس الأركان الإسرائيلي مؤخراً لما كانت هناك خطة سلام. لكن يخطئ كل من يعتقد أن خريطة الطريق تطرح أي شيء يشبه التسوية أو يعالج القضايا الأساسية. إنها تلقي على كاهل الفلسطينيين بالحاجة إلى ضبط النفس والتخلي عن العنف والتضحية مثل الكثير من خطاب السلام السائد وتتجاهل بذلك كثافة وثقل التاريخ الفلسطيني. إن قراءة خريطة الطريق اصطدام المرء بوثيقة غافلة عن زمانها ومكانها.

إن خريطة الطريق ليست خطة للسلام بقدر ما هي خطة للتهدئة: إنها تدور حول وضع حد لفلسطين كمشكلة. لهذا تتكرر عبارة (الأداء) في خطاب الوثيقة الجاف. أي، بعبارة أخرى، كيف يتوقع أن يتصرف الفلسطينيون بالمعنى الإجتماعي للكلمة تقريباً. لا عنف، ولا احتجاج ومزيد من الديمقراطية، وزعماء ومؤسسات أفضل، إستناداً على فكرة أن المشكلة في الأساس تتمثل في ضراوة المقاومة الفلسطينية وليس في الاحتلال الذي تسبب في نشوئها. ولا يتوقع أي شيء مماثل من إسرائيل بإستثناء التخلي عن المستوطنات الصغيرة التي أشرت إليها أعلاه، التي تعرف بـ(نقاط إستيطان غير شرعية) [تصنيف جديد كلياً يلمح إلى أن بعض الكيانات المزروعة في أراضي فلسطين هي شرعية] و (تجميد) المستوطنات الكبيرة لكن دون إزالتها أو تفكيكها. لم ترد أي كلمة عما عاناه الفلسطينيون منذ 1948، و منذ 1967، على أيدي إسرائيل والولايات المتحدة. ولا شيء عن منع الاقتصاد الفلسطيني من النمو كما تصف ذلك الباحثة الأميركية سارة روي في كتاب يصدر قريباً هدم المنازل واقتلاع الأشجار وخمسة آلاف سجين أو أكثر وسياسة الاغتيالات المستهدفة وعمليات الإغلاق منذ 1993 وتدمير البنية التحتية بالجملة والعدد المروع للقتلى والمشوهين- يمر كل هذا دون أي كلمة.

ويشتهر الفريقان الإسرائيلي والأمريكي بالعدوان الوحشي وبأحادية القطب المتكبرة مسبقاً. ولا يوحي الفريق الفلسطيني المكون من عصبة جيل عرفات المستهلكة بأي نوع من الثقة. وبالفعل، يبدو أن خريطة الطريق منحت ياسر عرفات فرصة أخرى للحياة رغم كل المساعي المدروسة من جانب باول ومساعديه لتجنب زيارته. رغم سياسة إسرائيل الغبية في محاولة إذلاله بمحاصرته في مقر قصفته بقوة فهو لا يزال يتحكم بالأمور. لا يزال الرئيس المنتخب لفلسطين الممسك بالخيوط التي تتحكم بكيس المال الفلسطيني (لم يعد الكيس منتفخاً)، أما بالنسبة إلى مكانته، فليس هناك أحد من فريق (الإصلاح الذي يتألف من أعضاء الفريق القديم بعد تغيير مواقعهم، بإستثناء إضافتين أو ثلاث إضافات جديدة مهمة) يمكن أن يضاهي جاذبية شخصية الرجل الكهل ونفوذه.

لنأخذ أولاً أبو مازن. قابلته للمرة الأولى في آذار 1977 في أول اجتماع أحضره للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة. ألقى خطاباً كان الأطول بأسلوب وعظي أتقنه كمدرس في إحدى ثانويات قطر وشرح للنواب الفلسطينيين المجتمعين الفروق بين الصهيونية والمعارضة الصهيونية. وكانت مداخلة جديرة بالإنتباه لأن معظم الفلسطينيين لم تكن لديهم أي فكرة فعلية في تلك الأيام بأن إسرائيل لا تتألف من صهاينة أصوليين كان كل عربي يبغضهم وإنما تضم أنواعاً شتى من دعاة السلام والنشطاء أيضاً. وباسترجاع الماضي نرى أن خطاب أبو مازن قد أطلق حملة منظمة التحرير الفلسطينية لتنظيم اجتماعات معظمها سرية بين فلسطينيين وإسرائيليين أجروا فيها حوارات طويلة في أوروبا حول السلام وكان لهم بعض التأثير الكبير في مجتمعاتهم لتشكيل أنصار جعلوا اتفاق أوسلو ممكناً.

مع ذلك لم يشك أحد بأن عرفات قد أجاز خطاب أبو مازن والحملة اللاحقة التي كلفت حياة رجال شجعان مثل عصام السرطاوي وسعيد حمامي. جاء المشاركون الفلسطينيون من قلب المشهد السياسي الفلسطيني (فتح) بينما كان الإسرائيليون مجموعة مهمشة صغيرة من مؤيدي السلام المنبوذين الذين كانت شجاعتهم موضع تقدير لهذا السبب بالذات. أقام أبو مازن في دمشق خلال السنوات التي أمضتها منظمة التحرير في بيروت بين عامي 1971 و1982 لكنه إنضم إلى عرفات المنفي وموظفيه في تونس في العقد التالي. لقد رأيته هناك مرات عدة ولفت انتباهي مكتبه المنظم بشكل جيد وأسلوبه البيروقراطي الهادئ واهتمامه الواضح بأوروبا والولايات المتحدة كمجالين يمكن للفلسطينيين فيهما أن يقوموا بعمل مفيد لتعزيز السلام مع الإسرائيليين. بعد مؤتمر مدريد في 1991 قيل أنه جمع بين موظفين تابعين لمنظمة التحرير ومثقفين مستقلين في أوروبا وحولهم إلى فرق لإعداد ملفات تفاوض حول مواضيع مثل المياه واللاجئين والديموغرافيا والحدود قبل ما عرف لاحقاً بلقاءات أوسلو السرية في 1992 و1993، لكن على حد علمي لم يستخدم أي من الملفات ولم يشارك أي من الخبراء الفلسطينيين بشكل مباشر في المحادثات ولم تؤثر أي نتيجة من هذا البحث في الوثائق النهائية التي صدرت.

حشد الإسرائيليون في أوسلو مجموعة من الخبراء المدعومين بخرائط ووثائق وإحصاءات وما لا يقل عن 17 مسودة مسبقة لما سيوقع عليه الفلسطينيون في النهاية، بينما اقتصر التمثيل الفلسطيني للأسف على ثلاثة مفاوضين رجال مختلفين كلياً من منظمة التحرير لا أحد منهم يعرف الإنكليزية أو يملك أي خلفية في التفاوض الدولي. يبدو أن عرفات هدف أساساً إلى إرسال فريق يبقيه في العملية، خصوصاً بعد خروجه من بيروت وقراره الكارثي بالوقوف إلى جانب العراق خلال حرب الخليج في 1991. وحتى لو كان في باله أهداف أخرى فإنه لم يحضر لها بشكل مؤثر كأسلوبه دائماً. في مذكرات أبو مازن وفي تقارير محكية أخرى عن محادثات أوسلو، وصف مساعد عرفات ب(مهندس) الاتفاق رغم أنه لم يغادر تونس إطلاقاً.

ويذهب أبو مازن إلى القول بأنه احتاج إلى سنة بعد احتفالات واشنطن (حيث ظهر إلى جانب عرفات ورابين وبيريز وكلينتون) كي يقنع عرفات بأنه لن يحصل على دولة من أوسلو! رغم ذلك تؤكد معظم تقارير محادثات السلام أن عرفات كان يمسك بكل الخيوط. لهذا لا عجب بأن تؤدي مفاوضات أوسلو إلى زيادة سوء الوضع الإجمالي الفلسطيني. واصل الفريق الأميركي بقيادة دنيس روس، الموظف السابق في اللوبي الإسرائيلي - وظيفة عاد إليها الآن – بتأييد الموقف الإسرائيلي الذي تأسس، بعد عقد كامل من المفاوضات، على إعادة 18% من الأراضي المحتلة للفلسطينيين وفق شروط سلبية جداً وترك الجيش الإسرائيلي مسؤولاً عن الأمن والحدود والمياه. لهذا كان ارتفاع عدد المستوطنات إلى أكثر من الضعف طبيعياً.

ومنذ عودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأراضي المحتلة في 1994، ظل أبو مازن شخصية من الصف الثاني معروف عالمياً بـ(مرونته) مع إسرائيل وتبعيته لعرفات وافتقاره التام لأي قاعدة سياسية منظمة رغم أنه أحد مؤسسي (فتح) وعضو في لجنتها المركزية وأمينها العام منذ زمن طويل. وحسب علمي لم ينتخب لأي شيء أبداً وبالتأكيد لم ينتخب للمجلس التشريعي الفلسطيني. إن منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية بقيادة عرفات تفتقران إلى الشفافية ولا يعرف سوى القليل عن الطريقة التي تتخذ بها القرارات أو كيف تصرف الأموال وأين هي ومن يتمتع إلى جانب عرفات بدور في اتخاذ القرار. لكن يتفق الجميع بأن عرفات المدير الكبير الشيطاني والمسيطر الغريب يظل

الشخصية المحورية على كل المستويات لهذا السبب يرى معظم الفلسطينيين أن ترقية أبو مازن إلى مكانة رئيس وزراء مسؤول عن الإصلاح لإرضاء الأميركيين والإسرائيليين أشبه بنكتة وهي وسيلة يلجأ إليها الرجل الهرم للتمسك بالسلطة بابتكار أداة تحايل جديدة. وينظر إلى أبو مازن عموماً على أنه شخصية بلا لون وفاسد تماماً وليست لديه أي أفكار واضحة خاصة به، سوى رغبته في إرضاء الرجل الأبيض.

لم يقطن أبو مازن أبداً كعرفات في أي مكان غير الخليج وسورية ولبنان وتونس، وفلسطين المحتلة الآن ولا يعرف أي لغة عدا العربية ولا يجيد الخطابة أو يفرض حضوره في المناسبات العامة. وبالمقارنة معه يبدو محمد دحلان، المسؤول الجديد للأمن من غزة - الشخصية الأخرى التي جرى الترويج لها كثيراً ويبني الإسرائيليون والأميركيون عليها أمالاً عريضة – أصغر عمرا وأذكى وأقسى. وخلال السنوات الثماني التي أدار خلالها إحدى منظمات الأمن الـ14 أو 15 التابعة لعرفات، كانت غزة تُعرف بـ"دحلانستان". استقال العام الماضي، لكن الأوروبيون والأميركيون والإسرائيليون أوكلوا إليه مهمة (رئيس الأمن الموحد) رغم كونه أحد رجال عرفات دائماً. يتوقع منه في الوقت الحاضر أن يصفي (حماس (و)الجهاد الإسلامي) وهذا أحد المطالب الإسرائيلية المتكررة التي يكمن وراءها الأمل في أن يكون هناك ما يشبه حرب أهلية فلسطينية يتوق إليها العسكريون الإسرائيليون.

على أي حال، مهما كان (أداء) أبو مازن مثابراً ومرنا، فسيظل مقيداً بثلاثة عوامل. أحدها بالطبع هو عرفات ذاته، الذي لا يزال يسيطر على (فتح) التي هي نظرياً قاعدة نفوذ أبو مازن أيضاً. العامل الآخر: هو شارون (الذي تقف الولايات المتحدة وراءه إلى نهاية الشوط كما يفترض). كشف شارون في لائحة من 14 (ملاحظة) حول خريطة الطريق نشرتها صحيفة هآرتس في 27 أيار الماضي عن القيود الصارمة جداً على ما يمكن إعتباره مرونة من جانب إسرائيل. العامل الثالث: هو بوش وبطانته. بالحكم من الطريقة التي تعاملوا بها مع أفغانستان وعراق ما بعد الحرب، لا يملك هؤلاء الميل أو الكفاءة لبناء الأمة التي ستكون مطلوبة بالتأكيد. لقد اعترضت مسبقاً قاعدة بوش المسيحية اليمينية في الجنوب بصخب على ممارسة أي ضغط على إسرائيل، وباشر مسبقاً اللوبي الأميركي المناصر لإسرائيل وذوو النفوذ الكبير مع تابعه الطيع المتمثل بالكونغرس الأميركي الذي تحتله إسرائيل، في العمل ضد أي تلميح باستخدام القسر ضد إسرائيل رغم أن ذلك سيكون حاسماً الآن مع بدء الطور النهائي.

قد أبدو واهماً لو قلت بأن الآفاق ليست قاتمة إطلاقاً حتى ولو كانت الآفاق القريبة كالحة من منظور فلسطيني. أعود إلى العناد الذي أشرت إليه أعلاه، وحقيقة ان المجتمع الفلسطيني - المدمّر، والمهدم تقريباً، والبائس من نواحٍ كثيرة - يشبه طائر الدجّ في رواية هاردي، نافشاً ريشه بعد إطلاق النار عليه، إذ لا يزال قادراً على زج روحه على الكآبة المتزايدة. لا يوجد مجتمع عربي آخر يماثله في عناده وجموحه، أو يدانيه بالمبادرات المدنية والاجتماعية والمؤسسات الفاعلة (بما في ذلك معهد موسيقي نابض بالحيوية على نحو رائع). رغم أن فلسطينيي الشتات غير منظمين في الغالب ويعيشون في بعض الحالات، حياة بائسة من النفي واللادولة، فإن المشاكل المتعلقة بمصيرهم الجماعي لا تزال تحركهم بقوة وكل من عرفته يحاول دائماً أن يخدم القضية بطريقة ما. لم يجد سوى جزء ضئيل جداً من هذه الطاقة سبيله إلى السلطة الفلسطينية، التي بقيت باستثناء شخصية عرفات المتناقضة إلى حد كبير ذات تأثير هامشي بما يتعلق بالمصير المشترك. وبحسب

استطلاعات للرأي أجريت أخيراً فإن فتح وحماس تتقاسمان بينهما تأييد حوالي 45% من الناخبين الفلسطينيين بينما تتوزع الـ55 % المتبقية على تشكيلات سياسية مختلفة تماماً ذات آفاق مشجعة أكثر.

لفت إحدى هذه التشكيلات انتباهي بشكل خاص لأهميتها (وربطتُ نفسي بها) نظراً لكونها الوحيدة التي توفر لنفسها البنية الشعبية الأصيلة وتبعد نفسها عن الأحزاب الدينية وسياساتها الطائفية وعن النزعة القومية التقليدية التي يمثلها الناشطون في فتح القدامى التابعين لعرفات(وليس الشباب). وقد سميت ب(المبادرة الوطنية(، والشخصية الرئيسية فيها هو مصطفى البرغوثي، الطبيب الذي تلقى تعليمه في موسكو وكان عمله الأساسي مدير لجنة الإغاثة الطبية المثيرة للإعجاب، التي وفرت الرعاية الطبية لأكثر من 100 ألف فلسطيني في المناطق الريفية. إن البرغوثي الناشط السابق في الحزب الشيوعي منظم وقائد يتحدث بنبرة خافتة واجتاز مئات العقبات المادية التي أعاقت حركة الفلسطينيين أو سفرهم للخارج لحشد كل فرد ومنظمة مستقلة ذات شأن وراء برنامج سياسي يعد بالإصلاح الاجتماعي والتحرر متجاوزاً الانتماءات العقائدية. وعمل البرغوثي، متحرراً على نحو فريد من الخطاب التقليدي الطنان، مع إسرائيليين وأوروبيين وأميركيين وأفارقة وأسيويين وعرب لبناء حركة تضامن محدثة ومرغوبة تمارس التعددية والتعايش اللذين تبشر بهما. لم ترفع المبادرة الوطنية يديها بوجه نزعة العسكرة غير الهادفة للانتفاضة. إنها تقدم برامج تدريب للعاطلين عن العمل وخدمات اجتماعية للمحرومين انطلاقاً من أن ذلك حلا للظروف الحالية والضغوط الإسرائيلية. وقبل كل شيء تسعى المبادرة الوطنية التي توشك أن تصبح حزباً سياسياً منظماً، إلى تعبئة المجتمع الفلسطيني في الداخل وفي المنفى من أجل إنتخابات حرة: انتخابات حقيقية تمثل مصالح الفلسطينيين، بدلاً من مصالح إسرائيل أو الولايات المتحدة. هذا الإحساس بالموثوقية المفقودة في الطريق الذي شقه أبو مازن.

الرؤية هنا ليست دولة مؤقتة مصطنعة على 40 % من الأرض، مع التخلي عن اللاجئين واحتفاظ إسرائيل بالقدس، بل أرض ذات سيادة يحررها من الاحتلال العسكري تحرك جماهيري يشمل العرب واليهود حيثما أمكن ذلك. ولأن المبادرة الوطنية حركة فلسطينية أصيلة أصبح الإصلاح والديمقراطية جزءاً من ممارستها اليومية. لقد انتمى إليها بالفعل المئات من ابرز النشطاء والمستقلين الفلسطينيين وعقدت اجتماعات تنظيمية وجرى التخطيط لعقد المزيد منها في الخارج وفي فلسطين رغم الصعوبات الفظيعة في كسر القيود الإسرائيلية على حرية الحركة. وعزاء المرء أن يرى في الوقت الذي تتواصل فيه المفاوضات والمحادثات الرسمية، مجموعة بدائل غير رسمية لم يتم احتواءها تمثل المبادرة الوطنية وحركة التضامن العالمية المتنامية في الوقت الحاضر مكوناتها الرئيسية.

إسرائيل والعراق والولايات المتحدة –10زدنت تشرين اول2002.

تعرضت معظم الأراضي اللبنانية لقصف الطائرات الحربية الإسرائيلية المكثف في 4 حزيران عام 1982 ثم بعد يومين من ذلك دخل الجيش الإسرائيلي عبر الحدود الجنوبية للبلاد. كان رئيس الوزراء آنذاك مناحيم بيغن ووزير دفاعه اريل شارون. كان السبب المباشر للغزو محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن، وبعدها كما هو الآن ألقى بيغن وشارون اللوم على (المنظمة الإرهابية) منظمة التحرير الفلسطينية، التي تقيدت فعلياً قواتها في جنوب لبنان بوقف إطلاق نار لمدة سنة كاملة قبل الغزو. بعد بضعة أيام (في 13 حزيران) أصبحت بيروت تحت الحصار العسكري الإسرائيلي، مع ذلك بدأت الحملة، كما نوه ناطق الحكومة الاسرائيلية بأن هدفهم نهر الأولي الذي يبعد 35 كيلو متر شمال الحدود.ثم ظهر فيما بعد وبدون التباس أن شارون كان يحاول قتل ياسر عرفات بقصف كل شيء حول القائد الفلسطيني الجريء. رافق الحصار منع المساعدات الإنسانية، وقطع المياه والكهرباء وتمديد حملة القصف التي دمرت مئات الأبنية في بيروت وبنهاية الحصار في أواخر أب، قُتِلَ 18000 ألف فلسطيني ولبناني، أغلبهم من المدنيين.

لقد دُمِرَ لبنان بحرب أهلية مرعبة اشتعلت منذ ربيع عام 1975 ورغم أن إسرائيل قد أرسلت جيشها مرة إلى لبنان قبل عام 1982 فقد ظلت المليشيات اليمينية تنظر إليها كحليف منذ فترة مبكرة. بالتحصن في بيروت الشرقية، تعاونت هذه الميليشيات اليمينية مع قوات شارون من خلال الحصار، الذي انتهى بعد يوم مريع في قصف عشوائي في 12 آب وبمذابح صبرا وشاتيلا طبعاً. كان حليف شارون الأساسي بشير الجميل، رئيس حزب الكتائب الذي إنتخبه البرلمان رئيسا للبنان في 23 آب. كَرِهَ جميل الفلسطينيين، الذي دخلوا الحرب الأهلية بطيش إلى جانب الحركة الوطنية، وهو تحالف هشٌ لليسار والأحزاب القومية العربية التي شملت أمل ، سلف حركة حزب الله الشيعية اليوم التي لعبت دوراً أساسياً في طرد الإسرائيليين في أيار عام 2000. لكن يبدو أن جميل قد إعترض بأن يكون تابع لإسرائيل بشكل مباشر بعد أن تم انتخابه بتأثير جيش شارون فاغتيل في 14 أيلول. ثم بعد يومين من مذابح المخيم داخل شريط أمني وفره الجيش الإسرائيلي ليستطيع رفاق بشير المنتقمين من المسيحيين المتطرفين تنفيذ أعمالهم المريعة دون مقاومة أو إلهاء.

بتخويل من الأمم المتحدة وإشراف الولايات المتحدة طبعاً، دخلت القوات الفرنسية بيروت في 5 آب. وكان سينضم إليها قوات أمريكية وأوروبية أخرى بعد فترة قليلة، رغم أن مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية بدأ إخلاءهم من لبنان في 21 آب. انتهت عملية الإخلاء قبل 1 أيلول واستقر عرفات وزمرة صغيرة من مستشاريه وجنوده في تونس. استمرت الحرب الأهلية اللبنانية حتى عام 1990، حين تمت صياغة ميثاق مشترك في الطائف استرجع من خلاله النظام الكهنوتي القديم الذي لا يزال مستمراً حتى اليوم. في منتصف عام 1994-عرفات لا يزال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية- كان البعض من هؤلاء المستشارين والجنود نفسهم قادرين على الدخول إلى غزة كجزء مما عرف باتفاقيات أوسلو. في وقت مبكر من هذه السنة نقل عن شارون أسفه بسبب فشله في قتل ياسر عرفات في بيروت. ليس بسبب قلة المحاولة، حيث دمرت عشرات الأبنية ومراكز القيادة وسوت بالتراب مع خسائر عظيمة بالأرواح. أعتقد بأن 1982 أقنع العرب، بفكرة أن إسرائيل لن تستخدم التكنولوجيا المتقدمة (طائرات، صواريخ، دبابات ومروحيات) لمهاجمة المدنيين بشكل عشوائي

فقط وإنما لن تفعل الولايات المتحدة أو العرب أي شيء لوقف هذه الممارسة حتى لو استهدفت الزعماء والعواصم أيضاً.(لمزيد من هذا الفصل راجع رشيد خالدي، تحت الحصار، نيويورك 1986؛ روبرت فيسك،ارحموا الأمة، لندن 1990؛ وبتحديد أكثر عن الحرب الأهلية اللبنانية، التقدم على طول الرحلة لجوناثان راندول، نيويورك 1983). هكذا انتهت المحاولة الواسعة المعاصرة الأولى لتغيير عسكري لنظام حكم بواسطة دولة ذات سيادة ضد أخرى في الشرق الوسط. إنني أذكرها كخلفية مشوشة لما يحدث الآن. شارون الآن رئيس وزراء إسرائيل وجيوشه وآلته الدعائية تطوق وتجرد عرفات والفلسطينيين من إنسانيتهم (كإرهابيين). من الجدير بالذكر أن كلمة (إرهابي) بدأت تستخدم بشكل منتظم من قبل إسرائيل منذ أواسط سبعينيات القرن العشرين. وأصبح ذلك الدور منذ ذلك الوقت، وخصوصاً أثناء الإنتفاضة الأولى 1987-1993، لإزالة الفرق بين المقاومة والإرهاب المحض وإلغاء الصبغة السياسية لأسباب النضال المسلح. خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين نال اريل شارون دعمه حين ترأس الوحدة 101 سيئة الذكر، التي قتلت المدنيين العرب ودمرت بيوتهم بموافقة بن-غوريون كما كلف بتهدئة غزة عام 1970-71. لم تؤد كل هذه الأفعال، بما فيها حملة عام 1982 إلى التخلص من الشعب الفلسطيني أو تبديل الخريطة أو النظام بوسائل عسكرية لضمان النصر الإسرائيلي التام.

الاختلاف الرئيسي بين 1982 و 2002 هو أن الفلسطينيين الآن يذبحون ويحاصرون في أراض فلسطينية احتلت عام 1967 لكنهم ظلوا فيها رغم نهب وتدمير الاحتلال، وتخريب الاقتصاد وكل البينة التحتية المدنية للحياة الجماعية. الرئيسي طبعاً الوسائل غير المتناسبة المستخدمة لتنفيذ ذلك (مثلاً) مئات الدبابات والبلدوزرات تستخدم لدخول المدن والقرى مثل جنين أو مخيمات اللاجئين مثل جنين ودهيشه للقتل وتخريب الممتلكات ومنع سيارات الإسعاف وعمال الإسعافات الأولية من تقديم المساعدة وقطع الماء والكهرباء الخ. كل ذلك بدعم من الولايات المتحدة الذي ذهب رئيسها بعيداً بوصفه شارون كرجل سلام والأقراص الصلبة من مكتب الإحصاء المركزي، ووزارة التربية والمالية والصحة والمراكز الثقافية المكاتب والمكتبات، كل ذلك كوسيلة لتقليص الحياة الجماعية الفلسطينية إلى مستوى ما قبل الحضارة.

لا أريد أن أكرر نقدي لتكتيك عرفات أو فشل نظامه الباعث على الشفقة أثناء مفاوضات أوسلو وبعدها فقد جرى أخيراً هنا وفي مكان آخر، أثناء كتابتي هذه عن رجل متعلق بالحياة بأسنانه؛ المحاصر في مقره المتهاوي في رام الله ويحاول شارون بكل ما يستطيع لإيذائه بعد أن عجزعن قتله فعلياً. ما يهمني فكرة تبديل نظام الحكم كنظرة جذابة للأفراد والإيديولوجيين والمؤسسات التي هي أقوى من خصومها بشكل غير متناسق. ما هو نوع التفكير الذي يُسَهِلْ تخيل قوة عسكرية عظيمة تجيز تبديل نظام إجتماعي وسياسي بمستوى غير متخيل سابقاً والقيام بذلك دون الإهتمام بالضرر الواسع الذي سيلحقه هذا التغيير؟ وكيف لا تتعرض تلك النظرات إلى خطر الخسائر بالأرواح التي سيتسبب بها طرف يحرض على المزيد من الأوهام حول ضربات جراحية وحرب نظيفة وساحات معارك ذات تقنية عالية وتبديل الخريطة وخلق الديمقراطية وما شابه ذلك، مما أفسح لظهور أفكار عن القدرة الكلية، ونسيان أخطاء وخلافات الماضي والبدء من جديد وعن التحكم المطلق بالقضايا أياً كانت ؟

أثناء الحملة الأمريكية الراهنة لتغيير نظام الحكم في العراق، أسقطت الأغلبية الواسعة من شعب العراق من الحسابات علماً أنها هي من دفعت ثمناً باهظاً من الفقر وسوء التغذية والمرض نتيجة

السنوات العشر من العقوبات. هذا يتوافق مع سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط التي تقوم على محورين جبارين تماماً، هما أمن إسرائيل والإمداد الغزير والرخيص من النفط. كما تجاهل مخططو إستراتيجية الولايات المتحدة وإسرائيل في خططهم تلك الفسيفساء المعقد من تقاليد وأديان وثقافات وإثنيات والتواريخ التي تكون العالم العربي-خصوصاً في العراق- رغم وجود الدولة القومية بحكامها المستبدين. بتاريخ عمره أكثر من 5000 سنة، يعتبر العراق الآن بشكل أساسي إما (تهديد) لجيرانه وهو في حالة حصار وضعف أو تهديد لحرية وأمن الولايات المتحدة، وهذه ذريعة أكثر سخفاً من سابقتها. لن أهتم لأضيف هنا إداناتي لصدام كشخص مخيف: سأسلم بأنه يستحق في كل المقاييس الخلع والعقاب. وأسوأ من كل ذلك كونه عدو لشعبه.

لكن منذ الفترة التي سبقت حرب الخليج الأولى اختفت صورة العراق كبلد عربي كبير مزدهر ومتنوع في الحقيقة؛ واستبدلت بالصورة التي نشرتها وتداولتها وسائل الإعلام والنقاش السياسي كأرض صحراوية تقطنها عصابات بربرية يرأسها صدام حسين. هذا الحط من القيمة دمر صناعة نشر الكتاب العربي مثلاً لأن العراق وفر أكبر عدد من القراء في العالم العربي ولأنه واحد من الدول العربية القليلة التي فيها عدد كبير من المثقفين ومهنيي الطبقة الوسطى المحترفين الأكفاء ولأن لديه البترول والماء والأرض الخصبة وكان دائماً المركز الحضاري للعالم العربي (الإمبراطورية العباسية بآدابها العظيمة وفلسفتها وهندستها العمرانية والعلوم والطب كان هبة عراقية لا تزال الأساس للثقافة العربية) ولأن الجرح النازف للعراقيين وعذابهم كان مصدر ألم مستمر للعرب والمسلمين على السواء- كل هذا لم يرد ذكره. احتياطاته البترولية الهائلة، كما دار في نقاشاتهم، لو أخذناها من صدام وسيطرنا عليها فلن نظل معتمدين على نفط السعودية كثيراً. لكن ذلك لم يذكر كعامل إلا نادراً في المجادلات المختلفة التي أجهدت الكونغرس والإعلام. لكن ما هو جدير بالذكر أن نقول بأن العراق ثاني دولة بعد السعودية في النتاج، وأكبر احتياطات نفطية على الأرض في العراق وأن (1،1 تريليون دولار) قيمة البترول –الذي كان يسلمه صدام إلى روسيا وفرنسا وبعض البلدان الأخرى- تلك الأموال المتوفرة للعراقيين كانت هدفاً للإستراتيجية الأمريكية، التي استخدمها مجلس الشعب العراقي ورقة مع مستهلكي النفط غير الأمريكيين. (لمزيد من التفاصيل راجع (مايكل كلاري) (تزييت عجلات الحرب) (ذا نيشن 7 تشرين أول). اهتم قسم كبير من المساومة بين بوتين وبوش بكمية الحصة التي ستتعهد بها الشركات النفطية لروسيا. إن الثلاثة بلايين دولار التي قدمها بوش السابق لروسيا ذكرى مريعة. كلا البوشيين تجار نفط أخيراً، ويهتمان بذلك النوع من التفكير أكثر من النقاط الدقيقة لسياسة الشرق الوسط، مثل إعادة تحطيم البنية التحتية المدنية في العراق.

إن الخطوة الأولى في كره الآخر وتجريده من إنسانيته هي تقويض وجوده وصورته وأفكاره إلى عبارات بسيطة قليلة تكرر باستمرار. هذا يسهل قصف العدو بدون وجع ضمير. بعد 11 أيلول، أصبح من السهل تماماً على إسرائيل والولايات المتحدة للتعامل مع الفلسطينيين والعراقيين. الشيء المهم الذي يجب ملاحظته أن الأمريكيين والإسرائيليين يتبعون نفس السياسة ونفس الخطة الموضوعة سلفاً التي يضعها نفس الأشخاص نظرا للتفوق الساحق. في الولايات المتحدة، كتب (جيسون فيست) في مجلة ذا نيشن في أيلول، أن رجال من الجناح اليميني المتطرف في المعهد اليهودي للأمن القومي ومركز السياسة الأمنية يحتلون البنتاغون ولجان وزارة الخارجية، ومنها تلك التي يديرها (ريتشارد بيرل) (الذي عينه ولفويتز ورامسفيلد). لقد تساوى الأمن الإسرائيلي

بالأمريكي، وينفق المعهد اليهودي للأمن القومي (جل ميزانيته لأخذ الجنرالات الأمريكيين المتقاعدين إلى إسرائيل). الذين حين يعودون، يكتبون افتتاحيات الصحف التي تظهر على شاشات التلفزة هاتفين بخط الليكود. ونشرت مجلة تايم عن هيئة سياسة البنتاغون الدفاعية، بأن كثير منهم أعضاء جاؤوا بهم من المعهد اليهودي للأمن القومي ومركز السياسة الأمنية، في عددها الصادر في 23أب بعنوان (داخل مجلس الحرب السري).

لقد كرر (شارون) وهو ثمل مراراً أن حملته ضد الإرهاب الفلسطيني تتشابه مع الحرب الأمريكية على الإرهاب عموماً، وأسامة بن لادن والقاعدة خصوصاً. وادعى أنهم نفس الإرهابيين الدوليين الذين يشملون كثير من المسلمين في كل أسيا وأفريقيا وأوروبا، حتى لو تركز محور شر بوش الآن على العراق وإيران وكوريا الشمالية. هناك الآن 132 دولة فيها نوع من الوجود العسكري الأمريكي، كلها مرتبطة بالحرب على الإرهاب، التي ظلت طليقة بدون تحديد لإثارة السعار الوطني والخوف وتأييد العمل العسكري في الجبهة الداخلية، بينما الأمور تتحول من سيء إلى أسوأ. كل منطقة من المناطق الرئيسية في الضفة الغربية وغزة تحتلها القوات الإسرائيلية التي تقتل بشكل روتيني أو تحبس الفلسطينيين على أساس أنهم إرهابيين (مشتبه بهم) وميليشيا؛ وبالمثل تدمر البيوت والمتاجر بذريعة أنها ملاجئ لمصانع القنابل والخلايا الإرهابية وأماكن اجتماع الميليشيات. دون أن يسأل أي واحد من المراسلين الذي قبلوا الاتهام الإسرائيلي الأحادي الجانب عن تقديم أي دليل.

لقد غطت محاولة التجريد من الإنسانية المنظمة هذه، العالم العربي بستارة هائلة من التعمية والتجريد. كل ما تراه العين وتسمعه الأذن هو الإرهاب والتعصب والعنف وكره الحرية وأسلحة التدمير الشامل التي يجب أن تكون موجودة في مكان نعرف أنهم لن يبحثوا عنه أبداً (في إسرائيل وباكستان والهند والولايات المتحدة وغيرها) بل في أماكن افتراضية لصفوف الإرهابيين، أيادي صدام والعصابة المتعصبة الخ. الصورة الثابتة في ستارة التضليل هي أن العرب يكرهون إسرائيل واليهود بدون أي مبرر ولأنهم يكرهون أمريكا أيضاً. من حيث الإمكانية أكبر عدو مخيف لإسرائيل هو العراق بسبب موارد البلاد الإقتصادية والبشرية؛ والفلسطينيون مرعبون لأنهم يقفون في طريق الهيمنة الإسرائيلية وإحتلال الأرض. نجح الجناح اليميني الإسرائيلي كشارون مثلاً الذي يمثل الإيديولوجية الإسرائيلية الكبرى التي تطالب بكل فلسطين التاريخية كوطن لليهود نجح خصوصاً في جعل وجهة نظره عن المنطقة هي المسيطرة بين المؤيدين لإسرائيل في الولايات المتحدة. لقد علق ليوزي لاندو، وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي وعضو حزب الليكود، في تلفزيون الولايات المتحدة هذا الصيف وصرح أن (هذا الحديث عن [الاحتلال] هو هراء ونحن شعب عدنا لوطننا). حتى أنه لم ينظر إلى هذا المفهوم الغريب لمورت زوكرمان، مضيف البرنامج، ومالك يو اس نيوز اند وورلد ريبورت ورئيس مجلس رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية. لكن الصحفي الإسرائيلي اليكس فيشمان، وصف في صحيفة اديعوت احرنوت في 6 أيلول (الأفكار الثورية) لكونداليزا رايس ورامسفيلد (الذي يشير أيضاً الآن إلى [ما يسمى] بالأراضي المحتلة) وتشيني وبول ولفويتز ودوغلاس فيث وريتشارد بيرل (الذي كلف بدراسة لمعهد راند سيئ السمعة وحدد العربية السعودية عدواً ومصر جائزة أمريكا في العالم العربي) إنهم صقور مرعبين لأنهم يؤيدون تغيير النظام في كل بلد عربي. ويقتبس فيشمان عن شارون قوله إن هذه المجموعة، الكثير منهم أعضاء في المعهد اليهودي للأمن القومي ومركز السياسة الأمنية، ومرتبطين بالايباك التابع لمعهد واشنطن لقضايا الشرق الأوسط، الذي يسيطر على تفكير بوش (إن كانت هذه الكلمة المناسبة للوصف)؛ ويقول إن

(ايفي ايتام [أحد الوزراء الإسرائيليين من الخط الأكثر وحشية] يبدو حمامة تماما مقارنة بأصدقائنا الأمريكيين).

الجانب الأخر الأكثر رعباً في هذه الاقتراح غير المرفوض إذا (نحن) لم نتنبأ بالإرهاب ونمنعه (أو أي عدو محتمل) فسنهلك. هذا هو الآن لب إستراتيجية أمن الولايات المتحدة التي يطبل بها بشكل متكرر رايس ورامسفيلد وبوش نفسه في المقابلات والأحاديث التلفزيونية. ظهر البيان الرسمي لهذه النظرة قبل وقت قليل في إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة، ورقة أعدت كبيان رسمي عام للإدارة الجديدة عن السياسة الخارجية بعد الحرب الباردة. الافتراض الناجع أننا نعيش في عام خطر بشكل غير عادي وسط شبكة من الأعداء التي لها تواجد فعلي، ولديها المصانع والمكاتب وعدد لا يحصى من الأعضاء، وأن كل وجودهم مكرس لتدميرنا إلا إذا تمكنا منهم أولاً. هذا ما يؤطر الحرب على الإرهاب والعراق ويمدها بالشرعية وطلب التصديق عليها من الكونغرس والأمم المتحدة.

الأفراد المتعصبون والجماعات موجودون (طبعاً) والكثير منهم يفضلون إيذاء كل من إسرائيل والولايات المتحدة. لكن من جانب آخر، يُنظر إلى إسرائيل والولايات المتحدة في العالمين الإسلامي والعربي على أنهما خلقتا ما يدعى بالمتطرفين الجهاديين وأشهرهم أسامة بن لادن أولاً، وأنهما تتجاوزان القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة في مواصلة سياساتهما العدوانية والمدمرة في هذين العالمين ثانياً: كتب دافيد هيرتس من القاهرة في عمود في صحيفة الغارديان أنه حتى العرب الذين يعارضون أنظمة حكمهم الإستبدادية (ينظرون إلى الهجوم الأمريكي على العراق على أنه عمل عدواني لا يهدف تدمير العراق فحسب، بل للعالم العربي كله؛ ومما يجعل الأمر لا يغتفر أن ذلك سيتم لمصلحة إسرائيل، التي تبدو ترسانتها الكبيرة من أسلحة التدمير الشامل مقبولة وأسلحتهم ممقوتة.6 أيلول)

أقول أيضاً بأن هناك أخبار فلسطينية محددة وهناك منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، رغبة رسمية للتوصل إلى سلام مع إسرائيل وهذا مناقض تماما للتهديد الإرهابي الحديث المتمثل بالقاعدة أو التهديد المزيف المفترض أن يجسده صدام حسين، الرجل الفظيع طبعاً، لكنه غير قادر بأن يشن حرباً عابرة للقارات؛ لم تعترف الولايات المتحدة إلا عرضياً بأن صدام قد يشكّل تهديدا لإسرائيل، ولكن يبدو أن ذلك هو إحدى خطاياه الموجعة. لم ير أي واحد من جيرانه بأنه يشكل تهديداً. وخلطوا الفلسطينيين بالعراق بهذه الطريقة العمياء لكي يشكلوا خطراً تعززه وسائل الإعلام بترديده المرة تلو الأخرى. أكثر أخبار الفلسطينيين التي تظهر في ذا نيويوركر ومجلة ذا نيويورك تايمز تبين الفلسطينيين كصانعي قنابل ومتآمرين ومفجرين انتحاريين فقط ولم تنشر أي خبر من وجهة النظر العربية منذ 11أيلول أبداً.

لذلك حين استمر في القول أبواق الإدارة من أمثال (دينيس روس) الذي كان يمثل كلينتون في مفاوضات أوسلو، لكن قبل وبعد تعيينه بهذا المنصب كان عضو في مؤسسة اللوبي الإسرائيلي، بأن الفلسطينيين رفضوا عرضاً إسرائيلياً سخياً في كامب ديفيد، إنه يشوه الحقائق بشكل فظيع، كما بينت كثير من المصادر الرسمية، بأن إسرائيل منحت مناطق فلسطينية غير متماسة تحيط بها المواقع الأمنية الإسرائيلية والمستوطنات من كل جانب وليس هناك حدود مشتركة مع أي دولة عربية (مثل مصر من الجنوب والأردن من الشرق). لماذا تستعمل كلمات (سخي) و(عرض) لوصف أرض أستولت عليها سلطة الإحتلال بشكل غير شرعي في انتهاك للقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة،

لم يكلف أحد نفسه عبء السؤال. لكن بسبب قدرة وسائل الإعلام على التكرار، وتكرار وتأكيد التأكيدات البسيطة زائد الجهود التي لا تكل للوبي الإسرائيلي لإعادة نفس الفكرة- أصبح (دينيس روس) نفسه فظاً بشكل استثنائي في كذبه، ومحبوس داخل مكان إختار الفلسطينيون فيه (الرعب بدلاً من السلام).كذلك لم ينظر إلى حماس والجهاد كجزء من النضال الفلسطيني للتخلص من الإحتلال الإسرائيلي، بل كجزء من الرغبة الفلسطينية العامة للإرهاب والتهديد وسوف تصبحا خطر كالعراق.

في أي حدث تدعي الإدارة في الولايات المتحدة بأن العراق العلماني كان يوفر الملجئ والتدريب لتنظيم القاعدة الثيوقراطي ويبدو أن القضية ضد صدام قد أغلقت. إجماع الحكومة المسيطرة(لكن غير المختلفة أبداً) هو بما أن المفتشين الدوليين لم يستطيعوا أن يؤكدوا وجود أسلحة الدمار الشامل لديه، التي خبأها وبسبب ما يفعله الآن يجب أن يهاجم ويزاح. كل الهدف هو اللجوء إلى تخويل من الأمم المتحدة من وجهة النظر الأمريكية هو الحصول على قرار قاسي وتأديبي لكي لا يهم إن أذعن صدام حسين أو لم يذعن فسوف يُجَرَمْ بانتهاكه للقانون الدولي ويضمن مجرد بقاءه تغيير نظام الحكم بالقوة العسكرية. في أواخر أيلول، أقر مجلس الأمن بالإجماع قرراً (ما عدا الولايات المتحدة) يأمر إسرائيل بإنهاء حصارها لمجمع عرفات في رام الله والانسحاب من أراضي فلسطينية احتلتها بشكل عير شرعي منذ آذار (وكان عذر إسرائيل الدفاع عن النفس). رفضت إسرائيل الإذعان، وتبرير الولايات المتحدة المفهوم بأنها لم تفعل الكثير لفرض موقفها المعلن الذي يقول (نحن) ندرك أن إسرائيل يجب أن تدافع عن مواطنيها. لماذا تنظر الأمم المتحدة في طلب وتتجاهل طلب آخر، هو واحد من تلك التناقضات التي انغمست فيها الولايات المتحدة.

ردد (دونالد رامسفيلد) وزملاءه مجموعة صغيرة من العبارات غير المدروسة المبتدعة ذاتياً مثل الاستيلاء التوقعي أو الدفاع عن النفس الوقائي ليقنعوا الجمهور أن التحضيرات للحرب ضد العراق أو أي دولة أخرى بحاجة إلى (تغيير نظام الحكم) فيها أو التعبير الملطف النادر، (التدمير البناء) التي دعمتها فكرة الدفاع عن النفس. ظل الشعب قلقاً من تكرير الإنذارات الحمر والبرتقالية، شجع الناس على تبليغ سلطات فرض القانون عن أي سلوك (مريب) واحتجز آلاف المسلمين والعرب والأسيويين الجنوبيين وفي بعض الحالات ألقي القبض عليهم لمجرد الاشتباه. نُفِذَ كل هذا بأمر من الرئيس كإظهار للوطنية وحب أمريكا. أنا لم أفهم لحد الآن ما الذي يعنيه أن تحب بلادك (في النقاش السياسي في الولايات المتحدة، حب إسرائيل أيضاً عبارة سائدة) لكن يبدو أنه يعني الولاء الأعمى والمنحاز للسلطات التي تخفي أسرارها وتراوغ وترفض بشكل متعمد الإرتباط بجمهور يقظ، لا يبدو في الوقت الحالي متيقظاً لإستجابة متماسكة ومنظمة، لإخفاء سياسة إدارة بوش المدمرة والتشويهية في العراق والشرق الأوسط.

الولايات المتحدة قوية جداً مقارنة بأغلب البلدان الكبرى مجتمعة لذلك لا يمكن كبحها أو إجبارها للإذعان أو الإنصياع لأي نظام عالمي سلوكي، ولا حتى لدولة تمنى وزير خارجيتها ذلك. بالإضافة إلى التغاضي عن وجوب الذهاب لمحاربة العراق الذي يبعد 7000ميل، يعري خطاب السياسة الخارجية الشعوب الأخرى من أي هوية إنسانية حقيقية أو عميقة؛ فالعراق وأفغانستان تبدوان لمطلقي الصواريخ الذكية أو على شاشة التلفزيون في أفضل الحالات كلوحة شطرنج نقرر دخولها وتدميرها وإعادة بناءها حينما نشاء. تخدم كلمة (إرهاب) بالإضافة إلى الحرب عليها بشكل رائع في تعميق هذا الشعور ونظراً للمقارنة مع كثير من الأوروبيين، الأغلبية من الأمريكيين ليس لهم أي

اتصال أو تجربة حية مع الأراضي والشعوب الإسلامية لذلك ليس لديهم أي شعور بنسيج الحياة الذي ستمزقه إرباً، حملة القصف المكثف (كما في أفغانستان). ونظروا إليها كما لو كانت مثل فيض من اللامكان باستثناء المدارس (مدراس دولة أنشأتها بريطانية في الهند على أساس لغوي) والمحولة جيداً والمبنية على تصميم شعب يكره حرياتنا وغيور من ديمقراطيتنا، يشغل الإرهاب جل المناظرين والجدالات غير السياسية. لقد اختفى التاريخ والسياسة، لأن الذاكرة والحقيقة والوجود الإنساني الفعلي قد انحط. لا تستطيع التحدث عن عذاب الفلسطينيين أو إحباط العرب لأن الحضور الإسرائيلي في الولايات المتحدة يحول دون ذلك. في مسيرة حماسية مؤيدة لإسرائيل في أيار، ذكر بول ولفويتز معاناة الفلسطينيين عرضيا فقوبل بأصوات الاستهجان العالية ولم يشر إلى ذلك مرة أخرى.

فضلاً عن حقوق الإنسان المتماسكة أو سياسة حرية التجارة التي تناصر بلا حدود الفضائل المؤكدة لحقوق الإنسان وتحرر الاقتصادات التي يعتقد أن نناصرها من المحتمل أن تقوضها مصالح مجموعات خاصة (كما نشهد تأثير اللوبيات الإثنية، صناعات الفولاذ والدفاع، كارتلات النفط، صناعة الزراعة، الناس المتقاعدين، لوبي البنادق، ما ذكرناه سوى القليل جداً). كل واحدة من المقاطعات التشريعية الممثلة في واشنطن (مثلاً) فيها صناعة دفاعية أو على علاقة بها؛ لذلك فإن وزير الخارجية (جيمس بيكر) قال قبل حرب الخليج الأولى، القضية الرئيسية في تلك الحرب ضد العراق كانت (الوظائف). حين يصل الأمر إلى القضايا الخارجية، فمن الجدير بالتذكير أن 25-30% فقط (مقارنة ب15% من الأمريكيين الذي سافروا إلى الخارج) من أعضاء الكونغرس ليس لديهم جوازات سفر حتى، لهذا ليس لما يقولونه أو يفكرون به إلا علاقة قليلة بالتاريخ أو الفلسفة أو المثل العليا ولا علاقة لهم بالذين يؤثرون على أعضاء الحملة وإرسال الأموال الخ. عضوان في المجلس (ايرل هيلارد من الاباما وسينثيا مكيني من جورجيا) داعمين لحقوق الفلسطينيين بحق تقرير مصيرهم ومنتقدين للسياسة الإسرائيلية انهزما أمام مرشحين مغمورين مولا جيداً وعلناً بنقود نيويورك (اليهودية) من خارج الولايات المتحدة. ووصفت الصحافة النائبين المهزومين بالمتطرفين وغير الوطنيين.

بقدر ما تعني سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فإن اللوبي الإسرائيلي لا ند له وقد تحول إلى فرع تشريعي في حكومة الولايات المتحدة أو ما سماه السيانتور جيمس أبو رزق مرة الأراضي المحتلة الإسرائيلية. لا يقارن باللوبي العربي حتى لو وجد، وفعاليته أقل بكثير. كمثال نموذجي عن المشكلة، يصدر مجلس الشيوخ مقدماً وبشكل دوري إلى الرئيس القرارات غير المرحب بها المرسلة التي تؤكد وتعيد الدعم الأمريكي لإسرائيل. كان هناك مثل هذا القرار في أيار، في الوقت الذي كانت فيه القوات الإسرائيلية تحتل وتدمر مدن الضفة الغربية الرئيسية. إحدى هذه المنفرات هو الموافقة والتصديق الجماعي لواحدة من أكثر السياسات الإسرائيلية تطرفاً والتي ستكون على المدى الطويل سيئة لمستقبل إسرائيل كواحدة من بلدان الشرق الأوسط. أثبت تومي جودت جيداً تلك الحالة، مقترحاً أن أفكار إسرائيل النهائية حول البقاء في الأرض الفلسطينية ستؤدي إلى طريق مسدود وتؤجل الانسحاب الحتمي.

كل موضوع الحرب ضد الإرهاب سمح لإسرائيل ومؤيديها بارتكاب جرائم حرب ضد كل السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة (3،4 مليون) منهم أصبحوا(كما في العبارة الشائعة) مصابين بإصابات غير قتالية (تيرجي-لارسين) المدير المنتدب للأمم المتحدة الخاص في الأراضي المحتلة،

أصدر تقريراً يتهم إسرائيل بتسببها بكارثة إنسانية: وصلت البطالة 65%، ويعيش 50% من السكان بأقل من 2دولار باليوم، ليس هناك دبابات فلسطينية تحتل أي مكان في إسرائيل أو حتى تتحدى المستوطنات الإسرائيلية. خلال الأسبوعين الماضين قتلت إسرائيل 75 فلسطيني أغلبهم من الأطفال، دمرت البيوت ورحلت الناس وخربت الأرض الزراعية الغنية وأجبرت الناس على البقاء في بيوتهم 80 ساعة متواصلة من حضر التجول، لم تسمح للمدنيين من عبور الحواجز أو سيارات الإسعاف والمعونة الطبية وقطع الماء والكهرباء المعتاد. لم تستطع المدارس والجامعات القيام بدورها. في حين لم تذكر هذه الحوادث اليومية عشرات القرارات الصادرة من مجلس الأمن منذ 35 سنة، في وسائل الإعلام الأمريكية إلا عرضياً، كهوامش لمقالات طويلة حول نقاشات الحكومة الإسرائيلية، أو التفجيرات الانتحارية التي تحدث. إن العبارة الصغيرة (مشتبه بالإرهاب) هي التبرير ونقش لضريح كل من يختاره شارون للقتل. لا تعترض الولايات المتحدة إلا بألطف العبارات مثل هذا (ليس مفيداً) لكن هذا (يعوق قليلاً) وهي تأييد لأعمال القتل القادمة.

الآن نحن أقرب إلى جوهر القضية. تتمحور سياسة الولايات المتحدة حول إسرائيل بسبب المصالح الإسرائيلية في هذه البلاد. حدثت أزمة فاترة بعد 11 أيلول برر فيها صقور المحافظين الجدد المصممين على تدمير أعداء إسرائيل (اليمين المسيحي واللوبي الإسرائيلي) حروب إدارة بوش شبه الدينية التي أعطيت أحياناً الطابع الملطف بإعادة رسم الخريطة بجلب تغيير أنظمة الحكم والديمقراطية إلى البلدان العربية الأكثر تهديداً لإسرائيل.(راجع القوى المحركة لفوضى العالم) بقلم (إبراهيم وردي) لاموند ديبلوماتيك- 22 أيلول و(صهاينة بالفطرة مرة أخرى) بقلم (كين سيلفرشتاين والأم جونز مايكل شيرر) - تشرين أول(2002). حملة شارون من اجل إصلاح فلسطيني هي الوجه الآخر لتدمير الفلسطينيين سياسياً، وهذا طموح حياته. وتعرضت مصر والعربية السعودية وسوريا والأردن أيضاً للتهديد بأشكال مختلفة،حتى لو كانت أنظمة بغيضة، فقد كانت محمية ومدعومة من قبل الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، كما كانت العراق في الواقع.

في الحقيقة، من الواضح لكل شخص يعرف أي شيء عن العالم العربي أن حالته محفوفة بالمخاطر قد يصبح قدره أسوأ إن بدأت الولايات المتحدة بالهجوم على العراق. يقول مؤيدو سياسة الإدارة أحياناً أشياء غامضة مثل الوضع المثير حين تجلب الولايات المتحدة الديمقراطية للعراق والدول العربية الأخرى، دون الاهتمام الكبير لما سيحدث بالضبط للناس الذين يعيشون هناك، خصوصا بعد أن تمزق أرضهم وبيوتهم قاذفات بي 52 بلا رحمة. لا أستطيع تخيل وجود عربي أو عراقي واحد يكره إزاحة صدام حسين. لكن تظهر المؤشرات كلها أن العمل العسكري الأمريكي-الإسرائيلي سيجعل الأشياء أسوأ للناس العاديين، وهذا لاشيء مقارنة بالقلق الرهيب، والتحريف النفسي والتشويه السياسي المفروض على مجتمعاتهم.

اليوم لا المعارضة العراقية المنفية التي غازلتها إدارتين أمريكيتين على الأقل ولا الجنرالات الأمريكيين المتنوعين مثل (تومي فرانكس) لهم مصداقية كبيرة كحكام لعراق ما بعد الحرب. وليس هناك اهتمام كبير لما سيحتاجه العراق بعد إزالة نظام حكمه، بعد أن يبدأ الفاعلون في الداخل في التحرك مرة أخرى وبعد أن يُصَفَىْ البعث. حينها قد يكون الوضع أسوأ حتى أن الجيش العراقي لن يشارك في المعركة إلى جانب صدام حسين. لكن الممتع في ثلاث جلسات استماع في الكونغرس لجنرالات سابقين، عبروا جميعهم عن تحفظات جدية ومعطلة حول مخاطر هذه المغامرة ككل. لكن

تلك الشكوك لم تهتم بشكل واف بالانشقاق الداخلي المضطرب والعامل الاثني-ديني خصوصاً بعد 30 سنة من الإضعاف تحت قيادة حزب البعث، وعقوبات الأمم المتحدة وحربين رئيسيتين (ثلاثة حين تهاجمهم الولايات المتحدة). لا احد في الولايات المتحدة، لا أحد إطلاقاً لديه أي فكرة عما سيحدث في العراق أو العربية السعودية أو مصر إن حدث تدخل عسكري رئيسي. يكفي أن نعرف لنرتعد من الخوف بأن (فؤاد عجمي وبرنارد لويس) هما مستشارا الإدارة الرئيسين. كلاهما معاديان للعرب إيديولوجياً وبشكل خبيث وسام بالإضافة أن غالبية زملائهما في نفس المجال يشكون بمصداقيتهما ويكذبونهما. لم يعش لويس في العالم العربي أبداً، إذاً ما الذي سيقوله عن هذا الهراء الرجعي؛ عجمي من جنوب لبنان، شخص كان مؤيداً تقدمياً للنضال الفلسطيني ثم انقلب إلى أقصى اليمين واعتنق الصهيونية والامبريالية الأمريكية دون تحفظ.

ربما وفر(11 أيلول) فترة من التأمل الوطني والتفكير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد صدمة تلك الوحشية المفرطة. يجب أن يجابه ذلك الإرهاب بالتأكيد ويتم التعامل معه بقوة لكن في رأيي يجب أن ينظر إليه باعتباره نتيجة استجابة قوية أولا، وليس مجرد رد فوري انعكاسي عنيف. لن يجادل أحد اليوم حتى بعد هزيمة طالبان أن أفغانستان الآن أفضل بكثير ومكان أكثر أماناً من وجهة نظر مواطني البلاد الذين لازالوا يعانون. من الواضح أن بناء-الأمة ليس أولية للولايات المتحدة هناك بما أن حروب أخرى في أماكن مختلفة أبعدت الاهتمام عن ميدان القتال الأخير. ولهذا ماذا يعني للأمريكيين أن يبنوا أمة وحضارة وتاريخ مختلف عن حضارتهم وتاريخهم مثل العراق؟ العالم العربي والولايات المتحدة مكانان أكثر تعقيداً وديناميكية مما تسمح به تفاهات وعبارات الحرب الطنانة وإعادة البناء. هذا واضح في ما تلا هجمات الولايات المتحدة على أفغانستان.

ويعقد الأمور بشكل أكبر وجود أصوات مخالفة ذات وزن مهم في الثقافة العربية اليوم وحركات إصلاح واسعة. ونفس الشيء في الولايات المتحدة هنا، لنحكم من خلال تجاربي الأخيرة حين حاضرت في جامعات مختلفة، أكثر المواطنين قلقون من الحرب، ومتلهفون لمعرفة الكثير وقبل كل شيء قلقون من الذهاب للحرب مع قيادة مسيحية محاربة أهدافها غامضة. في الوقت الحالي، كما عبرت (مجلة ذا نيشن) في افتتاحيتها الأخيرة، بأن "البلاد تسير نحو الحرب كما لو أنها نشوة، بينما يتخلى الكونغرس ببساطة عن دوره في تمثيل مصالح الشعب (مع عدد متزايد من الاستثناءات". وأنا كشخص عشت طيلة حياتي ضمن ثقافتين أرى بأن صدام الحضارات مرعب، تلك الفكرة السوقية المخففة رائجة جداً الآن واستولت على الفكر والفعل. ما نحتاج إليه الآن هو أن نستبدلها بإطار كوني من التفاهم والتعامل مع صدام حسين بالإضافة إلى شارون، حكام مانيمار وتركيا وكل الحشد من تلك البلدان التي تتحمل النهب بدون مقاومة كافية. هدم البيوت والتعذيب وإنكار حق التعليم يجب أن يعارض في أي مكان يحدث فيه. لا أعرف طريقة أخرى لإعادة خلق واسترجاع الإطار إلا من خلال التعليم، وتشجيع الحوار المفتوح وتبادل الأمانة الثقافية التي لن يكون فيها أي تعامل مع دفاع خفي خاص أو رطانات الحروب والتطرف الديني والدفاع الوقائي. لكن للأسف هذا يحتاج إلى وقت طويل، وللحكم من خلال حكومتي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، شريكتها الصغيرة، لن يحظى بأي تأييد. يجب أن نبذل كل طاقاتنا كي نثير حواراً وأسئلة مربكة، بذلك نبطئ ونوقف أخيراً اللجوء إلى الحرب الذي أصبح الآن نظرية وليس ممارسة فقط.

الدور العام للكتاب والمثقفين- محاضرة في ملبورن 19ايار 2001.

عقدت (مجلة ذا نيشن) مؤتمراً في نيويورك حول (من هو الكاتب ولماذا هو مقيد بالعناية والاهتمام) منذ عشرين سنة تقريباً وتكتمت عن الملاحظات التي صدرت عن الحدث لترك المسألة مفتوحة، كما فهمت

حضرت مئات الشخصيات الأدبية تلبية للدعوة وغصت الصالة الرئيسية في فندق منهاتن بحضور هائل. لقد كان المراد من المناسبة أن تكون رد المجتمعات المثقفة والفنية على استهلال فترة ريغان.

(كما أذكر الإجراءات) أثير نقاش طويل في البداية حول تعريف الكاتب بأمل أن يتم التخلص من بعض الأشخاص أو إجبارهم على المغادرة وذلك لسببين: الأول لتحديد من له حق التصويت، ثانياً لتشكيل اتحاد للكتاب. لم يحدث الكثير بسبب تقليل الأعداد: فقد ظل جمهور الناس المتحمس هائلاً لأن كل من جاء ككاتب كان معارضاً للريغانية كما هو واضح وبقي ككاتب معرضاً للريغاينة.

أتذكر بوضوح الاقتراح الحكيم لواحد من الحضور بوجوب تبني ما عرف بالموقف السوفيتي لتعريف الكاتب (أي) الكاتب: هو الشخص الذي يقول أنه كاتب. واعتقد أن هذا هو ما استقرت عليه الأمور، فرغم تشكيل اتحاد للكتّاب لكن وظائفه اقتصرت على مسائل فنية مهنية مثل العقود الموحدة والعادلة بين الناشرين والكتاب. وتشكل مؤتمر للتعامل مع القضايا السياسية أيضاً، لكن الأشخاص المؤثرين أخرجوه عن مساره لتنفيذ أجندة سياسية محددة أخرى لم تنل الإجماع.

لقد حدثت أشياء كثيرة في عالم الكتّاب والمثقفين منذ ذلك الأوان وأصبح تحديد أي تعريف للكاتب والمثقف أكثر تشويشاً وأصعب من قبل. لقد حاولت أن أدلو بدلوي في (عام 1993) في محاضراتي في ريث، لكن حصلت تغييرات رئيسية سياسية واقتصادية كثيرة منذ ذلك الوقت وعند التخطيط لهذا الحديث وجدت نفسي أعدل الكثير وأضيف إلى بعض آرائي السابقة. كانت التغييرات مركزية في التوتر العميق غير المستقر حول إمكانية وصف الكتاب والمثقفين بالسياسيين أم بغير السياسيين وفي حال الإيجاب كيف سيتم ذلك وبأي مقياس. تكمن صعوبة التوتر للكاتب والمثقف الفرد في توسع مملكة السياسي والشعبي كثيراً لدرجة أصبحت بلا حدود عملياً. حتى بتنا نشك إن كانت فكرة المثقف اللاسياسي والكاتب فيها كثير من المعنى.

تصور أن عالم الحرب الباردة ثنائي القطب قد أعيد ترتيبه وتفكيكه بطرق مختلفة تشترط عدد لا متناه من الأشكال المختلفة عن موقع وموقف الكاتب مادياً ومجازياً، بالإضافة إلى توفير الإمكانية لأدوار متشعبة يمثلها حينها لهذا يمكن القول إن فكرة الكاتب أو المثقف نفسها لم يظل لها أي معنى محدد ومتماسك أو حتى وجود.

رغم سيل الكتب والمقالات التي زعمت بأنه لم يعد هناك وجود للكتّاب والمثقفين وأن نهاية الحرب الباردة وافتتاح الجامعات الأمريكية لفيالق من الكتّاب والمثقفين وعصر الخصخصة الذي طال كل شيء والمتاجرة به وتحويله إلى سلعة في الاقتصاد الجديد المعولم أنهى الفكرة الرومانسية البطولية للكاتب-المثقف المنعزل (سوف أربط بين المصطلحين مؤقتاً للسهولة هنا، ثم أتابع تعليل أسبابي لذلك الفعل بعد لحظة) لكن لا يزال هناك كثير من الحياة كما يبدو في الأفكار والتطبيقات التي

تناولها الكاتب-المثقف وتشكل جزء من الميدان الشعبي. ولو لم تكن الحالة كذلك لما كانت هناك نقاشات كهذا النقاش الحالي.

في حضارات اللغات الثلاثة أو الأربعة المعاصرة التي أعرف شيئاً عنها يعتبر ذلك صحيح بشكل بارز وغامر لأن هناك عدد كبير من الناس لا يزالون يشعرون بحاجة للنظر إلى الكاتب-المثقف كشخص ينبغي أن يصغى إليه كمرشد للحاضر المربك، وكقائد زمرة أو جماعة تتنافس من أجل قوة ونفوذ أكبر. ويتضح الأصل الغرامشي لكلتا الفكرتين عن دور المثقف.

في العالم الإسلامي تستخدم الكلمتان الآن- مثقف أو مفكر- بنفس المعنى، الأولى مشتقة من ثقافة (رجل الثقافة) والأخرى من الفكر (رجل الفكر). في كلا المثالين يتعزز مقام هذين المعنيين ويتضخم بمقارنة ضمنية مع الحكومة التي ينظر إليها عموماً الآن بأنها تفتقر إلى المصداقية والشعبية أو الثقافة والفكر. لهذا في الخواء الأخلاقي الناشئ الذي أحدثته الحكومات الجمهورية العائلية مثل مصر والعراق وليبيا، تحول كثير من الناس إلى مثقفين دينيين أو علمانيين تابعين لقيادة لم تعد مزودة بحق سياسي، ومع ذلك استطاعت الحكومات أن تختار مثقفين ناطقين باسمها. لكن البحث عن المثقفين الحقيقيين مستمر باستمرار الصراع.

في المناطق التي تتكلم بالفرنسية تحمل كلمة مثقف معها بشكل ثابت بعض بقية الميدان الشعبي الذي جادلت فيه شخصيات ماتت مؤخراً مثل (سارتر وفوكو وارون) وعرضوا آراءهم على عدد كبير من الحضور. في أوائل ثمانينات القرن العشرين حين اختفى أكثر كبار المفكرين، رافق غيابهم ارتياح خبيث، وأعطى الكثير من الأشخاص الصغار فرصة للتعبير عن آراءهم لأول مرة منذ عهد زولا. في الوقت الحالي، فيما يبدو بأنه إحياء (لسارتر وبيير بورديو) أو أفكاره في إصدارات ليموند ليبراسيون أيقظ تذوق المثقف الشعبي إلى حد كبير قد أثر على عدد كبير من الناس كما أعتقد. يبدو النقاش حول السياسة الاقتصادية والاجتماعية نشيطاً وليس آحادي الجانب كما هو الحال في الولايات المتحدة.

عرض ريموند ويليامز الوجيز والبارع في (الكلمات الرئيسة لحقل القوة) لأكثر دلالات كلمة (مثقف) سلبية هي نقطة بداية جيدة لفهم علم الدلالات اللفظية التاريخي للكلمة كما فعلنا في بريطانيا. وعمقت الأعمال التالية (لستيفان كوليني وجون كيري) وغيرهما ونقت حقل الممارسة الذي وضع فيه المثقفون والكتاب. تابع ويليامز ليشير انه بعد منتصف القرن العشرين شملت الكلمة مجموعة أوسع من المرافقات التي يتعلق أكثرها بالايدولوجيا والإنتاج الثقافي والقابلية للفكر المنظم والتعلم. هذا يوحي بأن الإستخدام الإنكليزي توسع ليقبل ببعض المعاني والاستعمالات التي أصبحت شائعة تماماً في الفرنسية والنصوص الأوروبية عامة. لكن كما في المثال الفرنسي، رحل جيل (ويلامز) من المشهد (باستثناء الرائع والبليغ ايريك هوبسباوم) وللحكم من خلال بعض خلفائه في نيو لفت ريفيو، نرى بأنهم دخلوا حقبة جديدة من صوفية اليسار، خصوصاً منذ أن تبرأ نيو ليبور من ماضيه تماماً. إن المثقفين الليبراليين الجدد والتاتشريين في أوج سطوتهم تقريباً ولهم الأفضلية في الكثير من الوعاظ والمبشرين في الصحافة التي يتكلمون منها.

في المحيط الأمريكي، استخدمت كلمة مثقف في أقل من ثلاثة ميادين أخرى من النقاش والخطاب التي ذكرتها. ولا يسع المرء سوى أن يتساءل عن السبب. أحد الأسباب هو أن الاحترافية والتخصص يقدمان المعيار للعمل الثقافي أكثر مما يجري ذلك في العربية والفرنسية أو الانكليزية

البريطانية. لم تحكم طائفة الخبراء عالم الخطاب أبداً كما تحكم الآن في الولايات المتحدة. السبب الآخر حتى لو كانت الولايات المتحدة مملوءة فعلياً بالمثقفين المنشغلين بملء موجات الهواء والطباعة والفضاء الالكتروني بأحاديثهم، فإن الميدان الشعبي متعود على قضايا السياسة والحكومة، بالإضافة إلى مراعاة القوة والسلطة لذلك من الصعب أن تصمد فكرة المثقف الذي لا تدفعه رغبة في وظيفة أو طموح بأن يستمع إليه شخص في السلطة لأكثر من ثانية أو ثانيتين. الكسب والشهرة أقوى المحفزات. في السنوات الكثيرة من الظهور على التلفزيون أو المقابلات الصحفية لم يوجه لي أبداً السؤال التالي (ما الذي يجب على الولايات المتحدة أن تفعله بشأن هذه القضية أو تلك برأيك؟) اعتبر هذا مؤشراً عن كيف استوطنت فكرة الحكم في صميم قلب الممارسة الثقافية خارج الجامعة. ويمكن أن أضيف أن عدم الإجابة على هذا السؤال مسألة مبدأ بالنسبة لي. رغم ذلك لا يوجد في أميركا عجز في الميدان الشعبي لسياسة الموالاة، فالمثقفون مرتبطون عضوياً بحزب سياسي أو آخر ويمثلون مصلحة خاصة أو قوة أجنبية. وهناك أيضاً عالم خزانات الفكر الأمريكي وبرامج النقاش التلفزيونية المتنوعة، والبرامج الإذاعية التي لا تعد، عدا عن آلاف الصحف والدوريات والمجلات- كل ذلك يثبت كثافة إشباع النقاش بالمصالح والسلطات والقوى التي لا يمكن تخيل حجمها في المدى والتنوع لكن تشترك كلها بكونها تمثل قبولاً بدولة بعد الرفاهية الليبرالية التي لا تستجيب لمواطنيها ولا للبيئة الطبيعة وإنما لتركيبة واسعة من الشركات الكوكبية غير المقيدة بالعوائق التقليدية أو السيادات. (قدمت نيويورك تايمز 5 أيلول 2000 تقريراً مفصلاً بالتغيير الناتج) وقالت إن الخدمة الأجنبية للولايات المتحدة تفقد المستخدمين باستمرار لصالح الشركات العالمية) ورغم أن الكشف في ظل الأنظمة المتخصصة وممارسات الوضع الاقتصادي الجديد يكون متدرجاً وجزئياً فقد بدأنا نرى منظراً شاملاً هائل الحجم كيف أن تجمع تلك الأنظمة والممارسات (كثير منها جديدة وكثير منها من النظام الامبريالي التقليدي التي أعيد تعديلها) يوفر جغرافية غرضها إقصاء وتجاوز التوكيل الإنساني.(راجع يفيس ديزيلي وبيرانت جي غارث، المتاجرة بالفضيلة:التحكيم التجاري الدولي وتشييد نظام قانوني عابر للقارات، (شيكاغو 1996)

يجب أن لا تضللنا عبارات توماس فريدمان الجوفاء ودانييل يرغين وجوزيف ستانسيلاس، والفيالق التي هللت للإعتقاد بأن العولمة كنظام، هي أفضل حصيلة للتاريخ الإنساني، ويجب أن لا يفوتنا نتيجة لرد الفعل ملاحظة ما تستطيع تقديمه العولمة بواسطة الجهد والإبداع الإنساني، كما سماها ريتشارد فوك نظام عالم بعد-ويستفاليا. توجد شبكة مكثفة من المنظمات غير الحكومية أُنْشِئَتْ للاهتمام بالأقليات وحقوق الإنسان وقضايا النساء والبيئة وحركات التغيير الديمقراطي والثقافي لكن لا يستطيع أي منها أن يكون بديلاً عن الفعل السياسي أو تعبئتها الكثير لتجسيد مقاومة بوجه تقدم النظام الكوني القائم.

لكن، كما أثبت ديزيلي وغراث مؤخراً (لاموند ديبلوماتيك أيار 2000)، نظراً للتمويل الكبير من هذه المنظمات غير الحكومية الدولية، المرشحة للاختيار كأهداف لما سماه باحثان (أمبريالية الفضيلة) للقيام بدور ذيول للمؤسسات المتعددة القومية والمؤسسات الكبيرة مثل فورد، مراكز للفضيلة المدنية لإحباط أي تغيير عميق أو نقد للادعاءات العتيقة.

من الرعب في الوقت الحالي أن ندرك إنَّ تناقض الخطاب الثقافي للعالم الأكاديمي (في الإنسانيات أساساً وليس في العلوم الطبيعية أو الاجتماعية حتى) بنزعته القتالية المصابة بالرطانة لا يتأثر بكل ما يفعله المجال الشعبي من حوله. لقد قدم (ماساو ميوشي) دراسة رائدة عن هذا التباين، خصوصاً

في تهميشه للإنسانيات والفصل بين المجالين الأكاديمي والشعبي، الذي هو في الولايات المتحدة أكبر من أي مكان آخر، رغم نغمة (بيري اندرسون) الجنائزية عند استلامه رئاسة تحرير نيو ليفت ريفيو، ورأى أن هيكل البطل البريطاني والأمريكي والقاري المتبقي بالتحديد وعلى وجه الحصر سواء كان (أكاديمي وذكوري وأوروبي) باستثناء وحيد. استغربت بأنه لم يهتم بغير الأكاديميين مثل جون بيلغر واسكندر كوكبيرن أو شخصيات سياسية وأكاديمية مثل تشومسكي وهاورد زين والراحل إقبال أحمد وجيرماني جيرير أو شخصيات متنوعة مثل محمد سعيد أحمد وأنجيلا ديفيس وكورنيل ويست وهنري لويس غيتس وميوشي وراناجيت غوها وبارثا شاطرجي، دون ذكر المثقفين الإيرلنديين ومنهم سيموس دين ولوك جيبونز وديلان كيبرد وغيرهم، كلهم بالتأكيد لن يقبلوا برنة النواح الجليل لما سماه ب(فوز الليبراليين الجدد الكبير).

الحدث غير المألوف الوحيد لترشح رالف نادر في الحملة الرئاسية الأمريكية كمثقف أصيل مناوئ يسعى إلى أقوى منصب منتخب في العالم هو استخدام خطاب وأسلوب سهل وواضح وبعيد عن الغموض ومتحرر من الوهم بتزويد جمهور الناخبين غير الساخطين بمعلومات بديلة مدّعمة بالحقائق والأرقام. ويتناقض هذا تماماً مع أشكال الغموض المسيطرة والشعارات المبتذلة والإرباك والحماسة الدينية التي يرعاها مرشحو الحزبين الرئيسيين وبمصادقة وسائل الإعلام والأكاديمية الإنسانية بسبب عجزها. موقف (نادر) التنافسي هو علامة أكيدة على عدم انهزام الميول المعارضة في المجتمع الكوكبي:كما شاهد أيضاً اندفاع موجة الإصلاح في إيران واندماج الحركات الديمقراطية المعادية للعنصرية في أجزاء مختلفة من أفريقيا وغيرها، عدا عن الاعتداء على منظمة التجارة في تشرين الثاني 1999 في سياتل وتحرير الجنوب اللبناني الخ. ستكون القائمة طويلة، ومختلفة جداً عن النغمة العزائية التوافقية التي ينصح بها اندرسون. حملة نادر الانتخابية تختلف في مغزاها عن حملات خصومه، بأنه هدف فيها إلى إيقاظ وعي المواطنين الديمقراطي بأن إمكانية مشاركتهم في ثروات البلاد ليست جشعاً أو إجماعاً ساذجاً لما تقره السياسة.

بعد أن لخصت التماثل بين كلمتي (مثقف وكاتب) وعلاقتهما ببعض، من الأفضل لي الآن أن أبيين لماذا وكيف تنتميان لبعضهما البعض رغم انفصال تاريخ وأصل الكاتب. في اللغة اليومية - الكاتب في اللغات والثقافات المطلع عليها هو شخص ينتج الأدب مثل (الروائي أو الشاعر أو الكاتب المسرحي، كما أعتقد أن للكاتب مكانة مبجلة ومنفصلة أكبر مما للمثقف في كل الثقافات ؛ إن هالة الإبداع والمقدرة الطاهرة للأصالة (النبوئية في مداها ونوعيتها) تعطيهم الحق دونا عن كل المثقفين، الذين، فيما يتعلق بالأدب، ينتمون إلى طبقة طفيلية وأدنى قليلاً من النقاد. (هناك تاريخ طويل من الهجوم على النقاد كوحوش كريهة تافهة عاجزة عن كل شيء عدا النقد والمتاجرة بالكلمات المتحذلقة) لكنه في العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين اضطلع بكثير من صفات المثقفين المناوئة وذلك في الانخراط في نشاطات مثل التكلم بالحقيقة في وجه السلطة، كونه شاهداً على المعاناة والعذاب، ووفر الرأي المعارض في الصراعات مع السلطة. علامات اختلاط الأول بالآخر كان يجب أن تشمل حالة سلمان رشدي بكل تشعبها، وتشكيل مجالس من الكتاب ومؤتمرات مكرسة لقضية عدم التحمل وأمثالها، وحوار الحضارات، والنضال المدني (كما في البوسنه والجزائر)، وحرية الكلام والرقابة، والدور الرمزي الخاص للكاتب كمثقف يظهر ويثبت تجربة البلاد بإعطائها هوية شعبية محفورة للأبد في أجندة العالم المتنقلة. أسهل طريقة لإظهار ذلك هو إدراج أسماء بعض الحائزين على جائزة نوبل الحديثين (وليس كلهم بأي حال)، ثم السماح لكل اسم

بتحفيز حقل رمزي في الدماغ، يمكن إعتباره نوع من المنصة أو نقطة انطلاق لنشاط الكاتب اللاحق كتدخل في نقاشات تحدث بعيدة عن عالم الأدب مثلما فعلت (نادين غورديمر) وكنزابورو اوي وديريك ولكوت وولي سوينكا وغابرابيل غارسيا ماركيز واكتافيو باز وايلي ويزيل وبرتراند روسل وغنتر غراس وريغوبيرتا مينشيو من بين آخرين كثيرين.

من الصحيح أيضاً، كما بينت باسكال كازانوفا بشكل رائع في كتابها الشامل (جمهورية الأدب العالمية) التي تشكلت في المائة وخمسين سنة الأخيرة وتبدو الآن كنظام كوكبي جاهز للأدب، تكمل مع نظامها الخاص، للأدب إيقاع ومعيار العالمية وقيم السوق. إن فعالية النظام هي توليد نماذج من الكتاب ونسبهم إلى أصناف مختلفة كمتفهمين ومنشقين ومتنقلين، متميزين في نظام سوق كوكبي عالي الكفاءة. معنى حجتها في الواقع هو التأكيد بأن هذا النظام القوي الشامل يستطيع أن يتمادى إلى إثارة نوع من الاستقلال عنه، في حالات مثل (جويس وبيكيت) اللذان لم يخضعا لغتهما وإملاءهما لقوانين الدولة أو النظام.

رغم إعجابي الكبير بكتاب كازانوفا إلا أن إنجازه الكلي متناقض. يبدو أنها تقول أن الأدب كنظام معولم له نوع من الاستقلال الذاتي المتكامل الذي يضعه في مقياس كبير وأبعد من الحقائق الفظة للمؤسسات والسياسية والخطاب، فكرة لها نظرية معقولية ظاهرة حين تصيغها في شكل (أدب عالمي فسيح) بقوانينه التفسيرية الخاصة به، وعلاقته الجدلية الخاصة بين العمل الفردي والعمل الجماعي وإشكاليته المستعصية في القومية واللغات الوطنية. لكنها لم تتمادى في القول كما فعل ادورنو الذي أخطط للعودة إليه بشكل مختصر في نهاية حديثي، إن إحدى علامات الحداثة الرئيسية، هي كيف يجب على الجمالي والاجتماعي أن يظلا في حالة من التوتر الذي لا يقبل التسوية في مستوى عميق جداً. كما أنها لم تخصص الوقت الكافي لمناقشة الطرق التي لا يزال بها الأديب أو الكاتب متورطاً ومعبئاً في الحقيقة لإستخدامه في النزاعات الكبرى لفترة ما بعد الحرب الباردة في أغلب الأحيان التي تأججها الهيئات السياسية المتبدلة التي تكلمت عنها سابقاً.

وبحسب ذلك المنظور، فإن النقاش الدائر حول سلمان رشدي مثلاً، لم يكن أبداً حول السمات الأدبية للآيات الشيطانية بقدر ما كان حول إمكانية المعالجة الأدبية لموضع ديني دون إثارة نوبات انفعال دينية بطريقة شعبية خطرة جداً. (راجع التحليل الرائع لمحمد حسنين هيكل) على أطراف الأدب والدين والسياسة، وجهات نظر تموز 2000). لا أعتقد بوجود مثل هذه الإمكانية، فمنذ اللحظة الأولى التي صدرت فيها الفتوى للعالم أودعت الرواية ومؤلفها وقراءها مباشرة داخل بيئة لا تسمح لأي شيء سوى الجدال الثقافي المسيس حول هذه القضايا الاجتماعية-الدينية كالتجديف، والمنشق العلماني وتهديدات بالاغتيال عابرة للمحلية. كي نؤكد أن حرية سلمان رشدي في التعبير كروائي لا يمكن اختزالها- كما أكد كثير منا من العالم الإسلامي- وفي الحقيقة كان ذلك ضمن مناقشة لقضية الحرية الأدبية في الكتابة ضمن خطاب ابتلع سلفاً واحتل تماماً عزلة الأدب بشكل كلي(في المعنى الجغرافي).

في ذلك المحيط الأوسع ليس هناك ضرورة لوضع فرق أساسي بين الكاتب والمثقف طالما كلاهما يعملان في المجال الشعبي الجديد الذي تهيمن عليه العولمة (وافترض وجوده نصراء فتوى الخميني) ويمكن مناقشة دورهم العام ككتاب ومثقفين وتحليله معاً. وسأعبّر عنها بطريقة أخرى، سوف أركز على ما يشترك به الكاتب والمثقف بما أنهما يتدخلان في المجال العام. لا أريد أن أتخلى

عن إمكانية بقاء منطقة لم تتأثر بالعولمة وخارجها سأناقشها هنا لكن كما قلت لا أريد أن أناقشها حتى النهاية بما أن اهتمامي الرئيسي هو دور الكاتب ضمن النظام القائم فعلياً.

دعني أقول شيئاً عن الخصائص الفنية لتدخل المثقف في العصر الحالي. لكي نأخذ فكرة نشطة مثيرة عن السرعة التي تزايدت بها الاتصالات خلال العقد الماضي، أود أن أقارن بين إدراك (جوناثان سويفت) للتدخل الشعبي الفعال في بدايات القرن الثامن عشر وإدراكنا. كان (سويفت) المؤلف الأكثر هيمنة في عصره، وأثناء حملته ضد دوق مارلبورو في عامي 1713-14 كان قادراً على أن يطرح 15,000 نسخة من كتيبه (سلوك الحلفاء) في الشوارع خلال بضعة أيام. وتمكن من إزاحة هذا الدوق من منصبه العالي لكن ذلك لم يبدل انطباع سويفت المتشائم (العائد إلى حكاية حوض الاستحمام- 1694) بأن كتابته مؤقتة أساساً، ومناسبة للوقت القصير الذي يتم تداولها فيه. كان في باله طبعاً السباق بين القدماء والحديثين الذي كانت فيه لكتاب مبجلين مثل هومر وهوراس أفضلية على الشخصيات الحديثة مثل درايدن بفضل عمرهم وأصالة آراءهم في التعمير الطويل وحتى البقاء الدائم.

في عصر وسائل الإعلام الالكترونية مثل هذه الاعتبارات غير واردة، بما أن أي شخص معه حاسوب ومأخذ انترنت لائق، قادر على الوصول إلى عدد من الناس أكبر بأضعاف مضاعفة ويستطيع التطلع إلى الحفاظ على ما هو مكتوب أيضاً فوق أي مقياس يمكن تخيله. يجب أن نعدل فكرتنا اليوم عن الأرشيف والخطاب بشكل جذري ولم يعد بالإمكان تعريفهما كما حاول فوكو جاهداً لوصفهما منذ عقدين. حتى لو كتب شخص إلى صحيفة أو دورية تظل هناك فرص لتضاعف الإنتاج ونظريا على الأقل الحفظ لوقت غير محدد قلل تخريب ودمار فكرة الواقعية بدلاً من الحضور الإفتراضي. رغم أن هذه الأشياء قيدت السلطات التي تراقب أو تمنع الكتابة التي تعتبرها خطيرة، فسوف أظهر في الحال، وجود وسائط فجة لإيقاف أو حجب وظيفة الطباعة على الانترنت. حتى الوقت الحالي تستطيع بعض الدول منع الانترنت وحتى محطات التلفزيون الفضائية ثم سمحت فيما بعد بوصول محدود للانترنت رغم أن هذه الدول نصبت منافذ متطورة للانترنت، كلن لديها أجهزة منع تهدف للمحافظة على سيطرتها.

كما تشهد الأشياء، يمكن أن أكتب مقالة في نيويورك تايمز الصحيفة البريطانية وتتوفر لها فرصة الظهور على مواقع الكترونية منفردة أو عبر البريد الالكتروني في الولايات المتحدة واليابان وباكستان والشرق الأوسط وجنوب أفريقيا واسترالية أيضاً. إن سيطرة المؤلفين والناشرين على إعادة طبع المادة ونشرها أصبحت قليلة جداً. أنا أندهش بشكل دائم حين يعم ما أكتبه أو أقوله نصف العالم دون تأخير. لمن يكتب المرء إذا كان من الصعب تحديد الحضور بأي نوع من الدقة؟ هل يركز أكثر الناس على المخرج الفعلي الذي ابتدع القطعة الأدبية أم على القراء المفترضين الذين نود أن نخاطبهم. اكتسبت فكرة المجتمع المتخيل أخيراً بعداً حقيقياً إن لم تكن فعلياً. بالتأكيد، كما جربت أن أكتب منذ عشر سنوات في المنشورات العربية لجمهور القراء العرب، يحاول المرء أن يخلق ويشكل ويرجع إلى جمهور الأنصار، الآن أكثر من أيام سويفت الذي استطاع أن يفترض بأن الشخصية التي اسماها رجل كنيسة انكلترا كانت في الواقع جمهوره الصغير الفعلي.

لذلك يجب علينا أن نعمل بفكرة الوصول المحتمل إلى عدد أكبر من الحضور الذي يفوق ما كنا نتخيله قبل عقد من الزمن لكن فرص الاحتفاظ بهذا الحضور تعتمد على الحظ. هذا ليس مجرد مسألة تفاؤل إرادة: إنه في طبيعة الكتابة نفسها. ما يصعب الأمور على الكتّاب هو الإفتراضات

الشائعة بينهم وبين قرائهم والتسليم بها أو التظاهر بأن الإشارات والتلميحات مفهومة مباشرة. حين يمكن التسليم بالافتراضات تكون خاطئة عادة لأنها تنزع لأن تكون تلك الأفكار السائدة والمقبولة التي يسعى المثقف إلى طردها وتفكيكها وتغيرها تماماً. لكن الكتابة في هذا الفضاء المتوسع الجديد يكمن خطر آخر غير عادي وهو أن تتشجع لقول أشياء تكون إما مبهمة وعويصة تماماً أو شفافة وواضحة، وإن كان في المرء أي إحساس بدوره الثقافي والسياسي يجب أن تكون كتابته من الصنف الآخر وليس الأول. نثر شفاف وبسيط وواضح يمثل تحدياته، بما أن الخطر الحاضر دائما هو إمكانية السقوط في الحيادية الساذجة المضللة للغة عالم الصحافة الإنكليزية الذي لا يختلف عن كتابة (السي إن إن أو يو إس إي) تودي. الورطة حقيقية، إن كان الغرض تنفير القراء (والأخطر تطفل المحررين) أو محاولة كسبهم بأسلوب يشبه العقلية التي يحاول المرء فضحها وطردها. الشيء الذي أتذكره وأكرره لنفسي، هو لا توجد أية لغة متوفرة أخرى، إن اللغة التي استعملها يجب أن تكون نفس اللغة المستعملة بواسطة وزارة الخارجية أو الرئيس حين يتشدقان بدفاعهما عن حقوق الانسان، ويجب علي أن استخدم نفس اللغة لاسترد الموضوع وأعيده إلى الصواب وأعيد ربطه بالحقائق المعقدة، الحقائق التي بسطها خصومي ذوي الامتيازات وخانوها وقللوها أو بددوها تماماً. يجب أن يكون واضحاً من الآن للمثقف الذي لا يهدف إلى تقديم مصلحة أحد ما بأنه سيكون له خصوم يعتبرون أنفسهم مسؤولون عن الوضع الحالي للأمور، خصوم يجب عليه أن يتعاطى معهم مباشرة.

بينما من الحقيقي وغير المشجع أيضاً أن كل المخارج الرئيسية تسيطر عليها المصالح الأكثر قوة وبالتالي الخصوم الذين يقاومهم المرء أو يهاجمهم، صحيح أيضاً أن المثقف المعبئ نسبياً يمكن أن ينتهز الفرصة ويزيد أنواع المنابر المتوفرة للاستخدام. لذلك من الجانب الأول، تتحكم بعالم أنباء وصور العالم ست شركات متعددة القومية يرأسها ستة رجال. من الجانب الآخر، هناك مثقفون مستقلون يشكلون تجمعاً أولياً حقيقياً، مفصولون عن بعضهم البعض لكنهم متصلون بطرق مختلفة مع عدد كبير جداً من التجمعات الناشطة التي تنأى بنفسها عن وسائل الإعلام السائدة ولديهم تحت تصرفهم أيضاً أنواع أخرى مما سماه سويفت آلات الخطابة. فكر بكثرة الفرص المتوفرة للمحاضرة والكراس والإذاعة والصحف البديلة والمقابلات واللقاءات العامة ومنابر الكنائس والانترنت ولم أذكر سوى القليل. صحيح أن هناك خسارة مهمة حين يدرك المرء أن احتمال دعوة البي بي إس أو نايتلاين له بعيدة الاحتمال وإن وجهت له دعوة ستكون لحظة شاردة ومعزولة. لكن هناك مناسبات أخرى تقدم نفسها ليست بنفس الحجم والتأثير لكنها في زمن أطول وأكبر. لهذا فالسرعة سلاح ذو حدين. هناك سرعة في الأسلوب المختصر الشعاراتي وهو الميزة الرئيسية لخطاب الخبراء – وبصورة أدق- سريع –مصاغ وبراغماتي في مظهره- وهناك سرعة الرد وحجمه الذي يستطيع استغلالها أغلب المواطنين والمثقفين لكي يقدموا تعبيرات أشمل وأكمل لرأيهم البديل. أنا أقترح ذلك بالاستفادة مما هو متوفر في شكل منابر هائلة (أو منصات متنقلة- مصطلح آخر لسويفت) ورغبة متيقظة ومبدعة لاستغلالها من قبل المثقفين (أي، المنابر سواء هي غير متوفرة أو التي تجنبتها الشخصيات التلفزيونية والخبراء والمرشحون السياسيون) من الممكن البدء في نقاش أوسع.

يجب ألا يتم الاستخفاف بإمكانية هذا الوضع الجديد في التحرير والخطر عليه. دعوني أضرب مثالاً حديثاً وقيماً جداً لما أقصده. هناك حوالي أربعة ملايين لاجئ فلسطيني مبعثرين في كل أنحاء العالم، يعيش عدد مهم منهم في مخيمات اللاجئين في لبنان (حيث حدثت مذابح صبرا وشاتيلا عام 1982)

والأردن وسوريا وفي غزة والضفة الغربية. وفي عام 1999 قامت مجموعة مقدامة من الشباب واللاجئين المثقفين الذين يعيشون في مخيم دهيشه قرب بيت لحم في الضفة الغربية بتأسيس مركز الإبداع الذي كان أهم ميزة فيه مشروعه العابر للحدود؛ كانت طريقة ثورية بواسطة محطات الحاسوب لربط اللاجئين في أغلب المخيمات الرئيسية، المفصولة جغرافياً وسياسياً بعوائق صعبة جداً عن بعضها البعض. لأول مرة منذ أن تفرق وتشتت آباءهم في عام 1948، استطاع الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين في بيروت أو عمان التواصل مع نظراءهم في داخل فلسطين. ما فعله بعض المشاركين في المشروع كان مميزاً. لهذا استمر ساكنو دهيشه بزيارة قراهم السابقة في فلسطين، ثم وصفوا عواطفهم وما رأوه لفائدة اللاجئين الآخرين الذين سمعوا لكنهم لم يتمكنوا من النفوذ إلى تلك الأماكن.

في ظرف أسابيع انبثق تضامن رائع مع الوقت في وقت ما سمي بمفاوضات الوضع النهائي بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل تبنى قضية اللاجئين والعودة وقضية القدس التي شكلت الجزء المعقد في عملية السلام الباهتة. لقد تحقق لبعض اللاجئين الفلسطينيين حضورهم السياسي لأول مرة وأعطاهم وضعاً جديداً يختلف نوعياً عن المعارضة السلبية التي ظلت قدرهم لنصف قرن. في 26 آب 2000، دُمِرَتْ أجهزة الحواسيب في دهيشه في عمل سياسي تخريبي لم يترك أي مجال للشك بأن القصد هو أن يبقى اللاجئون لاجئين، مما يعني ليس مطلوباً منهم إقلاق وتشويش الوضع القائم الذي افترض صمتهم منذ زمن بعيد. ليس من الصعب إدراج المشبوهين، لكن من الصعب وبنفس الدرجة أيضاً تخيل تسمية أي شخص. على كل حال، بدأ سكان مخيم دهيشة مباشرة في استرجاع مركزهم (إبداع) ونجحوا بذلك إلى حد ما.

في هذا السياق إن الإجابة على السؤال (لماذا) يفضل بعض الأفراد والجماعات الكتابة والكلام على السكوت هي مرادف لتحديد ما يواجهه الكاتب والمثقف في المجال الشعبي. أقصد وجود أفراد ومجموعات تبحث عن عدالة اجتماعية ومساواة اقتصادية وتدرك (كما صاغت امارتيا شون) أن الحرية يجب أن تشمل الحق في عدد كامل من الخيارات التي توفر التطور الثقافي والسياسي والفكري والاقتصادي، وهذا نفسه سيقود المرء إلى الرغبة في النطق كرفض للصمت. هذا هو الخطاب الوظيفي لمهنة المثقف وبسبب ذلك يقف المثقف في موقع يمكن فيه ويصوغ هذه الآمال والرغبات.

الآن كل تدخل استطرادي مخصص طبعاً لمناسبة معينة ويزعم بوجود الإجماع، هو نموذج معرفي ومثال عملي (يمكننا انتقاء مفهومنا المفضل الذي يظهر المعيار السائد المقبول) لذلك فإنه خلال حرب الناتو ضد كوسوفو، أو الانتخابات القومية في مصر والولايات المتحدة أو ممارسات الهجرة في بلد أو آخر، أو البيئة والأحياء في غرب أفريقيا. في كل هذه الأوضاع والكثير غيرها، فإن السمة المميزة للفترة التي نعيش فيها هو ميلها إلى أرثوذوكسية إعلام (سائد حكومي) من الصعب جداً الاستمرار ضدها حتى لو زعم المثقف بوجود بدائل واضحة. لهذا سوف أبدأ بتكرير الواضح، إن كل وضع يجب أن يفسر وفقاً لحقائقه لكن (سأحاول أن أثبت أن هذه هي الحالة الدائمة تقريباً) كل وضع يحتوي أيضا ًصراعاً بين نظام المصالح الجبار من جهة وبين المصالح الأقل قوة المهددة بالفشل والإسكات والدمج أو الإنقراض من جهة أخرى. ومن البديهي أن تكون مسؤولية المثقفين الأمريكيين أكبر فالثغرات هائلة والتحديات صعبة. الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة أولاً وأخيراً؛وتتدخل في كل مكان تقريباً ومواردها للسيطرة هائلة جداً لكنها ليست مطلقة.

إن دور المثقفين عموماً جدلي ومتناقض وهو أن يكشفوا ويوضحوا الصراع الذي أشرت إليه سابقاً وأن يقهروا الصمت المفروض بالقوة والهدوء المطيع للسلطة الخفية أينما وكلما كان ذلك ممكناً. هناك تكافؤ اجتماعي وثقافي بين هذه الكتلة من المصالح الجماعية المتسيدة وبين الخطاب المستخدم لتبرير وتمويه وتشويش أعمالها في الوقت الذي تمنع فيه المعارضات أو التحديات لها في الجانب الآخر. في عصرنا و بكل العالم تقريباً، أصبحت عبارات مثل (سوق حرة) و(خصخصة) و(تحكم أقل) وغيرها، العقيدة التقليدية للعولمة وشموليتها الزائفة ومسامير الخطاب المهيمن المكرس لتصنيع القبول والوفاق ضمني أيضاً. من تلك الروابط تنبعث مستحضرات إيديولوجية مثل (الغرب) و(صراع الحضارات) و(القيم التقليدية والهوية)- ربما تكون أكثر العبارات المستخدمة في قاموس اليوم التي لا تنشر لتحريض الحوار كما تبدو به وإنما على العكس تماماً، لإستغلال العداء العميق ونزعة التعصب وإخماد واحتلال وسحق المنشق كلما واجه الكونيون أي مقاومة أو ارتياب.

الهدف الرئيس لهذا الخطاب المهيمن تعديل منطق اتحاد صانعي الأرباح والسلطة السياسية المتوحش وتحويله إلى مسألة العادية(هذه هي الطريقة التي تكون فيها الأشياء) وترجمة المقاومة المنطقية لهذه الأفكار إلى شيء غير واقعي وغير منطقي وطوباوي الخ. يكمن وراء العروض الملغومة للحوار الفعال المتعلق بالغرب والإسلام مثلاً، كل أنواع معاداة الديمقراطية والتظاهر بالتقوى والوسائل المنفرة (نظرية الشيطان الأكبر والدول المارقة والإرهاب) المعدة كالهاء عن التجريد الاجتماعي والاقتصادي الذي يحدث في الحقيقة. من جانب يحض رافسنجاني البرلمان من أجل درجات أكبر من الأسلمة كدفاع ضد أميركا ومن جانب آخر، يحضر كلينتون وبلير وشركاءهما الواهنون مواطنيهم لحرب لا نهاية لها ضد الإرهاب الإسلامي والدول المارقة والبقية. لقد نقلت الواقعية ورفيقتها المقربة البراغماتية من سياقهما الفلسفي الموجود في أعمال بيرس وديوي وجيمس في لجوء إلى الجهد القسري في غرف اجتماعات الشركات حيث، كما عبر غور فيدال، تتخذ القرارات الحقيقية بشأن الحكومة ومرشحي الرئاسة. والحقيقة المُرة الأخرى أن الإنتخابات لا تنتج ديمقراطية أو نتائج ديمقراطية بشكل آلي.

كاستعداد ضد انتهاك آلية الدفاع عن الهوية التي استفحلت جداً في الفكر القومي ابتداء من تجذرها في التعليم إلى التعبير عنها في الخطاب الشعبي، يجب على المثقف أن يوفر بدل ذلك تعليل نزيه يبين كيف أن الهوية والتقاليد والأمة أشياء متراكبة معا في شكل خطير من المتناقضات الثنائية التي يعبر عنها بشكل محتم في مواقف العداء تجاه الآخر. كل مجال عام اليوم مصاب بعدوى هذا النوع من التفكير. ومن المؤكد أن المرء لا يستطيع أن ينكر أن بعض الهويات مهددة فعليا بالدمار والهجوم، لكن حتى تلك الأخطار الفعلية على الهوية وحق تقرير المصير تستغل بشكل كلبي لتبرير القمع السياسي غير المبرر. وهذا صحيح في فلسطين بشكل خاص، التي تشجع إسرائيل وحكومة الولايات المتحدة السلطة فيها للحفاظ على محكمة أمن الدولة سيئة الصيت التي سمحت، من بين الانتهاكات الكثيرة، بسجن وتعذيب أي نوع من المنشقين، والرقابة الشاملة على الكتب والجرائد والمجلات، وأغلقت بشكل متكرر القنوات التلفزيونية والإذاعية من نشر ولو نفحة بسيطة من النقد لعملية السلام أو للسلطة نفسها. كل هذا جرب باسم الشعب الذي جرد وطرد من أرضه وعانى طويلاً وحرم من حقه في الإقتراع.

النزعة المشؤومة هي قول، ما يقوله المدافعون عن الحكومة دائماً وفي كل مكان أثناء أوقات الحرب أو في الظروف القومية الطارئة، بأننا يجب أن نندمج معاً ونبدي الوحدة في وجه الأخطار التي تهدد

الدولة وهكذا. بينما أعتقد أن الأهمية مضاعفة في مثل هذه الظروف الصعبة، لنا و للغرب عموماً والولايات المتحدة خصوصاً، بأن نتخلص من وطنيتنا وولاءنا اللذان يستخدمان عادة كغطاء لانتهاكاتنا لحقوق الإنسان.

اقترح بيير بيرديو وزملاءه بشكل مشوق أن نيوليبرالية كلينتون-بلير، التي تأسست على تفكيك محافظ للمنجزات الاجتماعية العظيمة لدولة الرفاه (في الصحة والتعليم والعمل والضمان الاجتماعي) خلال فترة تاتشر-ريغان وأنشأت عقيدة أرثوذكسية متناقضة، ثورة مضادة رمزية اشتملت بوضوح على نوع من تمجيد الذات القومية التي ذكرتها. ويقول (هذه نزعة محافظة لكنها تقدم نفسها كتقدمية؛ تسعى لإستعادة النظام السابق في بعض أقدم مظاهره (خصوصا فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية)، حتى أنها تجاوزت كل تراجع، انعكاس، انكفاء واستسلام كإصلاحات حديثة أو ثورات تقود إلى عصر جديد كامل من الوفرة والحرية (كما يسمى باللغة ب(الاقتصاد الجديد) والخطاب المنتصر في كل(شركات شبكات البث التلفزيوني والإذاعي) و(الانترنت).

كمذكر بضرر هذا الانعكاس الذي حصل، أصدر بورديو وزملاءه عملاً جماعياً في 1993، بعنوان (بؤس العالم) الذي ترجم إلى الإنكليزية ب(وطأة العالم: العذاب الاجتماعي في المجتمع المعاصر) وكان هدفه أن يفرض انتباه السياسيين لما خبأته التفاؤلية المضللة للخطاب الشعبي في المجتمع الفرنسي. كتاب كهذا يلعب دور ثقافي سلبي، هدفه كما يقول بورديو (أن ينتج وينشر أدوات دفاع ضد الهيمنة الرمزية التي تعتمد باستمرار على سلطة العلم) أو الخبرة أو ترضي الوحدة الوطنية والفخر والتاريخ والتقاليد لإكراه الناس على الخضوع والطاعة. من الواضح أن الهند والبرازيل تختلفان عن بريطانية والولايات المتحدة، لكن تلك التباينات اللافتة في الثقافات والاقتصاد لا يجب أن تحجب إطلاقا أشكال التماثل التي يمكن رؤيتها في بعض التقنيات بهدف الحرمان والقمع دائماً الذي يجبر الناس بأن ينقادوا صاغرين. أحب أن أضيف أنه ليس على المرء أن يقدم نظرية عميقة ومفصلة للعدالة دائما ليذهب إلى حرب مضادة العدالة فكرياً وذلك لوجود عدد هائل من الاتفاقيات والبروتكولات والقرارات والمواثيق الدولية التي بإمكان السلطات القومية الالتزام بها إن رغبت بذلك. وبنفس السياق أعتبر أخذ موقف بعد حداثي متطرف هو غباء تقريباً (مثل ريتشارد رورتي وهو يتوهم بأنه يلاكم شيء غامض يشير إليه باحتقار ب(اليسار الأكاديمي) ويقول حين يواجه التطهير العرقي أو الإبادة الجماعية كما يحدث اليوم في العراق، أو أي شر من التعذيب والرقابة والمجاعة والجهل (أكثرها دبرها البشر وليس الآلهة) إن حقوق الإنسان هي أشياء ثقافية، وحين تنتهك ليس لديها المنزلة التي يمنحها لها المتعصبين الخام مثلي بأنها حقيقية كأي شيء نستطيع مصادفته.

يصح القول كما أعتقد بأن إفراغ الخضوع من التسيس وإضفاء عناصر جملية عليه، مع أشكال مختلفة أخرى مثل نزعة الإنتصار ورهاب الأجانب أحياناً و اللامبالاة والانهزام أحياناً أخرى، أصبح مطلوباً بشكل رئيسي منذ ستينات القرن العشرين لتهدئة المشاعر المتبقية في الرغبة في المشاركة الديمقراطية (التي تعرف أيضاً بالخطر على الاستقرار) الذي لا يزال موجوداً. يمكن للمرء أن يقرأ الكثير في كتاب (أزمة الديمقراطية) الذي شاركت بتأليفه قبل انتهاء الحرب الباردة بعقد من الزمن بناء على توصية اللجنة الثلاثية. خلاصة الكتاب ترى أن الكثير من الديمقراطية يضر بممارسة السلطة ، التي ذخيرتها من السلبية تسهل على الأقليات من التقنيين وخبراء السياسة في إجبار الناس على الطاعة. لهذا لو ظل خبراء مؤهلون يحاضرون بشخص بلا نهاية ويشرحون

له أن الحرية التي نريدها كلنا تتطلب الخصخصة وإلغاء التنظيم وأن العالم الجديد نهاية التاريخ، عندها ستنخفض النزعة لمواجهة هذا النظام كثيراً وكذلك المطالب الفردية أو حتى الجماعية. ظل تشومسكي يتعامل بلا هوادة مع هذه المتلازمة الصاعقة سنوات كثيرة.

دعني أعطي مثالاً عن شدة تلك التحديات المرعبة للفرد ومدى سهولة السقوط في الكسل، من تجربة شخصية لي في الولايات المتحدة اليوم. لو أصابك مرض خطير وأقحمت فجأة في عالم المنتجات الدوائية الغالية بشكل باهظ، التي لا يزال اغلبها تجريبية وبحاجة إلى موافقة الاف دي إي وحتى تلك الأدوية غير التجريبية وغير الجديدة (مثل الستيروإيدات والمضادات الحيوية) منقذة للحياة لكن نفقتها الباهظة تعتبر ثمناً صغيراً مقابل فعاليتها. كلما أمعن المرء أكثر في المسألة صادف تبرير مشترك، فقد تكون كلفة تصنيع الدواء قليلة (عادة صغيرة جداً)، لكن كلفة البحث ضخمة جداً ويجب أن تسترد في المبيعات اللاحقة. ثم تكتشف أن جل كلفة البحث جاءت للشركة بشكل منحات حكومية، التي أتت بدورها من الضرائب التي يدفعها المواطن.

حين تتحدث عن إنتهاك الأموال العامة بطريقة مثل الأسئلة التي وجهت إلى مرشح واعد بعقلية تقدمية (مثل بيل برادلي) تفهم بسرعة لماذا لا يثير مثل هؤلاء المرشحين المسألة. فهم يتلقون تبرعات هائلة لحملاتهم الانتخابية من ميريك وبريستول مايرز ومن غير المحتمل أن يتحدوا داعميهم. لهذا تستمر في الدفع والعيش، لنفترض أنك محظوظ ولديك عقد تأمين وتدفع شركة التأمين النفقات. لكنك تكتشف أن محاسبي شركة التأمين هم من يقرروا من يحصل على علاج مكلف أو فحص وما هو مسموح أو غير مسموح وطول مدة العلاج وفي أي ظروف، ولا تفهم إلا حينذاك أن مثل هذه الحمايات الأساسية التي مثل وثيقة حقوق حقيقية للمريض لا يمكن أن يوافق عليها الكونغرس، بسبب التأثير القوي للوبي شركات التأمين التي تحقق أرباحاً هائلة.

باختصار، وجدت نفسي أقول حتى المحاولات البطولية (مثل محاولات فريدريك جيمسون) لفهم النظام على المستوى النظري أو لصياغة ما سماه سمير أمين بتفكيك البدائل، تقوض بشكل مهلك بإهمالها النسبي للتدخل السياسي الفعلي في الأوضاع الوجودية الحقيقية التي يجد المواطنون أنفسهم فيها، إنه ليس تدخلاً شخصياً فقط وإنما جزء مهم من الحركة المناوئة والمعارضة الواسعة. من الواضح أننا كمثقفين نسوق تصوراً فعالاً أو مخططاً للنظام الكوكبي (يعود الفضل الكبير للمؤرخين العالميين والإقليميين مثل ايمانويل ولرشتاين وأنور عبد الملك وجي ام بلوت وجانيت أبو لغد وبيتر غران وعلي مزروري وويليام مكنيل) لكنه نموذج مشكوك فيه أثناء المواجهات المباشرة معه في جغرافية ما أو أخرى محددة لذلك تتأجج الصراعات التي ربما تكون مربحة. هناك تاريخ رائع لهذا النوع الذي قصدته في المقالات المنوعة التي كتبها بروس روبينز، الشعور بالكوكبية: العالمية في محنة 1999، وتيموثي برينان في بيت العالم: العالمية الآن 1997 ونيل لازاروس القومية والممارسة الثقافية في العالم بعد الكولنيالي 1999، كتب ترمز بنيتها المحبوكة والدفاعية اليقظة إلى الشعور النقدي والفكري بالعالم الذي نعيش فيه اليوم التي تؤخذ كفصول متسلسلة أو حتى كأجزاء من صورة أوسع تشكلها أعمالهم وأعمال الآخرين مثلهم. إنهم يقترحون خريطة تجارب لم تكن مدركة أو مرئية قبل العقدين الماضين لكن لم يعد إقصائها ممكناً من الدراسة الثقافية أو قواعد الأنسنة في مرحلة ما بعد الإمبراطوريات التقليدية ونهاية الحرب الباردة وانهيار الكتل الاشتراكية ودول عدم الانحياز وانبثاق الجدال بين الشمال والجنوب في فترة العولمة.

لقد ذكرت عدداً قليلاً من الأسماء ليس للإشارة إلى أهمية مساهماتهم فقط وإنما لأستخدمها للقفز مباشرة إلى مناطق مادية واقعية ذات اهتمام جمعي حيث، لنتذكر ما قاله بورديو للمرة الأخيرة: هناك احتمال (الإبداع الجمعي). ويستمر قائلاً (يحتاج الصرح الكامل للفكر النقدي إلى إعادة بناء حاسمة لكن لا يكمن القيام بإعادة البناء كما في الماضي، لا من قبل مثقف عظيم لوحده أو مفكر كبير بموارده الفكرية المنفردة ولا بواسطة الناطق المخول باسم مجموعة أو مؤسسة دون صوت أو نقابة أو حزب وغيره. هذا هو المكان الذي يستطيع الفكر الجمعي أن يلعب فيه دوره والذي لا يستبدل، وذلك لمساعدته على خلق الظروف الاجتماعية من أجل إنتاج جمعي للطوباويات الواقعية (تسمية بورديو للأفراد الذين تؤلف مجمل بحوثهم ومشاركاتهم حول مواضيع مشتركة نوعاً من المنظمات التعاونية التي تشكل عند الحاجة ودون تخطيط مسبق).

قرأت هذا لأؤكد غياب الخطة الرئيسية أو برنامج العمل أو النظرية الشاملة لما يستطيع المثقفون فعله، وغياب أي غائية طوباوية يتحرك نحوها التاريخ الإنساني. لذلك يبتدع المرء في المعنى اللاتيني الحرفي لكلمة يبدع التي استخدمها فصحاء البلاغة لتأكيد اللقية مرة أخرى، أو إعادة تجميع الانجازات الماضية، بدلاً من الاستخدام الرومانسي لكلمة اختراع، كشيء تخلقه بدون أي تحضير مسبق ومعرفة - أهداف مختطفة، أي بافتراض وضع أفضل من الوقائع التاريخية والاجتماعية تمكن أداء المثقفين على أصعدة كثيرة وفي أماكن كثيرة وبأساليب كثيرة وتحافظ على الشعور بالمعارضة وبالمشاركة التي ذكرتها قبل قليل. لذلك تستطيع السينما والتصوير والموسيقى أيضا أن تكون أوجها لهذا النشاط إضافة إلى كل فنون الكتابة.

لا يجوز أن يقتصر عملنا كمثقفين على تحديد الوضع فقط وإنما على إدراك إمكانيات التدخل الفعال أيضاً، سواء بإنجاز ذلك بأنفسنا أو بقبولنا به عند الآخرين الذين سبقونا وعملوا عليها مسبقاً، المثقف كرقيب وحارس. إن المحلية من النوع القديم-مثلاً، أنا أديب متخصص في مجال انكلترا في بداية القرن السابع عشر- تقصي نفسها وتبدو مملة وحيادية بصراحة. يجب أن يكون الافتراض حتى لو لم يستطع المرء أن يفعل أو يعرف كل شيء، يجب عليه دائماً أن لا يكتفي بإدراك عناصر الصراع أو التوتر أو المشكلة التي في متناول اليد التي يمكن توضيحها وشرحها جدلياً فقط وإنما أن يحس بأن الأشخاص الآخرين لديهم نفس الهدف ويعملون في مشروع مشترك. وجدت مثالاً ملهماً ورائعاً لما أقصده في كتاب آدم فيليب الجديد (ديدان داروين) الذي يدور حول اهتمام داروين الحياتي بدودة الأرض الوضيعة، يكشف فيه قدرته على التعبير وعلى تصميم وقدرة الطبيعة على التغيير دون الحاجة إلى رؤية كل الأول أو الآخر، وبذلك استبدل عمله على دودة الأرض (أسطورة الإبداع بأسطورة الاستمرار الدنيوية).

هل هناك طريقة غير مبتذلة لتعميم أين وبأي شكل تحدث مثل هذه الصراعات الآن؟ سأقتصر في قولي هذا على ثلاثة فقط، وكلها مفتوحة للتدخل الثقافي والتطوير. الأول: مقاومة وإحباط واختفاء الماضي، الذي في سرعة تغيره، إعادة صياغة التقاليد وبناء التاريخ أو تهذيبه باقتطاع أجزاء منه هما لب الصراع الذي وصفه (بينجامين باربر) بطريقة مبالغة كجهاد مقابل العالم الغربي. دور المثقف أولاً: أن يقدم سروداً مختلفة ومناظير أخرى للتاريخ غير تلك التي يوفرها المولعون بالقتال لصالح الذاكرة الرسمية والهوية القومية، الذين يرغبون بالعمل في شروط وحدات مزيفة، التلاعب بشيطنة أو تشويه صور السكان غير المرغوبين أو المطرودين، وتفريخ الأناشيد البطولية لكي تكتسح كل ما هو أمامها.

على الأقل منذ (نيتشه) اعتبرت كتابة التاريخ وتراكمات الذاكرة بطرق كثيرة من أساسيات السلطة التي توجه استراتيجياتها وترسم مخططات تقدمها. انظر مثلا إلى الاستغلال المخيف لعذاب الماضي الذي وصفه (توم سيغيف) (وبيتر نوفيك) و(نورمان فرانكلشتاين) في سجلاتهم عن استخدامات المحرقة أو للبقاء ضمن مجال الترميم والتعويض التاريخي والتشويه البغيض والتمزيق وتناسي التجارب التاريخية الهامة التي لا تملك جماعات ضغط مؤثرة وجبارة في الوقت الحاضر لذلك تستحق الطرد أو الاستخفاف. الحاجة كبيرة الآن لتواريخ غير مخدرة ورزينة توضح التنوع والتعقيد التاريخي دون السماح للمرء بالاستنتاج بأن التاريخ يتقدم بشكل موضوعي وفق قوانين محددة بواسطة السماء أو أصحاب النفوذ.

ثانياً: تشييد ميادين من التعايش بدلاً من ميادين العراك كحصيلة للجهد الفكري. هناك درس عظيم يجب أن نتعلمه من القضاء على الاستعمار (التحرر) الذي لم تكفي أهدافه التحررية لِمنع ظهور وكلاء قوميين قمعيينٍ للأنظمة الكولونيالية، ولهذا فإن العملية نفسها استولت عليها وأَسَرَتْها الحرب الباردة مباشرة تقريباً، رغم جهود حركة عدم الانحياز الرمزية وثالثاً: لقد قزمت وتفهت من قبل صناعة أكاديمية صغيرة التي حولتها ببساطة إلى نزاع غامض بين خصوم متكافئين. لقد عالج (بينيتا باري) هذه المسألة في دارسة حديثة. في النزاعات المتنوعة حول العدالة وحقوق الإنسان التي يشعر الكثير منا بأننا ارتبطنا بها، هناك حاجة لمكون أساسي لارتباطنا يؤكد الحاجة إلى إعادة توزيع الثروات ويدافع عن الحاجة النظرية الماسة ضد التراكم الهائل للسلطة ورأس المال الذي يشوه الحياة الإنسانية.

لا يوجد سلام دون مساواة: هذه قيمة فكرية بأمس الحاجة إلى الترديد والتوضيح والتعزيز. إغراء كلمة السلام نفسها أنها مطوقة ومشبعة بمداهنة القبول والاستحسان، والمديح غير الخلافي والمصادقة الوجدانية. تبالغ وسائل الإعلام العالمية (كما هي الحالة اليوم في حروب العقوبات في العراق وكوسوفو) وتضخم دون تمييز وتزين وتبث بلا تردد كل هذا إلى عدد هائل من المشاهدين والمستمعين الذين بالنسبة لهم السلام والحرب مشاهد للمتعة والاستهلاك المباشر. يلزم مزيد من الشجاعة والجهد والمعرفة لتفكيك كلمات مثل (حرب) و(سلام) إلى عناصرها، واسترداد ما بقي من عملية السلام التي فرضها القوي ثم استرجاع الحقيقة الضائعة ووضعها في مركز الأشياء، بدلاً من كتابة المقالات الإرشادية من قبل (ليبراليين) مثل ايغناتيف الذي حرض على مزيد من التدمير وقتل المدنيين العزل. قد يكون المثقف الذاكرة المضادة بمنهجه الخاص به، المضاد الذي لا يسمح للضمير بأن يتغاضى أو يغفل. أفضل تعديل هو، كما قال الدكتور جونسون، تخيل الشخص الذي تناقشه – في هذه الحالة يكون الشخص الذي تتساقط القنابل على رأسه- يقرأك في حضورك.

لكن بما أن التاريخ لا ينتهي أو يكمل فإن بعض المتناقضات الجدلية لا تقبل التسوية أبداً، لا يمكن تجاوزها، وغير مؤهلة لطويها إلى نوع أرفع وأنبل من التركيب. أقرب مثال لي هو الصراع حول بلدي فلسطين الذي اعتقدت دائما بأنه لا يحل بإعادة ترتيب تقنية وتوكيلية للجغرافيا تسمح للفلسطينيين المطرودين بالحق بأن يعيشوا في 20% من أرضهم التي ستكون مطوقة بإسرائيل ومعتمدة عليها تماماً. ومن الجانب الآخر ليس من المقبول أخلاقياً المطالبة بأن ينسحب الإسرائيليون من كل الأراضي الفلسطينية السابقة، لأن الإسرائيليين آنذاك يصبحون لاجئون مرة أخرى حالهم حال الفلسطينيين. لا يهم كيف بحثت عن حل لهذا المأزق المسدود، لم أستطع أن أجد حلاً أسهل من الحق مقابل الحق. لا يمكن أن أكون على صواب أبداً حين أحرم شعباً كاملاً من أرضه وتراثه. لقد

أسميت اليهود بمجتمع العذاب ويحملون معهم تراثاً من مأساة كبيرة لكني أختلف عن (زييف ستيرنهيل) ولا أقر بأن غزو فلسطين كان ضرورياً. هذه الفكرة تنتهك الألم الحقيقي للفلسطينيين المأساوي بدوره أيضاً.

إن تخطي التجارب المستعصية يتطلب من المثقف الشجاعة بأن يقول أن ذلك ما هو موجود أمامنا، بنفس الطريقة تقريباً التي تخللت كل أعمال (ادورنو) في الموسيقى التي أصر فيها أن الموسيقى الحديثة لا يمكن أن تتصالح مع المجتمع الذي أنتجها لكن الموسيقى من خلال شكلها البارع ومضمونها تستطيع أن تكون شاهداً صامتاً على اللاإنسانية المحيطة بنا. أي تمثل لعمل موسيقي منفرد لبيئته الاجتماعية هو زيف كما يقول (ادورنو) استنتج من الفكرة أن وطن المثقف المؤقت هو المجال لفن ملح ومقاوم وصلب لا يستطيع المرء فيه بالتراجع أو البحث عن حلول. فقط في تلك المملكة المنفية المحفوفة بالمخاطر يستطيع المرء أن يفهم بصدق أولاً صعوبة ما تعذر فهمه ثم يتجرأ على الخروج للمحاولة مهما حدث.

محاولات متكررة- زدنت 11كانون الثاني 2001.

المحاولة الأميركية الأخيرة لحمل ياسر عرفات على القضاء على سيادة وجود شعبه تحمل دمغة واضحة ليس للوبي الأمريكي-الإسرائيلي فقط بل أسلوب كلينتون السياسي أيضاً. يمكن القول أن مقترحات كلينتون التجسيرية كما سميت هي نوع من وجبات سلام سريعة. تشبه بهدفها التضليلي، وتتمرها المعادي للتاريخ، والإلحاح الأناني لأسلوبها، (كلينتون في مكتبه، إحدى يديه تمسك بالهاتف الذي يضعه على أذنه ويده الأخرى تتشبث بشريحة البيتزا يلتهمها) حتى حين يكون أعضاء إدارته وممموليه ومستشاريه القانونيين وأصدقاءه الحميمين وزملاء الغولف حوله وهم يتزاحمون ويتحركون كقطيع، يعطون و(يتلقون) المنح والقروض والموافقات والصفقات والرهون والإشاعات.

يصعب ويندر أن يكون هذا نهاية مناسبة لصراع كلف مئات الآلاف من الأرواح وثروة لا تحصى على مدى أكثر من قرن. يقترح في اللغة (أتكلم بصفتي معلماً عن كيفية إستغلال اللغة وإساءة استخدامها) بلغة تفوح منها السذاجة غير المبالية المتحدة بالغموض، يقترح كلينتون في الحقيقة نية إسرائيلية مبيتة لإدامة سيطرتها على أرواح الشعب الفلسطيني وأرضه في المستقبل المنظور.

الفرضية المبطنة هي أن إسرائيل تحتاج إلى حماية من الفلسطينيين، وليس العكس. وهناك خلل في كل الأمر: لم يغفر فقط لإسرائيل ثلاث وثلاثون سنة من الاحتلال، واثنان وخمسين سنة من الظلم وتجريد الشعب الفلسطيني في كل شيء وأعمالها الوحشية التي لا تحصى وتجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم كأفراد وجماعات؛ وإنما كافئها أيضاً بأشياء مثل ضم أفضل أراضي الضفة واستئجار طويل (رخيص بلا شك) لوادي الأردن، وضم نهائي للقسم الأعظم من القدس الشرقية، زائد محطات إنذار مبكر على الأراضي الفلسطينية، زائد سيطرة على كل الحدود الفلسطينية(التي ستكون كلها مع إسرائيل، وليس مع أي دولة أخرى) أضف إلى ذلك كل الطرق ومصادر المياه، وإلغاء كل حقوق اللاجئين في العودة والتعويض باستثناء ما تراه إسرائيل مناسباً.

بالنسبة لتبادل الأراضي المشهور ولذي ستتخلى بموجه إسرائيل برحابة صدر عن قطعة صغيرة من صحراء النجف مقابل أفضل ما تختاره من قطع من الضفة الغربية، فقد تغاضى كلينتون عن حقيقة أن تلك المنطقة من النجف بالذات التي خصصتها إسرائيل كانت مكب نفايات سامة! ورغم ذلك وصفت كل تلك التقسيمات الغريبة التي اقتطعت القدس الشرقية وهي أرض فلسطينية وضمت بصورة غير شرعية إلى إسرائيل – وتقسيم أراضي الضفة الغربية التي تنازلت عنها إسرائيل بشروط إلى ثلاث كانتونات، كمقترح أمريكي خارق. ما ترك للفلسطينيين تضحيات مادية جعلت التنازلات الإسرائيلية تبدو مثل لعب أطفال.

التضحيات التي طالب بها كلينتون هي إلغاء حق عودة اللاجئين الفلسطينيين طبعاً وإعلان فلسطيني بانتهاء الصراع مع إسرائيل. أولاً وقبل كل شيء، حق عودة اللاجئين (الحق بحياة آمنة في مكان يختاره المرء) حق لا تحميه قرارات الأمم المتحدة فقط بل وثيقة الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان أيضاً.

صيغة كلينتون للإلتفاف حول هذه المشكلة يكشف مقاربة الرجل للعالم:(أعتقد بأننا نحتاج إلى تبني صيغة لحق العودة توضح وتؤكد على عدم وجود حق عودة محدد إلى إسرائيل نفسها لكنها لا تنفي طموح الشعب الفلسطيني في العودة إلى المنطقة، لكن إلى أي منطقة؟ إذ يمكن بسهولة وصف العراق والأردن وسوريا مثلاً بالانتماء إلى (المنطقة.) كلينتون يحاول قاصداً وبشكل جلي أن يشوش الفلسطينيين بعبارة (المنطقة) التي قصد منها فعليا عدم السماح لهم بحق العودة إلى البلاد التي طردوا منها؟ كما يعرف كلينتون جيداً (أنه محام بالمهنة) أنه ليس هناك أي تفاوض حين يتعلق الأمر بحقوق الإنسان؛ وحسب القانون الذي تّدعي الولايات المتحدة بتأييده حين قصفت بلداً أعزلاً مثل السودان أو العراق بعد حرب الخليج لا يستطيع أحد أن يعدل أو ينكر إي حق من حقوق الإنسان. علاوة على ذلك يستحيل، مثلاً: أن ترفع وتؤيد حقوقاً ضد التمييز العنصري أو ضد حق العمل في بعض الحالات ولا تؤيده في حالات أخرى. حقوق الإنسان الأساسية ليست عناصر قائمة طعام تقبل وترفض على هوانا: لقد هدفت ليكون لها ثبات القبول الكوني، خصوصاً من قبل أعضاء الأمم المتحدة. لنسلم بأن تطبيق الحقوق يشكل مشكلة رئيسية دائماً، لكن ذلك لا علاقة له بحقيقة كونها حقوق موجودة إن طبقت أم لم تطبق وبذلك لا يمكن إلغاءها أو تعديلها أو كما يعتقد كلينتون، إعادة صياغتها. وبالمثل حق اللاجئ بأن يختار مكان إقامته كلاجئ: ذلك أيضاً حق لا يقبل التحويل أو التفاوض. ليس لعرفات وكلينتون وباراك أي حق إطلاقاً بأن يتلاعبوا بالحق، ولا أن يحاولوا بالخداع الأخرق أن (يعيدوا صياغته) بطريقة تناسب إسرائيل أو تتكره بأي شكل. لماذا تكون إسرائيل الاستثناء دائماً ولماذا يطلب من الفلسطينيين دائماً بالقبول بأشياء لم يطلب من أي شعب القبول بها من قبلهم أبداً؟ يبدو لي انه من غير المحتشم أن يذهب كلينتون للحرب جاراً معه كل الناتو ليدمر صربيا في عملية لصالح حق ألبان كوسوفو في العودة ويطلب بنفس الوقت من الفلسطينيين التخلي عن حقهم.

النقطة الثانية هي إسرائيل التي تواصل بعناد مطرد في إنكار أي مسؤولية عن تجريد الفلسطينيين، والحفاظ على قانون حق العودة المعترف به لأي يهودي في أي مكان في العالم. كيف تستطيع الاستمرار بفعل هذا وبنوع من الفظاظة الوحشية التي ترفض حتى مناقشة حق فلسطيني ناصع مماثل، عداك العدالة البسيطة. هناك مسألة التعويض أيضاً، ليس عن خسائر عام 1948 فقط بل من أجل الثلاثة والثلاثين سنة من الإتلاف والاستغلال الذي ترافق بالاحتلال العسكري الدائم.

لكن كلينتون يريد إسقاط كل ذلك، كما لو أن عدم ذكر أي كلمة عن التعويضات سيخفي كل الموضوع. يبدو من اللطف إخبار الفلسطينيين أن إسرائيل ستدمدم بكلمات قليلة عن التفاهم أو حتى الاعتراف بمعاناتهم وتخلص دون ذكر أي مسؤولية. من هو الذي يفترض بدعاية من طراز الخمسينيات أن ترضيه؟ إسرائيل أم الوكالة اليهودية؟

لكن في الحقيقة لقد جاء عرفات إلى واشنطن تلبية لدعوة كلينتون، ولأنه هو يكون هو، قد لا يرفض عرفات أو يقبل تماماً. سيتفوه بحماقات ويناور ويأتي ويروح، وسيقبل، بما أن المزيد من الفلسطينيين سيضحون بحياتهم وبأرزاقهم من أجل لاشيء.

في الأسابيع الماضية حاولت بكل الوسائل المتاحة لي أن أجعل عرفات لمرة واحدة في هيمنته الطويلة على القضايا الفلسطينية يخاطب شعبه بصراحة وصدق وبطريقة مستقيمة لكنه استمر في الصمت وارتعد مستشاروه ورفاقه حوله عاجزين عن التأثير عليه أو تقديم أي بدائل أخرى. لكن أريد أن أقول مرة أخرى، نحن نحتاج إلى قيادة جديدة، تستطيع أن تعبئ وتلهم الأمة الفلسطينية

كلها؛ لقد مللنا من الزيارات الخاطفة من والى القاهرة والرباط وواشنطن، مللنا من الأكاذيب والخطاب المضلل، ومن الفساد والعجز النتن، ومن الاستمرار على حساب الناس، ومن الخنوع أمام الأمريكيين ومن القرارات الغبية ومن العجز الإجرامي والشك.

من الواضح بغض النظر عما يحدث الآن، بأن اللوم سيلقى على كاهل الفلسطينيين: إن المتنبئين الصهاينة الذين لا يعرفون الخجل من أمثال (توماس فريدمان) من نيويورك تايمز، الذي لم يقول أي كلمة لوم لوحشية إسرائيل واستمر بمطالبة العرب بالإعتراف برابطته (العضوية) بفلسطين كيهودي دون الإقرار أبداً بأن ذلك الحق أتى من غزو وطرد الفلسطينيين بالجملة، هؤلاء الصهاينة سيلومون الفلسطينيين في تخريبهم لعملية السلام، وسيستمرون ببث أنصاف الحقائق في وسائل الإعلام الأمريكية، لكن عبثاً. إن أحب هو ورفاقه أم لم يحبوا، لا تستطيع إسرائيل أن تنال السلام إلا حين تعترف بأن الحق الفلسطيني انتهك وحين تعتذر وتبدي ندمها بدلاً من الغطرسة والتهديد المنمق الحالي. واجبنا كفلسطينيين أن نقفل فصل أوسلو بأسرع ما يمكن ونعود إلى واجبنا الرئيسي، بأن نتزود بإستراتيجية التحرير الواضحة بأهدافها والمحددة جيداً بممارساتها. من اجل هذا يجب أن نملك شراكة مع الإسرائيليين ويهود التيه الذين أدركوا بأنهم لا يمكن التوصل إلى سلام مع الشعب الفلسطيني مع الاحتلال والتجريد بنفس الوقت. لقد انهزمت الأبارتايد حين حاربها السود والبيض معاً.

لقد ظنت منظمة التحرير الفلسطينية أنها تستطيع صنع سلام مع إسرائيل وتجيز الاحتلال وهذا أحد أخطاءها الإستراتيجية والتكتيكية الكثيرة. جيل جديد ينهض الآن، لم يعد يحترم المحظورات البالية ولن يسامح (المرونة) الفاشلة التي أضفت على صنع التحرير الفلسطيني علامة استفهام بدلاً من منارة أمل.

هناك حقيقتان متناقضتان على الأرض ستنهار عليهما محادثات كلينتون-واشنطن. الحقيقة الأولى: لا يمكن احتواء الطاقات التي فجرتها الانتفاضة بسهولة في المستقبل المنظور في أي شكل متوفر- الاحتجاج الفلسطيني ضد ما سببته أوسلو هو احتجاج ضد كل مظاهر الوضع القائم. الحقيقة الثانية: إن فلسطين التاريخية الآن هي حقيقة ثنائية القومية تعاني من دمار الأبارتايد إن أحببنا أم لا لكن هذا الواقع يجب أن ينتهي ويبدأ عهد جيد من الحرية للعرب واليهود قريباً وإن فشلنا في توفير نقاط علام بارزة للفترة الجديدة فمن من السهل التكهن بسنوات أكثر من الصراع المكلف والعقيم.

التفكير بالمستقبل: ماذا سيحدث بعد البقاء. زدنت، 7 نيسان 2002.

إن كل شخص له أي صلة بفلسطين اليوم في حالة من الغضب الصاعق والصدمة. فيما يشبه التكرار لما حدث في عام 1982 يبدو الهجوم الإسرائيلي الاستعماري الشامل على الشعب الفلسطيني (مع دعم جورج بوش الغريب والجاهل بشكل يسبب الذهول) في الواقع أسوأ من الغزوين السابقين التي قادهما شارون في عامي 1971 و1982 ضد الشعب الفلسطيني. كما أن المناخ السياسي والأخلاقي العام اليوم أشد فجاجة وتصغيراً إضافة إلى تفاقم وتحيز دور وسائل الإعلام المدمر (الذي لعبته بانتزاع الهجمات الانتحارية الفلسطينية من سياقها المتمثل في الاحتلال الإسرائيلي غير الشرعي للأراضي الفلسطينية منذ أكثر منذ 35 عام) لصالح وجهة النظر الإسرائيلية، وازدادت الأمور صعوبة في تحدي القوة الأمريكية ، وسيطرت الحرب على الإرهاب على الأجندة العالمية أما بما يخص المحيط العربي، فقد زاد التفكك والانقسام مما كان عليه من قبل.

أثيرت غرائز شارون الإجرامية وتعززت (إن كانت الكلمة مناسبة) بكل ما ذكر آنفاً وتضخمت أيضاً. هذا يعني أنه يستطيع إلحاق ضرر بصفاقة أكبر مما اعتاد عليه سابقاً، لكن الفشل الناتج عن سلبيته المركزة ساهما أكثر في تقويض كل جهوده وسيرته التي لن تعزز في النهاية أي نجاح سياسي أو عسكري. إن الصراعات بين الشعوب تحتوي على عناصر أكثر مما تستطيع استئصاله الدبابات والقوة الجوية والحروب التي تشن ضد المدنيين العزل-لا تهم المرات الكثيرة التي جعجع فيها شارون عن الإرهاب بأسلوب غبي مقعقع- لا تستطيع تحقيق نتيجة سياسية من النوع الذي يحلم به. لن يرحل الفلسطينيون وبالتأكيد لن يلقى شارون من شعبه سوى النبذ والعار. إنه يفتقر إلى أي خطة، سوى تدمير الفلسطينيين وكل شيء يتعلق بفلسطين. حتى في جنونه وهاجسه بخصوص عرفات والإرهاب لم ينجح إلا في رفع أهمية الرجل ومكانته (عرفات) ولفت الإنتباه إلى موقفه المصاب بمس التوحد. وفي النهاية هو مشكلة إسرائيلية، على إسرائيل التعامل معها. بالنسبة لنا، اعتبارنا الأخلاقي الأول الآن هو بذل كل طاقتنا لنؤكد أننا مستمرون رغم المعاناة الهائلة والدمار الذي فرضته الحرب الإجرامية علينا. حين يقول سياسي محترم متقاعد ومشهور مثل (زبيغنيو بريجينسكي) صراحة على التلفزيون القومي أن إسرائيل باتت تتصرف مثل النظام العنصري في جنوب أفريقيا الذي يعتقد بتفوق الرجل الأبيض، وأن كثير من الناس يشاركونه هذا الرأي، وأن عدد متزايد من الأمريكيين وغيرهم بدؤوا في التحرر من الوهم واشمئزوا من كون إسرائيل جناح مترف يستنزف الولايات المتحدة ويكلفها أثمان باهظة كما تزيد من عزلة أميركا وتضر بشكل فادح بسمعة البلاد لدى حلفاءها ومواطنيها. السؤال هو ما الذي نستطيع تعلمه من الأزمة الحالية ويجب علينا إدراجه في خططنا للمستقبل في هذه اللحظات الصعبة؟

ما سأقوله الآن انتقائي جداً لكنه ثمرة سنين طويلة من العمل بالقضية الفلسطينية لشخص ينتمي إلى العالمين العربي والغربي بنفس الوقت. أنا لا أعرف ولا أستطيع قول كل شيء، لكن هناك حفنة من الأفكار التي أستطيع تقديمها في هذه الساعة الصعبة. إن كل نقطة من النقاط الأربعة التي سأشير إليها هنا الآن تتعلق بغيرها.

ا- في مختلف الأحوال والظروف، فلسطين ليست قضية عربية وإسلامية فقط، وتهم عوالم كثيرة مختلفة متعارضة ومتشابكة. حين تساعد فلسطين عليك أن تدرِك هذه الأبِعاد وتتعلم منها. ومن أجل

ذلك نحتاج إلى قيادة عالية التعليم ورفيعة الثقافة ويقظة ودعماً ديمقراطياً لها. قبل كل شيء يجب أن لا نكل أو نمل من تكرار الحديث عن هذا الصراع كما فعل مانديلا، وندرك أن فلسطين واحدة من أعظم القضايا الأخلاقية في عصرنا. لذلك يجب أن نتعامل معها على هذا الأساس. إنها ليس تجارة أو مفاوضات مقايضة أو تحقيق نجاحات شخصية سريعة. إنها قضية عادلة يجب أن تسمح للفلسطينيين بالاستفادة من خلفيتها الأخلاقية السامية وصيانتها.

2-هناك أنواع مختلفة من القوة العسكرية هي الأكثر وضوحاً. إن الذي مكّن إسرائيل من فعل ما تقوم به منذ أكثر من 54 عام هو نتاج الحملة المخططة بحذر وبأسلوب علمي لتبرير الأعمال الإسرائيلية وطمس وتقليل أهمية الأفعال الفلسطينية بنفس الوقت. لم يكن هذا ثمرة حيازة قوات عسكرية جبارة وإنما بتنظيم الرأي، وخصوصاً في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وهو قوة نابعة من العمل الممنهج والبطيء الذي أظهر الموقف الإسرائيلي بأنه موقف يسهل التعاطف معه، وأن الفلسطينيين أعداء لإسرائيل وبالتالي يكرهوننا ويشكلون خطر (علينا.) منذ الحرب الباردة خفتت أهمية أوروبا في مجال تنظيم الرأي والرموز والفكر وأصبحت أمريكا هي الميدان الرئيسي للمعركة (خارج فلسطين). لم نعرف أبداً أهمية تنظيم عملنا السياسي بشكل منظم في بلاد بهذا المستوى الهائل، كي لا يفكر الأمريكي العادي فوراً بـ (الإرهاب) حين يسمع كلمة (فلسطيني). هذا النوع من العمل يحفظ تماماً المكاسب التي حققتها مقاومتنا للإحتلال الإسرائيلي على الأرض. هذا هو السبب الذي مكّن إسرائيل من معاملتنا بهذه الصفاقة وجعلنا غير محميين من أي رأي يمنع شارون من ممارسة جرائمه الحربية والقول بأن ما فعله كان حرباً على الإرهاب. بسبب الإنتشار الهائل للصور المتكررة واللافتة للنظر التي تبثها محطة الـ (C.N.N) مثلاً، والتي تكرر فيها عبارة (تفجير انتحاري) مئات المرات في الساعة على مسمع المستهلك ودافع الضرائب الأمريكي، إنه أكبر إهمال، عدم امتلاك فريق من الأشخاص مثل حنان عشراوي وليلي شاهد وغسان خطيب وعاطف صافية- لم أذكر سوى القليل- يستقر في واشنطن ويظل جاهزاً للذهاب إلى الـ (C.N.N) أو أي قناة أخرى ليروي القصة الفلسطينية ويقدم السياق والفهم ويوفر لنا حضوراً أخلاقياً وسردياً له قيمة إيجابية بدلاً من السلبية. نحن نحتاج إلى قيادة مستقبلية تدرك بأن هذا واحداً من أهم الدروس الأساسية في علم السياسة في عصر الإتصالات الإلكترونية.

3- من الواضح أنه لا فائدة سياسية فعالة ترجى في عالم تسيطر عليه قوة عظمى واحدة دون ألفة عميقة و معرفة بهذه القوة العظمى-أمريكا، تاريخها، مؤسساتها، تياراتها وتياراتها المضادة، سياساتها وثقافتها وأهم من كل شيء المعرفة التامة بلغتها الفعلية. إن سماع الناطقين باسمنا بالإضافة إلى العرب الآخرين وهم يقولون أسخف الأشياء عن أمريكا، ويرمون بأنفسهم تحت رحمتها، ويشتمونها تارة ويستجدون مساعدتها تارة أخرى، في لغة إنكليزية مكسرة وغير ملائمة بشكل يثير الرثاء، يظهر حالة من العجز الأصلي المسبب للبكاء. أميركا ليست كتلة متراصة ومتناغمة واحدة. لنا فيها أصدقاء وهناك أصدقاء محتملين أيضاً. نستطيع أن نثقف ونعبئ ونستغل مجتمعاتنا ومجتمعاتهم التابعة لهم هنا كجزء مكمل لسياستنا في التحرر، كما فعل الأفريقيون الجنوبيون في جنوب أفريقيا والجزائريون في فرنسا أثناء نضالهم في سبيل التحرر. التخطيط والإنضباط والتنسيق. لم نفهم سياسة اللاعنف ولم نفهم أيضاً قوة محاولة مخاطبة الإسرائيليين بشكل مباشر، الطريقة التي خاطب بها المجلس الوطني الأفريقي بيض جنوب إفريقيا كجزء من سياسة

التضمين (التشارك) والاحترام المتبادل. إن ردنا على الإقصاء والعدوانية الإسرائيلية هو التعايش المشترك. هذا ليس تنازلاً: إنه يخلق التضامن وبذلك يعزل المتطرفين والعنصريين والمتعصبين.

4-إن أهم درس لنا في فهم أنفسنا يتجلى في المآسي الرهيبة التي ترتكبها إسرائيل الآن في الأراضي المحتلة. حقيقة أننا شعب ومجتمع رغم الهجوم الإسرائيلي الشرس ضدنا، لا يزال مجتمعنا يقوم بوظائفه. نحن شعب لأن لدينا مجتمع مستمر ومتواصل-وقد نجحنا في الاستمرار خلال السنوات الأربع والخمسين الماضية- رغم كل أنواع الانتهاكات التعسفية والتحولات التاريخية القاسية، والمحن التي قاسيناها والمآسي التي عانيناها كشعب. نصرنا العظيم الذي حققناه ضد إسرائيل هو نجاحنا كشعب في هذا الاختبار الصعب. نصرنا العظيم ضد إسرائيل الذي ليس لشارون وأمثاله المقدرة على رؤيته ولهذا السبب هم هالكون رغم قوتهم العظيمة ووحشيتهم الإنسانية البغيضة. لقد سمونا فوق مآسينا وذكرياتنا عن الماضي، بينما لم يقدر الإسرائيليون من أمثال شارون على فعل ذلك. سيولي إلى حتفه كقاتل للعرب، وكسياسي فاشل سبب كثير من الاضطراب بدلاً من الآمان لشعبه. وذلك بالتأكيد هو تراث قائد كان من واجبه ترك شيء تبني عليه الأجيال القادمة. (شارون وموفاز) وغيرهم من الذين رافقوهم في حملة الموت والمجازر السادية المتنمرة لن تترك لهم سوى شواهد قبورهم. الإلغاء يولد الإلغاء.

كفلسطيني، أعتقد بأننا نستطيع القول بأننا تركنا رؤيا ومجتمع نجيا من كل محاولات القتل والاغتيال. وذلك يعني الكثير . لجيل من أطفالنا وأطفالكم، ليوصلوا من هناك، ناقدين وعقلانيين متحلين بالصبر والأمل

الكل مسؤول عن تحرير فلسطين -اهرام ويكلي 26 نيسان 2001.

نحن الآن في الشهر السابع للانتفاضة التي وصلت إلى المرحلة الأكثر قسوة واختناقاً بالنسبة للفلسطينيين. القادة الإسرائيليون مصممون على فعل ما كانوا يفعلونه دائماً، وذلك بجعل الحياة مستحيلة بالنسبة للشعب الفلسطيني الذي يعاني من ظلم جائر وليس هناك حدود لرغبات شارون وأفعاله التي يدرجها تحت اسم (المبدأ) الذي تقبله الولايات المتحدة وترفض القيام بأي شيء بينما يستمر العنف. لذلك هذا يبدو تخويلاً لشارون في فرض حصار على شعب كامل يبلغ تعداده ثلاثة ملايين نسمة، وشيمون بيريز، الأشد كذباً ونفاقاً من كل القادة الإسرائيليين الذي جاب العالم وهو يتشكى من الإرهاب الفلسطيني. لهذا يجب أن لا نضيع الوقت في التعجب من نجاتهم بمثل هذا التكتيك الخسيس وفي والواقع هم يعملون وسيواصلون ذلك في المستقبل المنظور.

لا يعني قول ذلك والاعتراف به القبول بنتائجه بشكل سلبي. دعنا نمحص الوضع بهدوء من وجهة النظر التكتيكية والإستراتيجية. وسنجد هذا:

إن القيادة الفلسطينية التي انضمت إلى أوسلو ومبدأ وصاية الولايات المتحدة المدمر، بالإضافة إلى كل أنواع التنازلات البائسة (بما فيها حملة المستوطنات المستمرة)، عاجزة الآن عن فعل أي شيء أكثر مما تفعله الآن وهو مهاجمة إسرائيل كلامياً والتأشير لها من تحت الطاولة برغبتها في العودة إلى المفاوضات القديمة والعقيمة وبنفس الطريقة تقريباً. إضافة إلى أن سلطتها ومصداقيتها أصبحت أقل. عبقرية عرفات في النجاة حملته إلى أبعد ما يستطيع وليس لديه النية للتوقف حتى ولو كان خط النهاية واضحاً له. فهو يصر وبعناد على الوهم بأنه فلسطين وفلسطين هو؛ وسيظل متسمرا في هذا الاعتقاد طالما هو حي يرزق بغض النظر عما يحدث. الصعوبة الأكبر أن كل خلفاءه السياسيين أقل رجولة منه وقد يزيدوا الحال سوءا عما هو عليه.

إن السياسة الأمريكية لا تتأثر بمصيبة الفلسطينيين مهما كانت درجة سوءها (فبوش) مؤيد لإسرائيل مثل (كلينتون) واللوبي الإسرائيلي عديم الرحمة في كذبه ومعلوماته المضللة كعادته دائماً، رغم الجهد الذي بذله العرب للإقتراب من السياسة الأمريكية واللوبي الإسرائيلي أيضاً. لكن مع ذلك يظل هناك مقدار كبير من التعاطف غير المستثمر مع القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة وأوروبا لكن لم تكن هناك أي حملة فلسطينية موجهة للأمريكيين اللاتينيين والأمريكيين الأفارقة، والكنائس التي ليست جزءاً من الكنائس الأصولية في الجنوب والمجتمع الأكاديمي، و المئات من رجال الدين المؤيدين للحقوق الفلسطينية، وسط الأمريكيين اليهود (فقد ثبت بالبيانات الرائعة التي أدلوا بها في إعلانات مأجورة في نيويورك تايمز، بأن الكثير منهم مذعور من شارون وباراك مثلنا نحن) لكسب هذا الجمهور بطريقة منظمة.

من غير المحتمل أن تكون المساعدة التكتيكية الهامشية التي تقدمها الدول العربية للفلسطينيين أكثر من سابقاتها. فكل الدول العربية لها مصالح مباشرة تربطها بسياسة الولايات المتحدة؛ لأي دولة منها القدرة لكي تكون حليفاً استراتيجياً للفلسطينيين كما اثبت مؤتمر قمة عمان بشكل نهائي مؤخراً. من جانب آخر، هناك فجوة واسعة تفصل بين الحاكمين والمحكومين في العالم العربي، وهذا تشجيع كافي للقضية الفلسطينية، إن وجّه نحو التحرير وإنهاء الاحتلال.

لن يتوقف الإسرائيليون عن بناء المستوطنات ولن يوقفوا حصارهم للحياة الفلسطينية عموماً. إن شارون ليس رجلاً ذكياً وقادراً رغم تهديداته. لقد إعتمد على القوة والخداع خلال سيرته وهو يتغزل بجرائمه وإرهابه في غالب الأوقات، ويستخدم ذلك كلما اعتقد أن بإمكانه الإفلات. نحن لم نخاطب الرأي العام الإسرائيلي أبداً- خصوصاً هؤلاء المواطنين الذين أزعجتهم التطورات الراهنة، التي أدت إلى شجب إسرائيل بسبب صراعها اللانهائي ... ولسوء الحظ ليس لدينا أيضاً ما نقوله مثلاً، إلى مئات المجندين الاحتياطيين الذين رفضوا الخدمة العسكرية أثناء الانتفاضة. هناك جمهور ناخب داخل إسرائيل يجب أن نجد طريقة في إشراكه في صراعنا، كما فعلها المؤتمر الوطني الإفريقي قبلنا وجعل جذب البيض إلى الصراع ضد الأبارتايد هدفاً سياسياً له.

إن الوضع الفلسطيني نفسه قابل للشفاء، بما أن كائناته البشرية هي التي صنعت التاريخ وليس العكس. هناك الكثيرون الفلسطينيين الشباب في كل بقاع العالم والكثيرين من الكبار أيضاً الذين سخطوا تماماً وفزعوا وتوجعوا من قيادة تخرجهم من مصيبة لتدخلهم في أخرى دون أي شعور بالمسؤولية ودون إفصاح بالحقيقة وحتى دون أن تعبر بوضوح عن أهدافها وأغراضها (باستثناء بقاءها طبعاً). مثلما أخبرني إقبال أحمد مرة حين قال: إن منظمة التحرير مرنة جداً استراتيجياً وصلبة جداً تكتيكياً. بالنتيجة، يعكس هذا القول بدقة سياسة وأداء القيادة منذ عام 1993. فقد بدأ (عرفات) بقبول القرار (242 و338) كأساس للمفاوضات (استراتيجي)، بعد ذلك تبدل بليونة إلى القبول بتعديلات إستراتيجية الواحد تلو الآخر خلال السنوات التالية؛ فقد كان المفروض أن تتوقف المستوطنات لكنها ازدادت وقبل بذلك أيضاً. ونفس الشيء مع القدس، والعودة إلى كل الأراضي. لكن عرفات لم يغير تكتيكه أبداً، وهو البقاء في عملية السلام والإتكال على الأمريكان مهما حدث. مرن ولين إستراتيجياً وصلب جامد تكتيكياً.

لذلك نحن نحتاج إلى شيء يتطلبه الوضع الآن، ويقاومه كل الفاعلين (بعبارة أخرى) نحن نحتاج إلى بيان حقيقي بالأهداف والغايات التي يجب أن تتضمن أولاً وقبل كل شيء إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وإنهاء المستوطنات فليس هناك طريق يؤدي إلى السلام ويحقق العدالة للفلسطينيين والإسرائيليين غير ذلك. لا يوجد شيء إسمه سلام "مؤقت" (فهو ضرر شديد كالذي جلبته أوسلو معها منذ البداية على الشعب الفلسطيني) كما أنه ليس هناك بعض حقوق للشعب الفلسطيني دون غيرها فهذه تفاهة غير مقبولة. مجموعة واحدة من القوانين والحقوق، ومجموعة من الأهداف والغايات. على ذلك الأساس يمكن تنظيم حركة سلام فلسطينية جديدة يجب أن تشمل يهود إسرائيليين وغير إسرائيليين، خصوصاً الأفراد الأبطال والمجموعات مثل حاخامات حقوق الإنسان والحركة التي يقودها جيف هالبر لإنهاء هدم البيوت.

ما هي أهداف تلك الحركة؟ أولاً وقبل كل شيء، حركة منظمة تركز على تحرير الشعب الفلسطيني وحقه في الوجود الذي يشكل كل واحد من أفراده جزءاً من الكل، بدلاً من أن يظل متفرجاً كسلاً ينتظر صلاح دين آخر أو مُنَفِذاً لأوامر فوقية. يجب أن يكون هناك تركيز على المجتمعين الآخرين اللذين لهما تأثير مركزي على فلسطين. أولاً الولايات المتحدة، التي تقدم لإسرائيل ذلك الدعم الذي بدونه لا يمكن أن يقع ما يحدث اليوم في فلسطين. وفي كل الأحوال، دافع الضرائب الأمريكي الذي يمد إسرائيل مباشرة بثلاثة بلايين دولار كمساعدة زائد الإمداد المستمر بالأسلحة (مثل المروحيات التي تقصف المدن والقرى الفلسطينية العزلاء الآن والتي تصل قيمتها إلى مبلغ إجمالي قدره خمسة بلايين دولار. يجب أن تتوقف هذه المساعدة أو تتعدل جذرياً. وثانياً: المجتمع الإسرائيلي، الذي

واصل بشكل غير فاعل إما على المصادقة على سياسات عنصرية ضد الفلسطينيين "الدونيين" أو أيدَّ بشكل فاعل بالعمل في الجيش والموساد والشين بيت لتنفيذ هذه السياسة غير الأخلاقية وغير المقبولة

إن كل وثائق حقوق الإنسان في العالم اليوم (بما فيها وثيقة الأمم المتحدة) تعطي الشعوب حق المقاومة بأي وسيلة حين تكون تحت نير الاحتلال العسكري وحق للاجئين بالعودة إلى بيوتهم، كما أن التفجيرات الانتحارية في تل أبيب لا تخدم أي هدف سياسي أو أخلاقي وهي غير مقبولة أيضاً. هناك فرق كبير بين العصيان المنظم أو الاحتجاج الجماهيري من جانب وتفجير الشخص نفسه مع عدد من الأبرياء من جانب آخر. ويجب أن يبين هذا الفرق بشكل واضح ومؤكد، وينقش إلى الأبد في أي برنامج فلسطيني.

إن المبادئ الأخرى مباشرة ومستقيمة بشكل واضح. حق تقرير المصير للشعبين. حقوق متساوية لكليهما. لا إحتلال ولا مستوطنات. حل يشمل جميع الأطراف. أياً كانت المفاوضات التي أقحمنا فيها يجب أن تكون على ذلك الأساس، الذي يجب أن يكون واضحاً منذ البداية ولا يترك ذلك دون ذكر أو تضمين كما حدث في عملية أوسلو التي ترعاها الولايات المتحدة. يجب أن تكون الأمم المتحدة هي الإطار الحاضن للمفاوضات. في الوقت الحالي، علينا كفلسطينيين وعرب يهود وأميركيين وأوروبيين أن نحمي غير المحميين، وأن ننهي جرائم الحرب كالعقاب الجماعي، والقصف والاضطهاد التي يعاني منها الفلسطينيون كل يوم.

هذه هي الحقائق اليوم، وجوهرها عدم التناسق الهائل والتباين الكبير في القوة بين إسرائيل والفلسطينيين. لهذا يجب علينا أن ننتزع الأرضية الأخلاقية مباشرة، بالوسائل السياسية التي لا تزال بمتناولنا .... قوة التفكير والتخطيط والكتابة والتنظيم. هذا صحيح بالنسبة للفلسطينيين في فلسطين وفي إسرائيل وفي المنفى. ليس هناك أحد معفي من بعض الالتزام بتحررنا. من المحزن أن القيادة الحالية تبدو عاجزة تماماً عن فهم ذلك، لهذا يجب أن تتنحى جانباً وسوف تتنحى بالتأكيد عند نقطة ما.

ماذا تعني القاهرة لي –مع منى أنيس عام 1994.

خلال السنوات السابقة أكملت ثلاثة كتب والسنة الماضي (الثقافة والامبريالية) الكتاب الذي تطلبت كتابته عشر سنوات مني، أريد أن أكتب شيئاً يمثل تغييراً في التركيز والشكل. فكرت منذ سنوات كثيرة بأن اكتب سيرة لشبابي الذي أمضيت كثيراً منه في القاهرة. رغم أن أبي وأمي فلسطينيين، فقد جاء أبي من فلسطين إلى مصر في منتصف عشرينيات القرن العشرين وأسس تجارة هنا كانت على علاقة بتجارة العائلة في فلسطين. بعد أن ولدت في القدس جاء أبي وأمي إلى القاهرة وذهبت إلى مدرسة هناك وأمضيت جل سنين دراستي فيها إلى أن أصبحت في السادسة عشر من عمري رغم أنني ذهبت إلى مدرسة في القدس قبل ذلك.

لقد جئت الآن في إحساس معين، وأحاول التأقلم مع المحيط الذي اختفى أغلبه، خصوصاً ذلك المحيط الذي وفر أرضية للعائلة الخاصة التي أوجداها أبي وأمي لنا. كانت في الزمن الذي كان فيه المتحف البريطاني لا يزال هنا، ومصر كانت مملكة وملتقى لعشرات القوميات المختلفة والأفكار السياسية. نحن كفلسطينيين، مسيحيين، أبي كان أمريكي أيضاً، حصل على المواطنة حين خدم في الحرب العالمية الأولى، لهذا كنا أمريكيين أيضاً. لقد كنا (خارج المكان) تماماً في هذا واشعر بالإثارة لأكون هنا مرة أخرى في محاولة لإحياء بعض من ذكريات تلك التجارب المبكرة.

علاقتي مع مصر في الحقيقة كلها القاهرة، القاهرة بالنسبة لي أحد أعظم المدن في خيالي. شكلت علاقة غريبة ومتميزة معها ولا أزال أشعر بذكريات هذه العلاقة حين أعود إليها. أشعر بالغضب حين أسمع الأصوات والمناظر والروائح وغيرها في القاهرة. أنا لست مهتماً في اللون المحلي أو تاريخ المدينة أو الاقتصاد السياسي للثورة. مذكراتي محاولة لأروي هذا الموقع الحميم والمميز الذي تحتله هذه المدينة في ماضيي وذاكرتي وخيالي.

أجد القاهرة ثرية ومشوقة بشكل ساحر وتعني لي الكثير جداً لسببين. الأول: منظر محيطها وفخامة بعض هندستها المعمارية والنشاط الصاخب لحياة الشارع. والسبب الثاني: هو أهلها. اللغة العربية هي لغتي وأرغب في سماع أصوات أهلها. وأنا مغرم باللهجة المصرية المحكية بالخصوص وأحب عزف اللغة وصوت الكلمات. تبدو لي القاهرة مسرحاً صاخباً من الكلمات والأصوات وهي ليست كأي مدينة أخرى بالنسبة لي. أغلب المدن تبدو لي صامتة تماماً وهذا صحيح بالتأكيد بالنسبة للمدن الكبيرة الرتيبة حتى ولو كانت اللغة معروفة لي فهي لم تترك علي مثل هذا المستوى الحميم أبداً.

غادرت القاهرة في عام 1951 لأتابع دراستي في الولايات المتحدة لكن عائلتي ظلت هنا حتى أوائل الستينيات وكنت أقضي الإجازة الصيفية في القاهرة منذ عام 1951 إلى أن تركت عائلتي مصر. بعد ذلك، انقطعت خمسة عشر عام حتى زُرتها ومرت فترة أخرى مثلها قبل أن أقوم بزيارة أخرى، لهذا كان هناك كثير من الغياب وكانت عودتي الأخيرة في الصيف الماضي وفي آخر السنة الماضية والآن في الربيع حميمية.

مع دافيد بارساميان تشرين الثاني 2001.

إدوارد سعيد مثقف رفيع المستوى ومصقول ونيويوركي نموذجي من أوجه كثيرة فحبه للمدينة صريح وملموس. ويقول: تلعب نيويورك دوراً مهما في نوع النقد والتفسير الذي كتبته. إنه يعكس تنوع المدينة وطاقتها التي لا ترتاح. بالإضافة إلى حبه الجم للأدب واهتمامه الذي لا يعرف الوهن للسياسة فهو نصير عنيد للأوبرا والموسيقى الكلاسيكية. عازف بيانو بارع فتح بيته في نيويورك للفنانين والكتاب والموسيقيين من كل أنحاء الكون.

إنه نيويوركي منذ عام 1963 حين قبل وظيفة في جامعة كولومبيا حيث يعمل الآن أستاذاً جامعياً. ولد في القدس وتعلم في مدارسها ومدارس القاهرة ثم جاء سعيد إلى الولايات المتحدة في أوائل خمسينيات القرن العشرين ودرس في جامعتي برينستون وهارفارد. يدور حديث كثير هذه الأيام عن المثقف الشعبي لكن الكثير منه مجرد حديث أما ادوارد سعيد فهو شيء حقيقي. تشربت مواهبه الفكرية الإبداعية وقدراته بشعور قوي من الإزدراء للنفاق والتناقض والإهانة لما يصدر من تعليق سياسي وخصوصاً حين يتعلق الأمر بالشرق الأوسط. إنه بلا شك من أبرز الناطقين باسم القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة.

إنتاجيته وتنوع إهتمامه يلفتان الانتباه. عامل لا يعرف التعب أو اللين، يحافظ على جدول مواعيد صارم رغم إصابته في اللوكيميا. مؤلف خصب، نشر مؤخراً تأملات عن المنفى والسلطة والسياسة والثقافة. كثير من كتاباته السياسية لا تنقب وتستخرج الذكريات المطمورة وتؤكد على الحضور الفلسطيني فقط وإنما تشير إلى مستقبل يمكن أن يحل فيه السلام.

لقد أجرينا مقابلات كثيرة في السنوات السابقة، و دائماً كنت أندهش بطاقته الفكرية الهائلة وحماسه المتأجج للحديث. يظل متفائلاً بشكل عنيد. دوره المعارض أن (يغربل ويحكم وينتقد ويختار، لذلك الخيار والوكالة تعودان للفرد) كما يقول: يتخيل مجتمعاً لا يمجد (المصالح السلعية والأهداف التجارية المربحة) وإنما يقدر (قدرة البقاء على قيد الحياة ودعم كل أسباب هذا البقاء بطريقة إنسانية محتشمة. تلك هي الأهداف الصعبة التي يجب أن تنجز. لكن أعتقد بأن إنجازها ممكناً.) لقد تحدثت إليه عبر الهاتف في أواخر أيلول.

سؤال: إن أحداث 11 أيلول أربكت وشوشت كثير من الأمريكيين. ماذا كان رد فعلك؟

ادوارد سعيد: أتكلم كواحد من أهالي نيويورك وقد جدتها حدثاً مرعباً وصادماً، خصوصاً في حجمها ودرجتها. في الأساس كانت رغبة حقودة لإلحاق الضرر بالأبرياء. لقد استهدفت الرموز: مركز التجارة العالمي، قلب الرأسمالية الأمريكية، والبنتاغون مركز قيادة المؤسسة العسكرية الأمريكية ولم يكن المقصود منها الحوار أو المفاوضات ولم تتضمن أي رسالة لقد أفصحت عن نفسها فقط وهذا غير عادي. لقد تجاوزت السياسي وانتقلت إلى الميتافيزيقي. هناك عقل كوني شيطاني يعمل هناك رفض لأي اهتمام في حوار سياسي وإقناع. لم تكن هناك مطالب كما لم يكن هناك تصريحات وبيانات. هي مجرد تدمير نفذه فكر إجرامي دون أي دافع آخر وهي جزء من رعب صامت. هذا غيض من فيض. إنه قفزة إلى عالم آخر – عالم الأفكار المجردة المجنونة والمبادئ العامة

الأسطورية يشمل الذين اختطفوا الإسلام لأغراضهم الشخصية. من المهم أن لا نقع في ذلك الفخ وأن نحاول الرد بثأر انتقامي ميتافيزيقي.

سؤال: ما الذي على الولايات المتحدة أن تفعله ؟

ادوارد سعيد: الرد العادل على هذا الحدث الفظيع يجب أن يكون بالذهاب فوراً إلى المجتمع الدولي، الأمم المتحدة. يجب أن تنظم سلطة القانون الدولي وتفعل لكن قد يكون هذا متأخر قليلاً لأن الولايات المتحدة لم تفعل ذلك أبداً؛ فقد كانت تتصرف لوحدها دائماً. إن القول بأننا سنقضي على بلدان ونجتث الإرهاب تلك ستكون حرباً طويلة تمتد لسنوات كثيرة مع أدوات مختلفة كثيرة، يوحي بصراع أعقد وأطول وأعتقد بأن غالبية الأمريكيين غير مستعدين لهذا النوع من الصراعات. لا يوجد هدف واضح في المشهد. منظمة أسامة بن لادن خرجت عنه وهي الآن مستقلة عنه. سيكون هناك آخرون يظهرون ثم يعيدون الظهور ثانية. لذا نحن نحتاج إلى حملة منظمة تمتاز بالدقة والتحديد والحلم ولا تكتفي بمسح وجود الإرهاب وإنما تبحث عميقاً في الجذور المسببة لهذا لإرهاب.

سؤال: ما هي تلك الأسباب الجذرية؟

ادوارد سعيد: إنها تنبع من تورط الولايات المتحدة الطويل في شؤون العالم الإسلامي، الدول المنتجة للنفط والعالم العربي والشرق الأوسط- تلك المناطق التي تعتبر جوهرية وأساسية لمصالح الولايات المتحدة وأمنها. وفي هذه السلسلة المكشوفة القاسية من التفاعلات، لعبت الولايات المتحدة دوراً مميزاً جداً حجب عن أغلب الأمريكيين أو هم لم يهتموا به.

في العالم الإسلامي، يُنظر إلى الولايات المتحدة بطرق مختلفة تماماً. النظرة الأولى تدرك أن الولايات المتحدة بلداً استثنائياً. كل عربي أو مسلم أعرفه مهتم بشكل كبير في الولايات المتحدة. فالكثير منهم يرسل أولاده ليتعلموا في الولايات المتحدة والآخرين منهم يأتي لقضاء الإجازة فيها أو يتاجرون هنا أو يتدربون. النظرة الأخرى هي عن الولايات المتحدة الرسمية، صاحبة الجيوش والتدخلات. الولايات المتحدة منذ عام 1953 أطاحت بحكومة مصدق الوطنية في إيران وأعادت الشاه ثم تورطت في حرب الخليج أولاً وفرضت العقوبات المضرة جداً ضد المدنيين في العراق وهي الداعم الأساسي والدائم لإسرائيل ضد الفلسطينيين.

لو عشت في المنطقة، سترى هذه الأشياء كجزء من دافع مستمر للسيطرة، ونوع من القسوة والمقاومة العنيدة لرغبات وأماني وطموحات الناس هناك. يشعر أغلب العرب والمسلمون بأن الولايات المتحدة لا تهتم برغباتهم كثيراً وأنها تلاحق سياساتها لمنفعتها الخاصة دون اكتراث للمبادئ الكثيرة التي تدعي بأنها لها-الديمقراطية، حق تقرير المصير وحرية الكلام وحرية التجمع والقانون الدولي. من الصعب جداً مثلاً تفسير ثلاثة وأربعين عام من الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة. من الصعب جداً تبرير 140 مستوطنة إسرائيلية و400,000 مستوطن. لقد ارتكبت هذه الأعمال بتأييد وتمويل من الولايات المتحدة. كيف يمكن القول بأن هذا جزء من التزام الولايات المتحدة بالقانون الدولي وقرارات مجلس الأمن؟ النتيجة هي نوع من الصورة الشيزوفرينية للولايات المتحدة.

والآن نصل إلى القسم المحزن فعلياً. الحكام العرب فعلياً غير محبوبين وبلا شعبية وتدعمهم الولايات المتحدة ضد رغبات شعوبهم. في كل هذا المزيج من العنِف والسياسات المكروهة إلى آخر

ذرة فيه بشكل واضح، ليس صعباً على الديماغوجيين وخصوصاً الذين يدّعون بأنهم يتكلمون باسم الدين، في هذه الحالة، أن يؤججوا حرباً صليبية ضد الولايات المتحدة وينادوا بوجوب إسقاط أمريكا.

ما يثير السخرية هو التناقض، حيث أن الولايات المتحدة هي التي ربت كثيراً من هؤلاء ومنهم أسامة بن لادن أوائل الثمانينيات في جهودها لطرد السوفييت من أفغانستان في الواقع. لقد اعتقدت أن حشد قوى الإسلام ضد الشيوعية الكافرة لن يكون لصالح الاتحاد السوفييتي وكان ذلك ظاهراً بالفعل. ففي عام 1985 جاءت مجموعة من المجاهدين إلى واشنطن واستقبلها الرئيس ريغان وسماهم (مقاتلي الحرية). لكنهم بالمناسبة، لا يمثلون الإسلام بأي معنى رسمي فهم ليسوا أئمة أو شيوخ. لقد عيّنوا أنفسهم محاربين عن الإسلام. يشعر السعودي أسامة بن لادن بأنه وطني وأن قوات الولايات المتحدة في العربية السعودية المقدسة إنتهاك لحرمتها لكونها أرض النبي محمد بالإضافة إلى الشعور بالانتصار رأى أننا كما دحرنا الاتحاد السوفييتي يمكننا فعل هذا-أي طرد القوات الأمريكية. ومع هذا الشعور باليأس والدين المرضي، تطور دافع واسع وقوي للأذى والضرر، دون إعتبار للأبرياء وغير المتورطين، كما كان الحال في نيويورك. كي نفهم ذلك الآن، لا يعني أبداً التغاضي عنه. وما يرعبني أننا ندخل طوراً إن بدأت في التكلم عنه كشيء يمكن فهمه تاريخياً- دون أي تعاطف- ستتهم بأنك غير وطني ويحظر عليك. إنه خطير جداً. شجبه طبعاً. من الواجب على كل مواطن أن يفهم العالم الذي نعيش فيه والتاريخ الذي نحن جزء منه تماماً وأننا نشكل قوة عظمى.

سؤال: يبدو أن بعض النقاد والساسة يرددون أصداء عبارة كروتز في قلب الظلام حين قال: (أبيدوا كل المتوحشين).

ادوارد سعيد: في الأيام القليلة الأولى، وجدتها أحادية اللون بشكل محزن. كان هناك أساساً نفس التحليل الذي تكرر مرة بعد أخرى مع هامش قليل يسمح للآراء المختلفة والتفسيرات والأفكار. ما يزعج كثيراً هو غياب التحليل والتأمل. خذ كلمة (إرهاب) لقد أصبحت مرادفاً لمعاداة الأمركة التي أصبحت بدورها مرادفاً لانتقاد الولايات المتحدة الذي أصبح مرادفاً لغير الوطني أيضاً. هذه سلسلة غير مقبولة من المعادلات. يجب أن يكون تعريف الإرهاب أكثر دقة، لكي نقدر على التمييز بين ما يفعله الفلسطينيون لقتال الاحتلال العسكري مثلاً، وبين الإرهاب الذي نتج عنه تفجير مركز التجارة العامي.

سؤال: ما هو الفرق الذي رسمته؟

ادوارد سعيد: خذ شاباً من غزة يعيش في أرهب الظروف - التي فَرَضَتْ أَغْلبُها إسرائيل- يلف نفسه بالديناميت ثم يقذف نفسه وسط مجموعة من الإسرائيليين. أنا لم أغفر أو أقبل بهذا، لكن على الأقل، هذا مفهوم على أنه رغبة يائسة لكائن بشري يشعر بأنه طرد إلى خارج الحياة من كل محيطه، ويرى أن مواطنيه الفلسطينيين الآخرين، أبوه وأمه وأخواته وإخوته، يعانون ويتضررون أو يقتلون. فهو يريد أن يفعل شيئاً ليرد الضربة وينتقم. هذا يمكن فهمه بأنه عمل شخص يائس حقاً يحاول أن يحرر نفسه من ظروف جائرة مفروضة عليه. إنه شيء لا أتفق معه، لكن على الأقل يمكن فهمه. الأشخاص الذين ارتكبوا التفجير الإرهابي في مركز التجارة العالمي والبنتاغون شيء مختلف لأن هؤلاء الناس لم يكونوا يائسين ولاجئين فقراء. كانوا من الطبقة الوسطى تعلموا وألموا باللغة

الانكليزية واستطاعوا الذهاب إلى كليات الطيران والمجيء إلى الولايات المتحدة والعيش في فلوريدا.

سؤال: في مقدمتك للنسخة المحدثة من تغطية الإسلام: كيف تحدد وسائل الإعلام والخبراء الطريقة التي نرى بها بقية العالم، إنك قلت: (التعميم الحاقد على الإسلام أصبح آخر شكل مقبول من تشويه للثقافة الأجنبية في الغرب.) لماذا ذلك؟

ادوارد سعيد: الشعور بالإسلام كتهديد للأخر-بتصوير المسلمين متعصبين وعنيفين وشبقين وغير عقلانيين- تطور أثناء الفترة الاستعمارية فيما سميته (بالاستشراق). دراسة الآخر، يتعلق كثيراً بالتحكم والسيطرة الأوروبية والغربية عموماً في العالم الإسلامي. واستمر لأنه مؤسس على جذور دينية راسخة بعمق، حيث ينظر للإسلام كمنافس للمسيحية. لو نظرنا إلى مناهج أغلب الجامعات والمدارس في هذه البلاد، فيما يتعلق بصدامنا الطويل مع العالم الإسلامي، ستجد هناك القليل جداً الذي يمكن أن تعتبره تثقيفي ومنير حقاً عن الإسلام. لو نظرت إلى وسائل الإعلام المنشورة، سترى أن النموذج النمطي الذي بدأ مع (رودولف فالنتينو) في الشيخ قد ظل حقاً وتطور إلى وغد عابر للقوميات في التلفزيون والسينما والثقافة عموماً. من السهل إطلاق التعميمات على الإسلام. كل ما عليك فعله أن تقرأ أي عدد من (ذا نيو ريببلك) لترى أن الشر المتطرف هو ذلك المترافق مع الإسلام والعرب لأن ثقافتهم فاسدة وهلم جر. هناك تعميمات بغيضة تطلق في الولايات المتحدة ضد أي جماعة دينية أو إثنية.

سؤال: في مقالة حديثة في (الاوبزريفر اللندنية)، قلت أن دافع الولايات المتحدة للحرب يشبه دافع كابتن إهاب في مطاردته لموبي ديك. أخبرني عما في ذهنك هناك.

ادوارد سعيد: كان كابتن أهاب رجلاً تمّلكه دافع هاجسي لمطاردة الحوت الأبيض الذي ألحق به ضرر- إقتلع ساقه- إلى نهاية العالم، دون الاهتمام بما يحدث. في المشهد الأخير من الرواية، ظهر القبطان إهاب الذي حمل إلى خارج البحر وهو يلف حبل رمحه حول الحوت الأبيض كأنه ذاهب إلى حتفه بشكل واضح. إنه مشهد نهاية انتحارية. الآن، كل الكلمات التي استخدمها (جورج بوش) علناً أثناء المراحل الأولى من الأزمة -(المطلوب حياً أو ميتاً)،(حرب صليبية) الخ-لا توحي كثيراً بالتقدم المنظم والمدروس نحو إحضار الرجل للعدالة حسب المعايير الدولية، وإنما بشيء رؤيوي من نوع الوحشية الإجرامية نفسها. هذا سيجعل الأمور أسوأ بكثير مما هي عليه بسبب العواقب الموجودة دائماً. يبدو لي إعطاء (أسامة بن لادن) ذلك الحجم الأسطوري - الذي تحول إلى موبي ديك- كرمز لكل الشر الذي في العالم- هو لعب للعبته نفسها. أعتقد أننا بحاجة إلى علمنة الرجل وإنزاله إلى مملكة الواقع. يجب معاملته كمجرم وكرجل ديماغوجي أطلق عنفاً غير قانوني ضد أناس أبرياء. عاقبوه بناء على ذلك، ولا تنزلوا العالم المحيط به وبنا.

في رثاء ادوارد سعيد

تحية واعتذار- محمد حسنين هيكل الاهرام ويكلي 2تشرين أول 2003

لا يمكن للكلمات أن تعبر عن خسارة الفكر عموماً وفكرة الحرية خصوصاً التي أحدثها إدوار سعيد. كان إدوارد سعيد أستاذاً للأدب المقارن في جامعة كولومبيا. وكان مقدسياً أيضاً. حمل قضايا وطنه أينما حل واستقر كثير منها معه في نيويورك حيث علم وقاتل بتصميم رائع هناك. كتب إدوارد سعيد عن الكولنيالية والاستشراق والمظاهر الكثيرة لهذين المفهومين في الفن والأدب الغربيين. كتابه الاستشراق ذلك التذكار البارز القوي والكاشف الذي أجبر العالم على الإذعان بأن صراعه كان مشروعاً وصحيحاً.

كمحاضر كان مدافعاً مؤثراً عن حقوق أمته وشعبه ونجح من خلال ما كتبه في اختراق ضمير كل من خاطبهم. كان يملك قوة تعبيرية هائلة وقادر على استحضار فكرته بعبارات سحرية واضحة ويصدر صوته شعاع منير له قوة التنبيه.

لقد تعرض ادوارد سعيد لحملة آثمة ارتكبتها الجماعات المؤيدة لإسرائيل التي أقلقها تأثيره، وسببت ردود أفعال متنوعة برهنت مدى فضله. لكن هذه الحملات لم توقفه لأنه كان يسعى وراء السلام في صميم قلبه. لقد سعى إلى سلام عادل دائم.

كان أول من لاحظ التشوش المحدق بالجمهور الفلسطيني. لقد كان من المقرر أن نحضر مؤتمر عقد في جنيف عام 1988 لمناقشة الخيارات المتاحة للقيادة الفلسطينية في وقت كانت فيه تحت ضغط هائل لما سمي بالتسويات. كان من المفترض أن نطير من جنيف إلى تونس لنمضي يوماً واحداً مع كل فصائل القيادة الفلسطينية. عند المغادرة أخبرني ادوارد سعيد أنه نوى العودة إلى جامعته في نيويورك ولن يرافقني إلى تونس. حين سألته لماذا سُيفعل هذا في وقت كان فيه هم حياته على حافة الهاوية، أخبرني بأنني سأفهم موقفه حين أرى بنفسي ما كان يحدث في تونس.

واتفقنا مرة أخرى، دون تدبير سابق، في رد موحد على اتفاقات أوسلو. شرحت موقفي في محاضرة في الجامعة الأمريكية في القاهرة بينما كان إدوارد يخاطب العالم كله بصوته الجلي والصافي والمتصاعد في إشارات مسموعة أكثر، حيويته التعبيرية تزداد إقناعاً بالدقيقة. كانت حياته وأعماله دليلاً لدور المثقف والموقف الفكري. حين يختار معلم أن يستخدم ذخيرته الفكرية في العالم الواسع لتجاوز التأثير البطيء للنصوص الأكاديمية، فهو يبدي رغبة بمواكبة الأحداث ليصل إلى قلب المستقبل ويهزم موتاً يعرف بأنه يترصده : صورة للعظمة بغض النظر عن وجهة النظر.

لقد عرف إدوارد سعيد إنه مصاب بسرطان الدم منذ سنوات كثيرة، حالة قاتلها بشجاعة. كان المرض سيعيقه عن الحركة لفترة لو لم يهب فوراً للمقاومة، فوقف شامخاً وفخوراً، صوته يجلجل وكتاباته تفيض –مثقف وفنان وناشط–وقبل كل شيء متمسكاً بالكرامة الإنسانية، ساعياً وراء الفضيلة والمغزى والجوهر في حياته وحوراه مع الكون.

في أوائل هذا الصيف دعي إدوارد سعيد لإلقاء محاضرة في الجامعة الأمريكية في القاهرة. قابلته قبل المحاضرة في الفندق الذي نزل فيه. تشّكل لدي انطباع بأنه منهك ورافقته إلى قاعة ايوارت. بعد المحاضرة كان مستنزفاً. دفع ضريبة الترحيب الذي لاقاه والجهد الذي بذله. في اليوم التالي حل ضيفاً في بيتي الريفي مع زوجته مريم. قضينا اليوم معاً ورغم أنه حاول أن يشعرني بأن النهاية قد اقتربت كثيراً لكنه لم يتوقف عن الحديث والتساؤل والنقاش-كأنه أراد أن يطيل آخر أنفاسه. لقد عاش في قلب الحياة.

قبل أسبوعين إكتشفت أن إدوارد في المستشفى في نيويورك. حاولت الاتصال معه لكنه كان في وحدة العناية المركزة للأسف. شعرت بانقباض يسيطر على أعصابي، يشدها، لأنني شعرت بقرع الأجراس. لسوء الحظ لا الكذب ولا الحقيقة، لا الشعر ولا الدموع كافية لتجعل المرء يقبل ما حكمت به الأقدار، المقبلة المدبرة، التي خطفت إدوارد سعيد معها إلى عالم بعيد

حاشية: يجب أن أشير أنني لا أحب الكتابة العرضية من هذا النوع-نعي كانت أم تهنئة. لكن في هذه المناسبة الإستثنائية أشعر بأني أكتب، في مستوى ما، بنوع من الاعتذار. لأن الصحافة المصرية فشلت في نشر خبر رحيل إدوارد سعيد بالسرعة الكافية. وهذا الفشل يعكس عيباً ثقافياً ومهنيا لا يغتفر. رحيل إدوارد سعيد يجب أن لا يذكر عابراً، كما حصل، لينسى في اليوم التالي. أنا لا أعتذر عن ذلك فقط. أنا أطلب المغفرة من مهنتي.

رسولنا للضمير الإنساني- محمود درويش الاهرام ويكلي 2تشرين اول 2003

لا أستطيع أن أودع إدوارد سعيد، الحاضر جداً بيننا ومعنا في العالم كله، حي جداً. الرسول الفلسطيني للضمير الإنساني الذي ضجر من الصراع الميئوس ضد الموت ولم يضجر أبداً من مقاومة النظام العالمي الجديد ودفاعه عن العدل والإنسانية والقرابة بين الحضارات والثقافات.

راوغ الموت إثنا عشر عام وأثبت أنه بارع. جدد حياته الإبداعية الخصبة، بواسطة الكتابة والموسيقى ودون المشيئة الإنسانية، في بحثه النشيط عن المعنى والجوهر، وضع المحاولة الفكرية في سياقها الصحيح. أي فلسطيني يسأل بما يفتخر في العالم المعاصر يرد بلا تردد (إدوارد سعيد). لم تنجب الساحة الثقافية الفلسطينية نابغة بهذه التعددية الفريدة مثله.

من الآن حتى إشعار آخر، سيستمر فضله في نقل إسم بلاده الأصلية من المستوى العامي في السياسة إلى مستوى الوعي الإنساني الكوني. لمولده بفلسطين كان عليه أن يصبح الأب المثالي لفلسطين القادمة من خلال الولاء للعدالة التي حرم منها شعبه والدفاع عن حقهم في الحياة والحرية. منظوره عن الصراع الثائر هناك هو ثقافي وأخلاقي؛ لا يبرر حق الفلسطينيين في المقاومة فقط وإنما يظهره كواجب قومي وإنساني.

كان شخصاً كلياً تجمع فيه الناقد والمثقف والموسيقي والسياسي وعملوا في إنسجام رائع. شخصيته المهيبة تطفح بكاريزما استثنائية جعلته ظاهرة عالمية فريدة. من النادر أن تصادف شخصاً إتحد فيه المثقف والنجم في الطريقة كالتي عند إدوارد، حضور مندفع، كما كان فصيحاً وعميقاً كان عنيفاً وواضحاً، محافظاً على سحر ثابت في علم جمال الحياة واللغة

حين يفرض الوداع الصعب، بحضوره يناقض الشرط المستحيل لغيابه، لا يرحب العالم بالتقرب من فلسطين إلا في لحظة نادرة، لحظة لا نستطيع أن نحدد بيقين من أي عائلة الفقيد لأن العالم كله عائلته. الخسارة مشتركة لنا وللعالم، وهكذا الدموع أيضاً، لأن إدوارد بضميره الحي ومعرفته الموسوعية، نجح في وضع فلسطين في قلب العالم ووضع العالم في قلب فلسطين.

لضحكته رنة ـحنان عشرواي الاهرام ويكلي 2تشرين اول 2003

أي عزاء هناك لرحيل رجل عظيم؟ هو لم يرحل وراء الفراغ- لا يترك فراغاً خلفه- نوع من ثقل الروح، وزناً لا يُحتمل، يسحق القلب بلا رحمة ويحول كل شهقة إلى محنة.

لم يكن إدوارد سعيد أكاديمياً فقط، بل عقل متقد الذكاء وفنان مبدع ووطني يشتعل حماسة، محام للعدالة، روح حرة، قوة للاستقامة لا تلين، مقاتل صلب من أجل الكرامة الإنسانية؛ كان أيضاً، إنساني بشكل يدهش، عرضة للآلام والوساوس التي تزعجنا كلنا.

في خطوته وثب ولإيماءاته شرارة كهربائية حين يحاضر بنا في النقد الأدبي أثناء زيارته لجامعة بنسلفانيا في أواخر الستينيات. لم يكن في ذلك الوقت أكبر عمراً من طلابه الحضور.

لصوته رجفة ولنغمته إثارة حين نطق بوثيقة الاستقلال الفلسطينية، طعمها بالأصالة الفلسطينية وقابلية التطبيق الكونية، في الجزائر عام 1988. سكن الأسى قلبه برحيل صديقيه إقبال أحمد وإبراهيم أبو لغد وحزن صراحة بفقدانهم. ترقرقت الدموع في عينيه حين أخبرنا أنه مصاب بسرطان الدم في لندن عام 1991. كان لضحكته رنة ولإبتسامته شرارة حين مجد صداقاته التي لم يخذلها ولم تخنه أبداً- صداقات مع عبد المحسن قطان وشفيق الحوت وحسيب صباغ وسيد خوري ورشيد خالدي ودانييل بارينبويم وكثيرين غيرهم.

كان صارماً في غضبه وسخطه الأخلاقي نحو (عار) أوسلو والفساد في القيادة. لا يصبر على البلادة والتجاهل المتعمد لكثير من وسائل الإعلام الغربية التي أصرت على تقليل الحقيقة إلى خطاب سياسي تافه. هناك رقة في تماثله مع المظلوم وضراوة في غيظه ضد الظالم، عناق حار للضحية ونبذ بارد للمجرم، حب لجنوب أفريقيا بعد الأبارتايد وكل ما مثله صراعها واشمئزاز من التمييز والعنصرية وتفسخ الحياة والحقوق الإنسانية. يفند الذين يعتقدون بتهور أن بإمكانهم خداع مؤازرة شعورهم الفارغ بأهمية ذواتهم بمضاء فطنته.

يتكلم بفخر وحب عن إبنه وديع وابنته نجلاه اللذان كانا يملآن حياته دائماً وعن مريم زوجته.

لديه ظمأ هائج للإعتراف بفضل القصص الإنساني وتخويله لتبرير عذاب الشعب الفلسطيني الذي لا يطاق وجعله جزء من التجربة الإنسانية الشاملة. تحلى بالإستقامة والحنو للاعتراف بمعاناة الشعب اليهودي وآلام المحرقة التي تفوق الوصف وطالب بنفس الوقت باعتراف إسرائيل بمسؤوليتها عن ورطة الشعب الفلسطيني. سعى في البحث عن الحلول والبدائل، سهر دائماً رقيباً للقيادات الشابة وناصحاً للواعدين.

لم تخلو روحه من حس الدعابة بأن لا يغتر بنفسه، قابلاً عبء شهرته ومداهنة الجمهور بالتواضع، مانحاً إسمه لكثير من هيئات المؤسسات فقد كان عضواً في المجلس التشريعي الفلسطيني والأمين العام للمبادرة الوطنية

لديه قلق الروح الذي يتفرد فيه هؤلاء الذين بين الفينة والأخرى يكونون واسعين ورشيقين جداً ليأويهم الفراغ والزمن العاديين. لديه طاقة رجل مدرك لفنائه إعتصر الحياة من كل ثانية ورفض أن يسمح للمرض المفزع أن يؤطر مكانه وزمانه أو يشكل سياقه.

لدى إدوارد سياق كوني-إنساني، سياق فلسطيني، سياق شخصي. كان لي معلماً وأخاً وصديقاً حميماً. كان مشرفاً على أطروحتي في الدكتوراه، يسأل بالهاتف عن حالة الفلسطينيين يعجل للاجتماعات في المؤتمرات أو الأحداث العامة في كل أنحاء العالم تلك الزيارات غير الرسمية في نيويورك أو رام الله. يقتطع من وقته لينعم بوجبة في البيت مع عائلته يتحلقون حول المائدة في شرفة تطل على تلال رام الله الغربية، يقضم طعامه ويتحدث باسترخاء وطريقة ناعسة، معتزلاً الشهرة من اجل ترف التواجد في بيته ومع أصدقاءه.

كان إدوارد خارج المكان-قصته الشخصية تغلف هذا الشكل الفريد من الإزاحة الفلسطينية-لكنه كان دائماً في المكان بالنسبة لنا الذين تجرأنا بأن نسلم بعبقريته وصداقته.

بالإضافة إلى عبء وفاته، يجب أن نحمل المعرفة التي لم نستعد لقبولها أبداً. موت ادوارد سعيد، وصف (بضمير فلسطين)، يتطلب تأكيداً أعظم لكل ما مثله، في ضمير الأمة وفي قلوب محبيه.

الفلسطيني الكوني-محمد سيد أحمد- الأهرام ويكلي 2تشرين أول 2003

كان قانون الجنسية مركز النقاش الواسع هذا الأسبوع: حق الجنسية المصرية للمواليد الذين أمهاتهم مصريات وآباءهم أجانب. لقد لوحظ سابقاً وبسبب تعارضه مع قرار للجامعة العربية، رأى بأن الحق يجب أن لا يطبق على الفلسطينيين. لتجنب تقويض حقهم في العودة أو إخماد حماسهم في الصراع القومي، يجب أن لا يحمل الفلسطيني أي جنسية عربية أخرى.

لكن حياة إدوارد سعيد الذي توفي في الثامنة والستين من عمره الأسبوع الماضي، تثبت خطأ هذه الحجج. إدوارد سعيد الذي ولد في فلسطين رغم أنه لم يحظى بفرصة العيش فيها لديه منظور كوني. لكنه أخضع هويته الكونية لهويته الفلسطينية مكرساً حياته دفاعاً عن القضية الفلسطينية.

عاش في القاهرة ودرس في مدرسة الجزيرة الإعدادية ثم في فيكتوريا كوليج. بعد ذلك قرر والده أن يرسله إلى مدرسة داخلية في ماساشوسيتس في الولايات المتحدة. تخرج من برينستون ونال درجة الدكتوراه من هارفارد وأصبح أستاذاً للأدب المقارن في كولومبيا. شغل نفسه بالأدب والفلسفة والموسيقى. أصبح المثقف الكوني المقروء على نطاق واسع، الذي يتحلى باهتمامات ومواهب كثيرة. شكلت حرب عام 1967 تحولاً رئيسياً في توجه حياته الفكرية. بدأ يتمعن في هويته الثقافية كفلسطيني، وبنفس الوقت منع هذا من التأثير على شعوره بالإنتماء إلى الإنسانية جمعاء.

مسيحي لم يتوقف لحظة في الدفاع عن الإسلام، وفلسطيني له علاقات قوية مع شخصيات يهودية مهيبة (مثل نعوم تشومسكي ودانييل بارينبيوم) عربي تنقل من فلسطين إلى مصر إلى لبنان وبالعكس رغم أنه استوطن في الولايات المتحدة، وإلى مستوى ما اعتبر نفسه مواطناً أمريكياً.

الحرب التي خاضها سعيد من اجل القضية الفلسطينية ليست أقل شجاعة من الحرب التي خاضها ضد المرض الموهن الذي ظل يلاحقه سنوات كثيرة- ودائماً كنا كلما نلتقي نتساءل إن كان ذلك اللقاء هو الأخير. أسرتني قدرته الاستثنائية في تكثيف عمله في وجه أصعب سباق مع الموت.

في عام 1993 أَسَرَ إدوارد سعيد لأصدقائه بأنه يتمنى لو أن هناك عشر سنوات أخرى أمامه، يصوغ فيها ما يدور في ذهنه. وقد لبيت رغبته. ومن خلال عملية تحقيق أهدافه أثبت انتصار الحياة. كما أوصى إبنته في آخر ساعاته بضرورة متابعتها للكتابة والصراع. لقد كان مما لا شك فيه يخاطب جيلاً كاملاً من الفلسطينيين والشباب العرب ذكوراً وإناثاً.

الجانب الآخر من النهر-أنور عبد الملك- الأهرام ويكلي 2تشرين أول 2003

الموسيقى والتحرر والسلام: هل يمكن أن يكون ذلك إرث إدوارد سعيد المقيم في هذا الوهج؟

أنا متأكد بأن عمله سيفسره أتباعه الكثيرين بأفضل شكل. بالنسبة لي، أود أن ألفت الإنتباه إلى مقدرته على تحريض الإلتقاء، الإلتقاء بين السعي في دروب الرواية لفهم بعض المشكلات الرئيسية في مجال العلوم السياسية-من المصادر الغربية المتاحة له- وإلتزامه المستمر بتحرير فلسطين، أرض آباءه؛ الإلتقاء بين العلم وعلم الجمال، العلوم الثقافية والموسيقى وبشكل رئيسي دفاعه المثير عن العدالة من أجل شعب اضطهد، مقروناً بسعي حثيث لا يقل من اجل السلام مع أرواح أخوية تقف على الجانب الآخر من النهر.

قليل من استطاع أن يجمع معاً الشجب الراديكالي للهيمنة الثقافية مع الالتزام العميق بالأنسنة.

هل هي نظرة مستقبلية أم يوتوبيا؟ في الحالتين فصله الأخير، حفلة سيمفونية لافتة للنظر مع (دانييل بارينبويم) وصلت للقلوب والعقول في لغة مؤثرة بعمق. ندعو المولى أن يتقبله في سلامه بعد تلك المعاناة. نتمنى أن تتحقق رؤيته.

تحية واحترام- سمير أمين الاهرام ويكلي 2تشرين اول 2003

أُحيِّ في إدوارد سعيد الشخص النموذج المقاتل من أجل القضية الفلسطينية. منفي في الولايات المتحدة، وجد سعيد الكلمات الضرورية لهز الأفكار المسبقة التي صنعتها وسائل الإعلام التي تخدم من هم في القوة حصراً.

نجح في نشر الوعي بأن مشروع التحكم العسكري الكوكبي الإجرامي الذي هندسه من هم في السلطة يجب عليهم بالضرورة أن يقدموا دعمهم للمشروع الإجرامي المماثل للصهيونية التوسعية.

أُحيِّ الذكاء الحاد الذي سمح لسعيد أن يفضح ويدحض المشاريع الأوروبية المتخفية في طيات العلوم والآداب الغربية، التي تعلم الخطاب المسيطر في الاستشراق.

كما أحيي أيضاً الرجل الذي ظل دائماً أفضل وأخلص صديق لهؤلاء الذين عرفوه رغم إصابته بمرض مميت أنزل به أقسى أنواع العذاب.

سعيد المعلم- فريال غزول الاهرام ويكلي 2تشرين اول 2003

حين سجلت للمرة الأولى كطالبة خريجة في جامعة كولومبيا في أوائل السبعينيات وقعت على حلقة من مقرر مع إدوارد سعيد. من بعد ذلك كنت على قائمة صفه في كل حلقة من مقرر أو حلقة دراسية كان يعلمها حتى أنهيت دراسة الدكتوراه وغادرت نيويورك.

كمحاضر سعيد لا يضاهى : كان إلقاءه شبيهاً بالتمثيل؛ فيه كل عناصر الدراما من الكثافة والتشويق إلى الخاتمة العلاجية. معرفة سعيد الموسوعية، براعته الكلامية الفائقة، رؤيته العميقة وراديكاليته الحريصة حوّلته إلى بطل ونموذج للشخصية المثالية في عيون طلابه. لكن سعيد رفض أن يلبس عباءة الأستاذ ولم يستسلم لإغراءات الأيقونات الثقافية. لم يسع وراء المريدين ولم يطق الأتباع. أراد لطلابه أن يزدهروا وهم يجدون أرائهم ويرسمون مخطط سيرهم.

الدراسة مع سعيد أكثر من تعلم الشعر الانكليزي والأدب المقارن ونظرية النقد. كان اكتشاف لإمكانياتنا وتحقيقها. كان يدفعنا بلا رحمة لكي نصقل كتابتنا وننقي حساسيتنا. لا أزال أذكر البكاء حين نعتني ب(أمية!)، بتلك النغمة العقابية في صوته، لعدم معرفة (فيكو وفارو). بالنسبة له كانا اسمان مألوفان، وجزء من تأمله اليومي. لكي أفوز (بالمعرفة) بمعايير سعيد- أسرعت إلى المكتبة بحثاً عن هذين الجرمين وأصبحت مع الوقت مفتونة (بجيام باتيستا وفيكو) ابن خلدون أوروبا. أصبحت أسيرة لفيكو كمعلمي.الدراسة مع سعيد مثل العيش على الحافة-كانت دائماً قاسية وخطرة ومليئة بالإثارة والانتعاش. تحدانا-طلابه-باستمرار وبقسوة، وزرع فينا فضيلة الإستقامة الثقافية. علمنا قبل كل شيء ما هو أثمن من كل الدروس: تستطيع الحقيقة أن تخاطب السلطة ويجب أن ترد على السلطة. المعرفة هي وجه آخر للفعالية. يجب أن يساهم البحث في تبيين مخاوف الفقراء والمعدمين.

لم يعلمنا بالخطب الوعظية وإنما بالفعل. العقل البشري كان منشغلاً بعلاقة الكلمات بالأشياء منذ زمن أفلاطون. في العالم العربي كان التركيز –خصوصاً في هذا العصر- على العلاقة بين الكلمات والفعل. يمثل نقد ادوارد سعيد الاهتمام بالكلمات التي لا تعني فقط، بل تحفز الفعل أيضاً. أعماله لها نص متعلق بالسياق بشكل منظم، من القصة إلى الحياة، من الخطاب إلى الأفعال، ومن عالم إلى عالم

شعور بالعدالة، بظلال معناها الشعري والأخلاقي والاجتماعي ينفذ إلى أعمال سعيد. تيار حميم وقوي يجري في كتباته. عن فارو قال سعيد (أكثر الروم علماً) وعن سعيد يمكن القول (أكثر العلماء حماسة)

شجاعة القول –دانييل بارينبويم- الأهرام ويكلي 2تشرين أول 2003

أول ما يتذكره المرء عن إدوارد سعيد سعة اهتماماته. فهو لم يكن معتاداً على الموسيقى والأدب والفلسفة أو فهم السياسة وإنما كان واحداً من النادرين الذين رأوا الروابط والنظائر بين القواعد المختلفة، لأنه تميز بفهم غير عادي للروح الإنسانية والكائن الإنساني وأدرك أن تلك النظائر والمفارقات ليست تناقضات.

لم ير في الموسيقى مجرد تركيبة أصوات بل أدرك أن كل تحفة موسيقية هي تصور عن العالم. وتكمن الصعوبة في وصف هذا التصور عن العالم في وصفه بالكلمات ولو كان في الإمكان ذلك لما كانت هناك ضرورة للموسيقى.

عقله المحب للاستطلاع سمح له طبعاً بامتياز النظر في لاوعي المبدعين من الناس. إضافة إلى تحليه بشجاعة جامحة في القول أكسبته إحترام وغيرة وعداء الكثيرين.

كثير من الإسرائيليين واليهود لم يحتملوا نقده، ليس للحكومة الإسرائيلية الحالية وإنما عقلية معينة حددها في الأفكار والأفعال الإسرائيلية- أي عدم فهم حقيقة أن نفس الحرب التي نالت فيها إسرائيل الاستقلال في عام 1948، وأكسبت هوية جديدة للقسم اليهودي من السكان، كانت هزيمة عسكرية وكارثة نفسية للسكان الفلسطينيين غير اليهود. ولذلك كان ناقدا لقصور وعجز القادة الإسرائيليين في القيام بالإيماءات الرمزية الضرورية التي تسبق أي حل سياسي. العرب من الجانب الآخر كانوا ولا يزالون غير قادرين على قبول تفهمه وحساسيته اتجاه التاريخ اليهودي، فقد قصروا أنفسهم في تكرير براءتهم طالما كان الأمر يتعلق بالشعب اليهودي.

كانت قدرته ليست في رؤية المظاهر المختلفة لأي فكرة أو عملية وإنما نتائجها الحتمية أيضاً- وأيضا التركيب الإنساني، النفسي والتاريخي وقبل التاريخي لمثل تلك الأفكار والعمليات. كان من القلائل الذين أدركوا دائماً أن المعلومة هي الخطوة الأولى نحو الفهم. وكان دائماً يبحث عما هو (ابعد من) الفكرة و(غير المرئي) و(غير المسموع).

كل تلك التركيبة من الصفات دفعته لنؤسس معاً ديوان الغرب الشرقي وهو عبارة عن منتدى للموسيقيين الشباب العرب والإسرائيليين وفرصة لتعلم الموسيقى وفروعها معاً

لقد خسر الفلسطينيون واحداً من أبلغ المدافعين عن طموحاتهم. وخسرت إسرائيل خصماً- لكنه خصم إنساني عادل. أما أنا ففقدت توأم روح.

بأسى وغضب –مريد البرغوثي- الأهرام ويكلي 2تشرين أول 2003

رغم إدراكي لطبيعة مرض إدوارد سعيد فلم أتقبل عقابيله بعد. رغم سخافة التفكير بأن أي واحد كان يمكن أن يحميه لكنني لا أزال أشعر بأننا خذلناه وأننا لم نفعل ما يكفي. ربما لأن هذا، للذين عرفوه، الناقد الشديد للامبريالية، هذا المحارب الصامد بوجه الاضطهاد الذي إعتنى بأصدقائه كما لو أنهم أحفاده، أخفى في مكان ما في أعماقه طفلاً لطيفاً. كان حساساً، ومشاكساً بشكل ساحر وفخور ومتقلقل وفضولي، يخاف اللوم ويتوق للثناء. هناك هشاشة فيه، مزيج من النضج وبراءة الطفولة التي تدفعه نحو الفلسفة والموسيقى معاً.

من السهل القول أننا لا نزال نملك أفكاره وكتبه ومحاضراته وتسجيلاته للحوارات والنقاشات التي أججها في العالم كله. لكن ادوارد سعيد كان كاتباً أحببتموه كشخص كامل. أحببتم الطريقة التي تملأ فيها ضحكته الغرفة، مشيته الواثقة، الصوت الرخيم والسلس وأحياناً السخرية القاسية التي لم يجنب نفسه عنها.وأحببتم أيضاً الطفل الذي في داخله

سنقرأ كتب سعيد مرة تلو أخرى وسنحتفل بذكراه في السنين القادمة. لكن من الصعب الإدراك بأنه لم يعد يتخطى في المعركة، يجرد طلاء الكلمات الماكرة ويمزق قناع الفساد.

قابلت سعيد مرات قليلة فقط. لكني رأيت كيف يعامل أصدقاءه المقربين: كان كما لو أن صالحهم هو مسؤوليته الشخصية. يهتم بهم بغض النظر عن عدد الموجودين الحاضرين أو مدى التعب الذي يشعر به. حين كنت أحدثه بالهاتف وهو في نيويورك لأطمئن على صحته كان يرد بنفس الشجاعة والسخرية. كنت أواسي نفسي بفكرة الطريقة الناجحة التي استجاب فيها لعلاجه، لاجئاً إلى الوهم أن سرطان الدم شيء أشبه بنزلة البرد. لكن الرجل الذي كرس حياته لمحاربة سرطانات مجازية كثيرة لا يمكن أن يضن في معركته ضد الشيء الحقيقي. شجاعته في المواجهة كانت ملهمة في الحالتين.

لم يكن إدوارد سعيد قديساً. ولم تكن أفكاره فوق النقد أو النقاش. لكن الذي فوق النقاش أن إدوارد سعيد كان مدافعاً عظيماً عن شعبه كما كان بطل معرفة في خدمة الإنسانية، رمز للمثقف وضحايا الكولنيالية وبؤس العالم الثالث. كان خصماً مرعباً وشريفاً، حتى حين يواجه هؤلاء الذين لا يعرفون الشرف. ولم يتضايق من إخضاع أفكاره إلى تدقيق جديد كلما طالبت معرفة جديدة بالمراجعة، وهذا أهم علامات المفكر الأصيل والمتفاني. لم يكن يجد البهجة المدهشة في المعرفة وإنما سعى إلى إكتشاف العالم من خلال الأدب. كان نموذجاً للفيلسوف المشائي، صلب وعنيد حين يرفع راية الجمال الإنساني الخير.

لأنه دافع عن شعب مظلوم، وتاريخ حاول التاريخ الصهيوني أن يدمره، لقب ادوارد سعيد ب(أستاذ الإرهاب) من قبل صهاينة مثل (الاكساندر ادوارد). إعترض آخرون على حقيقة أن انجازاته الأكاديمية والفكرية كانت ممزوجة بالاشتراك اليومي في القضية الفلسطينية. أرادوه أن يظل (مفكراً كونياً) فقط. من الواضح أن (المفكر الكوني) سيجلب إلى الأرض من خلال احتراق ناتج عن احتكاك غيمتين، مخلوق بلا علاقات مع الناس، وأرض أو تاريخ، بدون أعداء وبالتالي ليس بحاجة إلى مؤيدين، وكتاباته مخصصة لتقرأ في ليل مرصع بالنجوم وحفيف ريح في الغابة. حتى في وطنه

الأصلي لم يكن هناك حساس بالعار يجعل (سلطة أوسلو) المعتوهة تسحب منعها لكتبه بدلا من الاحتجاج الشعبي على الحظر الذي افسد متعتهم في المنع.

موت إدوارد سعيد تركني أشعر بالغضب رغم إن الغضب يتلاشى كالحزن الذي لا يبدو بأن له نهاية منظورة، على الأقل لشخص بعمري، هو الموت الجماعي للفلسطينيين. في هذا يتطابق ألمنا مع ألم سعيد، الذي ظل معه حتى آخر نفس فيه. إنه موت الطفل ورعب البنادق الإسرائيلية المستمر واقتلاع أشجار الزيتون بالبلدوزرات الهرعة في يقظتها حول أمن إسرائيل وإسقاط قنبلة من جوف اباتشي على رؤوس عائلة كاملة وهدم السقوف وتحويلها إلى حجر وأحياناً على ساكنيها. هذه هي الصور التي يحملها سعيد معه وهي أشياء كلنا سنتشارك فيها طالما بقي العالم كما رآه هو من خلال تجربته حين أمسك متلبساً بجرم البحث والقلم.

لقد حمل معه أيضا صورة العالم الذي وصفه بشكل جيد وقاتله بعناد، عالم الامبريالية، وهي تتنقل من حرب إلى أخرى تقتل البشر والحقيقة والقانون وتجمع كل شيء في شبكتها. هناك كان في السرير ينصح إبنته نجلا وإبنه وديع بأن يستمرا في عملهما ويسعدان. ربما كان يخاطب جيلاً كاملاً، مقدماً نصيحة لا يستطيع منحها سوى أستاذ في منزلته الرفيعة.

في اليوم الذي مات فيه، في الحديقة خارج قاعة الفلسفة حيث كان مكتب إدوارد، وقف الطلاب والمعلمون في جامعة كولومبيا في دائرة كبيرة يحملون الدموع ويقفون دقيقة صمت عند الغروب احتفاء بذكرى أستاذهم السابق

أنا غاضب، رغم أن غضبي لم يكن أقل قبل أن اسمع برحيل إدوارد سعيد. الموت نشيط حولنا، وضجيجه قوي يحجب همسة الأمل وهدير العالم وصرخة المولود. أصبح الموت متكرراً بشكل ممل، لدرجة لم يترك فاصل زمني بين الجنازة والأخرى لنحزن ونتأمل خسارتنا. الأفاق المنكمشة تخنق الأمل. طيلة حياة كاملة ونحن نركض في الأصفاد، ونعيش على شفير الحد، نبني خيماً جديدة ونحفر مقابر مؤقتة، لأننا قبل أن ينقضي أربعون يوم على موت شخص يسقط أربعون شخص آخر. لم يعد لدينا الوقت لنندب أو نعزي الموتى، رغم أنني لم أتردد لغياب إدوارد سعيد قبل أن تبدأ الجماهير في الضغط علينا، قبل أن يعدم (شارون) ألفا آخرين في نوبة التطهير العرقي الذي ينتظرنا والذي تباركه واشنطن وتباركه عواصم عربية كثيرة أيضاً.

أنا غاضب لأن إدوارد سعيد رحل حين كنا في أمس الحاجة لصوته، وهو يزأر ضد النظام العالمي الجديد الذي وصل إلى قمم الولع بالحروب وأعماق سحيقة في البربرية. نحتاج إلى صوته أكثر من أي زمن آخر، حين يواجه التاريخ الفلسطيني هجوماً غير مسبوق ومنطق سائد وصل إلى إلقاء اللوم على الضحية وكيل المديح للمجرمين، حين شارون يلقب برجل السلام و تصنف مقاومتنا بالإرهاب.

أنا غاضب لأن عجزي يكرر نفسه أكثر مما هو مقبول. لا أنا ولا غيري قادر أن يكون رجفة مفاجئة في المعصم الذي وجه بندقيته إلى جبين (ناجي العلي) الابن الأصلي لبلدة الشجرة الملقى الآن بمقبرة في بريطانيا؛ لم أقدر حتى لدقائق، أن أكون بضعة دقائق من غفوة صباحية في بيروت تعيق (غسان كنفاني) الذي هو من عكا أصلاً، عن ركوب سيارته التي دبر الموساد تفجيرها وبعثرة جسده إلى مزق فوق السقوف المجاورة. أنا غاضب لأنني لا أستطيع أن أكون ولو ساعة واحدة في حياة (جبرا إبراهيم جبرا) من بيت لحم المدفون الآن في بغداد؛ أنا غاضب لأنني لم أستطع أن أكون حجة مقنعة يمكن أن تعيق أبو سلمى من حيفا من قبره، أو جرعة أكسجين لأبقي (إحسان عباس) من

عين الغزال، بيننا لأيام قليلة فقط قبل أن نواكب جثمانه إلى قبره في وادي السير في عمان أو (لمعين بسيسو) إلى قبره في القاهرة.

قائمة الأسماء والمقابر ستطول أكثر فأكثر. ستزداد الأسماء وننقص نحن ولن يعرف أحد منا أين سيموت.

إدوارد سعيد هو ضريح آخر خارج المكان، جنازة أخرى بعيدة عن وطنها الأم. حين نفقد شخصاً بهذه الطريقة يتحول حزننا إلى غضب. أنا غاضب من عبث طواف الكوكب كله لكي نضع زهرة على كل ضريح يضم تحت ترابه موهبة إبداعية من فلسطين.

ادوارد سعيد منارة تهدينا -ايلان بابي-اليكترونيك انتفادا 25 أيلول 2003.

فجعت والمؤيدون للقضية الفلسطينية بموت إدوارد سعيد الذي حل في غير أوانه . لقد كان لي ولأمثالي من اليهود منارة تخرجنا من ظلمات وفوضى الدولة الصهيونية إلى شاطئ آمن من العقل والأخلاق والوعي.

أنا بغاية الأسف لأنني التقيت بإدوارد مرة واحدة في عام 1988 فقط لكنني محظوظ بالوقت الذي قضيناه معاً. مداركه العميقة وبصيرته الثاقبة ومداخلاته حول الحقيقة الكوكبية عامة وفلسطين خاصة ستظل مرشداً لنا في السنوات الكثيرة القادمة. لكن قبل كل شيء سنفتقد مقدرة إدوارد الفريدة في إظهاره للعالم الشر الذي أنزل بالفلسطينيين في الماضي وضد الجهد المستمر في وسائل الإعلام الغربية بتهميش -إن لم يكن إلغاء- ورطة ومأساة فلسطين. لا أحد يستطيع في جمل قليلة أن يضم بوضوح أخطاء الماضي ومأساة الحاضر في أرض فلسطين.

وسيرتبك العالم الأكاديمي الفكري أيضاً بدون أفكاره الأصيلة ومفهومه لعلاقة العرب بالعالم. ما يقلل أسانا أن كثيرين من زملائه ساروا على خطاه حين دك بذكاء أسس القوة والمصالح الشريرة التي تكمن وراء إنتاج المعرفة في الغرب عن الشرق عموما والشرق الأوسط خصوصا.

للذين عرفوه بشكل شخصي أكثر مني لقد فقدنا كلنا صديقاً صدوقاً، كنا نتحدث معه حول أكثر القضايا الفلسفية تجريداً وبنفس السهولة ننتقل إلى مشاكل الحياة اليومية العادية-التي كانت باهتة مقارنة بصراعه الشجاع والدائم ضد مرضه المميت.

بعض من هذا المزيج والتوازن في كتبه. سيظل يذكر لكتابه (الاستشراق) والأعمال التي تلته ومساهمته في الدراسات بعد الكولنيالية. لكني سأثمن غالياً (سياسة الطرد) – هذه المداخلات القصيرة والواضحة ردود أفعال عاجلة غالباً للأزمة الأخيرة أو للفترة الحالية في حياة فلسطين والفلسطينيين لكنها روت الحدث وأفكار سعيد من خلال نظرة أوسع لحركة التاريخ.

منذ أسبوع أجرينا حديثنا الهاتفي الهام الأخير الذي ألح فيه -كما فعل مع آخرين غيري، أن لا نتخلى عن الصراع ووضع قضية اللاجئين الفلسطينيين في قلب الأجندة العالمية. وأكد على الحاجة في مواصلة الجهود لتغيير الرأي العام الأميركي حول فلسطين وكان متفائلاً ومتشجعاً فيما أعتبر تغيير مهم في الرأي العام الأوروبي.

لقد ترك لنا إدوارد أكثر من وصية روحية وأخلاقية. الوصية التي استلمتها تلك التي ذكرتها آنفاً. تكريماً لذكراه وبدافع الإحترام لعبقريته الفكرية وشجاعته الأخلاقية أيضاً، يجب أن نجمع طاقاتنا مرة أخرى ونعيد تنظيم جهودنا لكي نفهم العالم بأنه لن يكون هناك عدل وسلام في فلسطين أو استقرار في الشرق الأوسط أو سكون في علاقة الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي دون إعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، وإنهاء الاحتلال العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة وبناء دولة في فلسطين تحترم الحقوق الإنسانية والمدنية، ما ظل يفعله إدوارد طيلة حياته.

ليرحم الرب روحه بسلامه.

صوت من لا صوت لهم - نعوم تشومسكي

كان لي إدوارد سعيد صديقاً حميماً وعزيزاً خلال سنوات عديدة. إن موته خسارة فادحة تتعدى بكثير دوائر الذين كان لهم إمتياز معرفته. لقد أشتهر، عن جدارة، لمساهماته اللامعة في إنتاج ثقافي غيّر عملياً من طرائق رؤيتنا للعالم الحديث ولأصوله التاريخية. ناضل بلا كلل ولا هوادة من أجل العدالة والحرية وحقوق الإنسان ليس للشعب الفلسطيني وحده - وهو الذي لا يضاهى في النطق باسمه، محييا آماله وقضيته في أزمنة مظلمة فاجعة - وإنما أيضاً للعديد غيره من الشعوب المحرومة والمعذبة في أرجاء العالم كافة. كان إدوارد سعيد حقاً صوت من لا صوت لهم. تتخطى شجاعته والتزامه كل حدود بشكل يستعصى على الوصف. إني لواثق من أن ميراثه سوف يكون مصدر إلهام وتوجيه لسنوات عديدة في المستقبل. وخير تكريم لهذا الشخص الرائع أن نسعى، بأفضل ما نستطيع، إلى مواصلة التقدم في الدروب التي فتحها ومهّدها بكامل تألقه ونزاهته.

الإيقونة ادوارد سعيد- روبرت فيسك الاندبندت 27ايلول 2003

آخر مرة رأيت فيها ادوارد سعيد رجوته بأن يستمر في الحياة فقد كنت أعرف بمرضه وأعرف أن طبيباً يهودياً كان يعالجه رغم كل الهراء الذي قذفوه أعدائه وكان يعترف دائماً بطهر وكرم أصدقاءه اليهود الذين كان (دانيال بارنباوم) الأروع بينهم.

كان إدوارد يتعشى مع أصدقاءه في بيروت، هشاً لكنه غاضب من استسلام عرفات الأخير في فلسطين/إسرائيل. وأجاب على سؤالي كجندي:(أنا لن أموت لأن كثير من الناس يريدونني ميتاً) لكنه رحل في ليلة الأربعاء في مستشفى نيويورك وهو في السابعة والستين من العمر.

قابلت سعيد لأول مرة في حياتي في السنوات الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. لقد سمعت بهذا الرجل المقاتل والمفكر واللغوي والأكاديمي والموسيقي و-ليغفر لي الرب عن جهلي في السبعينات- حين كنت لا أعرف عنه سوى القليل. لقد أُخْبِرتْ بأن أذهب إلى شقة في الحمرا في مدينة بيروت.

كان هناك إطلاق نار في الشوارع-يا للسهولة التي نقتنع فيها بقبول الحرب كشيء طبيعي وعادي- لكن حين تسلقت درج الشقة سمعت صوت البيانو وهو يعزف إحدى سوناتات بيتهوفن. كلا لم تكن (ضوء القمر) لا يفضل سعيد هذا النوع كثيراً- لكني انتظرت خارج الباب المطلي بلون بني لعشرة دقائق إلى أن انتهى.

لقد لامني مرة حين قال(إنك قرأت كتبي يا روبرت لكنك لم تقرأ ما كتبته عن الموسيقى) فأسرعت الخطى إلى المكتبة العالمية في بناية جيفينور في بيروت لأشتري كتابه المميز لأضيفه إلى مجموعة كتبه التي اقتنيها؛ مقالاته الرائعة عن الفلسطينيين وانتقاده اللاذع لتعفن وفساد ياسر عرفات وإدانته القوية لإجرام أرييل شارون.

لم يكن معصوماً وقد يكون متغطرساً وقاسياً في نقده الذي لا يرحم. قد يكون تكرارياً. قد يكون غاضباً إلى درجة الإشعاع. لكن لديه الكثير مما يغضب. في عصر يوم ما ذهبت لزيارته في بيت أخته جين في بيروت التي يستحق وصفها شظايا بيروت استقامة أخيها-كان شبه مضطجع على الأريكة وقال (أنا متعب قليلاً بسبب علاج اللوكيميا. أنا محافظ على الاستمرار ولن أتوقف.)

كان رجلاً صلباً، أفصح وأبلغ مدافع عن شعب محتل ومهاجم حاد الطبع لقيادته الفاسدة. حرم عرفات كتبه في الأراضي المحتلة وأثبت سعة سعيد الهائلة وفقر عرفات الفكري .

في اللقاء الأول في بيروت في أواخر السبعينات، سألته عن عرفات وقال (ذهبت إلى اجتماع عقد في بيروت في اليوم قبل الماضي، فوقف عرفات هناك وسئل عن الدولة الفلسطينية المستقبلية وكل ما استطاع قوله [يجب أن تسأل كل طفل فلسطيني هذا السؤال]. وصفق الجميع. لكن ما الذي كان يقصده؟ وما الذي كان يتكلم عنه؟ كان مجرد بلاغة لفظية تخلو من أي معنى)

لقد تمادى عرفات في اتفاقيات أوسلو، كان هجومه الأول المباشر عليه. وقال (لم ير عرفات المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة أبداً. ولم يكن هناك أي رجل قانون فلسطيني حاضراً في مفاوضات أوسلو.) لقد شجب سعيد مباشرة-كل من قال منا بأن أوسلو ستكون فشل كارثي وصنفنا ك(أعداء للسلام) و(مؤيدين للإرهاب)

لم يمل سعيد من تكرار القصة الفلسطينية، وأهمية دحض الأكاذيب القديمة وأغضبته بشكل خاص الأسطورة بأن محطات الراديو العربية قد ناشدت عرب ال48 الفلسطينيين ليتركوا بيوتهم في الدولة الإسرائيلية الجديدة- لكنه يعيد ويكرر على أهمية إعادة سرد الحكاية الفلسطينية.

لقد أزعجه زوار مجهولون وزار مكتبه مفجر إرهابي وصنفه مرات كثيرة اليهود الأمريكيون الذين كرهوا كيف يستطيع أستاذ للأدب المقارن في جامعة كولومبيا الدفاع عن شعبه المحتل.

لقد جرت محاولات في أيام مرضه الأخيرة لحرمانه من مهنته الأكاديمية من قبل بعض مؤيدي إسرائيل المتوحشين الذين زعموا نفس القدح الكاذب بأنه معاد للسامية لكن جامعة كولومبيا دافعت عنه ببيان طويل لكنه متردد. حين عبر رئيس جامعة هارفارد اليهودي عن قلقه من ازدياد العداء للسامية في الولايات المتحدة بواسطة هؤلاء الذين تجرؤوا على انتقاد إسرائيل-كتب سعيد بمرارة بأن الأكاديمي اليهودي الذي يرأس جامعة هارفارد يشتكي من عداء السامية.

حين انحدر وضعه الصحي، دعي لإلقاء محاضرة في شمال إنكلترا. لا أزال أسمع السيدة التي نظمتها وهي تشتكي بأنه أصر على السفر في درجة رجال الأعمال. ولماذا لا؟ ألم يكن رجلاً بحالة صحية خطرة جداً، يقاتل من أجل حياته وحياة شعبه، ألا يحق له بعض الراحة وهو يعبر الأطلنطي؟ صداقته مع (بارنباوم) اللامع ودعمهما المشترك للاوركسترا العربية/الإسرائيلية التي عزفت في الشهر الماضي في المغرب-كانت دليلاً عن سلوكه الإنساني. حين رفض السماح لبارنباوم في العزف في رام الله، رتب سعيد حفلته-رغم حنق حكومة شارون التي لا يكن لها سعيد سوى الازدراء.

آخر مرة رأيت فيها سعيد، كان في أوج سعادته بزواج ابنه من شابة جميلة. المرة التي رأيته فيها قبل تلك، كان ثائراً لدرجة الغيظ بسبب فشل الفلسطينيون في بوسطن في عرض شرائح محاضرة عن حق العودة للفلسطينيين إلى فلسطين بالترتيب الصحيح. مثل كل الأكاديميين الجادين كان يتوخى الدقة. لكن قمة غيظه حين أدعى أعدائه بأنه لم يكن لاجئاً حقيقياً من فلسطين لأنه كان في القاهرة في الوقت الذي طرد فيه الفلسطينيون.

لم يتعامل مع الصحافة القذرة-خذ نظرة إلى (تغطية الإسلام) في نقل أخبار الثورة الإيرانية- وصبره على تحمل مقدمي برامج التلفزيون الأمريكي أقل. أخبرني مرة (حين كنت على الهواء مباشرة، قال القنصل الإسرائيلي في نيويورك أنني إرهابي وأردت قتله. وماذا قالت مقدمة البرنامج لي؟ سيد سعيد لماذا تريد قتل القنصل الإسرائيلي؟ كيف سترد على مثل هذا الكلام التافه؟

لقد كان ادوارد سعيد طيراً نادراً. وكان أيقونة ومحطم أيقونات بنفس الوقت.

تفاؤل الإرادة- الأهرام ويكلي 24 أيلول 2003 منى أنيس

الشهر الماضي رأى نشر كتابين جديدين لإدوارد سعيد. هذا الأسبوع كرمته اليونسكو بوسام بيكاسو. وسيرى الشهران القادمان نشر كتابين آخرين له. إنه كاتب غزير، يكتب حول مواضيع واسعة ومتنوعة، يكتب عن الدراسات الثقافية والنقد الأدبي والسياسة وهيامه الدائم الموسيقى.

أول مرة قابلت فيها إدوارد سعيد منذ عشر سنوات حين كان المتحدث الرئيسي في مؤتمر حول (أوروبا والآخرون التابعون لها) الذي اشتركت في تنظيمه كخريجة من الجامعة المضيفة. في ذلك الوقت كان إدوارد سعيد شخصاً مشهوراً من قبل فقد أصبح كتابه الاستشراق كتاباً مدرسياً، عنصر ثابت في قائمة القراءات في الجامعة. لهذا من الطبيعي أن يكون من أول الأسماء التي تخطر لمنظمي المؤتمر ويجب أن يبذلوا جهدهم لضمان مشاركته. كان حضور سعيد يعادل نجاح المؤتمر.

حين سئلت عن اسم متحدث عربي آخر خطر لي أنور عبد الملك، الذي كان حينها مدير المركز القومي للبحوث العلمية في فرنسا. وحين أشرت إلى أن إدوارد سعيد يقر بدينه الثقافي لعبد الملك نظر باقتراحي بشكل جدي.

منذ عشر سنوات كانت مشاعري مترددة. كنت فخورة بانجازات إدوارد سعيد طبعاً ولكن بنفس الوقت كنت غاضبة أن باحثاً وأكاديمياً لامعاً مثل عبد الملك يكون غير معروف، حتى يعرف به سعيد. من هو إدوارد سعيد على أي حال؟ في ذلك الوقت، ككثير من العرب الكبار، كنت مرتبكة من هويته. هل يمكن فعلاً أن يكون واحد منا؟

حين ظهر في مؤتمر في جامعة ايسكس في صيف عام 1984، كنت أقف خارج القاعة الرئيسية قبل جلسة الإفتتاح مع أنور عبد الملك. رأيته يقترب، رحب بأنور عبد الملك بلهجة مصرية تامة حيث رأيت إدوارد سعيد في برامج تلفزيونية متنوعة يتحدث بالإنكليزية وبمظهر غربي، اقتنعت أنه لو تكلم العربية ستكون نحوية وبلكنة ثقيلة نصف إنكليزية ونصف فلسطينية. لكني أتذكر أنني اندهشت بلهجته المصرية غير المتوقعة التي قلما تحدثت بها. وقفت مصغية إلى الحديث الودي والحار بينه وبين عبد الملك. حين غادر سعيد صرخت بالسؤال الذي أربكني:(كيف يمكنه التحدث كمصري مثلك ومثلي؟) ثم أخبرني عبد الملك أن سعيد عاش في مصر حين كان طفلاً.

في قاعة المحاضرات أصغيت لادوارد سعيد، واثق من شخصيته، متمكناً من نطقه النغم الغربي (في أفضل ما تعنيه الكلمة). نالت المحاضرة إعجابي الكامل في مادتها وطريقة عرضها، وحام السؤال في ذهني : (من هو فعلاً؟) ولم أعرف حتى وقت متأخر، الفضل لكتاباته وحياته، التي جعلتني أدرك أن التجذر العميق في ثقافة ليس حسنة دائماً وأن الخلفية المختلطة والهوية يمكن أن تكون مقوية، وأكيد من الأمتع لو استطعت أن تستفيد مما هو أفضل في العالمين.

لكن كان هناك بعد سياسي أيضاً لتأرجحي اتجاه ادوارد سعيد. لمصرية مثلي، اشتركت في حركة التضامن الفلسطينية، وكبرت في عهد عبد الناصر، ثم تحولت إلى يسارية راديكالية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، كنا ننظر إلى سعيد بعين الشك. تأييده لتسوية القضية الفلسطينية المبنية على دولتين معارض لموقفنا، الذي أصر على دولة علمانية واحدة للعرب واليهود، عداؤه لمنظمة التحرير الفلسطينية ولزعيمها ياسر عرفات، ذكر إسم سعيد بأنه الفلسطيني الجدير بالإحترام

يجب أن يكون مفيداً في مفاوضات التسوية، اعتقد أن مشاعري كانت نفس مشاعر الكثيرين من العرب.

لكن تعلّم الدروس المهمة يحتاج إلى وقت طويل. بعد عقدين من الزمن ومن تحول عرفات، من مقاتل الحرية والصراع المسلح في السبعينيات إلى عرفات يصافح رابين ويقبل بحكم ذاتي محدود. الصوت الكئيب في الخلفية، الذي كان يذّكر العرب بأن الصراع الفلسطيني هو من أجل الحرية والمساواة وليس من أجل تأسيس مقاطعة ذات حكم ذاتي تحت السيطرة الإسرائيلية، كان ذلك الصوت للـ (معتدل) إدوارد سعيد.

رغم هزيمة الآمال التي علقت على منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها. ظل سعيد منشغلاً كما كان دائماً في القضية الفلسطينية، رافعاً صوت معارضته لاتفاق وصفه (وسيلة لاستسلام الفلسطينيين - فيرساي فلسطينية). لكن الاتفاقية ليست سوى مصدر واحد للخلاف. سعيد مريض جدا أيضاً. (لدي مرض مزمن - سرطان الدم) أقتبس عنه وهو يقول ذلك في(السيف والقلم)كتاب من مقابلات أجريت مع سعيد ظهر في الولايات المتحدة. (فيه لحظات رديئة.... أحاول ألا أفكر في المستقبل كثيراً....لدي الكثير لأقوله وأكتبه، أشعر، وأريد فقط أن أستمر في فعل ذلك.)

إنشغل سعيد في معركته ضد يقينيات الحياة التافهة: كان غاضباً من مثل هذه التفاهات، لكنه لم يسمح لذلك الغضب في إفساد حياته، بدلاً من ذلك، أصبحت قوة دفع في معركة صيحة سباقها إصرار غرامشي على (تشاؤمية الفكر، تفاؤلية الإرادة). ويبقى سلاح سعيد الأساسي في تلك المعركة قدرته بأن يروي ويقدم القصص البديل والتواريخ.

شغفه بالقص وتألقه كقاص يمكن أن يفهم منذ أن ندرك الدور المركزي الذي يعزوه للقصص في تشكيل وتبديل حقيقة مفترضة. هذا موضح في مقدمته قطعته الموسيقية العظيمة :الثقافة والامبريالية.

إدوارد سعيد فلسطيني ولد في القدس. كان التزامه بأن يعلو بصوت السرد من حقيقة، كون قسم من الناس خضعت قصصهم لعملية منظمة من القمع والمنع من قبل مضطهديهم الذين تحت تصرفهم آلة دعائية قوية وفعالة. كتابه الأخير (سياسة الطرد)-الصراع من أجل حق تقرير المصير الفلسطيني 1969-1994، الذي ظهر الشهر الماضي، خلاصة وافية ولامعة وشهادة عن صراع إدوارد سعيد ضد هذه الآلة ويتضمن الكثير من محاضراته ومقالاته عن القضية الفلسطينية منذ عام 1969.

لكن سعيد لم يكن مجرد فلسطيني منع من الوصول إلى مكان ولادته وجرد من ملكية عائلته في القدس فقط. إنه فلسطيني بجنسية أمريكية ترعرع في مصر ولبنان قبل أن يذهب إلى الولايات المتحدة ليتابع تعليمه.

واصل سعيد العيش في نيويورك. الفضل الوحيد لمنفاه.، مصطلح رئيسي في فهم سعيد، الذي ينتمي إلى (عالمين دون أن يكون أياً منهما بشكل كامل) رغم أن حالة نفيه محزنة إلا أنها أصبحت عنصراً مقوياً:(الإنتماء إلى كلا الجانبين من القسمة الامبريالية يمكنك من فهمهما بسهولة أكبر) وبالنتيجة أفكار سعيد وسرده ليس بسيطاً ولا متناغماً. وحين يتحدث عن القراءة الطباقية للوثائق الثقافية، يقصد التوقف والتفكير مليا بالأصوات المختلفة التي تروي أي ثقافة. ويعتقد أن (كل الثقافات متشابكة مع بعضها البعض؛ ليس هناك ثقافة نقية ومفردة، كلها هجينة، متغايرة، ومتمايزة بشكل استثنائي وليست كلية.)

باستثناء قليل جداً من المراجع المبعثرة في كتاباته الكثيرة. سعيد لم يزود سرده بعد على شكل مذكرات. وجد هذا المشروع طريقه أخيراً إلى جدول أعماله المزدحم.

قال إن (المهمة الأساسية لي هي تلك المذكرات التي ليست مذكرات أو سيرة ذاتية في معنى (طه حسين) للسرد الرائع، لكن..... قررت بعد تأمل طويل... سلسلة من التأملات عن السيرة الذاتية حول عدد من المواضيع التي هيمنت على حياتي حتى عام 1969(قبل السياسية كما أدعوها رغم أنني انشغلت بكثير من السياسة منذ أوائل أيامي ويعود الفضل لفلسطين).

نظرية ادوارد سعيد

(تيري ايغلتون) المولود في 22شباط1943 في سالفورد في إنكلترا ناقد أدبي بريطاني، حاز على درجة الدكتوراه من ترينيتي كوليج، كامبريدج ثم أصبح زميل في الكلية اليسوعية (كامبريدج)

غزول: إلى أي نقطة في سيرتك الأكاديمية عرفت إدوارد وديع سعيد وكيف كان تجاوبك في أول قراءة له أو لقاء ؟ كيف استجبت لتطور سعيد؟

تيري ايغلتون: كان لقائي الأول مع إدوارد سعيد حين كتب لي يهنئني بكتابي (الماركسية والنقد الأدبي) الذي نشرته في 1976. قرأت البدايات فور نشرها ثم في عام 1978 سنة الاستشراق- دعيت من قبل (فريد جيمسون) للتكلم في ييل؛ كما عملنا معاً لمدة سنتين قبل ذلك في كاليفورنيا. بطريق العودة للوطن توقفت في كولومبيا وتكلمت في حلقة دراسية كان يديرها سعيد؛ لا أتذكر موضوعها. لذلك كان هذا هو لقائي الأول شخصياً. أتذكر أن ابني الأكبر كان معي، وكان في التاسعة من عمره في ذلك الوقت وحين سمع بأن سعيد عربي خاب أمله كثيراً لأنه لم يكن بصحبته جمل ولا يضع عمامة على رأسه. أنا وسعيد تقابلنا بعد ذلك في مناسبات عديدة أكثرها في لندن وأكسفورد ودوبلن. قبل موته ببضع سنوات كرست أحد كتبي له ورد علي برسالة شكر حارة وودية. وكان ذلك آخر اتصال لي به.

داليا مصطفى: أنت وسعيد كتبتما مذكرات عن طفولتكما والفترة المبكرة من شبابكما(خارج المكان-ادوارد سعيد- البواب- لك) تأملتما فيهما العلاقات العائلية بالإضافة إلى التغيرات السياسية والثقافية التي حدثت في بيئتيكما خاصة. ما هي أهمية المذكرات للمنّظر أو الناقد الثقافي في رحلته الحياتية في الكتابة؟ هل تساعد مثل هذه الصورة الذاتية في فهم المواقف النظرية والنقدية لمؤلفيها؟

ايغلتون: لست متأكداً أن لتلك المذكرات أهمية خاصة للمنّظرين الثقافيين. لأن حياته كانت سياقاً حيوياً جداً لعمله، جسّدت سيرته الذاتية انتقالات عامة متنوعة أو صراعات تاريخية عالمية ومثل عمله نقطة تقاطع أساسية ودقيقة بصورة استثنائية بين التاريخ العام والتاريخ الفردي. ويمكن قول الشيء ذاته عن ريموند هنري وليامز الأكاديمي الويلزي والروائي والناقد الذي عكست كتاباته عن السياسة والثقافة ووسائل الإعلام والأدب نظرته الماركسية. كان شخصية مؤثرة في اليسار الجديد وفي الثقافة). أنا لا أقول بأن هذا صحيح لأغلب المفكرين الثقافيين، لكن وبشكل عام أنا أشكك قليلاً بفكرة أن العمل يعكس الحياة بالضرورة. لأننا نعرف كلنا أن (جين أوستن) كان عليها أن تدير ماخوراً (وجوزيف كونراد) كان يجب أن لا ترف عينه على المحيط. ذلك لم يحدث أي فرق مؤثر على أعمالهما أبداً. أنا لا أعرف تماماً لماذا كتبت البواب كما لا أعرف حقاً لماذا كتبت أي واحد من كتبي. فقط وجدت نفسي أكتب. أحياناً، عند النظر إلى عدد من السنوات الماضية، أبدأ برؤية وميض حافز ودافع كتاب محدد لكنه لم يكن ما فكرت به في ذلك الوقت.

باربارة هارلو: (القومية)و(الاستعمار) و(الأدب) ثلاثة كلمات رئيسية لعنوان منشورات1990(مطبعة جامعة مينسوتا) لثلاثة مقالات واحدة لك وأخرى (لفريدريك جيمسون) والثالثة (لادوارد سعيد) نشرت ككتيبات في يوم الرياضة في عام 1988. هل تعلق على الصدى أو حتى المعنى، الذي اكتسبته هذه المصطلحات عبر السنوات المتخللة؟

ايغلتون: لقد أمضيت وقتاً طويلاً منذ كتابة ذلك الكتيب محاولاً أن أشرح كيف يمكن للمرء أن يكون معادياً للاستعمار دون أن يكون قومياً. وحدث أيضاً أن القومية كانت الشكل الإيديولوجي المهيمن الذي تظاهرت به الصراعات المعادية للاستعمار في العصر الحديث، بسبب كل أنواع المبررات المثيرة. لكن أشك بوجود أي رابط منطقي أو ضروري بين الاثنين. الاشتراكيون مثلاً، كانوا دائماً معادين للاستعمار قبل أن تصبح هذه المادة موضة في الجامعات. معاداة الاستعمار إرث ثمين من المتنورين الراديكاليين، بينما القومية عقيدة رومانسية تلتها بعد وقت قليل.

منذ كتابات يوم السماح أصبحت أعيش في إيرلندا لهذا استخدمت الإصدارات لتوجيه النقد المركز علي . إن أغلب مناوئي الاستعمار البريطاني على الجزيرة، قوميين مما يعني من وجهة نظرهم أنهم يؤيدون القضية الصحيحة للأسباب الخاطئة. أنا لا أقبل مثلاً بالحقيقة الساذجة التي ترى أن المجموعة الأثنية المميزة مؤهلة آلياً إلى الحق بتقرير المصير السياسي وبالمناسبة، لا يجعل من لينين عدواً قوياً للإمبريالية طبعاً. أظن أن هذا الاعتقاد الرومانسي العاطفي في وحدة الإثنيات قد خلق كمية هائلة من التشويه والبؤس السياسي. لا توجد علاقة تبسيط متبادلة بين (الآمة) و(الدولة)؛ لأن ذلك سرد معقد يصعب شرحه هنا.

برأيي، للايرلنديون أو المصريون، كغيرهم من الشعوب الأخرى الحق في تقرير المصير لأنهم كائنات بشرية، وليس لأنهم غاليين أو مصريين. المهم هي الديمقراطية وليس الأثنية. على أي حال، ليس كل الإيرلنديين غاليين وهذا خلل آخر في العقيدة. أعتقد أن سعيد سيوافق على هذه الحالة بسرور. كان أممياً وناقداً عالمياً للسلطة الاستعمارية وليس قومياً رومانسياً.

بالنسبة للأدب: حسناً، دعينا نقول بشكل عام أنه في فترة الحداثة، أو ما يمكن تسميته بخصخصة الإنتاج الأدبي، لم يعن الأدب الشيء الكثير وكان له أهمية قليلة في المجال العام (أو من الآثار الفردية المتبقية من المجال الأسطوري). لا يشكل الأدب أهمية كبيرة إلا في تلك المجتمعات التي لا تزال تحاول اقتحام الحداثة (نعمة مختلطة، بالتأكيد)-مما يعني،ما يسمى الأمم النيوكولونيالية. هنا يستطيع الأدب بوضوح لعب دور قوي وفعال في عملية تشكل الهوية. انه يحتفظ بأهمية شعبية غالبها قبل حديثة. كثير من الرجال والنساء العاديين سمعوا ببابلو نيرودا بينما الكثير منهم لم يسمع بتي اس ايليوت. لذلك المكان الوحيد الذي يبقى فيه الأدب (سياسياً) ليس في الأمم المتحضرة الحديثة. إنه بين الذين لا يزالون بحاجة إلى ناطق عنهم يستطيع أن يقوم بهذا بشكل ما من خلال كتابة خيالية.

هارلو: (سيموس دين) محرر مقتطفات من الكتابة الإيرلندية كتب في مقدمته (للقومية والكولونيالية والأدب) أن المقالات الثلاث تشترك في القناعة بأننا نحتاج إلى نقاش جديد لعلاقة جديدة بين فكرتنا عن الرعية البشرية وفكرتنا عن المجتمعات البشرية. ما يحدث الآن في إيرلندا الشمالية، تابع دين، (هو واحدة من الأزمات الكثيرة التي خلقت حاجة ماسة إلى مثل هذا النقاش الحاسم في أفريقيا وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط والاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية. تعرض طبيعة الأزمة بشكل أوضح ونتائجها تبدو أكثر شؤماً وأبعد في تأثيراتها التي كانت (آنذاك) وليس (الآن) الراهن، وبسبب التغييرات الرهيبة المثيرة والمفاجئة التي رشحت في كل الميادين التي ذكرها دين، ما الذي تعتبره أكثر الواجبات الأساسية إلحاحاً وأهمية من أجل نقاش جديد لعلاقة جديدة بين فكرتنا عن الرعية الإنسانية وفكرتنا عن المجتمعات الإنسانية؟

ايغلتون: (سيموس دين) أحد أصدقائي، لكن يجب أن أعترف بأنني لست متأكداً بما يعنيه بعلاقة جديدة بين فكرتنا عن الرعية الإنسانية وفكرتنا عن المجتمعات الإنسانية. تبدو لي واحدة من تلك العبارات الغامضة النموذجية لدى نقاد الأدب، إيحائية أكثر مما هي دلالية. نحن لا نحتاج إلى نقاش جديد لهذه العلاقة: لدينا واحد قديم جداً وجليل جداً ومعروف باسم علم الأخلاق. لكن اليسار السياسي أهمل هذا النطاق كثيراً. لقد ارتكبوا خطأ كارثيا في إعتقادهم بأن الأخلاق تتحدث عن العلاقات الشخصية في الدرجة الأولى وهي ليست سياسية. اليمين المسيحي في الولايات المتحدة لديه نفس الإعتقاد: الأخلاق هي حول غرفة النوم وليس غرفة الاجتماعات. فهي تهتم بالجنين وليس بمعركة الفلوجة؛ بالزنا وليس بالتسلح. حاولت دحض هذه المغالطة والإثبات بأن التقليد الأخلاقي السائد من أرسطو إلى اكوينا وماركس، الأخلاقي فيه يعني دائماً -الأخلاقي-السياسي.

هارلو: (ديكلان كيبرد) بروفيسور ومنظر أدبي ومؤلف وصحفي عاش وعَلَمَ في دوبلن. ناقد إيرلندي بارز كتب في ايريش تايمز عن القومية والكولنيالية والأدب (ومقتبس عنه على غلاف المجلد) إنه على عكس النموذج المعتاد (للخبير الأجنبي) لقد دُعِيَ من قبل الطبقة الوسطى ليفعل لأفرادها ما عجزوا أن يفعلوه لأنفسهم، هؤلاء الرجال اهتموا بأن يعلموا أكثر مما يعظوا) هل لا يزال هناك، كما تعتقد، نفس التمييز بين هموم التعلم ودافع الوعظ؟ كلازمة طبيعية، بأخذ مساري سيرتيكما أنت وإدوارد سعيد التاليتين، هل العلاقة بين (الخبير الأجنبي) و(وفرد الطبقة الأصلي-المحلي) تبدلت تماماً، خصوصاً فيما يتعلق بالتأييد والدفاع والمشاركة من جانب النقاد الأدبيين في النظام العالمي بعد القطبين؟

ايغلتون: كلمة (الوعظ) ليست مهينة أبداً بالنسبة لي، كما هي لأكثر الليبراليين في هذه الأيام وهو أحد أكثر الأجناس الأدبية سحراً وجلالة العظة(الخطبة). يستخدم الناس كلمة(وعظ) اليوم للإشارة إلى نوع من غطرسة الإستقامة الذاتية. لكن اللاهوت كان يدرك دائماً أن أساس الوعظ المؤثر هو التواضع الشخصي. وطبع التواضع مركزي في الإسلام. ليس من الخطأ أبداً أن تخبر الناس ما تعتقد بأن عليهم أن يفعلوه طالما أنك تفعل ذلك باحترام وطالما هم أحرار في رفضه.

لننبذ هذا ك(مهيمن) أو مهما كان المصطلح الدارج، يستلزم منطقياً بأن لا يستطيع أحد أن يخبرك بما تفعل أيضاً. وذلك مناسب جداً لك. أن تخبر ما سمي للسخرية بالعالم النامي كيف سيتصرف هو رعاية قبيحة غربية بافتراض عدم تكافؤ الحضارات وهذا يطبق بالشكل المخالف الآخر أيضاً. كما ينطبق الشيء نفسه على كلمة (تلقيني) التي تعني فعلياً (يؤثر ليعلم) دون أي إشارة ضرورية على التنمر وأيضاً كلمة (عقيدة) التي تعني (الأشياء التي تعلم). ليس لدي أي رعب ليبرالي من هذه المصطلحات ولا أرى أي عيب في الفن التعليمي الذي يعتبره الليبراليون التناقض بعينه.

دعيني أوضح النقطة بحكاية نادرة. أعطى أحد عمداء أكسفورد محاضرة مرة في كلية روسكين في أكسفورد، وهي كلية للنقابات العمالية. بدأ بالإيماءات الليبرالية القياسية عن انتقاص قدر الذات في الحاجة إلى التعلم أكثر من التعليم، دون أن يعرف أي شيء عن حقيقة الموضوع المتوفر. صاح صوت أجش عالياً من الخلف : (أنت تقبض لتعلم!)

إن كان لدى الاختصاصيين من الطبقة الوسطى الغربية شيئاً مفيداً يقولونه للناس الذين ينقصهم امتيازات هؤلاء الاختصاصيين، حينها يجب أن يقولوه بتواضع كاذب وشعور فاشل بالإثم. إن لم يفعلوا ذلك، عليهم أن يصمتوا. لا يهم من أين تأتي المعرفة. لا يهتم بذلك سوى المربين الليبراليين،

وليس المجردين من كل شيء، الذي ليس لديهم المال ليكونوا صعبين الإرضاء. المربون الليبراليون وحدهم من يهتم بذلك. تعلمت الكثير من تدريسي في كامبريدج، التي فيها أشد الرجال المحافظين من ذوي الامتيازات الخيالية الذين قابلتهم في حياتي. على أي حال، من الخطأ الاعتقاد بأن السلطات المسيطرة لا تصغي. إنها تصغي بانتباه شديد دائماً تقريباً، لكي تصقل تقنياتها في المناورة والتلاعب بالسوق.

ابراهيم فتحي:هل كان سعيد قادر في استشراقه بأن يقوم بتركيب دياليكتيكي بين فتوق فوكو وبين استمرارية اورباخ أم هل إنه رفض أي نوع من التركيب جملة؟

ايغلتون: أعتقد أنه من الهام والضروري أن نفهم بأن إدوارد سعيد لم يكن منظراً أساساً. يمكن أن نقول أنه كان أهم من ذلك. في الواقع، هو انتهى إلى عداء تام لما يسمى بالنظرية. مساره كان فعلاً من أورباخ إلى فوكو ثم عاد إلى فوكو. زميله الكبير نعوم تشومسكي أيضاً يحتقر النظرية بشكل مساوي أيضاً. إن النظرية جزئياً هي جزء من المشكلة التي تقدم لها الحل،كما لاحظ كارل كراوس في رسالة لي حول التحليل النفسي وأشار إدوارد سعيد مرة بشكل لاذع أن بعض اضرار نظرية بعد الكولنيالية غير مفهومة وعويصة.(يستطيع طبعاً أن يستاء، بسبب الهجمات الشخصية الخسيسة عليه، قلما يدهش ذلك.)

لنتكلم عقلياً كان إدوارد سعيد إنساني قديم الطراز، أجبرته ضرورات التاريخ على أنواع من العمل الفكري تحدى فيه البيئة التي تربى فيها. ربما كان يحب الاستماع إلى الأوبرا أكثر من الكتابة عن فلسطين لو توفر له ذلك. كان هدفه، ككل اليساريين، أن يصل إلى الغرض سياسياً حيث الكتابة عن الإضطهاد لا تظل ضرورية ، بعد أن يهزم. بعدها نستطيع كلنا البدء بالاستمتاع بشويان والكتابة عن الإيقونات في أعمال (دي اتش لورانس). عندما نفعل ذلك بضمير سليم يكون إشارة نجاحنا. كلما أسرعنا بالتخلص من الآراء والميول السياسية المتطرفة كلما كان الوضع أفضل. احذروا من أي راديكالي سياسي لم يدرك الحقيقة البسيطة. لكن الميول السياسية الراديكالية مثل الطبقة الاجتماعية والقومية: للتخلص منهما يجب أن تمتلكهما. هذا الاحتراس من النظرية يجعل أعمال إدوارد سعيد أكثر متعة من المنظر المولود والمعد لهذه المهنة. كالتاريخويين الجدد مثلاً. هذا يعني أنه هاجم الثقافة الغربية من موقع عال في تلك الثقافة التي لها ميل عميق لذلك ويصعب على السلطة الحاكمة بأن تمنع ذلك النوع من النقد كنقد خارجي مجرد. بالتأكيد لم يكن لديه أي صبر على ما يمكن تسميته التنظيرية. بسبب وضعه السياسي الحرج، لم يكن ممكناً له ببساطة. وبالتالي هناك إحساس بأن جمع ادوارد سعيد مع رونالد بار وهارولد بلوم أو حتى مع جيمسون، هو خطأ تصنيفي كما يدعوه الفلاسفة. إن كان قد إهتم في فوكو في بداياته فذلك لأن فوكو كان ناشطاً سياسياً مثله، ورأى بأن الأفكار براغماتية أكثر مما هي مجردة.

أنا وسعيد شهرنا سيوفنا في دورة تعليمية في لندن حين تكلم ضد النظرية وادعيت أنا بسلاسة بأن هذا هو موقف نظري. أغْفل الاهتمام بهذه القضية، حركة اعتبرتها في ذلك الوقت خطأ، لكني اشك بأنها صحيحة الآن. تضمنت على تلاعب غير شرعي بالكلمات لمصطلح (نظرية). من جانب آخر، إن هلع سعيد من النظرية له حدوده. لقد تجنب الماركسية جيداً(مثلاً) هل كان اشتراكياً حتى هذا فيه شيء ذو دلالة بأننا لا نعرف حقيقة ذلك أو أنا لا أعرف على الأقل. كل ما استطيع قوله أنه إن لم يكن كذلك، كان يجب عليه أن يكون. هناك بعد كامل من الآراء السياسية اليسارية التي تبدو قريبة منه بسبب خلفيته الثرية جداً.

اندرو روبين: ما هو أكبر إسهام لادوارد سعيد في المجال الأدبي والنقد الثقافي والنظرية، برأيك؟ لقد أثبت الناقد عبد الرحمن حسين أن النقاد تغاضوا تقريباً عن أهمية كتاب إدوارد سعيد الثاني بدايات: (النوايا والأسلوب) الذي كتبه سعيد قبل الاستشراق بسنوات، العمل الذي شهره كثيراً. هل تعتقد أن هناك وجوه تم التغاضي عنها في أعمال ادوارد سعيد أو بخست قدرها وبأية طرق ستصحح أو تبدل التلقي الراهن الذي تخضع له أعماله؟

في طرق كثيرة أرى أعمال إدوارد سعيد محاولة لا تكل ولا تلين لتوفير الظروف لشكل غير قسري وغير مهيمن من المعرفة، النقيض لأشكال المعرفة القسرية والسلطة الغربية اللتان تحداهما في استشراقه.

عمله في تقديري كامل تماماً، رغم أنه بذل كل ما وسعه فكرياً وحتى جسدياً ليكمله. كنا نعيش في عالم تستمر فيه ممارسة المعرفة والسلطة في طرق حقيقية بكلفة غير عادية على أرواح الكائنات البشرية. الآن وبعد أن رحل إدوارد سعيد إلى أين سنذهب من هنا؟ ما الذي يجب فعله؟

ايغلتون: أوافق بأن أعمال سعيد الأدبية الكاملة قد بخست قدرها في الاعتراض على أكثر كتاباته بعد الكولنيالية. تدهشني البدايات كنص إبداعي بارز دائماً لكنه مهمل على نحو غريب وكان ضحية شهرته التالية. دعني أقول ما لا أظنه واحد من إسهاماته الرئيسية: لم يكن صاحب أسلوب عظيم. كتب بشفافية ورشاقة لكن دون حاسة التمييز الاستثنائية والخيال المندفع لجيمسون أو بار أو فوكو. من اللافت للنظر هو أن عدد كبير من المنظرين هم كتاب ممتازون رغم أنهم شجبوا كمعادين للجمال لكن مساعديهم هم الذين يمنون على النظرية باسم سيء بالكتابة بهذه الوحشية. ربما بخس قدر معرفة سعيد الواسعة أيضاً. لم يكن باحثاً في المعنى التقليدي لكن معرفته كانت هائلة جداً وتغطي مجالات كثيرة جداً. وتشعر بأنه يعرف بالضبط ما الجديد والمثير في الشعر الإيراني أو الرواية الأيسلندية وتشّرب كمية ضخمة من البحث عن الصناعة البترولية. لا يوازيه في ذلك سوى جيمسون؛ فأنا لا أقترب منه حتى.

أين يتركنا رحيله؟ يتركنا محرومين جداً ومقفرين في فترة سياسية وحشية دموية نحتاج فيها إلى كل تنوير يمكننا حشده. أنا في غاية الأسف لموت سعيد. لقد فقدنا روحاً نادرة لا تأتي إلا مرة واحدة في كل جيل. لكنني لست آسفاً على أنه لم يعش ليرى بعينه عالماً يحرق فيه أطفال العراق ويحولون إلى رماد لكي يستطيع الغرب أن يحمي أرباحه. لقد تحرر من تلك الفواحش. ما الذي يجب فعله؟ حسناً، ماذا فعل سعيد حين عرف أنه مريض نهائياً؟ استمر في القتال. لأنه حتى لو اندحر اليسار في النهاية، ولم تبدو آمال العدالة الكونية براقة في الحاضر، لا يزال لدينا العزاء بأننا قمنا بما هو صحيح رغم كل شيء. إن استطعت أن تحدق بوجه الموت وواصلت العمل باسم الحياة، فأنك فزت لنفسك بحرية قصوى. حينها أنت فعلاً لا تقهر. هذا ما فعله إدوارد سعيد.

فتحي: في بدايات ادوارد سعيد (1975) كتب:

من المهم أن تكون الرغبة في خلق عالم بديل، تخفيف أو زيادة العالم الحقيقي من خلال عمل الكتابة (أحد الدوافع الكامنة وراء العرف الروائي في الغرب) عدائية لفكرة العالم الإسلامية. النبي هو الذي أكمل نظرة عالمية؛ لهذا كلمة بدعة في اللغة العربية مرادف لفعل (يبتدع) أو (يخترع). أفكار الإسلام عن العالم كحيز ممتلئ عاجز عن النقصان أو التضخم.(81)

من المحير أن نجد أصداء الاختزالية التبسيطية للمستشرقين التي طبقها سعيد على أشكال سردية من الأدب العربي غنية ومعقدة وبعيدة عن التجانس. هل تعتبر هذا تنازل كبير من جانب سعيد لأفكار قضى جل حياته في دحضها؟

ايغلتون: أنا دهشت أيضاً من هذه الحجة، وأنا مهتم في إدعاء إبراهيم فتحي بأنها تبسيطية. على أي حال، الابتكار ليس كل شيء. تجديد الأشياء له تاريخ طويل. الرواد ظاهرة موغلة في القدم. يوربيديس يضرب للآن. التاريخ سلسلة من الابتكارات التي أصبحت عتيقة و بالية ولا أحد يقّدر الابتكار أكثر من رجال نفط تكساس. بالتباين مع قلق (ولتر بنجامين) حول الكمون الثوري للعرف. فقط الرواد والأمريكيين من ارتكب الخطأ الغبي في الاعتقاد بأن الأصالة يجب أن تثمن دائماً. الفاشية إحدى ابتكارات القرن العشرين السياسية الكبيرة. وما الذي يجب أن يكون أصيلاً فيها؟ إن إدعى أحد المحاضرين أن جزازة العشب أحد اختراعات القرن العشرين، سيظل أحد هناك دائماً في الجزء الخلفي من القاعة يصر أنهم اكتشفوها في احد المواقع السلتية المطمورة.

مصطفى: انتقد إدوارد سعيد أعمال (جوزيف كونراد) عن الإمبراطورية، بينما كان يسدد هجومه الدقيق على التناقض المجسد في قصصه، خصوصاً حين أشار إلى قلب الظلام ونوسترومو. في مقدمته كتابه (الثقافة والامبريالية) كتب سعيد:

.... كان كونراد إمبريالياً ومعادياً للإمبريالية بنفس الوقت، تقدمياً حين يتعلق الأمر بتصوير فساد تأكيد الذات وخداعها في الهيمنة الخارجية بشكل شجاع وتشاؤمي، ورجعياً بعمق حين يتعلق الأمر بتسليمه بأن أفريقيا أو أمريكا الجنوبية لا يمكن أن يكون لهما تاريخ مستقل أو ثقافة أبداً، وهذا ما يزعج الامبرياليين بعنف لكنهم هزموا بواسطتهما أخيرا. (20)

(سؤال) في سياق تطور الرواية الانكليزية في بداية القرن العشرين، وعلى ضوء كتابك الجديد الرواية الانكليزية. مقدمة، كيف ترى تفسير سعيد لهذا التناقض عند كونراد؟

ايغلتون: فكرة سعيد الديالكتيكية عن كونراد تبدو لي أرفع بكثير من هؤلاء الذين يمجدون سعيد كمنظر قبل-بعد كولنيالي أو ينبذوه نهائياً كعنصري وامبريالي. قلب الظلام (نص بولغ في عناصره الجمالية، لكن أنا الوحيد لي رأي في هذا الموضوع) الذي أعلن: انظروا إن الغربيين بهائم متوحشون كالأفارقة. هل هذا موقف معادي للامبريالية؟ يقول (أي ام فورستر) في رحلة بحرية إلى الهند: انظر إلى الهند هي هذه الفوضى الممتدة الواسعة المستحيلة لذلك خطط الغرب الضيقة الأفق لإخضاعها سخافة. هل هذا معاد أم مؤيد للامبريالية؟

تكمن الازدواجيات الحقيقية لكونراد، كما تبدو لي في قضايا الشكل أكثر من المحتوى السياسي المجرد. سمع بالظلام مثلا، نص سريالي حديث وحكاية بحرية تقليدية. سأقول للذين يستخرجون ببساطة المواقف السياسية من الأعمال الأدبية: ابحثوا عن سياسة الشكل. فهو الشيء الذي يحدث كل شيء فيه، وليس فيما يقوله المؤلف أو العمل. لا تحدقوا بالعلامات اللغوية فقط. لا تتحدث عن الأنماط الجنسية والأثنية بينما تتجاهل بتعجرف النغمة ودرجة النغمة والسرعة والنسيج والنحو والخطاب والإيقاع والاتساق وبينية السرد. لهذا كما ترى أنا منتج قديم الطراز لكامبريدج مثلما كان ادوارد سعيد منتج قديم لكولومبيا. لكن كما قال تروتسكي نحن الماركسيون نعيش دائماً في العرف.

رنا الهاروني: تعرف جين اوستن (الذات الانكليزية المثالية)، النفس التي تتباهى بنفسها ل(احتشامها) و(أخلاقيتها)، لذا فإن الاعتراض على (جين أوستن) هو اعتراض على الفكرة الانكليزية عن(الفردية)و(الشرعية الأخلاقية). لكن إدوارد سعيد فعل هذا بالضبط في مقاله الأدبي (جين اوستن والإمبراطورية) أثبت سعيد أن المز القومي، أوستن تنتمي إلى العقيدة الأدبية التي استغلتها الإمبراطورية لإضفاء كل الفضائل الفعلية التي عزاها الأدب الانكليزي للأمة على مشروعها الاستعماري. علاوة على ذلك، حاول أن يثبت أن نزعة الباحثين الأرثوذكس/ المحافظين لتجريد روح أوستن وتجاوز القيم الأخلاقية والإطار الجمالي الذي تعتنقه اوستن من أي مصادفة سياقية هو جزء من محاولة تاريخية أكبر (ميكافيلية) لفصل الأدب الانكليزي عن السياسة. لكن سعيد طوّر هذا الإطار الفكري المؤّسّسْ على نظرة تقليدية محافظة أو (الأسطورة) لمؤلف سلبي متحرر من المحيط العام وبالتالي مفرغ من سياقه. أفضى هذا إلى مقدار من نقد مضاد متطرف، غالبه من النقاد المناديين بمساواة المرأة والرجل والتاريخيويين. الممتع في هذا النقد رغم أنه يترك مبدأ سعيد المحوري سالماً تقريباً، تناقضه المركزي لاوستن الإنسانة الذي يقبل بمظالم الامبريالية المقلمة رغم ذلك.إعادة قراءة جين اوستن في سياقها يكشف عن رأي سعيد بأن (مانسفيلد بارك) يجب أن ترى في غالبها كمقاومة أو متفادية لتلك البيئة التي لا تستطيع شموليتها الرسمية إخفاء الأمانة التاريخية وإيحاءها التنبؤي تماماً.

(سؤال) يركز سعيد في خطابه فضح مواقف الصمت في مانسفيدلد بارك. ما هي برأيك، تلك المواقف في أعماله التي وفرت الغذاء للنقد المضاد؟ هل من العدل الجدل بأن سعيد، في فشله بوضع جين اوستن ضمن بيئتها الاجتماعية والثقافية والسياسية لعصرها، مُدَانٌ بعرض أجندته البعدكولنيالية بالقوة على عملها: مدان، في الحقيقة، بالتجريد، إثم الإمبراطورية؛ تحويل جين(هم) إلى جين(ه)؟

ايغلتون: رغم أنني نفسي سوقت تلك المقالة كجزء من مجلد مقالات ولاء لريموند ويليامز لكن كانت تساورني الشكوك دائماً عن المبالغة في الموضوع الإمبريالي في أعمال اوستن. كما أنني مقتنع أيضاً أن الثقافة والامبريالية، المجلد الذي انتهت به المقالة، تثبت ادعاءها حول مركزية الامبريالية في أدب القرن التاسع عشر الانكليزي. بالطبع يجب على المرء أن يؤرخ اوستن وأنا حاولت عمل هذا بطريقة مختصرة مشاكسة في كتابي الأخير (الرواية الانكليزية. مقدمة). اوستن في الحقيقة محافظة، جاهدت لدعوة الطبقة الارستقراطية الانكليزية إلى نظام تقليدي من القيم لتوحيد سلطتها في لحظة كانت تواجه فيها تهديد تغييرات جذرية في الريف الانكليزي. تهددها بورجوازية فاسقة متعجرفة يبدو أنها نبذت تقليد المسؤولية الأخلاقية برمته والاهتمام الأبوي بالطبقات الدنيا في أنانيتها التملكية وهشاشتها الأخلاقية.

ما يعجبني في اوستن (من بين مئات الصفات الجديرة بالثناء الأخرى) أن مفهومها للأخلاق تقليدي أكثر مما هو حديث. إنها تنظر إليها كما فعل أرسطو واكوينا وماركس، مسألة سلوك عام وليست كضوء روحي وعواطف داخلية، ما تعتبره شعورا هو ما تجده مغرياً جمالياً وبالمثل. اوستن كواقعية أخلاقية واقعية جداً في تفكيرها في ثقافة فاسدة بشكل متزايد. هي ليست ليبرالية رغم أن أكثر النقاد الإنكليز حاولوا أن يجعلوها كذلك. (لقد حاولوا مع جويس وأي كاتب آخر تذكره). أعتقد أن مقالة سعيد الممتازة، في تركيزها على المسألة الكولنيالية بشدة، فقدت كثير من هذه المسائل في تحيزها الصارم. ما هي تلك السكوتات في عمله؟ حسناً، بداية لم يقل شيئاً البتة عن (سالفورد) البلدة الصغيرة التي ولدت فيها. وضعتها فيها بهذه الطريقة الساخرة لأنه بالطبع عمل كل كاتب مليء بملايين السكوتات. لا يستطيع أحد القول أي شيء فوراً- لماذا من الغباء إتهام مَنْ يكتب عن النساء في إنكلترا الفيكتورية مثلاً بأنهن لم يتكلمن عن الطبقة الاجتماعية أو البيئة أو دعم الصحة أو القسوة اتجاه الحمير أيضاً. بعض السكوتات والتناسي ملحوظ، لكن بعضها عرضي. لقد اخترت أحد مواقف السكوت البليغة في عمل سعيد آنفاً: الاشتراكية. أو إن أحببت، اليسار التقليدي في السياسة عموماً. ومثال آخر يمكن أن يكون اللاهوت، الذي أربك اليسار الغربي كله بشكل مرعب، رغم أن الدين هو رمز شعبي هائل أنجح بكثير مقارنة بكل ما شهده التاريخ. إلى أي مدى استطاع علماني مثل سعيد أن يعالج قضايا ثقافة المستشرقين دون المجازفة في هذا البحر؟

روبين: لقد عبر إدوارد سعيد كثيراً في كتاباته ومحاضراته ومقابلاته عن التزامه بالشك وحتى تقويض التقليد في الأدب الغربي بتأكيده على علاقة الثقافات المتشابكة والمعتمدة على بعضها. بالنسبة لسعيد، الثقافة ليست متراصة وليست متجانسة. ليست كلية ولا فردية وإنما نتاج المهيمن أحياناً ولكنها علاقة متغيرة دائماً بين الثقافات. الثقافة دائماً سياسة بالنسبة لسعيد. في كتابك فكرة الثقافة، الذي كرسته لادوارد سعيد، لقد قدمت وصفاً لمكافئات متنوعة لمفهوم الثقافة بدراسة أعمال البارزين مثل (ماثيو ارنولد) و(تي اس ايليوت) و(ريموند وليامز) و(ادوارد سعيد) وغيرهم. هل تعتقد أن في أعمال سعيد أي اختلاف أساسي بين الثقافة كسياسة، هذا من جانب، والجمالي من الجانب الأخر؟ أو بعبارة أخرى، كيف أن سعيد من خلال كتاباته يعتبر الأعمال الأدبية (لجين اوستن) و(هنري جيمس) و(روديار كيبلينغ)و(جوزيف كونراد) و(تي اس ايليوت) و(توماس مان) وغيرهم التي هي أعمال فنية عظيمة ومآثر جمالية- كيف يفسرها كما لو كانت أعمال ثقافية وسياسية أيضاً، وبنفس الوقت لأسباب تلقائية تماما كأعمال فنية عظيمة؟ ما هو الاختلاف برأيك بين وظيفة الجمالي ووظيفة الثقافة في أعمال سعيد الكثيرة؟

ايغلتون: لا أعرف إن كان سعيد يعتقد بأن الثقافة والسياسة هما نفس الشيء، ولا أعتقد بهذا. الثقافة تعني طريقة مميزة في العيش؛ رغم أن كل أساليب الحياة تعرقل بشكل ماكر بواسطة السلطة (التي سأحددها الآن بعلم السياسة) لكنها برأي لا تعزى لها. إن استخدام الموسعون لكلمة سياسية على يسار (كل شيء سياسي!)- يهدد بإفراغ المصطلح من معناه ويحرمه من التقدم مثل أي مط لفظي زائد. الثقافة والسياسة تحتلان حيزين مختلفين: الثقافة وضع طويل والسياسة نوع من توافق أحداث وظروف.